المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المعهد العالي للدعوة الإسلامية

كلية الدعوة والإعلام
وكالة الكلية للدراسات العليا والبحث العلمي
قاعة الرسائل العلمية
نسخة
لاتعار

الدعوة في عهدها المكي

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص
(الماجستير)
في الدعوة الإسلامية

إعداد
سمدوح عبد العزيز الهياتي

بإشراف
الدكتور محمد صالح يحي الدين
الأستاذ المشارك بالمعهد

١٤٠٢/١٤٠٣هـ
١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست الموضوعات

فهـــرس الموضوعـــات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
مقدمة البحث	ح - ش
تمهيـــــد : حالة البشرية قبل الاسلام	١
أ - بلاد فـــارس	٢
ب - بلاد الهنـــد	٤
جـ - بلاد الـــروم	٥
د - بلاد العـــرب	٦

البـــــاب الأول

مقدمات الدعوة ، ومراحلها ، وخصائصهـــا

الفصل الأول : مقدمات الدعوة	١٠
المبحث الأول : مطلع النـــور	١١
أ - قران مبـــارك	١١
ب - مولد الهـــدى	١٢
جـ - محمد فى صباه	١٤
د - محمد وحرب الفجار	١٧
هـ - شهوده حلف الفضول	١٨
و - أثر خديجة فى حياة الـــزوج الرســـول	١٩

الموضـــوع	رقم الصفحـة
المبحث الثانى : وحى السمـاء	٢٤
أ - مقدمات الوحـــى	٢٤
ب - بين يدى زوجه خديجه	٢٦
جـ - حصافة خديجه فى معرفة الملك .	٢٨
د - فتور الوحى	٢٩
هـ - مراتب الوحى وحالاته	٣٢
و - معاناة الرسول عند نزول الوحى .	٤٢
الفصل الثانى : مراحل الدعوة	٤٤
أ - الدعوة السريـة	٤٥
ب - التبليغ الى الاقارب	٥٦
جـ - التبليغ الى العرب	٥٩
د - التبليغ للناس كافـة	٦٥
الفصل الثالث : خصائص الدعوة	٧٠
المبحث الأول : التعريف بالدعوة	٧١
المبحث الثانى : وجوب تبليغ الدعوة	٧٥
المبحث الثالث : بعض خصائص الدعوة	٨٠
أ - الشمول والحيوية	٨٠
ب - العالمية	٩٠
جـ - الأصالـة	١٠٤
د - الاعجاز والتمام والخلود .	١١٧

الموضـــــوع	رقم الصفحـة

الباب الثانـــي

منهج الدعوة ، ومقومات الداعيـــــة

الفصل الأول : قضايا الدعوة ١٢٤

المبحث الأول : نشر العقيدة الصحيحة.... ١٢٥

١ - الايمان بوجود الله .. ١٢٥

٢ - الايمان بوحدانية الله. ١٢٩

٣ - الايمان بالملائكة والكتب والرسل ١٣٢

٤ - الايمان باليوم الآخر .. ١٣٤

المبحث الثاني : الحضّ على العمل الصالح .. ١٤٠

المبحث الثالث : الحث على مكارم الأخلاق ... ١٤٣

المبحث الرابع : اثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم ١٤٧

١ - أهمية الرسل ١٤٧

٢ - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا .. ١٤٩

الفصل الثاني : أساليب الدعوة ١٥٣

المبحث الأول : الحكمة ١٥٤

١ - صيغة البرهان..... ١٥٦

الموضـــــــوع	رقم الصفحـة
٢ - صيغة التلميح والتدرج .	١٦٠
٣ - صيغة المَثَل	١٦٥
المبحث الثاني : الموعظة الحسنة	١٧٢
١ - الترغيب والترهيب . . .	١٧٣
٢ - القَصَص	١٧٧
٣ - القَسَم	١٨٤
المبحث الثالث: المجادلة بالتى هى أحسن .	١٩٤
١ - اثبات الحقيقة الدينية .	١٩٨
٢ - اثبات الحقيقة العلمية .	٢٠٣
٣ - صيغة التجربة التاريخية .	٢٠٩
٤ - اثارة الوجدان الفطرى .	٢١٢
الفصل الثالث : وسائل الدعوة	٢١٦
المبحث الأول : المناقشـــة	٢١٧
المبحث الثاني : النـــــدوة	٢٢١
المبحث الثالث: المناظـــرة	٢٢٥
المبحث الخامس: الرسل والرسائل	٢٣٣
المبحث السادس: المؤتمرات الدورية	٢٣٥
المبحث السابع : المقابلـــة	٢٣٩

الموضـــــوع	رقم الصفحـــة
الفصل الرابـع : صفات الداعية ، وعوامل نجاحه	٢٤٢
المبحث الأول : ايمان الداعية	٢٤٣
المبحث الثاني : ثقـة الداعيـة	٢٤٧
أ ـ ثقته فى نفسه	٢٤٧
ب ـ ثقة المجتمع فى الداعية .	٢٥١
المبحث الثالث : السلوك المطابق لمبادى الدعوة .	٢٥٧
المبحث الرابع : مقدرته على استقطاب المجتمـع للدعوة	٢٦٣
المبحث الخامس : الصبر وتحمل المشاق	٢٦٩
المبحث السادس : اعداد قادة الدعوة	٢٧٤
البـــاب الثالـــث	
أعوان الدعوة ومعارضوهـــــــــا	
الفصل الأول : السابقون الأولون	٢٨٨
الفصل الثانى : أبو طالب والدعوة	٣٣١
المبحث الأول : محمد فى كفالة عمه أبى طالب .	٣٣٢
المبحث الثاني : موقف أبى طالب من الدعوة باكرا.	٣٣٦
المبحث الثالث : أبو طالب وقريش	٣٣٨
المبحث الرابع : أبو طالب والمقاطعة	٣٤٨

الموضـــــوع	رقم الصفحـة
الفصل الثالث : القوى المضادة	٣٥٦
المبحث الأول : موقف قريش من الدعوة . . .	٣٥٧
أ ـ جحود لا تكذيب	٣٥٧
١ ـ الاستعلاء والتكبر . . .	٣٥٩
٢ ـ جبرية العادات والتقاليد .	٣٦٢
٣ ـ خطأ المعايير	٣٦٥
٤ ـ الحرص على الجاه والسلطان	٣٦٧
٥ ـ الحسد	٣٦٨
٦ ـ الخوف على آبائهم في الآخرة	٣٦٩
٨ ـ الفزع من البعث والحساب.	٣٧١
ب ـ حصار ظالم	٣٧٦
جـ ـ عام الحزن . وتحفز الخصوم .	٣٨٣
المبحث الثاني : موقف ثقيف من الدعوة ، والرد الالهي على الخصوم	٣٨٨
أ ـ محاولة نقل ميدان الدعوة الى الطائف	٣٨٨
ب ـ معجزة الاسراء والمعراج ودلالاتها	٣٩٩

الموضـــــوع	رقم الصفحـــة
الفصل الرابع : طلائـع النصـر	٤٠٩
المبحث الأول : عرض الدعوة على القبائل . ..	٤١٠
المبحث الثاني : بشائر نصر الله	٤٢٣
أ ـ مقدمات النصر	٤٢٣
ب ـ أثر جوار اليهود فـــى اسلام الأوس والخزرج . .	٤٢٧
جـ ـ بدء اسلام الأنصار . . .	٤٣٠
د ـ بيعة العقبة الأولى . . .	٤٣٢
هـ ـ أثر مصعب بن عمير فـــى يثرب	٤٣٥
و ـ البيعة الكبرى	٤٤٠
الفصل الخامس : الهجرة الكبرى ، وأهميتها فى مسيرة الدعوة .	٤٥٨
المبحث الأول : مقدمات الهجرة	٤٥٩
المبحث الثاني : هجرة الطلائع	٤٦٢
المبحث الثالث : هجرة رسول الله وصاحبه . . .	٤٧٠
المبحث الرابع : صاحب الدعوة صلى الله عليـــة وسلم فى المدينة	٤٨٩
المبحث الخامس : دلالات الهجرة الكبرى	٤٩٤
خاتمـــــة : نتائج الدراســـة :	٥٠١
ثبت المراجع والمصادر :	٥٠٩

مقدمة

مقدمة عامة

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم :

" الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوجا . قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً حسنا . " (١)

احمده ، سبحانه وتعالى ، واستغفره ، واعوذ به من شرور انفسنا وسيئات اعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . واشهد ان لا اله الا الله ، وحده لاشريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، خاتم الانبياء ، وامام المرسلين ، البشير النذير ، الداعي الى الله باذنه السراج المنير . واصلي واسلم عليه ، وعلى اله واصحابه ، الدعاة الاولين ، الهداة المهتدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

١ ـ اهمية الموضوع ، وسبب اختياره :

ان الدعوة الى الله تعالى ـ كما لايخفى ـ هي سبيل النبيين والصديقين ، وطريق المجاهدين والصالحين ، يخرجون بها البشرية من دنس الجاهلية ومعاييها ، الى طهارة الايمان ، ونقاء التوحيد .

والدعوة : فريضة شرعية ، فرضها الله تعالى على امة الاسلام ، خير امة اخرجت للناس .

---

(١) سورة الكهف : الآيات : ١ ـ ٢ .

قال تعالى في محكم تنزيله :

" ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون . " (١)

قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الداعية الاول في الاسلام خير قيام ، فبلغ الرسالة ، وادى الامانة ، على اتم وجه ، واكمل صورة ، وتحمل في سبيل ذلك من الاذى والاضطهاد ، ماجعله اسوة حسنة للدعاة المخلصين ، وقدوة صالحة للهداة الموحدين ؛ تضيء سيرته لهم طريق الدعوة ، وتهديهم سواء السبيل .

وما أحوج المسلمون اليوم الى التأسّي برسولهم الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، والسير على دربه القويم في الدعوة الى الله تعالى ، باتباع منهجه الرباني ، واسلوبه الالهي ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولا يخفى على كل مسلم مايتعرض له الاسلام اليوم ، من تيارات علمانية عاتية ، ومذاهب الحادية هدامة ، وفلسفات اباحية مدمرة ، وحركات صهيونية خبيثة ، تهدف جميعها الى النَّيْل من صرحه المتين ، والتشكيك في عقائده ، وزعزعة الثقة في اركانه .

ولا سبيل الى المسلمين في مواجهة هذه التيارات ، الا التمسك بحبل الله المتين ، واتباع سُنَّة نبيه الامين ، والدعوة

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٤ .

اليه تعالى ؛ كل على قدر طاقته ، والى مستوى علمه ومدى تحصيله واستيعابه .

وما اشبه الليلة بالبارحة ؛ ما اشبه ما ال اليه حال العالم اليوم ، من الوثنية والفساد والانحلال ، — بحاله عند بزوغ فجر الاسلام .

ما اشبه جاهلية القرن العشرين ، بجاهلية ماقبل البعثة المحمدية الخاتمة .

والدعوة الى الله تعالى ، هي المُنقذ ، وهي المُوقظ ، وهي الوسيلة الشرعية ، التي تجعل المسلمين من جديد : "خير امة اخرجت للناس" ، كما جعلت اسلافهم كذلك منذ اربعة عشر قرناً من الزمان ، حيث سجل المسلمون اعظم حضارة في التاريخ ، قامت على التوحيد ، والفضيلة ، والحرية .

ان تشريع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو لازم من لوازم الايمان ، وركيزة حماية الاسلام ، لم يظفر بالعناية الواجبة من المسلمين وكُتّابهم ، كما ظفرت فروع الدين الاخرى .

لذلك ، واسهاماً مني في عمل يخدم هذا الاتجاه ، فقد اخترت موضوع : الدعوة في عهدها المكي ، ليكون مادة لبحثي ، اتجول في محيطه الرحب ، واشم عبير اجوائه الطاهرة ؛ انظر في جنباته ، واتأمل جزئياته ، حريصاً على ان اقدم — شيئا يفيد الدعاة المخلصين ، ويكون في خدمتهم ، معيناً لهم على

القيـــام بواجـبهم الصعب المقدس، فكانت هذه الرسالة المتواضعـة .

ب ـ نطـــاق المـــوضوع، واهم مشـــاكله :

وأقصـد بالعهد المكي ، الذى تناوله البحث ، المدة الزمنية المنحصرة بيـن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهجرته الميمونة الى يثرب .

إلا أن مقتضيات التعريف بالداعية الاول صلى الله عليه وسلم ، اضطرتني الى ان اقـدم فصلا موجزاً ، اشتمل على المدة الزمنية التي سبقت هذا العهد المكي ، منذ زواج .. عبد الله بن عبد المطلب ، من آمنة بنت وهب ، ذلك القران الذى اثمر خير البشـر ، وامام المرسلين ، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

وحيث ان عمدتي الاساسية ، في هذه الرسالة ، كان القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، فقد ساقني البحث الى الاستشهاد ببعض الآيات المدنية ، والاحاديث النبوية التي وردت بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وان كان ذلك قـد تمّ في نطاق ضيق ، حتى لااخرج بالبحث عن حدوده ، الا انني لم اجد حرجاً في ذلـك ، فالقرآن الحكيم يفسّـر بعضُه بعضاً ، وماجاء في سورة مجملا ، جاء في اخرى مفصلا ، فهو يتم بعضه بعضا ، ويكمل بعضه بعضا .

جـ ـ تقـــويم أهم مراجـــع البحث ومصادره :

ولقد اعتمدت في بحثي ـ في المقام الاول ـ على المصدرين الرئيســـــين للاسـلام بجميع فروعـه ، وهما : القرآن الكريم ، والاحاديث النبوية الشريفة في كتـب الصحاح ، وفي مقدمتها : صحيحي الامامين الجليلين ، البخارى ومسلم ، ثم عـــلى مراجع السيرة الأولية ، ومن أهمها : سـيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لابن هشـام المأخوذة اصلاً عن ابن اسحق ، وقد اعتمدت عليها اعتماداً رئيساً في سيرة الداعيـة الاول عليه الصلاة والسلام ، لِقِدَمِها وشمولها ، وحسن تبويبها ؛ ثم : الطبقات الكبرى،

لابن سعد ، ودلائل النبوة ، للبيهقي ، والخصائص الكبرى ، للسيوطي ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الاثير ، وغيرها من كتب السيرة المعتمدة .

أما : شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ، فهو ـ وان لم يبلغ أصالة المراجع السابقة في القِدَم ـ الا ان شروحه الغزيرة ، المتنوعة الجوانب افادتني .

وفيما يختص بصحابة رسول الله صلى الله عليهم وسلم اجمعين ، فقد اعتمدت ايضا على اقدم الكتب المتخصصة ، واهمها : الاستيعاب في اسماء الاصحاب ، لابن عبد البر ، واسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الاثير ، والاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، والرياض النضرة في مناقب العشرة ، للمحب الطبري .

وفيما عدا الاحاديث والاخبار والوقائع التاريخية ، فقد استعنت في بحثي ببعض الكتب الحديثة مما يفيد البحث ، ويحقق هدفه ، ومن اهم هذه الكتب :

في السيرة : حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل ، ودراسات في السيرة لعماد الدين خليل ، والرسول صلى الله عليه وسلم ـ لسعيد حوى ، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لمحمد عزة دروزة ، وصور من حياة الرسول ـ لأمين دويدار ، والمصطفى في عصر المبعث ـ لبنت الشاطئ .

وفي التراجم : حياة الصحابة ـ للكاندهلوى .

وفي الدعوة : الدعوة الى الله تعالى ، لابو المجد نوفل ، والدعوة الاسلامية في عهدها المكي ـ مناهجها وغاياتها ـ لرؤوف شلبي ، والدعوة الاسلامية دعوة عالمية لمحمد الراوي ، وعالمية الدعوة الاسلامية ـ لعلي عبد الحليم محمود ، والدعوة الاسلامية دعوة عالمية ـ لعطية صقر ، ومحمد والقوى المضادة ـ لمحمد احمد خلف الله ، ومنهج القرآن في تربية المجتمع ـ لعبد الفتاح عاشور ، والدعوة الاسلامية : اصولها ووسائلها ـ لأحمد غلوش .

وغير ذلك من الكتب الأخرى التي افادت البحث ، وورد ذكرها في الحاشية .

د — مكانة هذه الدراسة من الدراسات السابقة في الموضوع :

كانت هناك مجهودات ضخمة ، في حقل الدعوة الى الله تعالى ، قام بها فريق كبير من الائمة ، والقاة ، والمفكرين المسلمين ، حملوا مشاعل الهداية للعالم كله — على مر العصور — بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الكرام الاوفياء ، رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ، ودعوا الى الله تعالى بالقرآن المجيد والتفسير ، والحديث الشريف ، والفقه ، والتآليف الاسلامية المختلفة ، والاعمال الجليلة ، في خدمة الاسلام والمسلمين . وهو عمل مشكور ، أوضح كثيرا من جوانب الدين ، ورد على الشبهات التي وجهت إليه ، وهَدَى الكثيرَ الى نور الاسلام .

لكن الدعوة الى الله تعالى ، عند هؤلاء الأئمة والدعاة ، لم يكن تناولها كعلم محدد ، مستقل بذاته عن سائر العلوم الدينية الاخرى : علم له تاريخه ، وموضوعاته وخصائصه ، ومقوماته وأساليبه ، توجه اليه الدراسات التحليلية ، والوضعية والمقارنة ، بحيث تتلاءم مع وظيفته الخطيرة ، في ميدان النهوض بالمسلمين ، وبالبشرية جمعاء .

ولقد كتب في موضوع الدعوة الاسلامية ، كثيرون قبلي ، تناول كل منهم هذا الموضوع المهم من زاوية خاصة ، تخدم غرضه ، وتؤيد اتجاهه ، منهم اساتذة علماء ، استعنت ببحوثهم القيمة في كثير من مراحل إعداد هذه الرسالة ، واستفدت كثيراً بمنهجهم في الوصف والتحليل والاستنباط ، غير اني بذلت مجهودا غير قليل في سبيل جمع شتات هذا البحث المتناثرة بين صفحات مختلف الكتب والبحوث ، ومن ثم تحقيقها ، ثم تنسيقها بين مختلف أبواب البحث وفصوله ، بحيث يجتمع للداعية في مكان واحد ، جل مايهمه من أمر الدعوة في هذا العهد المكّي .

هـ ـ منهج البحث :

قسمت الرسالة الى ثلاثة ابواب ، يسبقهم تمهيد ، وتختمهم خاتمة : ـ

ففي التمهيد : اوضحت باختصار شديد نماذج من حال العالم ، بصفة عامة والعرب بصفة خاصة ، من النواحي الاجتماعية ، والعقدية ، الامر الذى تدخلت بشانه العناية الالهية الرحيمة ، فارسل الله تعالى الى البشرية ، خاتم انبيائه ورسله ليُنقذها مما تردت فيه من الضياع والانحطاط .

اما الباب الاول : ـ مقدمات الدعوة ، ومراحلها ، وخصائصها ؛ فقد قسمته الى اربعة فصول ؛ الفصل الاول : مقدمات الدعوة ؛ وقد قسمته الى مبحثين : المبحث الاول : مطلع النور ؛ اوضحت فيه بايجاز نبذة عن سيرة سيد المرسلين ، حامل لواء الدعوة ، من قبل مولده ، صلى الله عليه وسلم ، وحتى زواجه بأم المؤمنين : خديجة ، رضي الله تعالى عنها .

وفي المبحث الثاني : وحي السماء ؛ تحدثت عن مقدمات النبوة من ارهاصات ، وخلوة وتفكير وتأمل ، حتى اذا ابتدأ نزول جبريل عليه السلام ، بالوحي ، تكلمت عن مراتبه ، وحالاته ، ومعاناة الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزوله .

وفي الفصل الثاني : مراحل الدعوة ؛ تكلمت عن المراحل الاربعة ، التي شملتها دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي : المرحلة السرية ، التى تبعتها مراحل : التبليغ الى الأقارب ، ثم الى العرب ، ثم الى الناس كافة .

وفي الفصل الثالث: خصائص دعوة الحق ؛ تناولت بشيء من التفصيل : تعريف الدعوة لغة واصطلاحا ، ثم تحدثت عن حكم تبليغ الدعة في شريعة الاسلام ، وبعدها انتقلت الى ايضاح اهم ماتميزت به : دعوة الحق ، من خصائص ، جعلت منها : الدعوة الخالدة الخاتمة ، التى تصلح للبشرية جمعاء ، في كل زمان ومكان ، على وجه البسيطة ، وهي : الشمول والحيوية ، العالمية ، الاصالة ، الاعجاز والكمال والخلود .

اما الباب الثاني : — منهج الدعوة ، ومقومات الداعية ، فقد قسمته الى اربعة فصول:

الفصل الاول : قضايا الدعوة ، تحدثت فيه عما عالجه الرسول صلى الله عليه وسلم من أهم هذه القضايا ، بوحي من الله تعالى ، بقرآنه المجيد ، وأهمها : تصحيح العقائد الجاهلية السائدة قبل البعثة ، واستبدالها بعقيدة التوحيد ، ومفهوم الايمان . وماينبغي ان تكون عليه البشرية في سلوكها ، ومعاملاتها ، بعضها البعض، من قيم اخلاقية رفيعة ، حاول الرسول الامين صلى الله عليه وسلم ، بثها ، وتثبيت دعائمها ، في المجتمع المكي .

والفصل الثاني : اساليب الدعوة ، تحدثت فيه عن اهم الاساليب التي اتبعها الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، في هذا العهد ، لنشر دعوة الحق ، ملتزما فيها بما امره الله تعالى ، في قوله عز من قائل :

" ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ." (١)

وأوضحت بعض الاساليب التي تندرج تحت كلٍ من هذه الاسس الثلاثة ، مستشهداً بالآيات القرآنية الحكيمة ، التي ترسم لنا سبيل الدعوة الى الله تعالى ، وتضيء الطريق امام الدعاة .

والفصل الثالث : وسائل الدعوة ، تناولت فيه اهم الوسائل التي اتبعها الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، بحكمة ، وذكاء ، وفطنة ، حيث تمثلت تلك الوسائل في : المناقشة ، الندوة ، المناظرة ، الهجرة ، الرسل والرسائل ، المؤتمرات الدورية ، واهمها : الحج والاسواق ، ثم المقابلة .

اما الفصل الرابع : صفات الداعية ، وعوامل نجاحه ، قسمته الى ست مباحث ، تحدثت فيها عما كان يتحلى به الرسول الداعية صلي الله عليه وسلم ، من مقومات اصيلة ،

---

(١) سورة النحل : (١٢٥) .

وصفات نورانية مثالية ، ادت الى انتشار دعوته ، ونجاحها في هذا العهد ، بالرغم مما واجهته من صدود واعتراض، الامر الذى ينبغي ان يكون مناراً ونبراساً ، يهتدى بهديه كل داعية مخلص امين ، ينشد النجاح في اداء رسالته الدعوية المقدسة .

اما الباب الثالث ، والاخير : اعوان الدعوة ومعارضوها ، فقد قسمته الى خمسة فصول :

الفصل الاول : السابقون الاولون ، تحدثت فيه بايجاز عن مجموعة مباركة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان لهم اثر محمود في مساندته لنشر الدعوة في هذا العهد . وأنوّه الى انني لم اذكر هذه النخبة الطيبة الطاهرة على سبيل الحصر ، وانما على سبيل المثال ، لضيق المقام عن استيعاب كل الاصحاب ، من السابقين الاولين فحاشى لله ان يتقاعس أحدٌ من هولاء الأعلام الأخيار الأبرار ، عن خدمة الدعوة ، وتلبية اوامر الرسول الداعية ، رضوان الله تعالى ورحمته وبركاته عليهم اجمعين .

وفي الفصل الثاني : ابو طالب والدعوة ، تكلمت عن عم الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان له اثر فريد من نوعه في خدمة الدعوة ، ونصرة المسلمين الاولين ، على الرغم من بقائه على شركه ، ووفاته بين يدى ابن اخيه صلى الله عليه وسلم ، دون ان ينطق بالشهادتين .

اما الفصل الثالث : القوى المضادة ، فقد قسمته الى مبحثين :

المبحث الاول : موقف قريش من الدعوة ، تحدثت فيه عن الاذى والاضطهاد ، الذى حاق بالرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، واصحابه الغر الميامين رضي الله تعالى عنهم اجمعين ، في هذا العهد الباكر من الدعوة ، على ايدى مشركي قريش وكفارها ، فلم يزدهم ذلك الا صبرا وعزما وثباتا .

والمبحث الثاني : موقف ثقيف من الدعوة ، والرد الالهي على الخصوم ، تكلمت فيه عن

الرحلة الشاقة التي قام بها الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، منفرداً ، الى الطائف متوجهاً الى ثقيف ، أملاً في ايمانهم وتصديقهم للحق ، فلم يجدهم احسن حالا من قريش وعاد الى مكة يواصل دعوته الى الله تعالى ، بقوة وارادة واصرار ، واثقا من تأييد الله تعالى ونصره ، ومن ثم ، تناولت معجزة الاسراء والمعراج ببيان اثرها على الدعوة ، وصدى هذا الحدث العظيم على نفوس المسلمين : الثابتين منهم على العقيدة الصحيحة وغير الثابتين ، ثم ما يستدل منه على تسرية الله تعالى لرسوله الامين ، برحلة اسرائه ومعراجه ، بعد مالاقاه من اذى واضطهاد وصدود ، من مشركي الارض وكفارها .

اما الفصل الرابع : طلائع النصر ، فقد قسمته الى مبحثين :

المبحث الاول : عرض الدعوة على القبائل ، خصصته للنشاط النبوى المبارك في فترة ما قبل الهجرة ، من اتصالات ولقاءات ومقابلات ، كانت محدودة النتائج ، قليلة الثمار .

والمبحث الثاني : بشائر نصر الله ، تناولت فيه لقاءات الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفود الانصار الى مكة في مواسم الحج ، وما تم معهم من بيعات مباركة كان لها اوضح الأثر في تمهيد الطريق امام الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، وامام اصحابه لتنفيذ امر الله تعالى اليهم ، بالهجرة الى يثرب .

وفي الفصل الخامس والاخير : الهجرة الكبرى ، واهميتها في مسيرة الدعوة ، تناولت هذا الحدث الكبير الذى جعله المسلمون تاريخا لايامهم ، بالشرح والتحليل ، مع ماسبقه من تخطيط المشركين للنَّيْل من محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مانتج عن ذلك من تخطيط مقابل لصاحبي الغار ، تدخلتْ في انجاحه العناية الالهية ، ففشلت خطط قريش ونجحت خطة الرسول والصدِّيق .

وفي الخاتمة : لخصت مختلف جوانب البحث ، مركزاً على اهم افكاره ، موضحاً ابرز نتائجه .

اما المنهج العلمي الذى اتبعته في معالجة ما مر ذكره من قضايا وموضوعات ، فيجمع بين مناهج : الوصف ، والسَّبْر ، والتحليل .

فقد بذلت جهدى في استقراء جوانب الدعوة بين احداث السيرة الطاهرة ووقائعها متخيراً منها ما يفيد البحث ، ويؤيد عناصره ، ويدعم افكاره ، ومن ثم تحقيقها وتوثيقها ، من مراجعها الأولية الاصيلة المعتمدة ، التي سبق الاشارة اليها ، وغيرها . وبعد ذلك ، حاولت تحليلها وتقويمها ، ثم الاستنباط منها ، — بالقدر الذى يسمح به المقام من التوضيح والتفصيل ، والتعليل والتفسير .

واني لارجو ان اكون بذلك قد ساهمت في مساعدة الدعاة العاملين ، — ويسرت لهم امر الاستزادة من هدى الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، في اداء رسالتهم نحو الدعوة الى الله تعالى .

وفي ختام مقدمتي ، اتقدم بوافر الشكر الى حكومة المملكة العربية السعودية ممثلة في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، التي اتاحت لي ولزملائي ، — فرصة التزود من منهل الاسلام العذب ، خلال مرحلة الدراسة المنهجية ، في صرحها العلمي الشامخ : المعهد العالي للدعوة الاسلامية ، على ايدى نخبة طيبة من العلماء الاجلاء ، سواء من ناحية الادارة والتوجيه ، او من ناحية الدرس والتحصيل ، استفدنا من علمهم وخبراتهم وورعهم فائدة كبيرة ، كان لها اوضح الاثر في ارساء قواعد الدين القيم ، في نفوسنا وقلوبنا ، على اسسه السلفية ، المتينة الصحيحة .

اما في مرحلة اعداد الرسالة ، فقد فتحت لنا الجامعة ابواب مكتبتها المركزية العامرة ، طوال النهار وشطرا من الليل ، مما اتاح لغير المتفرغين ، مثلي ، فرصة الاطلاع والبحث ، واقامت على امر هذه المكتبة مجموعة من الامناء ، مبدؤهم

خدمة العلم ، والتفاني في معاونة الباحثين والدارسين ، بروح طيبة ، ونفس راضية ، فلهم مني جميعا خالص الشكر وعظيم التقدير .

وجزى الله الجامعة والقائمين عليها خـــير الجـــزاء .

كما اتوجه بالشكر الى كل من عاون في اخراج هذه الرسالة الى حيز الوجود على الصورة التي بين ايدينا ، وهي اقصى ماامكن تحقيقه ، لظروف كثيرة ، — ليس هنا مجال عرضها .

اما استاذى الجليل : فضيلة الاستاذ الدكتور محمد صالح محيي الدين ، فله مني تحية خاصة ، تليق باخلاصه وكرمه وتفانيه ، وشكراً من الاعماق ، يناسب مابذله نحوى من جهد ومشقة ، وما قدمه لي من عون وتوجيه ، فاعطى في سبيل ذلك الكثير من وقته وراحته ، مفسحاً صدره لاخطائي وعثراتي ، موضحاً نصائحـــه وارشاداته بكل عناية ودقة واهتمام ، لتكون عونا لي على اتباع المنهج العلمي الصحيح ليس في هذا البحث فحسب ، بل وفي اى بحث بعده ، وحتى تخرج الرسالة — بالكيفية التي ينشدها .

واعترف ، بانني بذلت في سبيل تحقيق توجيهاته ، وتنفيذ نصائحـــه وارشاداته ، جهدا لايستهان بـــه ، غير اني لاادّعي انني غطيتها جميعا ، او وفّيتها حقها ، فالكمال للـــه وحـــده ، فان وجد نقص او قصور ، فلا شك انه مني ، وان كان هناك احسان او توفيق ، فهو من عند الله تبارك وتعالى ، ثـم بفضل اســتاذى المشــرف .

جزاه الله عني خير الجزاء ، واثـابه على علمـه وصـدقه واخلاصـه اجـزل الثـــواب .

اسال الله تعالى : ان يتقبل عملي هذا ، وان يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وان يهد ينا صراطه المستقيم ، وان يثبت قلوبنا على التقوى واليقين ، انه نعم المولى ونعم النصير ،

واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

تمهيد

حَالة البشريَّة قبل الإسلام

تمهـــــيد : حـــالـة البشـــريـة قبل الاســـلام

ا ــ بـــلاد فـــارس :

كانت أمة لادين لها ، إلا ماتعتقده من الوهم البـاطل ، والآراء البشـرية ، التي لاتـعطي الصورة الصادقة والمنهج المتكامل لتعـايش الإنسان مع ربـه ، ومع الناس أجمعين ؛ هذه هي المجوسـية دين الفرس ، تبين جهل القوم وسوء معتقدهم ؛ وأساس هذه العقيدة : عبـادة النار وإقامة بيوت العبادة لها ، وتقديم القرابين اليها ؛ يقول الشهرستاني[1] :

" ثم إن التثنية اختصت بالمجوس ، حتى أثبتوا اثنين مدبرين قديمـين ، يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضرر ، والصلاح والفساد ، يسـمون أحدهما : النـُّور ، والآخر : الظـُّـلْمة ، ..... ، ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين اثنتين : إحداهما ؛ بيان سـبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانيـة ؛ بيـان سبب خلاص النور من الظلمة "

ثم جاء زرادشـت (٦٦٠ ــ ٥٨٣ ق٠م) يهذب من عبادة المجوس ويصلح من عقيدتهم ، فما خرج كثيرا عن فحواها . فقد ادعى أن النـور والظـلمة أصلان متضادان ، وأن الخير والشر ، والصلاح والفسـاد ، والطهارة والخبث ، إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم يمتـزجا لما كان وجود العالم (! ! !) وهما يتعاونان ، ويتغالبان ، إلى أن يغلب

---

(١) ابو الفتح ، محمد بن عبد الكريم بن احمد (ت٥٤٨هـ) ، الملل والنحـل ، تحقيق : محمد بن فتح الله بدران ، طبعة ١٩٥٦م ، القاهـرة ، الجزء الأول ، ص: ٢٣٢ .

النورُ الظلمةَ ، والخيـرُ الشرَّ ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، وينحط الشر إلى عالمه ، وذلك سبب الخـــلاص . (١)

"إذن ، فالنار عند زرادشـــت رمز لفكرة الصراع بين الخير والشر ، وأن الخير الذى يرمز له بالنور ، سوف ينتصر فى النهاية على الشـــر ، الذى يـــــرمز لـــه بالظـــلمـة . " (٢)

ودين زرادشـــت ، فيـــه تعـــدد الآلـــهة ، وفيه : ثنوية ، الا انه مـــع ذلك ، قال بالبعث وبالحياة الاخرى والحساب ، " وبيّن أن الإعتقاد والقـــول والعـــمل ، موارد التكليف ، فاذا قصّر الانسان فيها ، خرج عن الدين والطاعة ، واذا جرى في هذه الحركات ، على مقتضى الأمر والشريعة ، فاز الفوز الكبير . " (٣)

وظهر مـــانـــي في اواخر القرن الثالث المسيحي ، يزعـــم أن العـــــالم مصنـــوع ، مركب من اصلين قديمين ، أحـــدهما : النـــور ، والآخر : الظـــلمة ، وأنهما أزليان ، ولم يزالا ، ولن يزالا ، " وفرض على اصحابه العشر في الاموال كلها ، والصلوات الاربع في اليوم والليلة ، والدعاء الى الحق ، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر وعبادة الأوثان ، ..... ، واعتقاده في الشرائع والأنبياء ، أن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة : آدمَ ، أبو البشر ، ثم بعث شيثاً بعده ، ثم نوحاً بعده ، ثم ابراهيمَ بعده ، عليهم السلام . " (٤)

---

(١) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١ / ٢٣٧ .

(٢) عاشور : دكتور عبد الفتاح : منهج القرآن في تربية المجتمع ، مكتبة الخـــانجـــي بالقاهرة ، طبعة اولى ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، ص: ٦٨ .

(٣) الشهرستاني : المرجع السابق ، ١ / ٢٣٨ .

(٤) نفس المرجـــع ، ١ / ٢٤٨ .

ثم ظهر مزدك (٤٨٧ م) ، فرأى أن سبب الكراهية بين البشر هو : المال والنساء ، واذن ، فليس هناك – في رأيه – وسيلة لازالة أسباب الشقاق والخلاف بين الناس ، الا ان تكون الاموال والنساء مشاعاً حراً مباحاً ، يأخذ منه ، من يشاء ، مايشاء . فأحلّ النساء ، وأباح الاموال ، وجعل الناس شركة فيهما : كاشتراكهم في الماء ، والنار ، والكلأ . (١)

وقد أتيح لدعوة مزدك الانتشار ، بعد أن أيدها قباذ – والد أنوشروان – وآمن بها الشباب وأصحاب الشهوة ، ودعاة الانحلال ، يقول الطبرى :–

"كاتف السّفلةُ مزدكَ في دعوته ، وشايعوه ، فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك ، وتوّعدوه إن رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا ، حتى صاروا لا يعرف الوالد ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئاً مما يتمتع بـه ." (٢)

ب ـ بلاد الهند :

أمة جمعت بين المتناقضات اقواها ، ومن الأعاجيب اعظمها ، وذلك .. لاتساعها ، واختلاف اماكنها ، وتباعد مابين اطرافها ، منهم : البراهمة – وهم المنكرون للنبوات أصلاً ، ومنهم : من يميل الى الدهر ، ومنهم : من يميل الى مذهب الثنوية ، ويقول بملّة إبراهيم ، عليه السلام ، واكثرهم على مذهب

---

(١) انظر : الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١ / ٢٤٩ .

(٢) محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، طبعة ١٩٦١ – ١٩٦٢ م – الجزء الثاني ، ص: ٨٨ .

الصابئة ومناهجها : فمن قائل بالروحانيات ، ومن قائل بالهياكل ، ومن قائل بالأصنام ، ومنهم حكماء على طريق اليونانيين علماً وعملاً . (١)

حـ ـبـــلاد الـــــروم :

كانت الولايات الرومانية اقطاعيات للسادة الرومان ، ينهبون خيراتها ، ويستنزفون مواردها ، ويتركونها في ضنك شديد ، وعيش مرير .

يقول بتلر : " إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس ، وضرائب أخرى كثيرة العدد ، ..... ، مما لاشك فيه ان ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل .... " (٢)

ويقول بعض المؤرخين ، واصفاً حكمَ الرومان للشاميين : " وكثيرا ماكانوا يبيعون ابناءهم ليوفوا ماعليهم من أموال ، وقد كثرت المظالم ، والسخرات ، والرقيق . " (٣)

ويقول أيضا : " حَكَمَ الرومان الشام سبعمائة سنة ، بدأمعهم في البلاد النزاع ، والشقاق ، والاستبداد ، والانانية ، وقتل الأنفس ، .... " (٤)

وهكذا سائر الولايات الرومانية .

---

(١) انظر : الشهرستاني : الملل والنحل ، ٢ / ٢٥٠ .

(٢) الفريد ج . بتلر : فتح العرب لمصر ؛
تعريب : محمد فريد ابوحديد ، ص : ٤٧ .

(٣) كُرد علي : خطط الشام ، ١ / ١٠١ .

(٤) المرجع السابق ، ١ / ١٠٣ .

"ولم يكن البؤس والشقاء قاصرين على هذه الولايات وحدها ، وانما كانت الدولة نفسها تموج بالفتن ، والاضطرابات ، الاقتصادية والسياسية ، والفساد الخُلُقي ، والاجتماعي ، والانقسامات الدينية البغيضة ، وخاصة في آخر القرن السادس الميلادي ، أي وقت مجيء الاسلام ." (١)

وأينما توجهت في أي مكان في العالم ، لم ترإلا فساداً وشراً مستطيراً ، فالصفات الذميمة وعلى رأسها : أكل اموال الناس بالباطل ، والتعامل بالربا ، وحبك المرء امرات ، يقوم بها اليهود في كل مكان . (٢)

أما الجهل المركّب ، والأمية الشاملة ، والخروب الدامية ، والوثنية اللعينة ، والنصرانية الخرفة ، والتخلف الحضاري والسياسي ، وغيره ، فقد ساد: أوروبا الغربية ، في الوقت الذي جاء فيه الاسلام . (٣)

---

(١) نوفل : أبوالمجد السيد : الدّعوة الى الله تعالى ، خصائصها ، مقوماتها ، مناهجها . ، مطبعة الحضارة العربية ، القاهرة ، طبعة اولى ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ، ص: ٥٦ ـ ٥٨ .
وانظر : الندوي : ابو الحسن علي الحسني : السيرة النبوية ، دار الشروق ، جدة ، طبعة اولى ، ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م ، ص: ١ ـ ٧٠ . ، جاد المولى : محمد احمد : محمد المثل الكامل ، المكتبة الاموية ، بيروت ، طبعة ١٩٧٢ م ، ص: ٥٨ـ٧٤

(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٣) انظر : المراجع السابقة نفس الاماكن .

د ـ بـــلاد العـــرب :

لم تكن حالة العرب في الجزيرة ، بأحسن منها في باقي انحاء العـــالم ؛ ففي هذا المجتمع القَبَلي ، كانت حمية الجاهلية تتحكم في تصرفاته ، فيرى العربيُّ أن ماتواضع عليه مجتمعه إنما هو دين يجب التزامه ؛ قال تعالى في محكم تنزيله : "واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماالفينا عليه آباءنا أولو كان آبـــاؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ." (١) وقال عـــز من قـــائـــل :

" واذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءَنا ..... " (٢) ؛ حتى الفاحشـــة ، لا يتورّعون عن فعلها ، بحُجّة انها عادة آبائهم وأجدادهم !!!

وتحدث السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها ، عماكانت عليه الجاهلية ، من صور النكاح المتعددة ، والتي تُعتبر معظمها صوراً متنوعة من الفسق ، والفجور ، والزنا الصريح ، بـــل واكثر من ذلك ، كان الزوج يدفع زوجته الى الرذيـــلة؛ فكان : " الرجل يقول لامراته ، اذا طهُرت من طمثها : أرسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها ابدا ، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فاذا تبين حملها ، أصابها زوجها اذا أحب ، وانمـــا يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد (!!!) فكان هذا النكاح : نكاح الاستبضاع " (٣)

ولكن ؛ وفي وسط هذا الخضم الهائل ، الذي غشيَ بلاد العـــرب ، من الرذيلة والفساد ، نلمح لُمَعاً مضيئة وسط هذا الظلام ، ممن كانوا يعبدون الله وحده ، لا يشركون به شيئا ، يقرّون بخالقهم الأوحد ، يصدّقون بالبعث والنشور ، يوقنون بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصي ، يدعـــون الـــى

---

(١) سورة البقرة : آيـــة ١٧٠ . (٢) سورة الأعراف : من الآية ٢٨ .
(٢) انظر : الامام البخاري : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة ، الجامع الصحيح ، كتاب النكاح ، باب من قال لانكاح الا بولي ، ٦ / ١٣٢ . (طبعة ١٩٨١ م ، المكتبة الاسلامية ، استانبول ، تركيا)

الله تعالى ، وينبهون اقوامهم الى آياته ، وآلائه . (١)

من هؤلاء ، كان : رئاب الشنّي ، وكان من عبد القيس ، ثم من شن ، وكان على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع الناس منادياً ينادي من السماء قبل مبعث النبي : رئاب الشني ، وبحيرا الراهب ، ورجل آخر لم يأت بعد ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يموت أحد من ولد رئاب ، فيدفن ، إلا ورأوا واسطاً على قبره . (٢)

ومنهم : اسعد ابو كرب الحميرى ، وكان مؤمناً ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، قبل ان يبعث بسبعمائة سنة . وقال في ذلك :

شهدت على أحمد انه ... رسول من الله باري النسم

فلو مد عمري الى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم

والزم طاعته كل من ... على الارض من عرب او عجم

وكان هو اول من كسا الكعبة الانطاع والبرود . (٣)

ومنهم : قس بن ساعدة الايادى ، وكان حكيم العرب ، مقرا بالبعث ، وهو الذى يقول : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال ، قال الاعشى :

واحكم من قس واجرا من الذى ..... (٤)

---

(١) انظر : المسعودى : ابي الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد بالمكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، طبعة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م ٢٥/ ٢٦

(٢) انظر : المرجع السابق : ١/ ٦٨ .

(٣) انظر المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤) انظر المرجع السابق : ١/ ٦٩ .

ومنهم : زيد بن عمرو بن نفيل ، ابو سعيد بن زيد ، احد العشرة المبشرين بالجنة[١] ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب . وكان زيد يرغب عن عبادة ... الأصنام ، وعابها ، فاولع به عمه الخطاب سفهاء مكة ، وسلّطهم عليه ، فآذوه ، فسكن كهفاً بحراء ، وكان يدخل مكة سرا ، وسار الى الشام يبحث عن الدين ، فسمّته النصارى ، ومات بالشام .[٢]

ومنهم : ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد : زوج النبي صلى الله عليه وسلم . وكان قد قرأ الكتب ، وطلب العلم ، ورغب عن عبادة الاصنام ، وبشّر خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم وانه نبي هذه الامة ، وانه سيوذى ويكذب . ولقي النبي صلى الله عليه وسلم فقال "يا ابن اخي ، اثبت على ما انت عليه ، فوالذى نفس ورقة بيده ، انك لنبي هذه الامة ، ولتؤذين ولتكذبن ، ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن ادركت يومك لانصرن الله نصرا يعلمه ، ثم ادنى راسه فقبل يافوخه ."[٣]

وقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم رآه في المنام ، بعد مماته ، في هيئة حسنة تشهد بكرامته عند الله[٤] كما يشهد له قوله صلى الله عليه وسلم : "لاتسبوا ورقة ، فاني رأيت له جنة أو جنتين ".[٥]

وروى ابن كثير انه : "كان كثير النظر في السماء ، كثير همهمة الصدر".[٦]

---

(١) انظر : ابن الاثير : علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ) : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، المكتبة الاسلامية ، طبعة ١٢٨٦ هـ : ٣/ ٢١٣ .

(٢) انظر : المسعودى : مروج الذهب : ١/ ٧٠ ؛ دحلان : احمد بن زيني بن احمد : (ت : ١٣٠٤ هـ) : السيرة النبوية والاثار المحمدية (طبعة المكتبة الازهرية بالقاهرة ، ١٣٣٩ هـ) : ١/ ١١٠ ـ ١١١ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي : تحقيق محيي الدين (دار الفكر بيروت) : ١/ ٢٥٧. وانظر : المسعودى : المرجع السابق : ١/ ٧٣ .

(٤) ابو الفداء اسماعيل (ت : ٧٤٧ هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى عبدالواحد (دار المعرفة ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م) : ١/ ٣٩٧

(٥) المرجع السابق : ٢/ ٤٠٩ .

(٦) المرجع السابق : ٢/ ٤٠٧ .

مما تقدم ، نجد أن الصراع كان قائما بين الامم وبعضها ، وبين المجتمعات وبعضها : صراع طبقي ، وصراع عقدي .

والصراع بكافة اشكاله وصوره يودي حتما الى تغيرات اجتماعية ، سواء كانت هذه التغيرات متجهة الى التقدم او التاخر . وقد سلم علماء الاجتماع بضرورة هذه التغيرات [١] ، الا انها تتجه عندهم في النهاية الى التطور والتقدم : فان القوة التي تدفع التاريخ الى التطور ، هي الصراع . وهيجل يرى : أن التعارض هو أهم العلاقات الانسانية ، وأن حركة التطور الاجتماعي ، ماهي الا النماء المستمر للاضداد ، ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة من التطور . [٢]

" ومن التغيرات التي يمكن ان تحدث بعد اى صراع : ظهور قوى جديدة ، وبروز افراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ، كما ان التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن أية قيمة انسانية تخلصهم من هذا الصراع ، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هي فيه ". [٣]

وقد استفادت دعوة الحق من كل هذا ، لأن القوى الجديدة التي ظهرت بمكة ، ممثلة في الحنفاء والحكماء ، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة وفكرها ، وكان معظم أتباع الدعوة الأول ، من بين هذه الفئات الجديدة التي لاتتعصب ... لمواريث قديمة لهم ، كما ان الافراد الاقوياء منهم : كحمزة بن عبد المطلب ، وعمر ابن الخطاب ، كان لهم دورهم في الدعوة . [٤]

---

(١) انظر : ايمانول كانت : اصول علم الاجتماع : ص ٢٢٠ .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص ٨٥ .
(٣) غلوش : دكتور أحمد احمد : الدعوة الاسلامية ، اصولها ووسائلها (دار الكتاب المصرى بالقاهرة ، مطبعة نهضة مصر ، طبعة ١٩٧٩ م) ص : ٨٩ .
(٤) انظر : المرجع السابق : ٨٩ ـ ٩٠ .

كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، وَجَدا في الدعوة بغيتهما : فكان الضعفاء هم اتباع الدعوة في العرب ، وفي كل مكان ، لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المنبوذين . وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس الى شخص ما ، لا ينالهم منه سوى الظلم ، والجبروت والتعالي ، وانما يتجهون الى الله تعالى : الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذى يملك الخلق كله ، ويحيط به علما وارادة وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمر بالدعوة الى القيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أُخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعدل مطلق في الكسب والعمل : فان آمال الضعفاء ، تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ، ومبادئها .[1]

---

(١) انظر : غلوش: الدعوة الاسلامية ، اصولها ووسائلها ـ ص: ٨٩ ـ ٩٠ .

الباب الأول

مقدمات لدعوة ، مراحلها ، وخصائصها

الفصل الأول

مقدمات الدعوة

المبحث الاول : مطلع النور

١ ـ قِرانٌ مُبارك :

كان عبد المطلب قد جاوز السبعين ، او ناهزها[١] ، حين حاول ابرهة مهاجمة مكة وهدم البيت العتيق[٢] ، وكان ابنه عبد الله في نحو الرابعة والعشرين ، فرأى ان يزوجه ، واختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فخرج به حتى أتى منازل بني زهرة ، وخطب اليه بنت وهب ، وهي يومئذ افضل امراة في قريش ، فتزوجها[٣] ، على دين ابراهيم عليه السلام . فقد قال صلى الله عليه وسلم : "خرجت من نكاح ، ولم اخرج من سفاح ."[٤]

واقام عبد الله مع آمنة في بيت اهلها ثلاثة ايام ، على عادة العرب حين يتم الزواج في بيت العروس[٥] ، فلما انتقل واياها الى منازل بني عبد المطلب ، لم يقم معها طويلا ، إذ خرج في تجارة الى الشام وتركها حاملا ، غير أنه لم يكن

---

(١) ناهز فلان الحلم ونهزه ، اذا قاربه . ناهز الصبي البلوغ اى داناه .
ناهز السبعين : اى قاربها . (انظر : ابن منظور : جمال الدين محمد بن... مكرم (ت: ٦٣٠هـ)ـ لسان العرب : مادة نهز ـ ٥/ ٤٢١) .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي (تحقيق محيي الدين) : ١/ ٤٩ـ٥٢ .

(٣) انظر : ابن هشام : المرجع السابق (طبعة اخرى بتحقيق : مصطفى السقا ، وابراهيم الابياري ، وعبد الحفيظ شلبي ـ شركة الحلبي بمصر ـ طبعة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م) القسم الاول ـص: ١٥٦ـ١٥٨ . ؛ ابن سعد : ابو عبد الله محمد بن عمر (ت : ٢٣٠ هـ) : الطبقات الكبرى (دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ـ طبعة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م) الجزء الاول : ص٩٤ ـ ٩٥ ؛ الطبري : محمد بن جرير (ت : ٣١٠ هـ) : تاريخ الرسل والملوك ـ٢/ ٢٢٥ .

(٤) انظر : ابن سيد الناس: محمد بن يحيى (ت: ٧٣٤ هـ) : عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير (دار الافاق الجديدة ـ بيروت ـ طبعة اولى ١٩٧٧ م) ١/ ٣٢ . ؛ ابن كثير السيرة النبوية : ١/ ١٨٩ . ؛ الزرقاني : محمد بن عبد الباقي (ت : ١٠٩٩ هـ) : شرح المواهب اللدنية للقسطلاني (ت : ٩٢٣ هـ) ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية بالاوفست ـ ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م) الجزء الاول ، ص: ٦٧ ، وراجع فيه : انواع الزواج في الجاهلية ، ص: ٦٦ .

(٥) انظر : ابن سعد : المرجع السابق : ١/ ٩٥ . ؛ ابن سيد الناس: المرجع السابق : ١/ ٣٢ ـ ٣٣ . ؛ الزرقاني : المرجع السابق ، نفس المكان .

يعلم بذلك ، وبعد ان مكث في رحلته الاشهر التي تقتضيها عادة ، قفل (١) راجعاً مع القافلة الى مكة . فلما اقترب من يثرب ، داهمه مرض حمله على ان يعرج على اخواله في يثرب ، ليمرضوه . فتركه رفاقه ، حتى اذا بلغوا مكة اخبروا أباه بمرضه ، فاوفد الحارث ـ اكبر بنيه ـ الى يثرب ليعود باخيه بعد ابلاله ، وعلم ـ حين بلغ يثرب ـ ان عبد الله قد مات ، ودفن بها ، فرجع ادراجه ينعى اخاه الى اهله ، ويثير من قلب عبد المطلب ومن قلب آمنة : هماً وشجناً . (٢)

ب ـ مَولد الهُدى :

تقدمت أشهر الحمل بآمنة ، فلم تجد لحملها ثقلة ـ كما تجد النساء ـ حتى وضعت ، فلم تشعر بمشقة ، فأرسلت الى حميها : عبد المطلب بن هاشم أنه قد ولد لك غلام ، فاتاها ، فنظر الى الوليد بعطف وحنان . فحدثته انها حين حملت به ، أُتيتْ ، فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الامة ، فاذا وقع الى الارض ، فقولي : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سمّه : مُحمداً وانها رات في بدء حملها ، نوراً يخرج منها أضاء لها قصور بصرى من ارض الشام ، فرأتها (٣) ، فأخذه جده بين يديه ، والبشر يفيض على وجهه ، وسار حتى دخل به الكعبة ، فقام يدعو لله ويشكره على ما اعطاه ، وسماه : محمدا . وكان

---

(١) قفل : رجع ، ومنها القافلة : الرُّفقة في السفر ، تفاؤلا بالرجوع .
(انظر : الفيروز ابادى : مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ـ ت ٨١٧ هـ القاموس المحيط ، مادة : قفل ، ٤/ ٣٩ .)

(٢) انظر : ابن هشام المرجع السابق ، ١/ ١٥٨ ؛ ابن كثير : المرجع السابق : ١/ ١٩٠ وما بعدها ؛ الحلبي : علي بن برهان الدين (ت : ١٠٤٤ هـ) : انسان العيون في سيرة الامين المامون (المكتبة الاسلامية ـ القاهرة) ١/ ٣١ ومابعدها ؛ الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٣) انظر : ابن هشام : المرجع السابق ١/ ١٥٨ ؛ ابن سعد : الطبقات ١/ ٩٨ ؛ البيهقي : احمد بن الحسين ، ابوبكر (ت٤٥٨هـ) : دلائل النبوة ومعرفة احوال صاحب الشريعة ، تحقيق : السيد احمد صقر ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، ١/ ٢٠ ـ ٢١ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر ١/ ٣٩ ؛ ابن كثير: السيرة ١/ ٢٣٠ .

هذا الاسم غير متداول بين العرب ، وان كان معروفا لديهم [١] ، ثم خرج الجد بحفيده من الكعبة ، وعاد به الى امه فدفعه ـ مغتبطا ـ اليها ، وجعل واياها يلتمسان المراضع من بني سعد ، لتدفع الام بوليدها الى احداهن ، على عادة اشراف العرب من اهل مكة ، فقد كانت بني سعد من بين القبائل التي لها في المراضع شهرة . [٢]

وفي انتظار المراضع : دفعت آمنة بالطفل الى ثويبة ـ جارية عمه ابي لهب فارضعته زمنا (كما ارضعت بعد عمه الحمزة ، فكانا اخوين في الرضاع) . ثم جاءت مراضع بني سعد يلتمسن الاطفال ، وكن يعرضن عن اليتامى ، لانهن كن يرتجين البر والخير الوفير من الآباء ، اما الايامى : فكان الرجاء فيهن قليلا ، لذلك لم تقبل واحدة من اولئك المراضع على الطفل اليتيم ، وذهبت كل منهن بمن ترجو من اهله وافر الخير . [٣]

على ان حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية ، التي اعرضت عن محمد صلى الله عليه وسلم اول الامر ، كما اعرض غيرها ، لم تجد من تدفع اليها بطفلها ، ذلك انها كانت على جانب من ضعف الحال ، صرف الامهات عنها ، فلما اجمع قوم بني سعد على الانطلاق من مكة ، كرهت حليمة ان ترجع مع صواحبها بغير رضيع فقالت لزوجها الحارث بن عبد العزى : والله لاذهبن الى ذلك اليتيم ولآخذنه ،

---

(١) لا يعرف من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة هم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جَد جَد الفرزدق الشاعر ، محمد بن احيحة بن الجلاح ابن الحريش ، محمد بن حمدان بن ربيعة . انظر بالتفصيل : السهيلي : ابو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٥٨١هـ) : الروض الانف ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل (دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ بدون تاريخ) : ٢/ ١٥١ ومابعدها ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ٣٨ ، ٤٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٥٧ ـ ١٦٠ ، ١٤٠ ؛ ابن سعد الطبقات الكبرى : ١/ ٩٨ـ٩٩ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٢٠ ؛ ابن سيد الناس: نفس المرجع : ١/ ٣٣ـ٤١ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٢٢٣ .

(٣) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ ابن سعد المرجع السابق : ١/ ١٠٨ـ١٠٩ ؛ ابن سيد الناس: المرجع السابق : ١/ ٤٢ـ٤٣ .

واجابها زوجها : لاعليكان تفعلي ، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة . واخذت حليمة محمدا صلى الله عليه وسلم ، وانطلقت به مع قومها الى البادية ، وهي لاتدري انها صحبت معها سيد الخلق اجمعين . (١)

جـ ـ محمد في صباه :

اقام محمد في بادية بني سعد سنتين ، ترضعه حليمة التي كانت تحدث انها ـ منذ اخذته ـ بارك الله لها في كل ماعندها ، حتى ان زوجها قال لها : لقد اخذت نسمة مباركة ، وكانت تحضنه معها : ابنتها الشيماء (٢) ، ووجد الصبي المبارك ، في هواء الصحراء الطلق ، وخشونة عيش البادية ، ما يسرع به الى النمو ، ويزيد في صلابة عوده ، وحسن تكوينه ، وفصاحة لسانه ، حتى انه كان ينشب شبابا لايشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما جفرا . (٣) فلما فصلته ، قدمت حليمة به على امه ، وهي احرص شيء على مكثه معها ، لما كانت ترى من بركته ، فكلمت امه وقالت : لو تركت بُنيَّ عندى حتى يغلظ ، فاني أخشى عليه وباء مكة . فلم تزل حليمة بها ، حتى ردته معها . (٤)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٦٣ ؛ ابن سعد: الطبقات١/ ١١٠ ـ ١١٢ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٢٤ ؛ السهيلي : الروض الانف : ٢/ ١٦٣ ، المقريزى : تقي الدين ، احمد بن علي (ت٨٤٥هـ) إمتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع (لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة ـ طبعة ١٩٤١ م) : ١/ ٦ .

(٢) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ١٦١ ـ ١٦٣ ؛ ابن سعد : نفس المرجع والمكان ؛ البلاذرى : احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩ هـ) : انساب الاشراف ، تحقيق : محمد حميد الله (دار المعارف بمصر ـ القاهر طبعة ١٩٥٩ م) ١/ ٩٣ ؛ ابن كثير السيرة النبوية : ١/ ٢٢٥ ؛ المقريزى : المرجع السابق ، نفس المكان .

(٣) غلاما جفرا: اى غليظا شديدا . استجفر الصبي : اذا قوى على الاكل . (انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة جفر)

(٤) انظر : ابن هشام : المرجع السابق ١/ ١٦٤ ؛ ابن سعد : المرجع السابق: ١/ ١١٢ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر ١/ ٤٣ ؛ ابن كثير: المرجع السابق : ١/ ٢٢٧ .

وهناك ، بعد اشهر من عودته الى مضارب بني سعد ، وقعت حادثة شق الصدر : عاد اخوه من الرضاعة يوماً وهو يلهث ، فقال لأمه وأبيه وهما يرعيان اغناماً لهما ، خلف دورهم : "ذاك أخي القرشي ، قد اخذه رجلان ،عليهما ثياب بيضاء ، فاضجعاه وشقا بطنه ، فهما يُسوّطانه "[1] ، فخرجت حليمة وزوجها نحوه ، فوجداه قائماً منتقع اللون والوجه ، فسألاه : مالك يابُنيّ ؟ قال : "جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فاضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لاأدري ماهو ." [2]

وسرعان ماعادت به حليمة وزوجها الى خبائهما ، وظن الاب ان الغلام قد أُصيب ، وطلب من زوجته ان تعيده الى اهله ، قبل ان يظهر ذلك به ، فحملته مرضعته ، وقدمت به الى أمه ، فاعلمتها انه قد بلغ ، وانها قد قضت الذي عليها ، فاخذته آمنة حيث ظلت ترعاه في حمايةٍ واشرافٍ من جده عبد المطلب ، وعندما بلغ السادسة من عمره ، تُوفيت أمه بالأبواء [3] ، وهي في طريق عودتها الى مكة ، في أعقاب زيارةٍ لاهلها من بني عدي بن النجار ، قصدت بها ان تزيره .. إياهم ، فتولى أمرَه جدُّه عبد المطلب ، الذي كان يقعده الى جواره في مجلسه في ظل الكعبة ، ويقول لبنيه : "دعوا ابني ، فوالله ان له شانا "[4] ، ثم يمسح ظهره بيده في حب وحنان .[5]

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٦٤ ؛ وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١١٢ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٢٢٧ .
(٢) ابن هشام : المرجع السابق ، نفس المكان ؛ وانظر : ابن سعد : نفس المرجع والمكان ؛ ابن كثير : المرجع السابق نفس المكان .
(٣) الابواء : قرية بين المدينة والجحفة في الطريق الى مكة ، على بعد ثلاثة وعشرين ميلا من المدينة . (انظر : السهيلي : الروض الانف : ٢/ ١٨٤) .
(٤) ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ١٦٤ــ١٦٨ ؛ انظر : ابن سعد : المرجع السابق : ١/ ١١٦ــ١١٩ ؛ البلاذري : انساب الاشراف : ١/ ٨١ ــ٨٢ + ٩٤ــ٩٥ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ٤٣ــ٥٠ ؛ ابن كثير المرجع السابق : ١/ ٢٣٩ــ٢٤٠ .
(٥) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

لم تطل رعاية الجد وعطفه على حفيده ، اذ مالبث عبد المطلب ان توفي ، ولم يجاوز محمد صلى الله عليه وسلم الثامنة من عمره ، فتولى امره عمه ابو طالب ، لانه وعبد الله ، والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، كانا لأمٍ واحدةٍ . (١)

لم يكن ابو طالب بالرجل الموفور المال ، وكان يعيل عددا من الابناء ، الامر الذى اضطر محمدا صلى الله عليه وسلم ان يعينه في كسب قوته ، حسب طاقته فكان يرعى الاغنام ، وعندما قرر عمه الخروج الى الشام للتجارة ، وكان قد بلغ آنذاك التاسعة من عمره ، رجاه ان يصحبه معه ، فرق له قلب ابو طالب ، وقال والله لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ولا افارقه ابدا ، وما ان اقبل الركب على بصرى الواقعة على طريق التجارة الى الشام (٢) ، ونزلوا قريبا منها ، حتى دعاهم الى الطعام راهبٌ يدعى بَحِيرا ، منقطع الى صومعته يدرس فيها التوراة والانجيل ، ويعبد الله ، وتفيد الاخبار ان الراهب راى فيه امارات النبوة ، على ماتدله عليه انباء كتب النصرانية ، فنصح اهله ألا يوغلوا به في بلاد الشام ، خوفاً عليه من اليهود ان يعرفوا فيه هذه الامارات ، فينالوه بالاذى . (٣)

---

(١) انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٢٧ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١١٦ـ١١٩ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر: ١/ ٥١ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٢٤١ ؛ المقريزى: امتاع الاسماع ١/ ٠٧

(٢) انظر : جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام (السيرة النبوية) ـ مطبعة الزعيم- بغداد ـ طبعة ١٩٦١ م ـ ١/ ١٠٦ .

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٧٩ـ١٨٣ ؛ ابن سعد : المرجع السابق : ١/ ١١٩ـ١٢١ ؛ البلاذرى : انساب الاشراف : ١/ ٩٦ ؛ الطبرى : المرجع السابق : ٢/ ٢٧٧ـ٢٩٩ ؛ المسعودى : مروج الذهب : ٢/ ٢٨٦ ؛ المقدسي : المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ) كتاب البدء والتاريخ ، المنسوب لابي زيد بن سهل البلخي (كلمان هوار ـ باريس، طبعة ١٨٩٩ م) ٤/ ١٣٠ (وما بعدها) .

د ـ محمد وحرب الفجار :

في نحو العشرين من عمره ، اشترك محمد صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار ، التي سميت بهذا الاسم لوقوعها في الاشهر الحرم ، والتي نشبت بين كنانة وقريش من جهة ، وبين قيس عيلان من جهة اخرى ، وكان قائد قريش وكنانة فيها : حرب بن امية ، الذى تمكن وسط النهار ان يتجاوز الهزيمة ، التي مُني بها اول الامر ، وأن يحقق النصر على قيس .(١)

وقد ظلت هذه الحرب تنشب بين الفريقين اربع سنوات متتابعة ، انتهت بعدها الى صلح من نوع صلح البادية ، ذلك بان يدفع من كانوا اقل قتلى دية العدد الزائد عن قتلاهم من الفريق الاخر ، ودفعت قريش دية عشرين رجلا .(٢)

واختُلف فيما قام به محمد صلى الله عليه وسلم من عملٍ في هذه الحرب ، فقال أُناس: انه كان يجمع السهام التي تقع من قيس ، ويدفعها الى اعمامه ، ليردوها الى صدور خصومهم . وقال آخرون : بل اشترك فيها ورَمَى السهامَ بنفسه .(٣)

" وما دامت الحرب المذكورة قد امتدت فتراتها في سنوات اربع ، فليس ما يمنع صحة الروايتين ، فيكون قد جمع السهام لاعمامه اول الامر ، وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ثم رمى بعد ذلك وهو في العشرين ."(٥)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٨٤ـ١٨٧ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١٢٦ـ١٢٨ ؛ البلاذرى: انساب الاشراف ١/ ١٠٠ـ١٠٣ ؛ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب ، المعروف بابن واضح اليعقوبي (ت٢٩٢هـ) تاريخ اليعقوبي ، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم (المكتبة الحيدرية بالنجف ـ طبعة ١٩٦٤ م) : ٢/ ١٢ـ١٣ ؛ ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ٥٨ـ٥٩ .

(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٣) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ١٨٦ ؛ ابن كثير : المرجع السابق : ١/ ٢٥٦ ، المقريزى : المرجع السابق : ١/ ٩ .

(٤) انظر : ابن سعد : المرجع السابق : ١/ ١٢٨ ؛ ابن سيد الناس : المرجع السابق ١/ ٥٩ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ١٥٢ .

(٥) هيكل: محمد حسين : حياة محمد (دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ طبعة ١٣٥٤ هـ) ـ ص: ١٣٣ـ١٣٤ .

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجار بعد سنوات من رسالته ، فقال : "قد حضرتُه مع عمومتي ، ورَميتُ فيه بأسهمٍ ، وما أُحب أني لم أكن فعلت ." (١)

هـ ـ شهودُ حِلْفَ الفُضُول :

في اعقاب حرب الفجار ، عقد زعماء قريش حلف الفضول ، وهو : "أشرف حلف كان قط" (٢) ، واول من دعا اليه : الزبير بن عبد المطلب (٣) ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتيم ، وغيرها من عشائر قريش ، وتعاقدوا وتعاهدوا ، بالله المنتقم : "لَنَكُونن مع المظلوم ، حتى يُؤدَّى اليه حقُّه" (٤) ، كما تعاهدوا على التآسي في المعاش . وقد قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نبوته : "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أُحب أن لي به حُمْرَ النَّعَم (٥) ، ولو أُدعى به في الاسلام لأَجبتُ : تحالفوا ان تُردَ الفضولُ على أهلها ، وألا يعز ظالمٌ مظلوماً ." (٦)

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي (تحقيق: محيي الدين) : ١/ ١٩٨ـ٢٠٢ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٢٨ ؛ وانظر : ابن هشام : المرجع السابق: ١/ ١٤٤ـ١٤٧ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ٥٩ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٢٥٩ .
(٣) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .
(٤) ابن سعد : المرجع السابق ، نفس المكان ؛ وانظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .
(٥) اى لا احب نقضه ولو دفع لي حمر النعم في مقابل ذلك (انظر: السهيلي : الروض الانف : ٣/ ٤٢ .)
(٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٢٨ـ١٢٩ ؛ وانظر: ابن هشام: المرجع السابق: ١/ ١٣٣ـ١٣٥ ؛ ابن الاثير : عزالدين ابو الحسن علي الجزرى : (ت٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ (دار صادر ودار بيروت ـ طبعة ١٩٦٥ـ١٩٦٧م) ٢/ ٤١ـ٤٢ ؛ ابن سيد الناس: المرجع السابق : ١/ ٥٩ ؛ ابن كثير : المرجع السابق : ١/ ٢٥٧ـ٢٦٢ ؛ الحلبي : انسان العيون: ١/ ١٤٤ـ١٤٧ .

وـاثـر خديجـــة في حيـــاة الزوج الرســـول :

كان ابوطالب الذى كفل محمدا صلى الله عليه وسلم ، بعد جده عبد المطلب كثير العيال مع ضيق ذات اليد ، فرأى ان يجد لابن اخيه يوما سببا للرزق ، أوسع مما يجيئه من اصحاب الغنم التي يرعى ؛ فبلغه ان خديجة بنت خويلد تستأجر رجالاً من قريش في تجارتها ، وكانت خديجة امرأةٌ ذات شرفٍ ومالٍ ، كلُّ قومُها كان حريصاً على خطبتها لو يقدر على ذلك ، فقد طلبوها وبذلوا لها الأموال[1] ، واذ علم ابو طالب انها تجهز لخروج تجارتها الى الشام مع القافلة ، نادى ، ابن اخيه ، وكان يومئذ في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وقال له : يا ابن اخى انا رجل لامال لي ، وقد اشتد الزمان علينا ، وقد بلغنى ان خديجة استاجرت فلانا ببكرين[2] ، ولسنا نرضى لك بمثل مااعطته ، فهل لك ان اكلمها ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم : ماأحببتَ .[3]

فخرج ابو طالب اليها فقال لها : هل لك ياخديجة ان تستاجرى محمداً ؟ ؛ فقد بلغنا انك استاجرت فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لمحمد دون اربعة أبكار . وكان جواب خديجة : لو سالت ذلك لبعيد بغيض لفعلنا ، فكيف وقد سالته لحبيب قريب ؟ وعاد العم الى ابن اخيه يذكر له الامر ويقول له : هذا رزق ساقه الله اليك.[4]

خرج محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ميسرة : غلام خديجة ، وانطلقت القافلة في طريق الصحراء ، الى الشام ، مارة بوادى القرى ، ومدين ، ودير

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٨٧ـ١٨٩ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٣١ـ١٣٣ ؛ البلاذرى : انساب الاشراف : ١/ ٩٧ـ٩٩ اليعقوبي : تاريخ : ٢/ ١٥ـ١٦ ؛ الزرقانى : شرح المواهب : ١/٠٠ .

(٢) البكر : الفتى من الابل ، بمنزلة الغلام من الناس . والانثى : بكرة . وقد يستعار للناس . والجمع القليل : ابكار ، والجمع الكثير : بكران .
(انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة بكر ٤/ ٨٠ .)

(٣) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ١٨٧ـ١٨٨ ، الطبرى : تاريخ ..... ٢/ ٢٨٠ ، ابن الاثير : الكامل : ٢/ ٣٩ ؛ الحلبي : انسان العيون ١/ ١٤٧ .

(٤) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن ؛ الزرقانى : المرجع السابق : ١/١٩٨ .

ثمود ، وبتلك البقاع التي مر بها محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه ابي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره . واحيت هذه الرحلة في نفسه ذكريات الرحلة الاولى ، كما زادته تاملا وتفكيرا في كل ماراى وسمع ، من قبل سفره ، بالشام او بالاسواق المحيطة بمكة . فلما بلغ بصرى ، اتصل بنصرانية الشام ، وتحدث الى رهبانها وأحبارها وتحدث الى راهبٍ نسطوريٍ وسمع منه . (١)

استطاع محمد صلى الله عليه وسلم ، بامانته ومهارته ومقدرته ، أن يتّجر بأموال خديجة تجارةً أوفرَ ربحاً مما فعل غيرُه من قبل ، واستطاع بحلو شمائله ودماثة خلقه ، ان يكسب محبة ميسرة واجلاله ، فلما آنَ لهم ان يعودوا ، ابتاع لخديجة من تجارة الشام كلَّ مارغبت اليه ان ياتيها به . فلما قدم مكة عليها بمالها ، باعت ماجاء به بضعف ثمنه او قريبا من ذلك ، فأضعفت له ـ بدورها ـ ماسَمَّتْ له . وحدَّثها ميسرةُ عن رقة شمائله وجمالِ نفسه ، فزادها علماً به فوق ماكانت تعرف من فضله على شباب مكة . (٢)

كانت خديجة ـ يومئذ ـ أوسطَ نساء قريشٍ نسباً ، واعظمهن شرفاً ، واكثرهن مالاً . فلما اخبرها ميسرة بما اخبرها به ، بعثت الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقالت له : "يا ابن عم ، اني قد رغبت فيك لقرابتك ، وسِطَتِك(٣) في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه الزواج ." (٤)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي (تحقيق محيي الدين) : ١/ ٢٠٣ـ٢٠٤ ، الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ١٩٨ .

(٢) انظر : المرجع السابق : نفس المكان ، المقدسي : البدء والتارخ : ٤/ ١٣٨ ـ١٣٩ ، البيهقي : دلائل النبوة : ١/ ٤١٩ـ٤٢٤ ، ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ٦٢ـ٦٣ ، الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ١٩٩ .

(٣) سطتك : شرفك وسامي منزلتك (انظر : ابن منظور : لسان العرب)

(٤) ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ٢٠٤ـ٢٠٥ ، وانظر : الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٠٠ .

استشار محمد صلى الله عليه وسلم اعمامه ، فيما عرضته عليه خديجة ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه ، حتى دخل على خويلد ابن اسد ، فخطب ابنته لابن اخيه ، فوافق الاب ، وتم الزواج المبارك (١) ، فكانت اول ازواجه ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت ، وانجب منها كل ابنائه (ذكورا واناثا) رضوان الله عليهم اجمعين ـ الا ابراهيم .(٢)

كانت خديجة رضي الله تعالى عنها ، امراة حازمةً ، جَلْدةً ، شريفةً ، اقام معها محمد صلى الله عليه وسلم في دَعَة وبحبوحة من العيش ، بعد ان اغناه الله تعالى بزواجه منها ، فهيّأت له جواً من الهدوء النفسي ، والاستقرار العائلي ، أمكنه ان يطلق العنان لعقله ، ليسبح ـ بلا حدود ـ فيما كان يميل اليه من التفكير والتأمل ، الذى كان سِمَةً بارزةً فيه منذ بلوغه طور الشباب قبل زواجه؛ التفكير فيما وصل اليه قومه من شرك ووثنية ، والتأمل في ملكوت الله ، مقلباً بصره فيما حوله من مظاهر هذا الكون الهائل اللامتناهي ، باحثاً عن الحق والحقيقة التي يشعر بها بين جوانحه ، ويتلمس طريقها بفطرته النقية السوية ، التي فطره

---

(١) انظر : ابن هشام سيرة النبي : ١/ ١٩٠ـ١٩١ ؛ المقدسي : البدء والتاريخ: ٤/ ١٣٨ـ١٣٩ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٨٠ـ٢٨٢؛ البيهقي : دلائل النبوة : ١/ ٤١٩ـ٤٢٤ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ٦٢ـ٦٣ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٢٦٣ـ٢٦٥ ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٠٠ .

(٢) كان ولده ابراهيم من مارية القبطية ، سرية النبي صلى الله عليه وسلم ، التي اهداها اليه المقوقس القبطي صاحب الاسكندرية ، ولم يولد غيره في الاسلام . واما باقي اولاده فهم : القاسم (وبه كان يكنى) وزينب ورقية وفاطمة وام كلثوم وعبد الله (الذى كان يلقب بالطاهر والطيب) وقد توفي القاسم وعبد الله قبل المبعث ، اما بناته فكلهن ادركن الاسلام فاسلمن . (انظر: ابن هشام : المرجع السابق نفس المكان ، وقابله مع ابن سعد : الطبقات الكبرى: ١/ ١٣٣ـ١٤٤ ، المقدسي : نفس المرجع والمكان ، البيهقي : نفس المرجع والمكان ، الحلبي : انسان العيون: ١/ ١٤٧ـ١٤٩ .)

الله عليها ، فحبب الله تعالى اليه الخلوة ، فلم يكن شيء احب اليه من ان يخلوَ وحده ، ويطلق العنان لافكاره وتاملاته. (١)

واخذت خلوات محمد صلى الله عليه وسلم وانعزاله عن مجرى الحياة المكية الصاخب ، تزداد وتتسع بعد زواجه من خديجة ، ثم بعد ان انجب منها الولد ثم وهو يقترب من سن الاربعين ، حيث اعده الله تعالى لاول لقاء مع وحيه الامين ، من اجل تكليفه مسئولية النبوة الخاتمة ، الخالدة ، التي سوف يخرج بها الناس من ظلمات الجاهلية ودنسها ، الى نور الاسلام ونقائه (٢) . فكان يغادر مكة بين الحين والحين ، مجتازا اسوارها الجبلية ، متنقلا عبر الصحراء المترامية حتى تحجب عنه البيوت والاسواق ، ويُغيّبه الأفق ، وتستقبله شعاب مكة وبطون اوديتها ثم يلج بعيدا الى جبل حراء (٣) حيث ينتهي به المطاف الى غار هناك ، يدعى غار حراء ، يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل ان يرجع الى اهله ، فتزوده خديجة بما يكفيه من الطعام والشراب ، لغيرها من الليالي والايام (٤).

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٤ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٤ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ١٠٤ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٣٨٥ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٣٦ .

(١) قال ابن كثير : "وانما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين ، من عبادة الاوثان والسجود للاصنام وقويت محبته للخلوة عند مقاربة ايحاء الله اليه صلوات الله وسلامه عليه ." (المرجع السابق : ١/ ٣٨٩ .)

(٣) حراء : جبل ، بينه وبين مكة نحو ثلاثة اميال على يسار الذاهب الى منى . (انظر : الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢١٠ .)

(٤) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ٢٣٤ـ٢٣٥ ؛ ابن سعد : المرجع السابق ، نفس المكان ؛ ابن سيد الناس: المرجع السابق : ١/ ١٠٦ ؛ ابن كثير : المرجع السابق : ١/ ٣٨٥ ؛ الزرقاني : نفس المرجع والمكان .
والتحنث : التعبد واعتزال الاصنام . يتحنث : يفعل فعلا يخرج به من الحنث ، وهو الاثم والحرج . وللعرب افعال تخالف معانيها الفاظها ، يقال : فلان يتنجس ، اذا فعل فعلا يخرج به من النجاسة .
(انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة حنث ٢/ ١٣٨ـ١٣٩ .)

وكان صلى الله عليه وسلم يستمع الى قومه فيما كان يقع عليه حوارهم من امور اصنامهم ، وما كان النصارى واليهود يقولونه لهم ، وكان في خلوته يفكر ويتدبر فيما سمع ، ولم يكن يطمع في ان يجد في قصص الاحبار وكتب الرهبان : الحق الذي ينشد ، كما لم يكن يريد لنفسه ان يكون من طراز الكهان .(١)

خلا بنفسه يوما ، فرأى ضوءاً وسمع صوتاً ، فخشي ان يكون قد اصابه ضُرٌّ فرجع الى خديجة ، واخبرها خبره ، وقال : "والله ما ابغضت بغض هذه الاصنام شيئاً قط ، ولا الكهان ، واني لأخشى ان اكون كاهناً ."(٢) فطمأنته الزوج العطوف ، وقالت : معاذ الله ! ماكان الله ليفعل ذلك بك . وكان هذا شأنها معه دائماً ، فيهدئ روعه ، وتطمئن نفسه ، ويتركها لسجيتها التي جبلت عليها : سجية التفكير والتأمل .(٣)

وما برحت خديجة رضي الله تعالى عنها ، تحوطه بعطفها ، وتشمله برعايتها ، وتُغدق عليه من اموالها ، حتى اختاره الله تعالى : نبياً ورسولاً (٤)

---

(١) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٤ـ١٩٥ ، ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ١٠٥ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٣٨٥ـ٣٩٥ ، الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٣٦ـ٢٣٧ ، الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢١٠ـ٢١١ .

(٢) ابن سعد : المرجع السابق ، نفس المكان ، وانظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٣) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٤) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

المبحث الثاني : وحي السماء

١ ـ مقدمات الوحي :

كانت الرؤيا الصادقة اول ما أشرق على محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، من نور النبوة ، فلم يكن يرى في منامه رؤيا الا جاءت حقيقةً واضحةً جليةً ، كفلق الصُّبح[١] وكان يُحدّث بهذه الرؤى زوجه خديجة رضي الله تعالى عنها ، فتهدّئه ، وتثبّته ، وتقول له : "أبشر ، فان الله لا يصنع بك الا خيرا ." [٢]

وكان من عادته صلى الله عليه وسلم ان يعتكف طوال شهر رمضان من كل عام ، يجاور في غار حراء ، مكتفياً بالقليل من الزاد ، يُحمل اليه ، ممعناً في التفكير والتأمل والعبادة ، بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة ، التي عصمه الله تعالى من أدناسها وزلاّتها.[٣] وكان اول ما يَبْدأ به اذا انصرف من جواره : الكعبة المشرفة ، فيطوف بها سبعاً ، أو ماشاء الله من ذلك ، ثم يرجع الى بيته .[٤]

وفيما هو نائم بالغار يوما ، جاءه مَلَك بنمطٍ[٥] من ديباج[٦] فيه كتاب ، فقال له : اقرأ ، فأجاب مأخوذاً : ماأقرأ ؟ وأحسّ كأن المَلَك يخنقه ، ثم يُرسله ، ويقول : اقرأ . قال محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد خاف ان يخنقه مرة اخرى ، ماذا اقرأ ؟ قال المَلَك في المرة الثالثة : "اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الاكرم . الذي عَلّم بالقلم . عَلّم الانسان مالم يعلم ." [٧]

---

(١) انظر: ابن هشام: سيرة النبي : ١/ ٢٣٤ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٤ ؛ الطبري: تاريخ ٢٠٠٠/ ٢٩٨ ؛ البلاذري: انساب الاشراف: ١/ ١٠٥ .

(٢) أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، انه رأى ان بطنه أُخرج فطُهر وغُسل ، ثم أعيد الى مكانه كما كان ، فقالت له: هذا خير ، فابشر .
(انظر: ابن سيد الناس: عيون الاثر: ١/ ١٠٤ ؛ ابن كثير: السيرة النبوية: ١/٤٠٥)

(٣) راجع: موضوع ثقة المجتمع في الداعية : ص: من هذا البحث .

(٤) انظر: ابن هشام: نفس المرجع: ١/ ٢٣٦ ؛ ابن كثير: نفس المرجع: ١/ ٣٩٠ ؛ الحلبي : انسان العيون: ١/ ٣٨٤ ؛ الزرقاني : شرح المواهب: ١/ ٢١٣ .

(٥) النمط: ظهارة الفراش . (ابن منظور : لسان العرب: مادة نمط)

(٦) الديباج ضرب من الثياب ، مشتق من: الديج ، وهو النقش والتزين ، فارسي معرب. (المرجع السابق : مادة ديج)

(٧) سورة العلق: الآيات ١ـ٥ .

فقرأها محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وانصرف المَلَكُ عنه ، وكأنما قد نُقشت كلماته في قلبه . ولكنه مالبث ان استيقظ فزعاً يسأل نفسه : أى شيء أرى ؟ اتراه اصابه ماكان يخشى من جِنَّة ؟ (١) وتلقّت يَمْنَة ويَسْرَة ، فلم ير شيئاً ، ومكث برهة اصابته فيها رعدة من الخوف ، وتولاه الوجل ، ففر من الغار وهو حائر لا يستطيع تفسير مارأى ، وانطلق هائماً في شعاب الجبل ، يسائل نفسه عمّن أمره بالقراءة !(٢)

لقد كان الى يومئذ يرى وهو في تحنثه الرؤيا الصادقة ، تنبلج من خلال تأمله، فتملأ صدره ، وتضيء أمله ، وتدلّه على الحق ؛ وهذا النور الذى أضاء أمامه ، وهذا الحق الذى هُدِىَ الى سبيله ، إنما هو وحي من خالق هذا الكون : الله ، جل جلاله ، الواحد الأحد . (٣)

وتوسّط محمدٌ صلى الله عليه وسلم الجبل ؛ وهو في هذه الحال من الفزع والخشية والمُساءلة ، واذا بصوتٍ متميزٍ يناديه من عِلٍ ، ويقول : يامحمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل ؛ فرفع راسه الى السماء جهة الصوت ، واذا بالمنادى مَلَكٌ في صورة رجلٍ صافٍ قدميه في أفق السماء ، فيأخذه الفزع لمرآه ، ويقفه الرعب مكانه ، ثم يحاول صرف وجهه عما يرى ، فاذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ، فما زال واقفا لا يتقدم أمامه ، ولا يرجع وراءه ، حتى بعثت خديجة رضي الله تعالى

---

(١) "عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : ياخديجة اني اسمع صوتا واري ضوءا ، واني اخشى ان يكون بي جنن ، فقالت : لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ....."
(ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٥ .)

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٦ـ٢٣٧ ؛ ابن سعد : المرجع السابق : ١/ ١٩٤ـ١٩٥ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٩٨ـ٢٩٩ ؛ البلاذرى : انساب الاشراف : ١/ ١٠٥ـ١٠٦ .

(٣) انظر : هيكل : محمد حسين : حياة محمد (دار الكتب المصرية ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٥٤ هـ) : ص ١٤٧ .

عنها رُسُلَها في طَلَبه ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا اليها بدونه ، حتى انصرف عنه المَلَكُ ، فعاد راجعاً فزعاً الى أهله . (١)

ب ـ بين يدى زوجه خديجة :

عاد محمد صلى الله عليه وسلم الى خديجة بعد هذا المشهد الرهيب ، فجلس الى فَخِذِها مضيفاً إليها (٢) ، فأبصرت ما بوجهه من فزع ، فجعلت تمسح عنه وتقول : ياأبا القاسم ، أين كنت ؟ لعلك لبعض ماكنت ترى وتسمع قبل اليوم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " ياخديجة ، أرأيتِ الذى كنت أرى في المنام ؟ ، والصوت الذى كنت اسمع في اليقظة وأُهالُ منه ؟ فانه جبريل ، قد استعلن لي وكلّمني ، واقرأني كلاماً فزعت منه ، ثم عاد فأخبرني أني نبيُّ هذه الأمة . "(٣)

لم تُبْد له خديجةُ أى خوفٍ أو ريبةٍ ، بل رَنَتْ اليه في حنان واكبار ، وقالت : " أبشر يا ابن عم . واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، اني لارجو ان تكون نبيّ هذه الأمة ، والله لايخزيك الله ابدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتَقْرِى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق ، وان فيك من صفات الخير ما يجعل للشيطان سبيلا الى نفسك . " (٤)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٦ـ٢٣٧ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٤ـ١٩٥ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك: الجزء الثاني : ص٢٩٩ـ٣٠٢ ؛ البلاذرى : انساب الاشراف: ١/ ١٠٦ـ١٠٨ ؛ المقدسي : البدء والتاريخ : ٤/ ١٤٠ـ١٤٢ ؛ ابن سيد الناس: عيون الأثر : ١/ ١٠٦ـ١٠٨ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٤٧ـ٢٤٨ .

(٢) مضيفاً : ملتصقاً . يقال : اضفت الى الرجل ، اذا ملت نحوه ولصقت به ، ومنه سمي الضيف : ضيفا . (ابن منظور : لسان العرب : مادة ضاف .)

(٣) ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ٢٣٧ـ٢٣٨ ؛ وانظر : البلاذرى : المرجع السابق : ١/ ١٠٩ـ١١٠ ؛ ابن سيد الناس: المرجع السابق : ١/ ١٠٨ـ١٠٩ ؛ الحلبي : المرجع السابق : ١/ ٢٤٠ـ٢٤١ ؛ الزرقاني : شرح المواهب اللدنية للقسطلاني : ١/ ٢١٢ـ٢١٣ .

(٤) ابن هشام : نفس المرجع والمكان ؛ وانظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

واطمأنّ رَوْعُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فقامت خديجة وجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمّها ، وكان قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل ، فأخبرته بما اخبرها به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتيني ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر[٢] الذى كان يأتي موسى ، وإنه لنبيّ هذه الأمة فقولي له فليثبت."[٣] ، فرجعت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بقول ورقة فهدأت نفسُه ، ثم صنع ماكان يصنع عند انصرافه من جواره بحراء ، فبدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقة بن نوفل ، وسأله عما رأى ، فأعاد عليه مانقلته اليه خديجة ، فقال ورقة مثل ماقاله لها ، وأضاف : ..... وَلَتُكَذَّبَنَّه ، وَلَتُؤْذَيَنَّه وَلَتُقَاتَلَنَّه ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه ؛ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومُك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوَمُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحدٌ بمثل ماأتيت إلا عُودى ، ثم ادنى راسه منه ، فقبل يافوخه[٤] ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله .[٥]

---

(١) راجع : موضوع حالة العرب قبل الاسلام في تمهيد البحث .

(٢) الناموس : هو صاحب سر الرجل في خيره وشره ، فعبر عن الملك الذى جاءه بالوحي بذلك ، وهو جبريل عليه السلام ، واهل الكتاب يسمونه الناموس الاكبر . (انظر : الزرقاني : شرح المواهب اللدنية للقسطلاني : ١/ ٢١٤ .)

(٣) ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ وانظر : البخارى : الجامع الصحيح : باب كيف كان بدء الوحي : ١/ ٣ ـ ٤ ؛ البلاذرى : انساب الاشراف : ١/ ١١١ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٢ ؛ ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ٩٦ ؛ الزرقاني : نفس المرجع والمكان .

(٤) اليافوخ : وسط الراس . (انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة يفخ)

(٥) انظر : ابن هشام : نفس المرجع والمكان ؛ البخارى : نفس المرجع والمكان ؛ البلاذرى : نفس المرجع والمكان ؛ الطبرى : نفس المرجع والمكان ؛ ابن سيد الناس : نفس المرجع والمكان ؛ الزرقاني : نفس المرجع والمكان .

جـ ـ حصافة خديجة في معرفة المَلَك :

ارادت خديجة رضي الله تعالى عنها ان تستوثق من أنّ ما يراه زوجها صلى الله عليه وسلم ، حق من عند الله ، وليس وهم من فعل الشيطان ، فعمدت الى تجربةٍ ذكيةٍ ، أكّدت لها كل ما كانت تُحس به في داخلها من أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ينتظره شان عظيم : ـ

قالت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى ابن عم ، أتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . فلما جاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع ، قال عليه الصلاة والسلام لزوجه : ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءني ، قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها . قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحول فاجلس في حِجْرى . فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها . فسالته ثانية : هل تراه ؟ قال نعم . فتحسَّرتْ خديجة رضي الله تعالى عنها ، وألقت خِمارَها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها . ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : لا . فاستبشرت وقالت لزوجها مؤكّدَةً : يا ابن عم ، اثبت وأبشر ، فوالله إنه لَمَلَكٌ وما هو بشيطان . (١)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٨ـ٢٣٩ ؛ البيهقي : دلائل النبوة ١/ ٤٠٧ ؛ ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ١٠٩ـ١١٠ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤١٠ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٢ .
وقال بعض الرواة ان ذلك كان من خديجة بارشاد من ورقة بن نوفل . (انظر : الحلبي : المرجع السابق : نفس المكان .)
ومعنى تحسَّرت : تكشفت (الفيروز ابادى : القاموس المحيط : مادة حسر)
وخمارها : غطاءها . وكل ما ستر شيئا فهو خماره . وتخمرت به واختمرت : أى لبسته . والتخمير : التغطية . (المرجع السابق : مادة خمر .)

لقد أيقنت خديجة بفطرتها السليمة ، أن المَلَكَ لا يمكن أن يبقى في مكان به امرأة حاسرة الرأس ، فلما تأكدت من ذلك ، بشّرت زوجَها صلى الله عليه وسلم بحقيقة وصدق ما يرى ، وأنه مَلَكٌ من عند الله تعالى ، وليس بأوهامٍ أو خيالاتٍ من من فعل الشيطان . قال البيهقي : "وهذا شيء كانت خديجة رضي الله تعالى عنها تصنعه لتتثبّت به لأمره احتياطاً لدينها وتصديقها ." (١)

د ـ فتـــور الوحـــي :

فَتَرَ(٢) الوحيُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانقطع عنه جبريل عليه السلام ، فلم يعد يواصله بوحي السماء ؛ ولم يكن يتوقع هذا الفتور ، بعد الذي سمعه من جبريل ومن ورقة بن نوفل ، وذهبت به الظنونُ مذاهبَ شتى ، وجعل يتردد على غار حراء ، فيعتكف فيه كما كان يفعل ، ويخرج الى رؤوس الجبال فيتطلع منها في نواحي السماء ، لعله يرى جبريل او يسمعه ، وكان اخشى ما يخشاه ان يكون ما سمعه في الغار ليس بوحي ، وما رآه في الافق ليس بمَلَك ، وأنه خُيّل له ما يُخيل للكهان من شياطينهم ، فكان اذا مر بذهنه هذا الخاطر ، انقبض له صدره ، وضاقت به نفسه ، وذهب الى خديجة يُفضي اليها بهمه وحزنه ، ويشكو لها ما يخامره من هذه الهواجس ، فتُطمئنه ، وتُزيل عنه مخاوفه ، بما كانت تحيطه به من العطف والرعاية والمواساة . (٣)

---

(١) دلائل النبوة : ١/ ٤٠٧ـ٤٠٨ .
(٢) فتر : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، والمقصود : غياب الوحي .
(انظر : الفيروزابادي : القاموس المحيط : مادة فتر ٢/ ١٠٧)
(٣) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٦ ؛ البيهقي : المرجع السابق ١/ ٣٩٥ـ٣٩٦ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤١٢ ؛ الحلبي انسان العيون : ١/ ٢٥١ وما بعدها .

وطالت فترة الوحي [١] ، حتى ظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ربه قد تَركه وقلاه ، واشتد به الحزن حتى كاد يقضي عليه [٢] ، وكثر تردده على الجبال ، وتطلعه الى السماء ، تلهفاً على عودة الوحي ، وتشوقاً الى رؤية جبريل عليه السلام ثم لم يلبث ان أدركه الله تعالى برحمته ، فارسل اليه جبريل ، واذا به يتراءى له في افق السماء مرة اخرى ، يناديه بصوته المميز العظيم : يامحمد ، أنت رسول الله حقاً ، وأنا جبريل . ويرعب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً هذه المَرّة كما رعب في الاولى ، فيهوى الى الأرض من هول مايرى ويسمع ، ثم يذهب الى اهله مقروراً [٣] ، فيقول : زملوني ، دثروني . [٤] فانزل الله تبارك وتعالى قولـــه :

---

(١) اختلف رواة السيرة في مدة فترة الوحي ، قيل كانت اثنى عشر يوما ، وقيل : خمسة عشر يوما ، وقيل خمسة وعشرين ، وقيل اربعون ، وقيل انها كانت سنة ونصف ، وقيل ثلاث سنين .
(انظر : السهيلي : الروض الانف : ٣/ ١٦١ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤١٤ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٥ وما بعدها ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٣٠ وما بعدها)
والذى ترتاح اليه النفس ان هذه الفترة تقدر بالشهور التي لاتزيد عن العام ، فان الله تعالى ارحم من ان يترك عبده صلى الله عليه وسلم في هذه الحالة من القلق والاضطراب فترة تقدر بالسنين ، فضلا عن ان المصادر الاصلية للسيرة لم تذكرها فوقفت عند تقديرها .
(انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٤١ ؛ ابن سعد : الطبقات: ١/ ١٩٦ ؛ البخارى: الصحيح : ١/ ٣ + ٦/ ١٧٤ ، مسلم : الامام ابو الحسين بن مسلم... القشيرى (ت٢٦١هـ) الجامع الصحيح بشرح النووى (دار الفكر بيروت١٣٩٢ هـ) : ٢/ ٢٠٥ . وبتفصيل اكثر انظر: محمد ابو زهرة: خاتم النبيين (دار الفكر العربي بالقاهرة١٩٧٢م) ١/ ٣٩٧ـ٤٠٣ .
(٢) رُوِىَ انه كان يتردّى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة كي يلقي نفسه منها، تَبدّى له جبريل . (انظر: ابن عبد البر: الدرر١/ ٣٥ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر ١/ ١٠٧ ؛ ابن كثير: نفس المرجع: ١/ ٤١٢ ؛ الحلبي : نفس المرجع١/ ٢٥١ وبعدها؛ الزرقاني : نفس المرجع: ١/ ٢١٦ .
(٣) مقروراً: من القر وهو البرد . والمعنى مرتعدا كمن اصابه برد الشتاء القارس .
(انظر : الفيروزابادى : القاموس المحيط : مادة قر ٢/ ١١٥ .)
(٤) انظر : ابن سعد : نفس المرجع والمكان ؛ ابن كثير : المرجع السابق : ١/ ٤١٢ـ٤١٤ ؛ الحلبي : المرجع السابق : ١/ ٢٥٧ ومابعدها ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢١١ـ٢١٢ .

" ياأيها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . "(١)

قُـــرت عينُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماع الوحي ، بعد الفترة ، وربَط جأشُه ، واطمأنت نفسُه ، فقد ايقن انه رسول الله حقا ، وأن الله يدعوه لبدء رحلة جديدة من حياته ، ثم تتابع الوحي بعدُ ، وحَمِيَ.(٢)

تبارك وتعالى

هذا إذن هو الحق وكل مادونه باطل ، الذى اختصه ـــ دون سائر خلقه ـــ للقيام بامر الدعوة اليه ، والتي يلزم لها ان يطهر جسده وثيابه ، وأن يهجر ـــ كما كان يفعل قبل البعث ـــ كل منكر ينخرط فيه قومه ، وان يصبر على ماسوف يلاقيه من الأذى ، في سبيل الدعوة الى هذا الحق ، حتى ينير للناس جميعاً سبيلَ الهُدَى ، وطريقَ العلم بما لم يكونوا يعلمون .(٣)

حسبُه هذا ، ولْيَدْعُ الى الحق جاهداً ماستطاع ، ذلك أمر الله الى نبيه الذى اصطفاه ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على مايلقى من قومه من الخلاف والأذى . وكان طبيعياً أن تسارع خديجة الى الايمان بما جاء به زوجها ، النبي الرسول من عند الله تعالى ، فتكون أول من آمن به ، فخفّف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكان لايسمع شيئا مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ، فيُحزنه ذلك ، إلا فرّجَ الله عنه بها إذا رجع اليها ، تُثبّته ، وتُخفف عليه ، وتُصدّقه ، وتُهوّن عليه أمرَ الناس .(٤)

---

(١) سورة المدثر : الآيات ١ـــ٥ . وانظر اسباب نزول هذه الآيات في : البخارى: الجامع الصحيح : كتاب بدء الوحي وكتاب التفسير ؛ مسلم : الجامع الصحيح كتاب التفسير ؛ الواحدى : ابي الحسن علي بن احمد النيسابورى (ت٤١٨هـ) اسباب النزول (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر طبعة... ثانية ١٣٨٧ هـ ـــ ١٩٦٨ م) ص: ٢٥٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٩ ؛ ابن سعد : الطبقات ١/ ١٩٦ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٥ ومابعدها ؛ الزرقاني : شـــرح ... المواهب : ١/ ٢٣٠ .

(٣) انظر : هيكل : حياة محمد : ص ١٤٠ .

(٤) انظر : ابن هشام : المرجع السابق ١/ ٢٤٠ ؛ ابن سيد الناس: عيون الاثر : ١/ ١١٤ ؛ الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ٢٣٧ .

هـ ـ مراتب الوحي وحالاته :

إن الوحي شأنٌ متصلٌ بشخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الاولى ، والدعوة الى الله تعالى إنما كانت بعد اتصاله بهذا الوحي [١] الذى كان بوساطته ، يبلغ آيات الله البينات ، التي احتواها دستورُه الخالد : القرآن الكريم .

وقد جاءت صور وحي الله تعالى الى انبيائه وسائر خلقه ، مُجْمَلةً ، في قوله عز من قائل : " وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء . "[٢]

فبيّن الله تعالى أن كلامه لعباده ، على ثلاثة أوجه : ـ

أحدها : الوحي ، سواء بطريق الالهام ، او الرؤيا في المنام .

والآخر : أن يسمعه الله تعالى كلامه من وراء حجاب ، كما كلم موسى عليه السلام .

والثالث : الوحي بوساطة الملك ، وهو جبريل عليه السلام ، وهذا خاص بالانبياء.[٣]

وباستقراء اخبار الوحى ، من السيرة النبوية الطاهرة ، يمكن تقسيمه الى مراتب سبعة :

---

(١) انظر : دروزة : محمد عزة : سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥م) الجزء الاول : ص ١٢١ .

(٢) سورة الشورى : آية ١٥ .

(٣) انظر : الغرناطي : ابو القاسم ، محمد بن احمد بن جزى ، الكلبي (ت ٧٤١هـ) التسهيل لعلوم التنزيل ، تحقيق : محمد عبد المنعم اليونسي ، ابراهيم عطوة عوض ـ دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ بدون تاريخ ـ الجزء الرابع) : ص ٢٤ ، ابن كثير : تفسير القران العظيم (دار الفكر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) الجزء الثالث : تفسير سورة الشورى .

المرتبة الاولى : الرؤيـــا الصـــادقة

وهذه المرتبة قد تكون قبل النبوة أو بعدها ، وقد صادف الرسول صلى الله عليه وسلم كلتا الحالتين[١] :

روى الامام البخارى ، عن عائشة أم المومنين رضي الله تعالى عنها ، انها قالت : "أول مابُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ...."[٢] ، فكان هذا قبل النبوة ، ثم حبب الله تعالى اليه الخَلْوَة ، فلم يكن شيء أحب اليه من أن يخلوَ وحده ، حتى اذا كانت الليلة التي اكرمه اللهفيها برسالته ، ورحم العباد بها ، جاءه جبريل عليه السلام بامر الله تعالى وهو في غار حراء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فجاءني جبريل ، وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب...."[٣] ، فهذا بعد ان اختاره الله تبارك وتعالى لتبليغ دعوته .

وهذه المرتبة (الرؤيا الصادقة) كانت توجب التكليف احياناً ، ذلك مثل ماقص علينا القرآن الكريم ما كان من أمر ابراهيم مع ولده اسماعيل عليهما السلام في قصة الفداء ، حيث قال له : "يابني إني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى. قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ."[٤] ، فدل هذا على أن رؤياه في المنام ، إنما هي امر له بالتكليف والتنفيذ .[٥]

---

(١) انظر: ابن القيم : ابي عبد الله شمس الدين بن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) : زاد المعاد في هدى خير العباد (هامش شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ طبعة ثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٣ م) ١/ ٥٨ . وراجع مقدمات الوحي باول هذا المبحث .

(٢) الجامع الصحيح : كتاب كيف كان بدء الوحي : ١/ ٣ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٣٦ ، وانظر : ابن سعد : الطبقـــات الكبرى : ١/ ١٩٤ ، الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٤١ ، الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٥ .

(٤) سورة الصافات : آية ١٠٢ .

(٥) انظر : السهيلي : الروض الأنف : ٢/ ٣٩٢ـ٣٩٣ ، ابن القيم : نفس المرجع والمكان ، الحلبي : المرجع السابق ١/ ٢٥٢ وما بعدها ، الزرقاني : نفس المرجع والمكان .

المرتبة الثانية : النفث في الـــروع

وذلك كما يدل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : "إن روحَ القُدُس نفث في رُوعي (١) انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها..." (٢)

اى ألقى الوحيُ في خلدى وبالي ، ويُستفاد من هذا التعبير أن المَلَك هـــو الوساطة بين الله ورسوله . فهو ينفث في رُوع الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر اللـه تعالى اليه ، فكان بذلك وحياً ، وكان بطريق المَلَك .

والوحي بهذا المعنى يكون بلقاء الروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام (٣) ، في النفس والقلب والعقل ، دون ان يكون عياناً حال المخاطبة . (٤)

---

(١) الرُّوع : بالضم ، هو القلب أو موضع الفزع منه أو سواده ، والذهن ، والعقل (انظر : الفيروز ابادى : القاموس المحيط : مادة روع : ٣/ ٣٢)

(٢) البخارى : الجامع الصحيح :

(٣) سَمَّى القرآن الكريم ، جبريل عليه السلام ، بأنه روح القدس ، أو الروح الأميـن كما تفيده الآيات التالية :ـ

"قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديـه وهدًى وبشرى للمؤمنين . " (البقرة / ٩٧)

" قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهـدًى وبشـــرى للمســـلمين . " (النحل / ١٠٢)

" نـــزل به الروح الأمين . " (الشعراء / ١٩٣)

قال الزرقاني : "سُمي به لأنه يأتي بما فيه حياة القلوب ، فانه المتولي لانزال الكتب الالهية ، التي بها تحيا الارواح الربانية ، والقلوب الجسمانيـــه ، كالمبدء لحياة القلب ، كما ان الروح مبدأ لحياة الجسد . وأضيف الى القدس لأنه مجبول على الطهارة والنزاهة من العيوب ، وخص بذلك لاختصاصه بنزوله بالقدس من الله ، اى بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الالهي ." (شرح المواهب اللدنيه ١/ ٢٢٧)

(٤) انظر : السهيلي : الروض الأنف : ٢/ ٣٩٢ـ٣٩٣ ؛ ابن سيـد الناس : عيون الأثر : ١/ ١١٢ ؛ ابن القيم : زاد المعاد : ١/ ٥٨ ؛ الحلبي : انسان العيون في سيرة الأمين المأمون : ١/ ٥٢ وما بعدها ؛ الزرقاني : المرجع السابق ، نفس المكان .

المرتبة الثالثة : مخاطبـــة المـــلك :

حتى كان يتمثل له رجلاً ، فيخاطبه ، فيعي عنه مايقول : ــ

فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : "وان جبريل يأتيني فيكلمني كما ياتي أحدكم صاحبه فيكلمه ، ويبصره من غير حجاب"

وفي هذه المرتبة ، كان المَلَك يأتيه على صورتين :

الأولى : صورة دحيـه الكلبي :

وعلى هذه الصورة كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن من يخاطبه ، هو جبريل عليه السلام ، متمثلاً في صورة هذا الصحابي الجليل . (١)

---

(١) انظر : النسائي : ابوعبد الرحمن ، احمد بن شعيب بن علي ، الخراساني ، ثم المصرى (ت : ٣٠٣ هـ) : السنن الكبرى (بسند صحيح من حديث ابن عمر)
ودحية هو : ابن خليفة بن فضالة بن فروة ، الكلبي . ودحية بلسان اهل اليمن هو : رئيس الجند .
وكان دحية جميلا وسيما ، إذا قدم لتجارة خرجت الظُّعُن (بضم الظاء ، والعين: النساء ، من ظَعَن اى سار ، والظعينة : المرأة مادامت في الهودج ، وسميت كذلك لان زوجها يظعن بها : أى يسير بها وهي في هودجها . والمقصود : خروج النساء من خبائهن ــ انظر الفيروزآباد القاموس المحيط : مادة ظعن : ٤/ ٢٤٥ ؛ الزرقاني : شرح المواهب اللدنيه : ١/ ٢٢٧) ؛ لتـراه .
وحكوا ايضا انه اذا قدم من الشام ، لم تبق معصر (الفتاة بلغت سن المحيض وادركت او راهقت العشرين ــ انظر : الفيروز ابادى : المرجع السابق : مادة عصر : ٢/ ٩٠ ؛ الزرقاني : المرجع السابق : نفس المكان) ، الا خرجت تنظر اليه لفرط جماله .
وقد شهد رضي الله تعالى عنه المشاهد كلها بعد بـدر .
(انظر : الزرقاني : المرجع السابق ، نفس المكان .)

والثانية : على صورة اعـرابي لا يعرفـــه :

كما أوضح ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : " وأحياناً ، يتمثل لي المَلَكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " (١) ، انه كما وقع في حديث عمر رضي الله تعالى عنه ، حيث قال : " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات... يوم ، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب ، شديدُ سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، ..... ، ثم انطلق ، فلبثت مَلِيّاً ، ثم قال لي : ياعمر ، اتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله اعلم ، قال : فانه جبريل ، أتاكم يُعلمكم دينكم . " (٢)

وفي روايةٍ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بارزاً للناس ، فاتاه رجلٌ ، ..... ، ثم أدبر الرجـل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردّوا عليّ الرجل ، فأخذوا ليردوه ، فـلم يَرَوْا شيئا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم . " (٣)

وتدل هاتين الروايتين ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يعرفه إلا في آخر الأمر .

ومجيء جبريل عليه السلام في صورة رجل ، ليس معناه أن جبريل الأمين نُزع من روحانيته ، أو ذهبت عنه الروحانية ، فالواقع انه مازال روحاً ، والذى ظهر عليه هو ظهور الروح في صورة جسدية ، أما معاني المَلَك ، فما تزال ثابتة ، قائمة ، ولا يوجد مايمنع عقلا ان تظهر الروح في صورة انسان له جسد ، ودحية : الانسان البشر

---

(١) البخارى : الجامع الصحيح : باب كيف كان بدء الوحي : ١/ ٣ .
(٢) مسلم : الجامع الصحيح : باب أمارات الساعة : ١/ ١٥٧ـ١٦٠ .
(٣) المرجع السابق : باب إثبات القدر : ١/ ١٦١ـ١٦٢ .

لاشأن له في هذا التغير الصورى ، بل هو حي في جسده ، يأكل ويشرب ويمارس الحياة الانسانية كاملة . (١)

وكَوْنُ روح القدس جبريل يظهر في جسد ، لا يقتضي أن يتحول الجسد الى مَلَك ، ولا ان يتحول المَلَك إليه ، لأنها ليست امراً عضوياً ، ولكنها روح مَلَك ، تفيض او تظهر في جسم يخلقه الله تعالى ، وهو الخلاق العليم ، فاذا غاب المَلَك غاب معه الجسد الانساني . (٢)

المرتبة الرابعة : ان ياتيه مثل صلصلة الجرس

روت عائشة ، أم المؤمنين ، رضي الله تعالى عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " يارسول الله ، كيف يأتيك... الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيُفصم عني ، وقد وَعيتُ عنه ما قال ، ..... ، قالت عائشة : ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيُفصم عنه ، وان جبينه ليتفصّد عرقاً . " (٣)

---

(١) انظر : الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٣ـ٢٥٤ ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٧ـ٢٢٨ ؛ محمد ابو زهرة : خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم (دار الفكر العربي بالقاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٧٢ م) ١/ ٤٠٥ .

(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٣) البخارى : الجامع الصحيح : باب كيف كان بدء الوحي : ١/ ٢ـ٣ .
وانظر : السهيلي : الروض الانف : ٢/ ٣٩٤ ؛ ابن عبد البر : الدرر : ١/ ٣٣ـ٣٥ ؛ ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ١١٢ ؛ ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٢١ ؛ الحلبي : المرجع السابق ، ١/ ٢٥٦ـ٢٥٧ ؛ الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ٢٢٨ـ٢٢٩ .
ملحوظة : الحديث أخرجه ايضا : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٨ .

ويُفهم من هذه المرتبة ، أن روح القدس الطاهر ، يختلط بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويُمازج روحه وجسده ، ويخاطبه بصوت قوى مميز فيه عنف كعنف صلصلة الجرس ، يسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يسمعه غيره ، ويحس في نفسه ولا يحس غيره ، ويكلمه بكلام مفهوم يعرفه الرسول ويعيه ، حتى اذا انفصل عنه الملك ، كان قد وعي كل ما سمع عنه ، وهو كل ما اراد ان يبلغه للرسول صلى الله عليه وسلم عن الله تبارك وتعالى . (١)

المرتبة الخامسة : أن يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها ، فيوحي اليه ما شاء الله تعالى ان يوحيه .

وقد صادف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المرتبة مرتين ، كما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ، حيث قال جل وعلا :

"وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الاعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين او أدنى . فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفواد ما رأى . افتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . " (٢)

ويُفهم من هذه الآيات الكريمة ان جبريل عليه السلام قد دنا من الأرض ، وأنه اقترب من محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى كان بينهما "قاب قوسين" اى بقدر

---

(١) انظر : ابن القيم : زاد المعاد : ١/ ٥٩ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٦ـ٢٥٧ ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٨ـ٢٢٩ ؛ ابو زهرة : خاتم النبيين : ١/ ٤٠٦ .

(٢) سورة النجم : الآيات ٣ـ١٤ .
والراجح ان الأوصاف التي وردت في الآيات الكريمة ، هي اوصاف الملك ، وان كلمة عبده تعني النبي صلى الله عليه وسلم . (انظر : محمد عزة دروزة : سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم (مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة الطبعة الثانية ـ١٣٩٢ هـ ـ١٩٦٥ م) ١/ ١٢٣ .

قوسين إذا مُدّا . وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء ، بل قبلها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الارض ، حين سأله ان يريه نفسه وهو بغار حراء اوائل البعثة ، بعد فترة الوحي ، فهبط جبريل على الرسول سلام الله عليهما ، وتدنى اليه ، فاقترب منه ، وهو على الصورة التي خلقه الله عليها : له ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سد الافق ، حتى مايرى في السماء شيئاً ، يسقط من جناحه من الدُّر والياقوت ماالله به اعلم ، ثم رآه ـ بعد ذلك ـ مرة اخرى ، عند سدرة المنتهى ، ليلة الاسراء . (١)

واختلف العلماء فيما كانت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام كانت بحقيقته التي خلقه الله عليها ، ام انه قد تمثل له في هذه الصورة الجديدة ؟ فهي بذلك لاتختلف كثيرا عن المرتبة الثالثة . (٢)

والذى تطمئن اليه النفس ، واختاره ابو زهرة ـ كما اخترته ايضا ـ ان هذه الرؤية الروحية ، كانت بنور البصيرة وبقوة الروح ، لابنور البصر ولا بشكل جسمي ؛ لأن جبريل روح ، فكيف يراه صلى الله عليه وسلم ، إلا ان يكون محسوسا ؟ (٣)

---

(١) انظر : الطبرى : ابو جعفر ، محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن (دار المعرفه ـ بيروت ـ الطبعة الثانية بالاوفست ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢م عن الطبعة الاولى الاصلية بالمطبعة الاميرية الكبرى ببولاق مصر المحميه ١٣٢٨ هـ) ٢/ ٢٦ ـ ٣٤ ؛ السهيلي : الروض الانف: ٢/ ٣٩٥ ؛ ابن القيم : زاد المعاد : ١/ ٥٩ ؛ ابن كثير : تفسير القرآن : ٤/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣ ؛ الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ؛ الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

(٣) خاتم النبيين : ١/ ٤٠٧ .

المرتبة السادسة : الوحي المباشر من الله جل جلاله ، الى نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج ، من فرض الصلاة وغيرها من التكاليف :

وهذه المرتبة من الوحي هي التلقي عن الله تعالى مباشرة ، لا بطريق الرؤيا الصادقة في المنام ، ولا بطريق مَلَك على أى حالٍ من الأحوال .

وهذا لا يقتضي الرؤية الذاتية ، فان الله تعالى يكلم العبد المختار لرسالته من وراء حجاب ، دون رؤية لذاته العلية ، وذلك هو مفهوم الآية الكريمة ، التي اوردناها في اول كلامنا عن مراتب الوحي : " ..... إلا وحياً أو من وراء حجاب". ولقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : إنه نور ، فاني أراه . فهذا التفسير الذى اوضحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن رؤية الله تعالى ، يتلاقى مع المرتبة السابعة ، التي سوف نذكرها ، واذا اردنا التمييز بينهما ، فاننا نقول: إن المرتبة التي نحن بصددها ، إنما كانت وحياً مباشراً من الله تبارك وتعالى ، الى نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه من غير توسط ، وليس بكلام تكلمه رب العالمين . (١)

و١) انظر : ابن القيم : زاد المعاد : ١/ ٥٩ ؛
الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٧ـ٢٥٨ ؛
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٢٣٠ ؛
ابو زهرة : خاتم النبيين : ١/ ٤٠٧ .

المرتبة السابعة : وهي كلام الله تعالى الى نبيه الكريم بلا وساطة ملك :

وذلك كما كلم الله موسى عليه السلام ، ولا ينافي ذلك قول الله تبارك وتعالى : "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً او ..." لأن معناه : كلاماً خفياً يُدرك بسرعة ، فهو ـ في ذاته ـ ليس مُركبا من حروف مقطعة ، يتوقف على تموجات متعاقبة ـ كما هو الحال في كلام البشر ـ وعطف قوله تعالى : "... أو من وراء حجاب ..." عليه ، يؤيد مانقول . (١)

وهذه المرتبة ثابتة لموسى عليه السلام ، ثبوتاً قطعياً بنص القران الكريم (٢) ، كما هي ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، في حديث الاسراء والمعراج . (٣)

وبهذا التفسير ، يتبين ان المرتبة السابعة ، تتداخل مع المرتبة السادسة ، ويمكن اعتبارهما مرتبة واحدة ، لانفصال بينهما . (٤)

---

(١) انظر : ابن القيم : زاد المعاد في هدى خير العباد : ١/ ٥٩ ؛
الحلبي : انسان العيون في سيرة الامين المامون : ١/ ٢٥٨ـ٢٥٩ ؛
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٢٣٠ـ٢٣١ .

(٢) قال عز من قائل :
"... وكلم الله موسى تكليما ." (سورة النساء : آية ١٦٤)
وقال جل جلاله :
"ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ..." (سورة الاعراف : آية ١٤٣)

(٣) انظر : البخاري : الجامع الصحيح : كتاب الصلاة : باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء : ١/ ٩١ـ٩٣ .

(٤) انظر : الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ٢٣١ـ٢٣٢ ؛
ابو زهرة : خاتم النبيين : ١/ ٤٠٨ .

و ــ معاناة الرسول عند نـــزول الوحـــي :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعاني شدةً واضحةً عند نزول الوحي؛ وكان ميسورا لأصحابه رضوان الله عليهم ، ان يلاحظوا عليه تلك الشدة ، فيعلمون انه يوحى اليه وقتها ٠ ولقد أخبر بعضهم عما كان يعانيه صلوات الله وسلامه عليـه؛ مما تدل عليه الروايات التالية : ــ

١ ــ عن عُبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم : "كان اذا نزل عليه الوحي ، كُرِب له ، وَتربَّد وجهُه ٠ " (١)

٢ ــ عن ابي أروى الدوسي رضي الله تعالى عنه انه قال : "رأيت الوحي ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم وانه على راحلته ، فترغو وتفتل يديها ، حتى اظن ان ذراعها تنقصم ، فربما بَركت ، وربما قامت موتدة يديها ، حتى يُسرّى عنه من ثقل الوحي ، وانه ليتحدر منه مثل الجُمان ٠" (٢)

٣ ــ عن عروة بن الربيع رضي الله تعالى عنه انه قال : "كان اذا أُوحي إليه صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، وَضَعتْ جِرانَها ٠" (٣)

٤ ــ عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال : "كان اذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ ، يُسمع عند وجهه دَوِيٌّ كدوِيّ النَّحل ٠" (٤)

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٧ ؛
وانظر : الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٦ــ٢٦٠ ؛
الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٨ــ٢٣٠ ٠

(٢) ابن سعد : نفس المرجع والمكان ؛ وانظر : مسلم : الجامع الصحيح : باب عرق النبي حين ياتيه الوحي ؛ الحلبي : نفس المرجع والمكان ؛ الزرقاني : نفس المرجع والمكان ٠ ومعنى الجُمان : اللؤلؤ الصغار أو خرز يتخذ من الفضة مثله.
(انظر : الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ٢٢٩)

(٣) ابن عبد البر : الدرر : ١/ ٣٣ ؛
وانظر : الحلبي : نفس المرجع والمكان ؛ الزرقاني : نفس المرجع والمكان ٠
" والجِران : مقدم عنق الناقة والبعير ، من مذبحه الى منحره ٠ "
(الفيروز ابادى : القاموس المحيط : مادة جرن : ٤/ ٢٠٩)

٥ ــ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم انه قال :

"كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي ، يعالج من ذلك شدةً ."(١)

وكانت أشد الحالات على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما كان يأتيه الوحي مثل : صلصلة الجرس(٢) ، "لما قيل انه يأتيه في هذه الحالة بالوعيد ، والنذارة ، وأن ذلك يستجمع قلبه عند تلك الصلصلة ، فيكون أوعى لما يسمع." (٤)

٦ ــ عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه انه قال : كنت اكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان اذا نزل عليه ، ثَقُل لذلك ، وأخذته بُرَحاء شديدة ، وعرق عرقاً شديداً مثل الجُمان ، ومرةً وقع فخذه على فخذي ، فوالله ما وجدت شيئاً أثقل من فَخِذِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٥)

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٩٨ ؛
وانظر : الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٦ــ٢٦٠ ؛
الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٨ــ٢٣٠ .

(٢) انظر : حديث عائشة عن الحارث بن هشام رضي الله تعالى عنهم ، عندما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان يأتيه الوحي ؟
وقد ذيلت السيدة عائشة حديثها بقولها : " .... ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيُفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا ." قال الحلبي : "وذلك من كثرة معاناة التعب والكرب (نفس المرجع والمكان) . والحديث اخرجه الامام البخاري : الجامع الصحيح : باب كيف كان بدء الوحي : ١/ ٢ــ٣ .
وراجع : المرتبة الرابعة من مراتب الوحي من هذا المبحث .

(٣) الحلبي : المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤) ابن سيد الناس : عيون الاثر : ١/ ١١٢ .

(٥) انظر : الحلبي : المرجع السابق ، نفس المكان ؛
الزرقاني : المرجع السابق ، نفس المكان ؛
"البرحاء : شدة أذى الحمى" (المرجع السابق ، نفس المكان)
والاحاديث تصور بوضوح ، ماكان يعانيه الرسول صلى الله عليه وسلم من تعب وكرب ، يظهر جلياً على ملامح وجهه ، من ارباد وعرق (يقال : كَرَبه الامر : اى اشتد عليه فهو مكروب ــ انظر : لسان العرب مادة كرب ١/ ٧١١ــ٧١٢ ، ويقال : تربد وجهُه : اى تغير الى الغبرة . ويقال : تربدت السماء : اى تغيرت الى الغبرة وهو لون من السواد ــ انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة ربد ٣/ ١٧٠)

٧ ــ وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي ، صُدِّعَ ، فيغلف رأسه بالحناء ." (١)

وعنه رضي الله تعالى عنه ايضا انه قال : "كان رسول الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي ، لم يستطع أحد منا ان يرفع طرفه اليه حتى ينقضي الوحي ، واستقبلته الرعدة ، وغمض عينيه ، وربما غط كغطيط البكر ." (٢)

وهذه الشدة التي يعانيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، عند نزول الوحي إنما تفيده بما يترتب على المشقة ، من زيادة الزلفى ورفع الدرجات عند الله تعالى ، كما ان الكلام العظيم ، له مقدمات تُؤذن بتعظيمه للاهتمام به ، ليستجمع قلبه ، فيكون أوعى لما يسمع . (٣)

---

(١) الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٥٦ــ٢٥٨ ؛
وانظر : الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٢٩ــ٢٣٠ .
(٢) الحلبي : المرجع السابق ، نفس المكان ؛
وانظر : الزرقاني : المرجع السابق ، نفس المكان .
(٣) انظر : الحلبي المرجع السابق : ١/ ٢٦١ــ٢٦٣ ؛
الزرقاني : المرجع السابق : ١/ ٢٢٨ــ٢٢٩ .

١ ـ الدعوة السـرية :

إن الجهر بالدعوة الى المبادئ فجأةً ، أمرٌ خطير ، لا يوصي به المشتغلون في حقل الخدمة الاجتماعية.(١)

وإعداد القيادة داخل المجتمع قبل اعلان المبادئ ، جزءٌ من منهج العمل مع الجماعة ، توصي به وتؤكده الدراسات الاجتماعية ، التي نيط بها وظيفة التغيير الاجتماعي المرغوب فيه .(٢)

وهذا المبدأ الهام ، قد أسسته من قبل : الدعوة الاسلامية ، في دار الأرقم بن ابي الأرقم ، حيث اختار الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم الأشخاص الذين توسم فيهم الاستجابة لدعوة الحق ، يجتمع فيها بهم ، يقيمون الصلاة ، ويتدارسون القرآن ، ويتلقون عنه صلى الله عليه وسلم تعاليم الدين والاخلاق ، ويتعهدهم بالتربية والإعداد بعيداً عن المجتمع الجاهلي ، الذى يعيشون بينه.(٣)

واتخذت هذه المرحلة دوراً سرياً حتى تكتمل التربيه للقيادة ، بعيداً عن جاذبية المجتمع ، التي تضغط دائماً على المبادئ في مهدها لتموت ، ولذا فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخير الاشخاص اولا ، ثم ينأى بهم عن الضغط الاجتماعي ، حتى تسربت مبادئ دعوة الاسلام إلى المجتمع كالنور ، يقهر الظلام ويحل محله ، رويداً رويداً .(٤)

---

(١) انظر : شلبي : دكتور متولي يوسف وشهرته رؤوف : الدعوة الاسلامية في عهدها المكي ، مناهجها وغاياتها (مجمع البحوث الاسلامية بالازهر ـ طبعة اولى ـ القاهرة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م) ، ص: ١٩٨ .

(٢) انظر : دكتور سيد ابو بكر حسنين : دراسات في تنظيم المجتمع (المطبه الفنيه الحديثة بالقاهرة ـ طبعة اولى ـ ١٩٦٩ م) ؛
دكتور احمد كمال احمد : الخدمة الاجتماعية والمجتمع (دار الحمامي للطباعة والنشر ـ طبعة ١٩٦٣ م)

(٣) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٢٧ ؛
دروزة : سيرة الرسول : ١/ ١٧٠ .

(٤) انظر : شلبي : المرجع السابق / ١٩٩ .

لقد كانت الدعوة ابتداءً خِفْيةً ، لتتكون خليةُ الاسلام الأولى . فكل فكرة جديدة لابد أن تلتقي حولها قلوبٌ مومنةٌ ، تتولىّ ، من بعد ذلك ، إعلانَها والمجاهرة بها . وَمَثَلُ الدّعوة الخَفِيّة ، كَمَثَلِ تَكَوّن الجنين في بطن أمه ، فانه لا يظهر عندئذ للوجود حياً حياةً كاملةً ، صالحاً لأن يقاوم دواعي الفناء ، والأخذ من عناصر البقاء ، والتغذى بكل أسباب القوة . فكذلك الدعوة الى كل فكرة ، تقتضي التدبير الخفيّ ، ثم الإعلان الجليّ . (١)

ولكن يجب ان نعلم ان الاستخفاء في هذه الفترة ، لم يكن استخفاءً بالدعوة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يُعلن ماجاء به من نذير ، وما في جعبته من تبشير ، ولكن الذى يُستخفي به هو إقامةُ العبادة التي دعا اليها رب العالمين . ولذلك كان اضطهاد المؤمنين من الضعفاء ، واضطهاد النبي صلى الله عليه وسلم ايضا قبل ان يُسلم حمزة وعمر ، وخروج المسلمين صفوفاً مُعلنين الاسلام ، مُجابهين المشركين ، مُتحدين قوة الشرك بقوة الله تعالى : قوة الحق ، ثم بالصبر المُستعذب وان كان مريرا . (٢)

وبعد ذلك ، كانت المجاهرة الكاملة ، التي تشق الصفوف المشـــركة بنور الحق ، واشراق الاخلاص ، إذ أمر الله تعالى رسوله امراً جازماً قاطعاً ، فقال تعالت كلماته : "فاصدع بما تُؤمر وأعرِض عن المشركين ." (٣)

لقد كانت مكة كلها على علمٍ بأن محمداً يُكلم من السماء ، وقد نقل أبو سفيان خَبَرَ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى أمية بن الصلت ، بعد أن رجع الى مكة، واخبرته امرأته : هند بنت عتبة بأمرِ النبوّة . (٤)

---

(١) انظر : ابو زهرة : خاتم النبيين : ١/ ٤١٢ـ٤١٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، نفس المكان .
(٣) سورة الحجر : آية ٩٤ .
(٤) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ١٢٩ـ١٣٠ .

وكان ورقة بن نوفل يستعجل نبوة محمد بشعر مستفيض. كذلك ، فقد كان زيد بن عمرو بن النفيل ، وبحيرا ، ونسطورا ، وخالد بن سعيد ، ورئاب الشنّي وجمع غفير من الناس ، يعلمون ان نبوة خاتمة ستظهر . (١)

عن العباس رضي الله تعالى عنه انه قال : "خرجت في تجارة الى اليمن في ركب فيهم ابو سفيان بن حرب ، فورد كتاب من حنظلة بن ابي سفيان ، فيه ان محمداً أقام بالأبطح ، فقال : أنا رسول الله ، ادعوكم الى الله . ففشا ذلك في مجلس اليمن ، فجاءنا حَبْرٌ من اليهود ، فقال : بُلّغتُ أن فيكم عم هذا الرجل ، الذى قال ماقال ، قال العباس: فقلت نعم . قال : أُنشدك ، هل كانت لابن أخيك صبوة وسَفَهَة ؟ قلت : لا ، وإلٰه عبد المطلب ، ولا كَذِبَ ولا خَانَ ، وأن كان اسمه عند قريش ، الأمين . قال : فهل كَتَبَ بيده ؟ قال العباس: فظننت ان خيراً له أن يكتب ، فأردت ان اقول نعم ، فخشيت من ابي سفيان ان يكذبني ويرد عليّ ، قلت : لا يكتب . فوثب الحَبْرُ وترك رداءه ، وقال : ذُبحت يهود ." (٢)

وعن ابن عفيف الكندى ، عن أبيه عن جده أنه قال : "كنت امرءاً تاجراً ، فقدمت للحج ، فأتيتُ العباس بن عبد المطلب لابتاع منه بعض التجارة ، فوالله إني لَعِنْدَه وبِمِنىً ، إذا رجلٌ خرج من خباء قريب منه ، ينظر الى الشمس ، فلما رآها ، قام يصلي ، ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذى خرج منه ذلك الرجل ، فقامت خلفه تصلي ، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء ، فقام معه يصلي ، فقلت للعباس: ياعباس ، ماهذا ؟ قال : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ١٩١ + ٢٠٤ + ٢١١ + ٢٢٢ + ٢٣٢ وما بعدها ، المسعودى : مروج الذهب : ١/ ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن ابي بكر (ت ٩١١هـ) : الخصائص الكبرى : تحقيق : دكتور محمد خليل هراس (دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ طبعة أولى : ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م) : ١/ ٢٤٦ .
"والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، ومنه: بطحاء مكة ."
(الرازى : محمد بن ابي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح ـ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ـ ١٣٦٩هـ ـ مادة : بطح ـ ص٦٨)

قلت : من هذه المرأة ؟ قال : امرأته خديجة بنت خويلد · فقلت : من هذا الفتى ؟ قال : علي بن ابي طالب ، ابن عمه · قلت : فما هذا الذى يصنع ؟ قال : يصلى فهو يزعم أنه نبيّ ، ولم يتبعه على أمره الا امرأته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم انه تفتح له كنوز كسرى وقيصر · "(١)

وقد اسلم عفيف الكندى ، بعد ذلك ، وحسن اسلامه ، فكان يعلق على ذلك ويقول رضي الله تعالى عنه : "لو أن الله رزقنيَ الاسلامَ يومئذ ، فأكون ثانيا مع علي بن ابي طالب رضي الله عنه ·"(٢)

بل أن بعض العلماء يجعل دخول دار الأرقم بن ابي الأرقم ، نتيجةً لحادث التقاتل الذى وقع بين المسلمين ونفرٍ من المشركين ، الذين عابوا على المسلمين صلاتهم ، وشَجَّ فيها سعدُ بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه رجلاً وأراق دمَه ، فكان أولَ دمٍ أُهريق في الاسلام · (٣) فبعد أن سرد البرهان الحلبي هذه الواقعة أعقبها بقوله : "ثم دخل صلى الله عليه وسلم وأصحابه مستخفين في دار الارقم ·"(٤) أى بعد هذه الواقعة ·

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢١٢ ؛
وانظر : ابن الجوزى : ابي الفرج ، عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) : الوفاء بأحوال المصطفى ـ تحقيق : مصطفى عبد الواحد (دار الكتب الحديثه بالقاهرة ـ طبعة ١٩٦٦ م) : ١/ ١٦٧ـ١٦٨ ؛
ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٢٩ ·

(٢) الطبرى : المرجع السابق ، نفس المكان ؛
وانظر : ابن الجوزى : نفس المرجع والمكان ؛ ابن كثير : نفس المرجع والمكان ·

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٤٩ـ٢٥٢+ ٢٧٥ـ٢٧٦ ؛
الطبرى : المرجع السابق : ٢١/ ٢١٦ ·
وراجع : الفصل الاول : السابقون الاولون من الباب الثالث من هذا البحث عند الحديث عن سعد بن ابي وقاص رضي الله تعالى عنه ·

(٤) انسان العيون في سيرة الامين المامون : ١/ ٢٨٣ ·

ولقد ثبت أن أناساً كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مستخفٍ ، يسألونه عن دعوته وعمّا بعثه الله به ، منهم : عمرو بن عَبَسَة السُّلَمي ، الذى أتى رسول الله عليه وسلم ، وبعد أن شرح الله صدره للإسلام ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : "فمن تبعك على هذا ؟ قال : حرٌ وعبدٌ — يعني : أبابكرٍ وبلال — فكان عمرو يقول : لقد رأيتني وأنا رُبع الاسلام ."(١)

والأرجح أن قولَه صلى الله عليه وسلم : "حر وعبد" ، اسم جنس ، وتفسير ذلك بابي بكر وبلال فقط فيه نظر ، فانه قد كان جماعة قد اسلموا قبل عمرو بن عَبَسَه ، وقد كان زيد بن حارثة أسلم قبل بلال ايضاً ، فلعله (أى عمرو) أخبر أنه رُبع الاسلام بحسب علمه ، فان المؤمنين كانوا اذ ذاك يستسرون باسلامهم ، لا يطّلع على أمرهم كثيرُ أَحدٍ من قراباتهم ، دع الأجانب ، دع أهل البادية من الأعراب.(٢)

ويتضح من هذا جلياً ، ان الدعوة نفسها كانت معروفة للناس ، ولكن الذى وصف بالسرية في هذه المرحلة هو : العمل لها والترتيب لاذاعتها ونشرها ، وهو الذى نسميه : مرحلة إعداد القيادة ، (٣) فضلاً عن الاستخفاء بالعبادة .

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٤٢ـ٤٤٣ ؛
وانظر : الامام مسلم : الجامع الصحيح : كتاب صلاة المسافرين : حديث رقم ٢٩٤ — طبعة بولاق — ١٢٩٠ هـ — ولفظه مطول ومختلف .
وراجع : المبحث الثالث : المناظرة — من الفصل الثالث — من الباب الثاني — من هذه الرسالة .
(٢) انظر : ابن كثير : المرجع السابق — نفس المكان .
(٣) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٢١١ ؛
وراجع : المبحث السادس : إعداد قادة الدعوة — من الفصل الرابع — من الباب الثاني — من هذا البحث .

ويظهر هذا أيضاً في النصوص التي ساقها العلماء :

"عن الزّهري ، قال : "دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام سراً وجهراً ، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال ، وضعفاء الناس ، حتى كَثُر من آمن به ، وكفارُ قريش غيرُ منكرين لما يقول ، فكان اذا مَرَّ عليهم في مجالسهم ، يشيرون اليه أن غُلامَ عبد المطلب لَيُكَلَّمُ من السماء ، فكان كذلك حتى عاب آلهتهم التي كانوا يعبدونها ، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر ، فشاقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادوه ."(١)

فالنص فيه تصوير لعمل الدعوة بمرحلتين : سراً وجهراً ، أما الدعوة نفسها فمعروفة للناس ، ولم يقفوا منها موقف العداء الا عندما اتسعت رقعتها ، وشكّلت خطراً على المواريث الجاهلية الباقية ، التي يؤلهها البشر ، بل أن الدعوة — حتى بعد أن صدع رسول الله عليه وسلم بها ، مازالت تعمل في جو من الحذر والاستخفاء ، قال ابن كثير :

" ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعمر بن الخطاب ، أولأبي جهل ابن هشام ، فأصبح عمر ، وكانت الدعوة يوم الأربعاء ، فأسلم عمر يوم الخميس ، فَكَبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهلُ البيت ، تكبيرةً سُمعت بأعلى مكة ، وخرج أبو الأرقمُ — وهو أعمى كافر — وهو يقول : اللهم اغفر لبُنَيِّ عُبيدِ الأرقم فإنه كَفَر ."(٢)

---

(١) ابن الجوزي : الوفاء باحوال المصطفى : ١/ ١٨٨ .
(٢) السيرة النبوية : ١/ ٤٤١—٤٤٢ ؛
وانظر اسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، في :
ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٣٤٢—٣٤٩ ؛
ابن الاثير : اسد الغابه في معرفة الصحابة : ١/ ٥٧—٦٦ ؛
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية للقسطلاني : ١/ ٢٧٢—٢٧٧ ، وغيرها
وراجع الحديث عن عمر في الفصل الاول : السابقون الأولون — من الباب الثالث — من هذه الرسالة .

ولم يُطق الفاروق رضي الله تعالى عنه أمرَ التخفّي ، فقام يجهر بدينه ، وغشي المجالس التي كان يجالس فيها قبل إسلامه ، فيُظهر بها الايمان ، ولقيَ في ذلك أذىً[1] ، وكان إسلام عمر في السنة السادسة من البعثة[1أ] ، وهذا يدل على ان الدعوة الى الاسلام كانت معروفة واضحة ، غير أن العمل من أجلها هو الذي كان سراً ، إعداداً للقيادة ، وتربيةً لهم ، ليحملوا مع الداعية الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبءَ العمل عند الصّدع بها عامة ، والجهر بها للناس كافة .[2]

والذي جعل هذه المسألة تلتبس على البعض ، أنهم نظروا الى حكم الدعوة بالنسبة لمن آمن ، وهذه مسألة أخرى تختلف اختلافاً كبيراً عن الأولى ، فكيف يستطيع نبيٌّ مرسل ـ عُرف شأنُه بين قومه ـ أن يدعوَ سراً ثلاث سنوات ؟ فالسرية لا يجوز اطلاقها الا اذا خفيت الرسالة نفسها . وقد نشأ هذا اللبس من أن الرواد الاوائل من المسلمين ، لم يكونوا مكلّفين بالجهر بالدعوة أو بالعبادة ، لأن الجهرَ يُنفّر المشركين منهم ، فتضيع فرصة اقناعهم بالاسلام ، فضلاً عن أنه يجرُّ الأذى ، والاضطهاد على المسلمين ، وهم قلائل ، وهذا الارهاب قد يخيف القوم ، فلا يُقدمون على الاسلام .[3]

واذا تدبرنا آيات سورة العلق ، وفيها يقول الله تبارك وتعالى :

" ارأيت الذي ينهى . عبداً إذا صلى . ارأيت ان كان على الهدى . او أمر بالتقوى ارأيت ان كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى ."[4] التي تذكر ان زعيما من كفار

---

(١) انظر : المراجع السبقة ـ نفس الصفحات .
(١أ) انظر : ابن الاثير : أسد الغابة : ٤/ ٥٧ ؛
ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٤٢ ؛
الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٢٧٢ .
(٢) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٢١٣ .
(٣) انظر : احمد عز الدين عبد الله خلف الله : السيرة المحمدية الخالدة (المكتبة الاسلامية بطنطا ـ مصر ـ طبعة اولي ـ ١٩٦٠ م) : ص ٦٩ـ٧٠ .
(٤) الآيات : ٩ـ١٤ .

قريش (وهو ابا جهل بن هشام) نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى : أي الدعوة[١] ، وآيات سورة القلم وفيها يقول الله تعالى :

" ماأنت بنعمة ربك بمجنون . وان لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيّكم المفتون . إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودّوا لو تدهن فيدهنون . "[٢] ، التي تذكر ان الكافرين كانوا يكادون يلتهمون النبي صلى الله عليه وسلم ، بعيونهم حينما سمعوا القرآن ، ويقولون إنه لمجنون ، ويودّون لو أنه يلاينهم ليلاينوه ، ويقولون أن مايتلوه هو أساطير الأولين . وكذلك آيات سورة المدثر[٣] ، وغيرها . . . مما هو مُجمع على نزوله مبكراً ، واحتوى على مواقف الكفار وجدلهم وتكذيبهم ، اذا . . تدبرنا كل هذه الآيات نرى : ان الدعوة بدأت علنيةً جهاراً . وكل مايمكن ان يكون ـ إلماماً من آيتي سورة المزمل : " واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرني والمكذبين أُولي النعمة ومهّلهم قليلا . "[٤] ـ هو ان النبي صلى الله عليه وسلم قد تجنب المعاندين والطغاة ، انقياداً لأمر الله تعالى ثم بإملاء الظروف ، مؤقتاً مع عدم قطع الحبل معهم ، ومجانبة الشدة في خطابهم . وانه قصر دعوته ـ مؤقتاً ايضاً ـ على من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة ، ولا يرى فيهم الغلظة والقسوة والعنف ، في الصدّ والتكذيب .[٥]

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة العلق .
(٢) الآيات : ٢ـ٩ .
(٣) انظر الآيات : ١ـ١٧ .
(٤) الآيتين : ١٠ـ١١ .
(٥) انظر : دروزة : سيرة الرسول : ١/ ١٧٠ .

كما يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد تجنب اقامة الصلاة جماعةً ، وتلاوة القرآن جهراً على ملأٍ من الناس ، وفي فناء الكعبة خاصة ، رعايةً لأصحابه الضعفاء ، وان يكون قد اتخذ دار الارقم بن ابي الارقم ، مكانا خاصا للاجتماع والصلاة ، وهو مكان يمكن ان يوصف بانه منعزل ، لا بأنه سرّي ، لأننا لانرى من المعقول ان تكون هذه الدار مكانا سرياً في بلد كمكة في هذا العهد وقد كان يؤمه عددٌ - مهما قلّ - فإنه يبلغ العشرات ، فضلاً عن انه كان مركز اجتماع شخصٍ أثار دهشة الزعماء والجمهور على السواء ، وبعث في نفوسهم الغيرة والحيرة والاضطراب ، مع اصحابه الذين تابعوه وآزروه .(١)

واذا كان قد تسنّى لهم الاستمرار في امرهم هذا مدة غير قصيرة (ثلاث سنوات مثلا) فالراجح أن هذا عائدٌ الى ان فكرة مطاردة النبي صلى الله عليه وسلم ومنع حريته بالقوة ، لم تكن مما اتفق عليه زعماء قريش ، فلما اعتزلهم وتحفظ في دعوته وصلاته واجتماعاته ، لم يكن منهم الا مجاراة الحالة ، والسكوت عليها .(٢)

والسور التي ذكرناها ، وغيرها من اوائل مانزل من القران الكريم(٣) ، وان كانت - على الاغلب - في صدد حكاية مواقف الجاحدين والمكذّبين ، يتضمن بعضها ذكراً للمؤمنين ، والمتّقين ، والمسلمين ، وأصحاب اليمين ، كما ترى في الآيات الكريمة :

---

(١) انظر : دروزة : سيرة الرسول : ١/ ١٧٠ - ١٧١ .
(٢) انظر : المرجع السابق - نفس المكان .
(٣) انظر : الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله : (ت ٧٩٤ هـ) : البرهان في علوم القرآن : تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - طبعة ثانية - القاهرة - ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م) ١/ ١٩٣ .

١ ــ "إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ٠ أفنَجْعلُ المسلمين كالمجرمين ٠ مالكم كيف تحكمون ٠ "(١)

٢ ــ "وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أُوتو الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أُوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ..."(٢)

(٣) ــ "إلا أصحاب اليمين ٠ في جنات يتساءلون ٠ عن المجرمين ٠ ما سَلَكَكُمْ في سَقَر ٠ "(٣)

وهذا يعني ــ كما هو المتبادر ــ ان الدعوة في هذا الدور ، كانت معروفة وأنها لم تُقابل بالصدّ البات الشامل ، بل ان هناك من استجاب لها ، وآمن بها وقام الى النبي صلى الله عليه وسلم ، طبقةٌ من المؤمنين ، مقابل ما قام في وجهه من طبقة الكافرين ، وان كان يعني ان الطبقة الثانية هي الأكثر والأقوى ، إذ ... شَغَلَ الحديث عنها جُل آيات السور ، في حين لم يرد عن الأُولى إلاّ إشاراتٍ ... استطرادية ، كالتي مر ذكرها ، والتي يصح ان يدخل في نطاقها ايضا آيات أخرى ، نزلت باكرا (٤) ، مثل قوله جل شأنه :

---

(١) سورة القلم : الآيات ٣٤ــ٣٦ ٠
(٢) سورة المدثر : الآية ٣١ ٠
(٣) نفس السورة : الآيات ٣٩ــ٤٢ ٠
(٤) انظر : السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) : الإتقان في علوم القرآن ــ تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم (مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ــ طبعة اولى : ١٣٧٠ هـ ــ ١٩٦٧ م) : ١/ ٢٥ــ٢٧ ٠

١ ــ " ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضيةً مرضية . فادخلي في عبادى وادخلي جنتي . " (١)

١ ــ " والعصر . إن الإنسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . " (٢)

٣ ــ " إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتّقى . وصدّق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بَخِل واستغنى . وكذّب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله اذا تردّى . إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فانذرتكم ناراً تلظّى . لايصلاها الا الأشقى . الذى كذّب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتي ماله يتزكى . " (٣)

ومهما يكن من أمر ، فان العلم بدعوة الحق ، تؤيده الروايات اليقينية ، عن إيمان فريق من الناس ، في دور الخطوات الاولى للدعوة ، من بينهم طبقة من بيوتات قريش المعروفة أمثال : ابي بكر ، وعثمان ، وسعد ، وسعيد ، وطلحة ، والزبير ، وابي عبيدة ، وعبد الرحمن ، وابي سلمة ، بالاضافة الى : خديجة ، وعلي ، وجعفر ، وزيد ، وعبد الله بن مسعود ، وفاطمة بنت الخطاب ، زد على ذلك ايضا بعض الكتابيين امثال : سلمان ، وصهيب ، وبعض الأرقاء امثال : آل ياسر ، وبلال ، وغيرهم . . . وغيرهم ، من السابقين الأولين ، الذين كانوا من عُمُد الاسلام في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعده . (٤)

" فسرية الدعوة اذن ، يقصد بها في الواقع : ستر من آمن من المسلمين عن اذى المشركين " (٥)

---

(١) سورة الفجر : الآيات ٢٧ ــ ٣٠ .
(٢) سورة العصر .
(٣) سورة الليل : الآيات ٤ ــ ١٨ .
(٤) انظر : دروزة : سيرة الرسول : ١/ ١٧٧ــ١٧٨ .
(٥) انظر : احمد عز الدين : السيرة المحمدية الخالدة : ص ٧٦ .

ب ـ التبليـــغ الـــى الأقـــارب :

وبعد هذه المرحلة من العمل الدائب ، والاعداد المُنظَّم ، في جوٍ من التكتم والترقب والحذر ـ حِفاظاً على الدعوة وهي مازالت في المهد ـ آن الأوان ، بأمرٍ من الله تعالى ، وحان للدعوة ان تاخذ طريقها للانطلاق والظهور ، فاذن الله جل شأنه لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، ان يصدع بما يوحى اليه ، وان يبدأ بعشيرته الأقربين ، فهم أهله ، واعرف الناس بصدقه وامانته ، ولذلك فهم أدنى للإجابة من غيرهم .

ونزل قول الله تبارك وتعالى : " وأنذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . "(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عرفت أني إن بادأتُ بها قومي ، رأيتُ منهم ماأكره ، فَصَمَتُّ عليها ، فجاءني جبريل عليه السلام فقال : يامحمد ، إنك ان لم تفعل ماأمرك به رُبُّك ، عذَّبك رُبُّك . "(٢)

عندئذ ، قال صلى الله عليه وسلم لابن عمه وربيبه : علي بن ابي طالب ، رضي الله تعالى عنه : " .... فاصنع لنا ياعلي رجل شاه على صاع من طعام ، وأعِدَّ قَعْبَ(٣) لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب . "(٤)

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٢) البيهقي : دلائل النبوة : ١/ ٤٢٨ـ٤٢٩ ؛
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢١٧ـ٢١٨ ؛
ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ١٨٤ـ١٨٥ ؛
ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٢/ ٦٢ـ٦٣ ؛
ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٥٩ مع التفسير : ٣/ ٣٥١ ؛
السيوطي : الخصائص الكبرى : ١/ ٣٠٦ـ٣٠٩ ؛
الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٨٤ـ٢٨٥ .
(٣) "القعب : الآناء الضخم . " (الفيروز ابادى : القاموس المحيط : مادة قعب)
(٤) البيهقي : نفس المرجع والمكان ،
وانظر : الطبرى ، وابن الجوزى ، وابن الاثير ، وابن كثير ، والسيوطى والحلبي : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

ففعل عليٌّ بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه ماأمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجتمع له بنوعبد المطلب وهم يومئذ نحو اربعون رجلا ، فيهم اعمامه ابو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وابو لهب الكافر الخبيث ، وقدم اليهم عليٌّ تلك الجفنة ، فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعةً من اللحم فشقّها بأسنانه أجزاءً ، ووضعها بالجفنة وقال : كلوا باسم الله . فاكل القوم حتى نَهِلوا عنه ، مايُرى الا آثارَ أصابعهم . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ، فجاء بقَعْبِ اللبن ، فشربوا منه حتى نَهِلوا جميعا . فلما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم ، بدره ابو لهب الى الكلام ، فقال : لهذّما سحركم صاحبكم .فتفرقوا ، قبل ان يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما كان الغد ، قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ياعليّ ، عُدْ لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب ، فان هذا الرجل (اى ابا لهب) قد بدرني الى ما قد سمعت ، قبل ان أكلّم القوم . ففعل عليٌّ ما أُمربه ، وجمعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصنع كما صنع في اليوم السابق ، فأكلوا حتى نَهِلوا عنه ، وشربوا من قَعْبِ اللبن حتى نَهِلوا عنه ، ثم قال رسول الله عليه وسلم : "يابني عبد المطلب ، إني والله ما أعلمُ شاباً من العرب جاء قَومَه بأفضل مما جئتُكم به ، إني قد جئتُكم بأمر الدنيا والآخرة . "(١)

---

(١) البيهقي : دلائل النبوة : ١/ ٤٢٨ ــ ٤٢٩ ،
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢١٧ ــ ٢١٨ ،
ابن الجوزى : الوفاء باحوال المصطفى : ١/ ١٨٤ ــ ١٨٥ ،
ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٢/ ٦٢ ــ ٦٣ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٥٩ مع التفسير : ٣/ ٣٥١ ،
السيوطي : الخصائص الكبرى ١/ ٣٠٦ ــ ٣٠٩ ،
الحلبي : انسان العيون : ١/ ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .

لقد امتثل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى أمر الله تعالى ، فبـــدأت المرحلة الثانية من مراحل تبليغ الدعوة ، وأوضح لقومه مضمون رسالته ، وفحـوى دعوته ، مبشراً ومنذراً ، فتكلم القوم كلاما ليناً ، عدا ابو لهب.(١)

وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع فرصةً الا ويُحذّر أهله وعشيرته من غضب الله تعالى ، اذا تقاعسوا عن تلبية نداء الله ، والاستجابة الى دعوة الحق ، فكان يقول : " يامعشر قريش ، اشتروا انفسكم ، لا أُغني عنكم من الله شيئا ، يابني عبد مناف ، لا أُغني عنكم من الله شيئا ، ياعباس بن عبد المطلب ، لا أُغني عنك من الله شيئا ، وياصفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أُغني عنك من الله شيئا ، ويافاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، سليني ماشئت من مالي ، لا أُغنى عنك من الله شيئا . "(٢)

إنَّ نقلَ الدعوة من طَوْرها السرى (بالمفهوم الذى اوضحناه) الى طورها الجهرى ، كان بإذنٍ من الله تعالى ، فثبت بذلك أن الدعوة تسير في رعايـــة الله وكَنَفِه . وقد بدا الله تعالى بالعشيرة ، لأنهم ـ لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابتهم له ـ يتهدّدهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون(٣) ، فضلاً عن أن ذلك قد يُعينُ على نُصرته وتأييده ، وحِمايته ، كما ان القيام بالدعوة في مكة ، لابد ان يكون له أثر خاص ، لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ، فدخوله الى حظيرة الاسلام ، لابد ان يكون له وقع كبير على بقية القبائل .(٤)

---

(١) انظر : المبحث الثاني : الندوة ـ من الفصل الثالث ـ من الباب الثاني بهذا البحث.
(٢) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب التفسير : تفسير سورة الشعراء : ٦/ ١٧ .
(٣) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣١٧ـ٣١٨ .
(٤) انظر : صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب : ١/ ٣٢٨ـ٣٢٩.

جـ ـ التبليـــغ الى العـــرب :

امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالمبالغة في اظهار دعوة الحق ، حيث نزل قول الله تبارك وتعالى الى نبيه الكريم :

" فاصدع بما تؤمر[1] وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون . "[2]

كما أوحى الله تعالى الى عبده الأمين صلى الله عليه وسلم ، قوله :

" وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ... "[3]

وامتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى ، اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يَعْرِضُ نفسَه ، ويُبيّن دعوته ، الى قبائل العرب ، في المواسم والأسواق ، يدعوهم الى الله تعالى ، ويخبرهم انه نبيٌّ مرسل ، ويسألهم ان يُصدقوه ، ويَمنعوه ، حتى يُبيّن لهم ما بعثه الله بـه .[4]

---

(١) فاصدع بما تؤمر : اى فاجهر به ـ من صَدَعَ بالحُجّة : اذا تكلم بها جهارا .
(انظر : البيضاوى : ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر البيضـــاوى .. الشافعي : ت ٦٩٢ هـ : انوار التنزيل واسرار التاويل (المطبعه العامرة ـ بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ـ ١٣٢٠ هـ) : تفسير سورة الحجر .

(٢) سورة الحجر : الآيات ٩٤ ـ ٩٦ .
وانظر تفسير الآيات في ابن كثير : تفسير القران العظيم ـ سورة الحجر .

(٣) سورة الانعام : من الآية ٩٢ .
وانظر تفسير الآية بالمرجع السابق : تفسير سورة الانعام .

(٤) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٢٢ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/ ١٥٨ ،
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٢٤٧ .
وراجع : المبحث السادس : المؤتمرات الدورية ـ من الفصل الثالث ـ من الباب الثاني ـ من هذه الرسالة .

نقل ابن اسحق ، عن ربيعة بن عباد ، ماسمعه في صِغَره ، قال :

" اني لغلام شاب مع أبي بِمَنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منـــازل القبائل من العرب ، ويقول : يا بني فلان ، اني رسول الله اليكم ، فأمركم ان تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وان تؤمنوا بي ، وتصدّقوا بي ، وتمنعوني ، حتى أبيّن عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجل أحول وضيء ، له غديرتان ، عليه حُلة عدنية فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه ، قال ذلك الرجل : يابني فلان ، إن هذا إنما يدعوكم ان تسلخوا اللات والعزى من اعناقكم ، وحلفائكم من الجن ، ..... ، الى ماجاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه . قال : فقلت لأبي : ياأبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟ قال : هذا عمه ابو لهب . "(١)

وعن عبد الله بن رابصة العبسي ، عن أبيه عن جده ، انه قال :

" جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بِمَنَى ، فدعانا ، فما استجبنا له ، .... ، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي ، فقال لنا : احلف بالله ، لو صدّقنا هذا الرجل ، وحَملناه ، حتى نَحُلَّ به وسط رجالنا ، لكان الرأى ، فأحلف بالله ، ليظهرن أمره ، حتى يبلغ كل مبلغ ، فأبى القوم ، وانصرفوا ..... "(٢)

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٢٣ ،
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٤٨ ــ ٣٤٩ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٥٥ ــ ١٥٦ .

(٢) السيوطي : الخصائص الكبرى : ١ / ٤٥٤ ــ ٤٥٥ ،
وانظر حول ذلك (وحول ماقبله ايضا) : الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

كذلك عرض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نفسه على بني عامر ، فدعاهم الى الله عز وجل ، ولكنهم ارادوا ان يتخذوا الدعوة ـ فيما بعد ـ مِلْكاً عَضُوداً لهم ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل منهم : "أفتهدِفُ نحورنا للعرب دونك ، فاذا اظهرك الله ، كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك ."(١)

وأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كلبا في منازلهم ، فدعاهم الى الله تعالى ، وعرض عليهم نفسه ، حتى انه ليقول لهم : "يابني عبد الله ، إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم ، . . . ."(٢) ، فلم يقبلوا منه ماعرضه عليهم .(٣)

وأتى بني حنيفة في منازلهم ، فدعاهم كذلك الى الله ، وعرض عليهم نفسه فلم يكن أحدٌ من العرب أقبح عليه رداً ، منهم .(٤)

واكثر من ذلك ، فقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل تبليغ رسالته ، والامتثال لأمر ربه ، بعيداً : لقد ذهب الى الطائف ، واقام بها عشرة أيام ، لايدع أحداً من اشرافهم الا جاءه وكلمه ، فلم يجيبوه ، وخافوا على أحداثهم ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة ، حتى ان رجليه لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شُجَّ في رأسه شِجَاجاً .(٥)

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ،
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٥٠ .
(٢) ابن هشام : المرجع السابق : ١ / ٢٤٢ ،
وانظر : الطبري : المرجع السابق : ٢ / ٢٤٩ ،
ابن الجوزى : الوفاء باحوال المصطفى : ١ / ٢٥١ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٥٧ ـ ١٥٩ ،
الحلبي : انسان العيون : ٢ / ٣ ـ ٤ .
(٣) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .
(٤) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .
(٥) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١/ ٤١٩ـ٤٢٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ٢١١ـ٢١٢ ، الطبرى : نفس المرجع: ٢/ ٣٤٤ـ٣٤٥ ، البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ١٥٩ ، ابن الاثير : الكامل: ٢/ ٩١ ، الحلبي : نفس المرجع: ١/ ٣٥٤ ، الزرقاني : السابق : ١/ ٢٩٧ـ٢٩٨ .
وراجع : المبحث الثاني ـ من الفصل الثالث ـ من الباب الثالث ـ من هذا البحث

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوافي المواسم كل عام ، يتبع الحاجَّ في منازلهم في المواسم : بعُكاظ ، ومَجِنَّة ، وذى المجاز ، حتى إنه ليسال عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة ، يدعوهم الى الله تعالى ، وأن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ، ويقول : " ياأيها الناس ، قولوا لاإله الاّ الله تفلحوا ، وتملُكوا بها العرب ، واذا آمنتم ، كنتم ملوكا في الجنة . "(١)

تُوضِّحُ هذه النصوص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يألُ جهداً في تبليغ دعوة الحق الى العرب ، مُمَثِّلين في وفود قبائلهم الى المواسم والاسواق وغيرها ومن بين هذه القبائل ــ خلاف ماذكرنا ــ ممن دعاهم وعرض نفسه عليهم : محارب بن خصفة ، وقراره ، وغسان ، ومرة ، وسليم ، وعبس ، وبنو نضر ، وبنو البكاء وكِنْده ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضا مة ، فلم يستجب منهم أحد.(٢)

ولم تكن كل جهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ في هذا المجال ــ ضائعة ، بل ان نسمات من الايمان بدت على وجوه رجال من أهل يثرب ، حملوها الى قومهم ، مبشرين بما جاء به نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . وكان في مقدمة

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ٢١٦ــ٢١٧ ،
وانظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٢٤ــ٤٢٥ ،
البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ١٥٧ــ١٦٣ ،
ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٢/ ٩٣ــ٩٤ ،
الزرقاني : المواهب اللدنية : ١/ ٣٠٩ ،
وراجع : المبحث الاول : عرض الدعوة على القبائل ــ من الفصل الرابع ــ من الباب الثالث من هذه الرسالة .
(٢) انظر : المراجع السابقة ــ نفس الاماكن .

هذه البشائر : سويد بن الصامت ، اخو بني عمرو بن عوف ، من الأوس ، قَدِم مكة حاجاً او مُعتمراً ، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام والايمان ، فلم يبعد منه ، وقال : إنَّ هذا لقولٌ حسن . ثم انصرف ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث ان قتلته الخزرج . وكان رجال من قومه يقولون : إنا لنرى انه قُتل وهو مسلمٌ ، وفي كلام بعضهم : انه آمن بالله ورسوله ، وسافر حتى دخل المدينة الى قومه ، فشعروا بإيمانه ، فقتلته الخزرج بغتةً . (١)

وتُفيد كلا الروايتان أن الله تعالى قد شرح صدر : سويد بن الصامت بالايمان نتيجةً لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، في هذه المرحلة ، مما دعا قومَه الى قتله ، خشية انتشار دعوة الاسلام .

ومن بين هذه البشائر ، كان أيضاً : إياس بن مُعاذ ، وهو فتىً من فتيان بني عبد الأشهل ، قدم مكة مع ابي الحيسر أنس بن رافع ، الذي جاء يلتمس من قريش حلفاً على قومهم من الخزرج ، فتصدّى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كعادته ليبلغهم الاسلام ، ويدعوهم الى الايمان . فقال إياس ـ وكان يومئذ غلاما حدثاً : ياقوم ، هذا والله خير مما جئتم له . فغضب عليه شيخ الوفد : ابو الحيسر فأخذ حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجهه . (٢) وأخبرَ من حضره من قومه عند موته : انهم لم يزالوا يسمعونه يُهلِّلُ الله تعالى ويُكبّره ويَحْمَدُه ويُسبّحه ، حتى مات ، فما كانوا يشكون أن قد مات مُسلِماً . (٣)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٢٥ـ٤٢٧ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٣٣ ، ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٧٠ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/ ١٧٣ـ١٧٤ ، الحلبي : انسان العيون : ٢/ ٧ .
وراجع : المبحث الثالث : المناظرة ـ بالفصل الثالث ـ من الباب الثاني ـ من هذه الرسالة .

(٢) انظر : المبحث الثاني : الندوة ـ بالفصل الثالث ـ من الباب الثاني من البحث

(٣) انظر : المبحث الثاني : بشائر نصر الله ـ بالفصل الرابع ـ من الباب الثالث ـ من هذه الرسالة .

وتستمر ثمرات هذا الكفاح المضني ، والجهد الشاق ، الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة ، من الايمان الفردى لبعض الافراد ، الى الايمان الجماعي لمجموعة منهم . فبينما هو عند العقبة ، يعرض دعوته على قبائل العرب ـ كما كان يصنع في كل موسم ـ لَقِيَ رهطاً من الخزرج ، اراد الله بهم خيرا ، فقبلوا منه ماعرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : "انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم الى أمْرِك ونَعْرِضُ عليهم الذى اجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه ، فلا رجلُ أعزُّ منك ."[1] ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، راجعين الى بلادهم ، وقد آمنوا وَصدَّقوا .[2]

وقد حمل التاريخ الاسلامي لهولاء النفر مجهوداً مشكوراً ، ونشاطاً مُخلصاً في نشر دعوة الحق ، بعد عودتهم الى يثرب ، فيقول عنهم ابن هشام :

"فلما قدموا المدينة الى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار ، الا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ."[3]

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٢٨ـ٤٢٩ ،
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٣٥٤ ،
البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ١٧٤ ،
ابن عبد البر : الدرر ٠٠٠٠ : ص ٧١ ،
ابن الجوزى : الوفاء باحوال المصطفى : ١/ ٢١٧ ،
ابن الاثير : الكامل في التاريخ : ٢/ ٩٦ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/ ١٧٨ ،
السيوطي : الخصائص الكبرى : ١/ ٢١٩ ،
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٣١١ـ٣١٢ .

(٢) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

(٣) سيرة النبي : ١/ ٤٣٠ ، وانظر : الطبرى : نفس المرجع : ٢/ ٣٥٥ ،
وباقي المراجع السابقة : نفس الصفحات ، وراجع : المبحث الثاني : بشائر نصر الله ـ بالفصل الرابع ـ من الباب الثالث ـ من هذه الرسالة .

د ـــ التبليغ الى الناس كافة :

وأوحى ربّك الى عبده صلى الله عليه وسلم قوله عز من قائل :

" قل ياأيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والارض لا إله الا هو يُحيي ويُميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُميّ .... "(١)

وقال جل جلاله : " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . "(٢)

وقال تعالت صفاته : " وماأرسلناك الا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . "(٣) وقال تقدست اسماؤه : " الر كتابٌ انزلناه اليك لتخرج الناس من الظُّلُمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . "(٤)

بهذه النصوص القرآنية الكريمة ـ وغيرها ـ أمر الله تعالى رسوله الداعية صلوات الله وسلامه عليه ، لتشمل دعوة الحق العالم أجمع ، لافرق بين عربي وعجمي ، او بين احمر واسود ، او بين عبد وحر . فالمفاضلة بين الجميع لاتكون الا بتقوى الله ومدى استجابة كل منهم الى دعوة الاسلام ، فهي شاملة للجنس البشرى كله ، لاتعرف وطناً ولا قوماً ولالُغةً ولامناخاً ولاإقليماً . إنها قانون الله تعالى الى عباده : رحمةً بهم ، ورأفة بأحوالهم .(٥)

---

(١) سورة الاعراف : من الآية ١٥٨ .
(٢) سورة الفرقان : الآية ١ .
(٣) سورة سبأ : الآية ٢٨ .
(٤) سورة ابراهيم : الآية ١ .
(٥) انظر : رؤوف شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٠ـ٣٣٥ ،
وراجع : موضوع العالمية ـ من المبحث الثالث : بعض خصائص الدعوة ـ من الفصل الثالث ـ من الباب الأول ـ من هذه الرسالة .

ونتيجةً لما قام به الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، بدعوة النجاشـــيّ وصحبه ـ من خارج الجزيرة العربية ـ الى الدين الحنيف ، امتثالاً لأمر ربه تعالى بشمول الدعوة الى كافة البشر ، أن قَدِمَ عليه عشرون رجلا ـ او قريب من ذلك ـ من نصارى الحبشة ، فكلّموه وساءلوه ما ارادوا ، ثم دعاهم الى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا آيات الله البينات ، فاضت أعينهم من الدّمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصَدّقوه ، وعرفوا منه ماكان وُصفَ لهم في كتابهم من أمره .(١)

وهكذا ، تنتقل الدعوة وئيدةً هادئةً ـ حسب طبيعتها ـ من مرحلةٍ الى مرحلةٍ ، لتقرر مبدءاً عاماً : "لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النَّعَم"

إن الآيات القرانية التي تشير الى عمومية الرسالة المحمدية الخاتمة ، وعالمية الدعوة الاسلامية ، في السور المكية ، تُعطي اضواءً ساطعةً على الحدود الشامله لمحيط الكرة الأرضية ، كميدانٍ لتبليغ الدعوة ، وهي لاتزال ـ في مكة ـ تقابـل من الجحود والنكران صنوفاً والواناً ، غير أنها في هذا الضيق المستحكم من البشر تعلن انها للناس كافة ، فتلك طبيعتها وحقيقتها وابعادها التي حددها القرآن الكريم ، منذ الأيام المبكرة في ظل الكعبة المشرفة ، سواء بالاسلوب العملي بقيام الرسول صلى الله عليه وسلم بالتبليغ العام ، أو بالأدلة والنصوص .(٢)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٩١ـ٢٩٢ ،
البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ٧٦ـ٧٧ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/ ٤٠ ،
الحلبي : انسان العيون : ١/ ٣٨٤ ،
وراجع : المبحث الخامس : الرسل والرسائل ـ بالفصل الثالث ـ من الباب الثاني ـ من هذه الرسالة .

(٢) انظر: شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٠ـ٣٣٥ .

هكذا أرادها الله تعالى ، وهكذا اتجهت دعوة الحق منذ أيامها الأولى ، وهكذا تتجه في كل عصر ووطن ، الى آخر الزمان ، وحتى يرث الله الارض ومن عليها لانها قانون الله تعالى لعباده وخلقه ، لاتعرف لها مكاناً يُحدّد انتشارها فيه ، لاتعرف الا البسيطة ، تملكها لتكون كلها في طاعة الله تعالى ، كقانون شامل عام يجب ان يسود حياة الانسان على هذه الارض ، لانه واحد من هذا الكون ، الذى يسير وفق قوانين ربانية ، لايحيد عنها الا بارادة الله تعالى ، يوم تَبدّلُ الأرض غير الأرض والسماوات . (١)

وتحقيقاً لمبدأ عموم الرسالة المحمدية الخاتمة وعالميتها ، نجد ان مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يضم — بين من يضمهم — أبا بكرٍ القرشي ، وبلالاً الحبشي ، وصهيباً الرومي ، وسلمانَ الفارسي ، وأبا ذرٍ الغِفَارى ، وأبا موسى اليمني ، أخوة في الله ، تجمعهم عقيدة واحدة ، ويظلهم قانون واحد ، لايُخطئ هدَفَه ، ولا يَحِيد عن مرماه ، فهو قانون الخالق البارئ ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، لافضل لعربي منهم على عجمي إلاّ بتقوى الله ، وما يقدمه في سبيل الدعوة اليه تعالى من بذل وعطاء ، وفي سبيل مرضاته من جهد واجتهاد .

ومن الإنصاف العلمي ، أن نعترف بان التطبيق العملي لعالمية الدعوة وعمومها ، كان محدوداً في العهد المكي ، بالرغم من تواتر النصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية بعالمية الدعوة وعمومها ، ولم يكن ذلك تقصيراً من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم — لاسمح الله — بل كان تخطيطاً وتنظيماً وحكمةً ، يستطيع ان يستنتجها كلُّ مُفكّرٍ مُنْصف ، عند تأمله لعدد المسلمين ، ومدى قوتهم ، وقدر

---

(١) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٠—٣٣٥ .

إمكاناتهم . فكان من المستحيل ان يخاطب الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ـ وعلى هذه الحال التي كان عليها المسلمون من الضعف العددى والمادى، الملوكَ العُتاه والروساء الاقوياء (أمثال : قيصر ، وهرقل ، وكسرى ، والمقوقس، وغيرهم) على النحو الرسمي ، الذى لابد له من الأخذ بأسباب الحيطة والحذر ، واعداد العُدَّة والقُوة ، التي تضمن بلوغ الدعوة الى مسامع هؤلاء ، دون خشية عليها .(١)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن قد فرغ بعد من مجتمعه المحدود ، داخل الجزيرة العربية ، ومازال يتعرض منه لأشد انواع الاذى والاضطهاد ، فهل يكون من السياسة والحكمة ، ان يؤلّب عليه البعيد مع القريب ؟ هذا ، بالاضافة الى انه في هذا الوقت ، لم يُؤمَر من الله تعالى ، بمقابلة القوة المادية بمثلها . فلقد كان مكتفياً بدعوة القرآن الكريم الى العالمية ، مُطمئناً الى نصر الله تبارك وتعالى ، تحقيقاً لوعده الصادق ، إن عاجلاً او آجلاً . (٢)

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا العهد المكي ، كان مشغولاً بتربية النفوس ، وصقل الطباع ، وتصحيح العقائد ، واعداد الدعاة المجاهدين لتكوين الطلائع الأولى للدعوة ، التي سوف يقع عليها عبء نشر الاسلام ، في كل مكان على وجه الارض ، فلابد من قَطْف الثمرة اولاً في البيئة العربية ، لتكون الدليل العملي على نجاح التجربة في المحيط الاقليمي ، فاذا استوت برهاناً عملياً ساطعاً على صحة الدعوة وأصالتها ، قَبِلَها الجميع ، وجاءت تلقائياً مرحلة انسياب هذه الطلائع المجاهدة ، لِتَحُلَّ في كل قطر وفي كل بلد ، مناراتٍ هادية تَجْذِبُ بنورها وسلوكها القلوب والعقول ، دون حربٍ أو قتال . (٣)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص٤٨ .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص٤٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق : نفس المكان .

ولو أن الاسلام أعلنَ هذه العالمية ، رسمياً ، لملوك العالم ورؤسائه ، وهو في أوّل عهده بمكة ، لكان عليه ارسال الدعاة الى هذه الأماكن ، ومنها القريبة ، والبعيدة ، ومنها الصغيرة والكبيرة ، فكيف يتم ذلك ، بينما الدعاة مازالوا في مرحلة الاعداد والتكوين ؟ لقد كان من الضرورى اعداد هولاء الدعاة اولاً ، ليقوموا بهذه المهمة آجلاً ، وهو أمرٌ طبيعي في نشر الدّعوات . وهذا هو الذى حدث ، والذى كان من نتيجته ان جعل أهل الأمصار بعد ذلك ، يتوافدون على الاسلام ، ويعتنقون مبادئه ، فقد رأوا بأعينهم طلائعه الاولى ، تسير بينهم وادعَةً سَمْحةً مَهيبةً ، فانجذبوا الى الدين الحنيف ، وأقبلوا عليه ، ودخلوا تحت ظلاله الوارفة ، من كل فَجٍّ عميق . (١)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٤٩ .

بقص الثالث

خصائص الدعوة

المبحث الاول : التعريف بالدعوة

١ ـ لغة :

الدَّعوة : المرة الواحدة من الدُّعاء . والدُّعاء : واحد الأدعية ـ وأصله : دُعَاوٌ لانه من دَعَوْتُ ، إلاّ أن الواو لما جاءت بعد الالف هُمِزَتْ . (١)

وقوله تعالى : "له دعوةُ الحقّ ..." (٢) اى شهادة ان لااله الا الله ، أو أنه من دعا الله موحداً أُستجيب له دعاؤه . (٣)

وفي كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل : "ادعوك بدعاية الاسلام" أى بدعوته ، وهي كلمة الشهادة التي يدعى اليها اهل الملل الكافرة . وفي رواية : بداعية الاسلام ، وهي مصدر بمعنى الدعوة ـ كالعافية والعاقبة . (٤)

ودعا الرجل دَعْواً ودُعاءً : ناداه ـ والاسم : الدَّعوة . ودعوت فلاناً أى : صِحْتُ به واستدعيته . وتداعى القوم : دعا بعضُهم بعضاً حتى يجتمعوا ، وهو : التداعي . وقوله تعالى : "وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ." (٥) معناه : داعياً الى توحيد الله وما يُقرّب منه . والدُّعاةُ : قَومٌ يَدْعون إلى بيعةِ هُدًى أو ضلال ـ واحدهم : داعٍ ورجلٌ داعيةٌ : اذا كان يدعو الناس إلى بِدْعةٍ أو دين ـ أدخلت الهاء فيه للمبالغة . والنبي صلى الله عليه وسلم : داعيَ الله تعالى ، وكذلك المؤذّن . (٦)

---

(١) انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة دعا ، ١٤/ ٢٥٧ـ٢٥٩ .
(٢) سورة الرعد : من الآية ١٤ .
انظر : ابن منظور : المرجع السابق ـ نفس المكان .
(٤) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان .
(٥) سورة الأحزاب : آية ٤٦ .
(٦) انظر : ابن منظور : المرجع السابق ـ نفس المكان .

قال الله عز وجل (مُخبراً عن الجن الذين استمعوا القرآن ، وولّوا الى قومهم ... مُنذرين) فقالوا : " ياقومَنا أجيبوا داعيَ الله ....."[1] فالنبي صلى الله عليه وسلم داعي الأمة الى توحيد الله وطاعته . ويُقال لمن مات : دُعِيَ فأجاب . ويقال :- دعاني الى الإحسانِ اليك ، احسانُك الي . وأيضاً ، الدّاعية : صريخ الخيل في الحروب - لدعائه من يستصرخه - يُقال : أجيبوا داعيةَ الخيل . وداعيةُ اللبن : مايُترك في الضَّرْعِ ليَدْعُوَ مابعده .[2]

عوة ، والدِّعوة ، والمَدْعاة ، والمِدْعاة : مادعوتَ اليه من طعام او شراب.[3]

وجاء ان : الدال والعين والحرف المعتل ، اصل واحد ، ومعناه : ان تميل الشيء اليك بصوت وكلام يكون منك . تقول : دعوتُ ادعو دعاءً .[4]

والدَّعوة الى الطعام تكون بالفتح ، والدِّعوة الى النسب بالكسر . ومنه : تداعت الحيطان - اذا سقط واحدٌ وآخرٌ بعده ، فكأنّ الأولُ يدعو الثاني فيُميله وهكذا .

وداعي الدهر : صروفه - لأنها تأتي متعاقبة ، وكأنّ الأول يدعو مابعده وهكذا .[5]

مما سبق ، نرى ان كلمة : دعوة ، تفيد لُغوياً المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف اوعمل . ومن المعلوم أن الاقوال والافعال لها ثقلها وصعوبتها ، لأن فيها المناداة والطلب والالحاح ، وفيها الجهد والعمل .[6]

ولكننا نلاحظ اننا كما نطلق على المحاولات المذكورة اسم الدعوة ، نطلق على الدين

---

(١) سورة الأحقاف : من الآية ٣١ .
(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة دعا ، ١٤/ ٢٥٧-٢٥٩ .
(٣) انظر : المرجع السابق - نفس المكان .
(٤) انظر : معجم مقاييس اللغة : مادة دعا : ٢/ ٢٣٩ .
(٥) انظر : المرجع السابق - نفس المكان .
(٦) انظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٨ (طبعة دار الجيل للطباعة - بالفجالة بالقاهرة - ١٩٧١ م)

الاسلامي نفس الاسم ٠ وهذا مايجعلنا نذكر ان كلمة الدعوة من الالفاظ المشتركة التى تطلق على الاسلام ، وعلى عملية نشره بين الناس ، وسياق ايرادها ، هو الذى يحدد المعنى المراد ٠ (١)

ب ـ اصطـــــلاحاً :

استناداً على ملسبق ، فإن تحديد مفهوم لفظ : الدّعوة ، اصطلاحاً اذا أُطلق فى معرض الحديث عن الاسلام ، او عن رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، فانه لايعني الا مفهوم الدعوة الى الاسلام او الدعوة الاسلامية ٠ فهي إذن : الدعوة الى الله تبارك وتعالى ، تماما كما لو اطلقنا كلمة : الرسول او النبي مجردة ، فانها لاتعني الا رسول الاسلام ، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ٠ (٢)

والدعوة الاسلامية في التصور العادى البسيط ، ليست مبادئ بيئـــــة خاصة ، وليست ظاهرة اجتماعية لظروف خاصة ٠ ولاهي مجرد مثل عليا لجماعـــــة مثالية من البشر ، وانما هي شيء يختلف عن ذلك كل الاختلاف ٠ (٣)

فالدّعوة ـ بمعنى النشر والبلاغ ـ هي عملية احياء نظام ما ، لتنتقل الأمة به من محيطٍ الى محيط ٠ والدعوة الاسلامية ـ اذن ـ هي حركة احياء للنظام الالهى الذى أنزله الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، بالمحاولات الفنية المتعددة الرامية الى تبليغ الناس دعوة الله ، بما حوت من عقيدة وشريعة واخلاق ٠ (٤)

---

(١) انظر : غلوش: الدعوة الاسلامية : ص ٨ ٠
(٢) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٢٠ ؛
غلوش: المرجع السابق ـ نفس المكان ٠
(٣) انظر : شلبي : المرجع السابق : ص ٢٠ـ٢١ ؛
(٤) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان ؛ غلوش: نفس المرجع والمكان ؛
علي محفوظ : هداية المرشدين (المطبعة العثمانية المصرية بالقاهرة ، الطبعة السادسة ـ ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م) ص ١٤ ؛
البهي الخولي : تذكرة الدعاة (دار القلم ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م) ص ٣٥ ٠

أما تعريف الدعوة كدين ، فهي : الاسلام ، الذى ارتضاه الله تعالى للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحيا على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، وحفِظها في القرآن الكريم ، وَبيَّنَها في السنة النبوية الشريفة . وهذا النظام الالهي ، قد اتخذ له مجرى في الحياة الانسانية كلها ، فكان له تاريخٌ يحفظ للدعوة منهاجها ، ودعاةٌ حملوها للناس بأسلوبها الرباني المميَّز ، وكان لها غايات حققت بها للبشرية جمعاء حياة ربانية فاضلة . لذلك ، فقد اكتمل لهذه الدعوة في الوجود الانساني بناء دولة قامت على اسس الاسلام ، فحققت عبودية الانسان لربه ، ونشرت الرخاء والعدل والبر بين البشر اجمعين ، وحفظت الأمن النفسي والاجتماعي والسياسي للأمة كلها ، واكرمت بني الانسان قاطبة ، لافضل بين ابيضهم واسودهم ، الا بالتقوى ورعاية حقوق الله ، فانزوى في ظلالها كل لون للتعصب ، وتلاشى في كنفها كل منكر وفساد . (١)

قال الله تعالى ، في محكم تنزيله :

" . . . . فإمّا يأتينكم مني هدًى فمن اتبع هُداى فلا يَضِلُ ولا يَشقى . ومن أَعْرَضَ عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . " (٢)

---

(١) انظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣٢ ،
غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ١٠ .
(٢) سورة طـــه : من الآية ١٢٣ - ١٢٤ .

المبحث الثاني : وجوب تبليغ الدعوة

اتفق اهل العلم على وجوب تبليغ الدعوة الاسلامية ٠ وكان هذا الاتفاق إجماعاً انعقد في عصر الصحابة ، ثم عصر التابعين ٠ والاجماع لا يُنقض اذا تخاذل المسلمون عنه فلم يقوموا بحقه ، ولكن هذا الوجوب المرتبط بتعليم الناس حقائق الاسلام ، أهوَ وجوب على الخاصة ؟ ام هو على الكافة ؟ وبعبارة أدق : أهو فرض كفاية ؟ ام فرض عين ؟ (١)

ان الحاجة الى الدعوة الى الله تبارك وتعالى شديدة ٠ وان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين ٠ وهو الحق الذى بعث الله له النبيين والمرسَلين ، من عهد آدم الى خاتم الانبياء وامام المهتدين صلى الله عليه وسلم ، ولو أُهمل أمرُه لاضمحل الدين وفشا الضلال ، وعم الفساد ، وهلك العباد ، وساء حال الجماعة البشرية ٠ فالدعوة الاسلامية دعوة نشطة للناس اجمعين ، وهى ليست كائنا متحركا حتى تصل وحدها الى الناس ، ولكنها مفهوم معنوى يُطبّقه انسانٌ مكلّف بعد أن يدركه ويحيط به ٠ ولانها كذلك ، جاء بها الى الناس كافة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ٠ وكان همُّه كلُّه : إبلاغَها للناس اجمعين ، امتثالاً لأمر ربه تبارك وتعالى في كتابه العزيز : "يا أيها الرسول بَلّغ ما أُنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بَلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين ٠" (٢) وما دام قد فعل فقد أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة ، كما قال تعالى : "ماعلى الرسول الا البلاغ ٠٠٠" (٣) يقول الفخر الرازى : "عرّفَ اللهُ رسولَه أن الذى عليه ليس الا

---

(١) انظر : محمد ابو زهرة : الدعوة الى الاسلام (دار الفكر العربي بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ـ ١٩٧٣ م) ص ٣٤ ،
شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣ ٠

(٢) سورة المائدة : آية ٦٧ ٠ (٣) نفس السورة : من الآية ٩٩ ٠

ابلاغ الادلة واضهار الحجة ، فاذا بلغ ما شاء فقد ادى ما عليه ، وبدون هذا .. البلاغ لاحجة على الناس ، كما قال تعالى : " ... وما كُنا مُعذِّبين حتى نبعثَ رسولا ."[1] ، لأنه لو تم عذابٌ بلا بعث رسول ، لحق للناس ان يتساءلوا عن سبب مجازاتهم على مالم يعلموه ، وتعذيبهم على شيء لم يُكَلَّفُوا به ، وتكون تلك حجة قوية تدعوهم الى ان يقولوا : "... ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى ."[2] ، لكن الله تعالى قطع عليهم هذه الحجة فارسل اليهم رسله ، كما قال عز من قائل : " رُسلاً مُبشرين ومُنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُسل وكان الله عزيزا حكيما ."[3] ، وختمهم جميعا بخاتم الانبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ."[4]

لذلك فقد جاء وجوب تبليغ الدعوة في الكتاب الكريم والسنة النبوية ، وعليه انعقد الاجماع تحقيقا لقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: "ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ."[5] كما يقول جل وعلا : "... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ."[6]. وهاتان الآيتان تشيران الى وجوب تخصص جماعة في التفقه ، وترشدان الى طريقة الدعوة الواجبة على الأمة باشعار كل فرد بهذا الواجب ، لكن اداءه لايكون الا بجماعة خاصة خبرت مصادر الدعوة ثقافةً وفهماً ، وتمرّست ـ بالوسائل المثلى ـ في ابلاغ الدعوة ، وملكت القدرة لتدعو الى الخير ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر .[7]

---

(١) سورة الاسراء : من الآية ١٥ .
(٢) سورة طه : من الآية ١٣٤ .
(٣) سورة النساء: آية ١٦٥ .
(٤) مفاتيح الغيب : ٢/ ٦٣٢ .
(٥) سورة آل عمران : آية ١٠٤ .
(٦) سورة التوبة : من الآية ١٢٢ .
(٧) انظر : غلوش الدعوة الاسلامية : ص ٢٠ .

يقول الفخر الرازى : "إن الآية الاولى اشتملت على التكليف بثلاثة اشياء : اولها الدعوة الى الخير ، ثم الأمر بالمعروف ، ثم النهي عن المنكر . ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة ، فنقول : أما الدعوة الى الخير ، فافضلها : الدعوة الى اثبات ذات الله وصفاته وتقديسه عن مشابهة الممكنات . والدعوة الى الخير جنس تحته نوعان : الترغيب في فعل ماينبغي ، وهو الأمر بالمعروف ، والثاني الترغيب في ترك مالا ينبغي وهو النهي عن المنكر."(١)

والأمة المأمورة بالدعوة في هذه الآية ، يصح اطلاقها على الجميع ، وعلى جماعة منهم ، واختصاصها بجماعة هنا أولى ، لأن بعض الجماعة : كالمرأة والمريض والصغير ، لا يقدر على الدعوة . كما ان الجاهل لا يستطيعها ولا يمكنه الاحاطة بفنونها . ومن هنا ، اختصت الدعوة بجماعة خاصة ، تميزت بالعلم والاخلاص ومحبة الدعوة ، لانهم يأمرون باشياء وينهون عن اخرى ، وذلك يستلزم سبق العلم بما يدعى اليه بالوسيلة المناسبة للدعوة ، لأن الجهل في هذا المقام ربما يضر اكثر . فالجاهل لا يفرق بين المعروف والمنكر ، وربما يدعو الى المنكر وهو لا يدرى ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه . وقد لا يعرف الوسيلة المناسبة فيغلظ في موضع اللين ، ويلين في موضع الشدة ، وينكر على من لا يزيده انكاره إلا تماديا . فثبت ان هذا التكليف متوجه الى العلماء وحدهم ، وفي هذه الاية الكريمة دليل على ان الدعوة الى الله تعالى : فرض كفاية ، إذا أداها البعض سقطت عن الباقين .(٢)

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب : ٣/ ٢٨ .
(٢) انظر : السيوطي : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن : الاكليل في استنباط التنزيل (المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ـ الطبعة الأولى) ص ٥٦ ؛ غلوش: الدعوة الاسلامية : ص ٢١ـ٢٢ .

وتشير الآية الثانية الى وجوب قيام طائفة تتفقه في الدين ، وتدعو اليه بوسائله المذكورة في القرآن الكريم ، والتي عرفوها بتعلمهم وتفقههم الذى لا يقف عند الفهم في حد ذاته ، بل لابد من ابلاغه الى الناس بعد تفقههم . وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال : " . . . . ألا ليُبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ . "(١)

وتكثر الآيات الكريمة في كتاب الله منبهة الى هذا الوجوب ، فيقول جل وعلا "إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التواب الرحيم . "(٢) وقال عز من قائل :

"لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهَوْن عن مُنكرٍ فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون . "(٣)

وقال جل جلاله : "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف . . . وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم . "(٤)

وقال تقدست اسماؤه : "ومن أحسنُ قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين . "(٥)

---

(١) الامام البخارى: الجامع الصحيح : كتاب العلم ـ باب ليبلغ الشاهد الغائب : ١/ ٣٤ـ٣٥ .
(٢) سورة البقرة : الآيات ١٥٩ـ١٦٠ .
(٣) سورة المائدة : الآيات ٧٨ـ٧٩ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٧١ .
(٥) سورة فصلت : الآية ٣٣ .

وقال تعالت صفاته : "قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وماأنا من المشركين ."(١)

وعن وجوب تبليغ الدعوة الى الأهل ، قال تبارك وتعالى :

"وأْمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ."(٢)

الى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة ، التي تؤكد أن واجب الدعوة ليس دون الصلوات والزكوات والفرائض الأخرى المحتمة في الدين .(٣)

هذا ، ولا ينافي الوجوب قول الله تعالى :

"ياأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم ...."(٤)

لأن معنى الآية أنكم اذا فعلتم ما وجب عليكم ، فلا يضركم تقصير غيركم . قال الزمخشري : "كان المسلمون تذهب انفسهم حسرة على الكفرة ، يتمنون دخولهم في الاسلام ، فقيل لهم : عليكم انفسكم باصلاحها والمشي بها في طرق الهدى ، لايضركم الضلال عن دينكم اذا كُنتم مهتدين ."(٥)

وقال ابو السعود : "ولا يتوهمنَّ أحدٌ أن في الآية رُخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فان من جملة الاهتداء القيام بذلك . وقد رُوى أن الصِّدّيق قال يوماً على المنبر : أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الناس اذا رَأَوْا المنكر ، فلم يغيروه ، عمهم الله بعقابه ."(٦)

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .
(٢) سورة طـــه : الآية ١٣٢ .
(٣) انظر : محمد عبد العزيز الخولي : اصلاح الوعظ الديني (المكتبة التجـــارية الكبرى بالقاهرة ــ الطبعة السادسة ــ ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م) ص ١١ .
(٤) سورة المائدة : من الآية ١٠٥ .
(٥) ابو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت ٥٣٨ هـ) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل (مصطفى البابي الحلبي واولاده ــ بالقاهرة ــ طبعة اولى ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م) : ١/ ٥٣٤ .
(٦) تفسير ابو السعود : ٢/ ٦٥ .

المبحث الثالث : بعض خصائص الدعوة

١ ـ الشمول والحيوية :

الاسلام هو دين الله الذى بعث به الانبياء جميعاً ، وقد تجدد على يد محمد صلى الله عليه وسلم ـ خاتم النبيين ـ كاملاً وافياً لصلاح الدنيا والآخرة .

والدعوة الاسلامية تستمد بقاءها من أمرين : ـ

الأول : كونها من عند الله رب العالمين .

والآخر : صلاحيتها لكل زمان ومكان .

ونبوات الانبياء السابقين ورسالاتهم ، وان تحقق فيها الأمر الأول ، فهى بالنسبة للأمر الآخر كانت محدودة الزمان والمكان ، وقد يبعث الله تعالى اكثر من نبي واحد في وقت واحد ، وهذا تدرج طبيعي في الوصول الى الكمال .

وطبيعيٌ أيضاً ان تستوعب الرسالة الخاتمة أصول الرسالات السابقة ، وتتحدث عن رجالها ، وَتُعُدُّ الإيمان بهم اصلاً في الإيمان بها ، فهم جميعا يأخذون من مشكاة واحدة ، ويدعون الى إلٰه واحد ، قال تعالى :

" وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي اليه انه لااله الا انا فاعبدون . "(١)

وقال عز من قائل :

" ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . "(٢)

---

(١) سورة الانبياء : آية ٢٥ .

(٢) سورة الزمر : آية ٦٥ .

فالاسلام هو دين الله الذى ارتضاه للعالمين ، تمكيناً لخلافتهم وتيسيراً لحاجاتهم ، ووفاءً بحقوقهم ، ورعايةً لشئونهم ، وحمايةً لوحدتهم ، وتكريماً لانسانيتهم ، وإشاعةً للحق والعدل بينهم . إنه الضوابط الكاملة للسلوك الانسانى وتقرير الحقوق والواجبات . وهو ـ قبل ذلك وبعده ـ الاعتراف بالخالق والبر بالمخلوق .

والدعوة الاسلامية ـ كما ذكرنا ـ هي دعوة النبيين جميعا ، تجددت كاملة شاملة على يد خاتم الانبياء والمرسلين : " ... مُصَدقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهَيمناً عليه ..."(١) ، ولهذا فقد فرض الاسلام الايمان بالرسل جميعاً ، قال تعالى : "قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا وما أُنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ."(٢) ، وَعَدَّ التفرقةَ بينهم كُفْراً بهم جميعا ، وتكذيبَ أحدهم تكذيباً لهم جميعا ، قال عز من قائل : "إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . اولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مُهيناً ."(٣)

وتقرأ في سورة الشعراء ، عن قوم نوح : "كذبت قوم نوح المرسلين" ، وعن قوم هود : "كذبت عاد المرسلين" ، وعن قوم صالح : "كذبت ثمود المرسلين" ، وعن قوم لوط : "كذبت قوم لوط المرسلين" ، وعن اصحاب الأيكة : "كذب اصحاب الأيكة المرسلين"(٤)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٤٨ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٣٦ .
(٣) سورة النساء : الآيات ١٥٠ـ١٥١ .
(٤) الآيات : ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٦٠ ، ١٧٦ .

ومن هنا نستطيع ان نقرر ان العالم تجمعه في الأصل وحدةٌ دينيةٌ ، وأن الفُرقة في الدين من صنع الأهواء والشهوات ، يبرأ منها الأنبياء جميعاً[١] ، كما في قوله تبارك وتعالى : "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم الى الله ثم يُنبئهم بما كانوا يفعلون ." [٢]

إنه بُنيان واحد ، عَملت فيه أيدي الانبياء جميعا ، ثم جاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فأكمل الصرح وأتم البنيان ، قال صلى الله عليه وسلم : "إن مَثلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لَبِنَة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هَلاَّ وُضعت هذه اللبِنَة ! فأنا اللبِنة ، وأنا خاتم النبيين ." [٣]

إن من الأمور التي يؤيدها الواقع ـ وإن تجاهلها المكابرون ـ أن رابطة الدين أقوى من روابط الاجناس واللغات ، ودين الله منذ بدء الخليقة واحد : اصوله واحدة ، وعقائده واحدة . لذلك لا يكون المسلم كامل الاسلام ، الا اذا اعترف بجميع الأديان السابقة التي جاءت من عند الله ، وآمن بالمصدر الالهي لكل ديـــن . [٤]

إن الله جلت قدرته ، أوجد الناس جميعاً من اصل واحد ، وسوّى بينهم في المزايا الجسمية ، فعدلُه يقتضي التسوية بينهم في المزايا الروحية . لذلك أراد

---

(١) انظر : محمد الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية (دار العربية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م) : ص ٢٩ـ٣١ .
(٢) سورة الانعام : آية ١٥٩ .
(٣) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب المناقب : باب خاتم النبيين : ٤/ ١٦٢ـ١٦٣ ؛ وانظر : مسلم : الصحيح : كتاب الفضائل : حديث ٢١ـ٢٣ .
(٤) انظر : محمد احمد خلف الله : محمد والقوى المضادة (مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ١٩٧٢ م) : ص ٢٣٠ .

ان ينهلوا من معين واحد ، تأمل قوله تعالى : "تالله لقد ارسلنا الى أُمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان اعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب اليم ٠ "[1] ، تجد أن الآية صريحة في ان ماجاء به الرسل السابقون قد تفرق واختلف الى حد عظيم ٠ واذا كان دين الله قد مسّه التحريف بالزيادة او النقص ، وانحرفت الانسانية عن اصلها ، ـــ وحادت عن الطريق السوى ، فرحمة الله تعالى تقضي بدعوة الذين اختلفوا في دينهم الى غاية واحدة ، يقول تبارك وتعالى : "قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ٠ "[2].

حقاً ان عيسى عليه السلام جاء بالانجيل ، وعلّم الناس العقيدة الصحيحة عن الله عز وجل ، وعرّفهم الفرق بينه ـ تبارك وتعالى ـ وبين البشر ، ويؤيد ذلك بالخضوع العملي ٠ فوضّح ان اساس دينه : الامر من جانب الله ، والطاعة من جانبه ، وانه عليه السلام ماجاء ليهدم بل ليكمّل ٠ لقد جاء عيسى عليه السلام ، متخلقاً بالمثل العليا ، ومنحه الله قانوناً الهياً ليدل الانسان على طريق الكمال ، والانسان هو العالم كله مصغراً ، فلا يليق به ان يظل جاهلاً بالمعنى الحقيقي لهذا القانون ٠ ومن الذى يستطيع ان يستكنه هذا القانون ؟ الرسل هم فرسان هذا الميدان ، فقد جاءوا واحداً بعد آخر ليعلنوه ، ويبيّنوه ، ويعيدوا اليه سيرته الاولى ، وظلوا كذلك حتى جاء خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فاعلن ان دين الاسلام هو دين الخضوع للقوانين الالهيه التي تشمل الامر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهو المظهر الاوفى لكلمة الله وامره ، وهو الدين الذى جاء به انبياء العالم من قبل ٠ [3]

---

(١) سورة النحل : آية ٦٣ ٠
(٢) سورة آل عمران : آية ٦٤ ٠
(٣) خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ٠

حقاً ان كل أمة في العالم تعتقد ان دينها من عند الله ، وان الكتب التي بأيديهم صحيحة لامرية فيها ، وان ماسبقها من الكتب امتدت اليه يد الانسان بالتشويه والتحريف . ولقد جرت سنة الله بارجاع وحيه نقياً خالياً من الشوائب ، كما اشار الى ذلك القرآن الكريم في قوله عز من قائل : "ماننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها الم تعلم ان الله على كل شيء قدير ." (١) ولا ادل على صحة ذلك من ان عيسى عليه السلام قد بُعث بعد ان ضل العالم ضلالاً بعيداً ، ثم أدى رسالته على الوجه الاكمل ولما انحرف العالم بعده عن الطريق السوى ، وتاهت الحقائق ، جاء القرآن الكريم لانقاذ البشر ، بوحي من الله تعالى ، لم يمسسه تغيير او تبديل . ولا عجب ! فقد تعهد الله تعالى بحفظه ، كما جاء في قوله جل ذكره : "إنّا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ." (٢) لقد جعل هذا الدين القيم قانونه الاعظم الخالد خلود الزمان : "لااله الا الله ، محمد رسول الله" ، وكل مايتصل بهذا الدين الخاتم انما هو وسيلة لجعل هذا القانون حقيقة عملية بين البشر . (٣)

لقد انكر الاسلام على الذين انحرفوا بهذا القانون الاصيل ، ونسبوه الى الدين ظلماً وزوراً . انكر على اليهود ان يقولوا : عزيز ابن الله ، وعلى النصارى ان يقولوا تارةً : المسيح ابن الله ، وطوراً : ان الله هو المسيح ابن مريم . قال جل شانه : "وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يوفكون ." (٤)

---

(١) سورة البقرة : آية ١٠٦ .
(٢) سورة الحجر : آية ٩ .
(٣) انظر : خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ .
(٤) سورة التوبة : آية ٣٠ .

والاسلام في انكاره هذا الانحراف بالعقيدة ، انما يرد الانسانية الى وحدة صادقة في ظل توحيد صادق ، وهو يقرر على السنة الرسل جميعاً انهم دعاة الى الله وحده ، وانهم ما طلبوا من اقوامهم الا ان يعبدوا الله ، مالهم من اله غيره[1] ، قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله : " واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي ان اقول ماليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك انت علام الغيوب ٠ ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد ٠ "[2] وقال عز من قائل : " لقد ارسلنا نوحاً الى قومه قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ٠٠٠٠٠ "[3] وقال جل جلاله: " والى عادٍ اخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ٠٠٠ "[4] وقال سبحانه: " والى ثمودَ اخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ٠٠٠ "[5] وقال : " والى مدينَ اخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ٠٠٠٠ "[6]

والاسلام في شموله واثباته لرسالات السابقين ، على هذا النحو الخالد ، انما يقدم للانسانية الحقيقية التي ظلمتها اهواء الناس وانحرفت بها شهواتهم ، في كتاب "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٠ "[7] ، "٠٠٠ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ٠٠٠٠ "[8] ، وكأنه بهذا يقول لأتباع موسى :

---

(١) انظر : الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ٣٢ ٠
(٢) سورة المائدة : الآيات ١١٦ ــ ١١٧ ٠
(٣) سورة الاعراف : من الآية ٥٩ ٠
(٤) سورة الاعراف : من الآية ٦٥ ٠
(٥) نفس السورة : من الآية ٧٣ ٠
(٦) نفس السورة : من الآية ٨٥ ٠
(٧) سورة فصلت : آية ٤٢ ٠
(٨) سورة الانفال : من الآية ٤٢ ٠

ان كنتم تؤمنون بنبيكم فهذا دينه فاطيعوه ، ولأتباع عيسى : ان كنتم تحبون رسولكم ، فهذا دينه وسبيله فاطيعوه ولا تظلموه ، وللانسانية جميعا : "وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فَتَفَرّق بكم عن سبيله ذلكم وّصاكم به لعلكم تتقون ." (١)

والاسلام ـ في لغة القرآن ـ ليس اسماً لدين خاص ، انما اسم للدين المشترك الذى جاء به كل الانبياء ، وانتسب اليه كل اتباعهم . (٢)

هكذا نرى نوحاً يقول لقومه : "... وأُمرت ان اكون من المسلمين ." (٣) ، ويعقوب يوصي بنيه : "... فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ." (٤) ، وابناء يعقوب ايضاً يجيبون اباهم : "... قالوا لانعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ." (٥) ، وموسى يقول لقومه : "... ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ." (٦) ، والحواريون يقولون لعيسى : "...آمنا واشهد بأننا مسلمون ." (٧) ، بل ان فريقاً من اهل الكتاب حين سمعوا القرآن : "... قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ." (٨)

ولكون الاسلام رسالة ابدية خالدة ـ اشتملت على جميع الرسالات السماوية الصحيحة التي سبقتها ـ فلا بد ان تكون شريعته كاملة ، مستوعبة لكل ماتتطلبه الحياة البشرية في مختلف اتجاهاتها وجوانبها ، من تنظيم واصلاح كاملين . وهذا هو ماجاءت به هذه الشريعة ، حيث امتزجت بحياة الانسان ، وتغلغلت فيها ، وعالجت شتى امورها . فليس الاسلام دينا منفصلا عن الدنيا ، وليست الدنيا امرا منفصلا عن الاسلام إنه دين الروح والمادة ، ودين الدنيا والاخرة ، وهو ينظر الى الحياة نظرة شاملة

---

(١) سورة الانعام : آية ١٥٣ .
(٢) انظر : الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ٧٥ .
(٣) سورة يونس : من الآية ٧٢ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٣٢ . (٥) نفس السورة : من الآية ١٣٣ .
(٦) سورة يونس: من الآية ٨٤ . (٧) سورة المائدة : من الآية ١١١ .
(٨) سورة القصص : من الآية ٥٣ .

تتناول شطريها : المادى والروحي ، بالاصلاح والتوجيه ، دون ان يطغى ركن على آخر ، وانما : توسّط واعتدال . (١)

قال تعالى : "ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون ." (٢)

فالدين ليس مجرد عبادات وصلوات دون القيام باعمال الخير الاخرى ، من السعي والتحصيل والانفاق وتربية الاسرة ، واصلاح المجتمع ، واعداد القوة للدفاع عن الحق ، واقتحام ميادين العمل الشريف : بالصبر والرباط والاخلاق وتنفيذ المواثيق ، وتحمل الشدائد . (٣)

وقال جل شأنه : "وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين ." (٤)

وقال جل وعلا : "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم ." (٥)

وقال عز من قائل : "قل من حرّم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ..." (٦)

---

(١) انظر : نوفل : دكتور ابو المجد السيد : الدعوة الى الله تعالى ، خصائصها مقوماتها ، مناهجها (مطبعة الحضارة العربية بالفجالة ـ الطبعة الاولى القاهرة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م) : ص٩٦ ـ ١٠٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٣) انظر : نوفل : المرجع السابق ، نفس المكان .

(٤) سورة القصص : آية ٧٧ .

(٥) سورة المومنون : آية ٥١ .

(٦) سورة الاعراف : من الآية ٣٢ .

ثم تأمل قول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، عندما هَمّ قوم من المسلمين بما يشبه : الرهبنة في النصرانية ، فنذروا انفسهم ان يصوموا النهار ، ويقوموا الليل ، ولا يتزوجوا ، قال : "والله اني لأتقاكم لله ، واخشاكم له ، ولكني اصوم وافطر ، واصلي واقعد ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنتي فليس مني ." (١)

والذى لا شك فيه ، ان تقدم الحياة في مختلف جوانبها ، متوقف على استقرار الحياة التشريعية وتكاملها ، وتغطيتها لشتى جوانب الحياة ، والثقة فيها ثقة مطلقة توفر الضمانات النفسية والمادية ، وتدفع الى العمل الاخلاقي والضميرى ، قبل العمل الفكرى والمادى . (٢)

والشريعة الاسلامية قد حظيت دون الشرائع الاخرى بهذه الميزات كلها ، فهي غير قابلة لاى تغيير او تبديل او تنقيح او تهذيب ، لانها من عند الله تبارك وتعالى ، الذى احاط بكل شيء علما ، وتستمد قواعدها من كتاب أُحكمت آياته ، وفُصّلت ، وَبَيّنَتْ كل شيء ، قال تعالى : "... ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهُدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين ." (٣) وليس لأحد — مهما بلغ امره في العلم والايمان — ان يزيد حرفاً فيه ، فضلاً عن كلمة ، فضلاً عن آية . قال تعالى :

"ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من احد عنه حاجزين ." (٤) ، فلا مجال بعد هذا لتغيير أىّ حُكم في هذه الشريعة ، او انقاص منها ، او تزيد عليها ، فصانعها سبحانه وتعالى محيط بمخلوقاته ، عليم بهم ، خبير بما يحقق لهم سعادتهم في الاولى والاخرة ، فلا يشرع لهم من المبادئ

---

(١) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب الاعتصام : باب ما يُكره من التعمق .
(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٠٢ .
(٣) سورة النحل : من الآية ٨٩ .
(٤) سورة الحاقة : الآيات ٤٤ — ٤٧ .

والقوانين الا عن حكمة وتقدير ، قال تنزهت صفاته :" انا كل شيء خلقناه بقدر ."[١]
ولا يمكن ان يغيب عنه تعالى جانب من جوانب الحياة ، دون ان يشرع له ما يصلحه وينهضربه . ومن هنا ، فقد جاءت شريعته جل شانه ، وافية بكل ماتطلبه الحياة ، كاملة من كل وجه ، محيطة بكل شيء في الوجود . وجاء الدستور الرباني الذى يحتوى هذه الشريعة الغراء ، شاملا مهيمنا على ماسبقه ، مفصلا ، مبينا لكل شيء .[٢]

وهكذا ، جاءت الدعوة الاسلامية : شاملة ، كاملة ، حيوية ، وافية بكل ما يصلح البشرية في الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة .

---

(١) سورة القمر : اية ٤٩ .
(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص١٠٢ ــ ١٠٥ .

ب ـ العـــالميـــة :

لا شك ان اصول الاديان الصحيحة كلها ترجع الى امرين : الايمان بالله تعـالى وتوحيده ، وطاعته فيما امر واجتناب ما نهى عنه . والادلة على ذلك كثيرة : فهؤلاء انبياء الله جميعاً ، يقولون لاقوامهم قولاً لا يتبدل ولا يتغير : ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره " (١)

ولقد جمع الاسلام هذين الاصلين المقدسين : الايمـان ، والطـاعة . قال تعالى : "وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لااله الا انا فاعبدون" (٢)

وقال عز من قائل : "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينـا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيـه ...." (٣)

ان عالمية الاسلام مبدأ ديني مقرر من اول البعثة المحمدية المباركة ، وقد اعلن القرآن الكريم والسُنة النبوية الطاهرة هذا صراحة ، مثلما اعلنا مبدا الوحدانية لله تعالى فكلا المبدأين جاء بهما الوحي اول عهده بالدعوة ، ولم يبال الاسلام بما قد يجره هذا الاعلان من مشكلات وعقبات ، وهوفي اول عهده ، بما يؤلب عليه اعداءه ، سواء بمكة او خارجها . (٤)

قال الله تعالى في سورة القلم ، وهي ثاني سُور القرآن نزولاً (٥) على النبي صلى الله عليه وسلم : "وما هو الا ذكر للعالمين ." (٦)

---

(١) انظر الموضوع السابق : الشمول والحيوية ، من هذا المبحث .
(٢) سـورة الانبيـاء : آيـة ٢٥ .
(٣) سـورة الشـورى : من الآيـة ١٣ .
(٤) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص٣٦ ـ ٤٠ .
(٥) انظر : الزركشي : الامام بدر الدين ، محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤ هـ) : تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم : البرهان في علوم القران (دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ـ٧٦ هـ ـ ٥٧م) : ١/ ١٩٣ .
(٦) سـورة القلـم : آيـة ٥٢ .

كذلك قال تعالى في سورة التكوير ، وهي سادسة السور نزولاً بمكة المكرمة[١] :

" وماهو بقول شيطان رجيم . فاين تذهبون . ان هو الا ذكر للعالمين . "[٢]

كما قال عز من قائل في سورة الاعراف ، وهي من السور المكية :

" قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ...."[٣]

وفي سورة الفرقان ، اعلن الله تعالى عالمية الدعوة صريحة واضحة عندما قال جل جلاله:

" تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . "[٤]

وتكرر هذا الانذار ايضا في سورة سبأ ، حيث قال تبارك اسمه :

" وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا . "[٥]

وكل هذه الآيات الكريمة مكية النزول ، مما يؤكد عالمية الدعوة منذ فجر عهدها المكي .

ولم يكتف القران الكريم بهذا ، انما انتقل من مجرد الاعلان عن العالمية في الفاظ وعبارات ، الى الاعلان عنها في صورة الرفض البات للعقائد الاخرى ، ومن بينها عقائد اهل الكتاب ، حيث اخذ في بيان زيفها وباطلها ، ومناداة اهلها انفسهم الى الاسلام والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً .[٦]

ففي سورة المدثر ، وهي رابعة السور المكية نزولاً[٧] ، يتعرض القرآن لأهل الكتاب ، مُبيناً ان بعض الحقائق التي جاء بها موجودة عندهم في كتبهم ، رغم كتمانهم لها ، وتحريفهم فيها ، مما يجعلهم — لو تركوا عنادهم — في يقين من صحة الاسلام ، وعدم

---

(١) انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ ،
السيوطي : الحافظ جلال الدين ، عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) :
الاتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم (مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ، ٨٧ هـ — ٦٧ م) : ١/ ٢٥—٢٧ .
(٢) سورة التكوير : الآيات ٢٥—٢٧ . (٣) سورة الاعراف : من الآية ١٥٨ .
(٤) الآية الاولى . (٥) الآية ٢٨ .
(٦) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٤٢ .
(٧) انظر : الزركشي : نفس المرجع والمكان ، السيوطي : نفس المرجع والمكان .

الارتيـــاب فيـه ، يقول تعالى في محكم تنزيلـــه :

" وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عِدّتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب ٠٠٠ " (١)

يقول ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى : "٠٠٠ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ٠٠٠ " :

اى يعلمون ان هذا الرسول حق ، فانه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الانبياء قبله . (٢)

وليس معنى الاعلان عن ان هذا الرسول حق ، الا طلب الايمان به ، والتصديق برسالته . فلو ان الاسلام خاص بمشركي العرب ، لما كان هناك داع للتعرض لعقائد اهل الكتاب ، لاسيما وان عبدة الاصنام من العرب لا يؤمنون بهذه الاديان . فلا يقال انه جاء بهذا للاستدلال على صحته وتأكيده ، وكأنه يقول للمشركين : ان ماجئت به اليكم تشهد به الاديان الاخرى . لايقال هذا ، لان المشركين انفسهم لا يؤمنون بهذه الاديان ، ولا يستدل لهم بما لا يؤمنون به . (٣)

وفي سورة الاعراف ، يدعو الاسلام اهل الكتاب ـ صراحة ـ الى الايمـــان بالاسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المكتوب عندهم في كتبهم ، وهو المعروفة اوصافه فيما لديهم ، مما يجعلهم أولى الناس باتباعه ، فان هم اعرضوا عن ذلك ، فهم الخاسرون في الدنيا والآخرة . يقول تعالى في محكم تنزيلـــه :

" ٠٠٠٠ ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هـــم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فـــي

---

(١) من الآيـة ٣١ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٤٤٤ .

(٣) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٤٢ ـ ٤٣ .

التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه ٠٠٠ واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ٠ قل ياأيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ٠ " (١)

قال ابن كثير في تفسيره للآية الاخيرة : " يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (قل) يامحمد (ياايها الناس) وهذا خطاب للاحمر والاسود ، والعربي والعجمي (اني رسول الله اليكم جميعا) اى : جميعكم ، وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم ، انه خاتم النبيين ، وانه مبعوث الى الناس كافة ٠٠٠ والآيات في هذا كثيرة ، كما ان الاحاديث في هذا اكثر من ان تحصر ، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة انه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله الى الناس كلهم ٠٠٠٠ (النبي الامي) اى الذى وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة ، فانه منعوت بذلك في كتبهم ٠٠٠٠٠ " (٢)

وقال تقدست اسماؤه في سورة يونس :

" ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا افأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ٠ وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ٠ " (٣)

فهذا خطاب موجه الى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، يوضح ان دعوته موجهة الى : "من في الارض جميعا" ، ولو شاء الله ان يؤمنوا جملة واحدة لفعل ٠

فهل هناك أعم من هذا التعبير في شمول الدعوة للناس جميعا ؟

---

(١) سورة الاعراف : الآيات ١٥٦ ــ ١٥٨ ٠

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٥٤ ــ ٢٥٦ ٠ وراجع في صفحة ٢٥٥ من نفس المرجع كثيرا من الاحاديث النبوية التي توكد عالمية دعوة الاسلام واحتوائها لجميع البشر في جميع بقاع الدنيا ٠

(٣) الآيات : ٩٩ ــ ١٠٠ ٠

وفي سورة سبأ يقول الله تعالى :

" وما ارسلناك الا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون ٠ "(١)

يقول ابن كثير في تفسيره : " اى إلا الى جميع الخلائق من المكلفين ، ٠٠٠ ، قال محمد بن كعب : يعني الى الناس عامة ٠ وقال قتادة في هذه الآية : ارسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى العرب والعجم ، فاكرمهم على الله تبارك وتعالى ، اطوعهم لله عز وجل ٠٠٠٠ عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول : ان الله تعالى فضّل محمدا صلى الله عليه وسلم ، على اهل السماء وعلى الانبياء قالوا يا ابن عباس ، فيم فضله على الانبياء ؟ قال رضي الله عنه : ان الله تعالى قال : " وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم " ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم " وما ارسلناك الا كافة للناس " ، فارسله الله تعالى الى الجن والانس ٠ وهذا الذى قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين (٢) رفعه عن جابر رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُعطيت خمساً لم يُعطهن احد من الانبياء قبلي : نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لي الارض مسجداً وطهورا ، فأيما رجل من امتي ادركته الصلاة فليصل ، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي ، واعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبعث الى قومه خاصة ، وبُعثت الى الناس عامة " ٠ وفي الصحيح ايضاً ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بُعثت الى الاسود والاحمر " قال مجاهد : يعني الجن والانس ٠ وقال غيره : يعني العرب والعجم ٠ والكل صحيح ٠ "(٣)

---

(١) الآية ٢٨ ٠
(٢) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب الصلاة ، كتاب الانبياء ،
مسلم : الصحيح : كتاب الايمان : حديث ٣٢٢ (طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ)
(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٥٣٨ ــ ٥٣٩ ٠

وقال جل وعلا في محكم تنزيله : "الم اعهد اليكم يابني ادم الا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين . وان اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد اضل منكم جبلا كثيرا افلم تكونوا تعقلون ." [١] ، فهل هناك عموم ينتظم الجنس البشرى كله اروع من نسبتهم الى اصلهم الاصيل ، وابيهم الاول آدم عليه السلام ؟ هل تستطيع طائفة من سكان الارض ان تشذ عن كونها من ولد آدم ؟ [٢]

وفي سورة الانعام ، يقول الواحد الأحد :

"وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها ..." [٣]

قال ابن كثير : "يعني مكة ومن حولها ، من احياء العرب ، ومن سائر طوائف بني آدم ، من عرب وعجم ." [٤]

وفي بحث علمي جديد ، قام به احد علماء المساحة العرب [٥] ، لاسقاط الكرة الارضية بالنسبة لمدينة مكة المكرمة ، وجد ان ام القرى هي مركز الارض اليابسة على سطح الكرة الارضية ، حيث يقول هذا العالم في مقدمة بحثه :

---

(١) سورة يس : الآيات ٦٠ ـ ٦٢ .
(٢) انظر : محمود : دكتور علي عبد الحليم : عالمية الدعوة الاسلامية (دار عكاظ للطبع والنشر بالرياض ـ طبعة ثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م): ١ / ١٧٨ .
(٣) من الآية ٩٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ١٥٦ .
(٥) هو العلامة المصرى : الدكتور المهندس/ حسين كمال الدين احمد ابراهيم ، استاذ علم المساحة بكليتي الهندسة بجامعتي القاهرة والرياض "سابقا" .
(انظر : مجلة البحوث الاسلامية ـ الصادرة عن : الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ـ بالرياض ـ العدد الثاني من المجلد الاول ـ ربيع اخر ١٣٩٦ هـ) : ص ٣٣٥ .
والبحث جميعه يقع فيما بين صفحتي ٢٨٨ ، ٣٣٨ من هذا العدد .

"ومما يجدر ذكره في هذه المقدمة ، انني بعد ماوضعت الخطوط الاولى في هذا البحث ورسمت عليها القارات الارضية السبعة ، وجدت ان مكة المكرمة ، هي مركز لدائرة تمر باطراف جميع القارات . اى ان الارض اليابسة على سطح الكرة الارضية موزعة حول مكة المكرمة ، توزيعاً منتظماً ، وان مدينة مكة المكرمة - في هذه الحالة - تُعتبر مركزا للارض اليابسة ." (١)

وصدق الله العظيم ، اذ يقول في محكم تنزيله : "وكذلك اوحينا اليك قرآنا عربياً لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ...." (٢)

وهذا البحث يمكن ان يضيف الينا فهماً جديداً لهذه الآية الكريمة ، وللآية السابق ذكرها من سورة الانعام ، فلا يقتصر مفهوم : ومن حولها ، على العرب والجزيرة العربية فحسب ، بل يتعداه الى جميع البشر ، في جميع انحاء الارض ، ويتاكد بذلك - ايضاً - راى ابن كثير في تفسيره .

وصدق الله القائل : "....نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ." (٣)

وفي سورة ص ، نجد تكرارا وتاكيدا لما سبق تقريره في سورة القلم من عالمية الدعوة(٤) ، حيث يقول عز من قائل :

"قل ماا سالكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين . ولتعلمن نباه بعد حين ." (٥)

---

(١) مجلة البحوث الاسلامية : المرجع السابق : ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .
(٢) سورة الشورى : من الآية ٧ .
(٣) سورة يوسف : من الآية ٧٦ .
(٤) انظر : سورة القلم : الآية ٥٢ .
(٥) سورة ص : الآيات ٨٦ - ٨٨ .

ويقول ابن كثير ايضا : "ان هو الا ذكر للعالمين ، يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الانس والجن ." (١)

ومن الملاحظ ان سورة ص قد نزلت بعد سورة القلم بفترة زمنية لا بأس بها ، فان القلم هي ثاني مانزل من سور القرآن الكريم ، في حين ان ترتيب سورة ص هو السابعة والثلاثين (٢) ، حيث يمكن ان يفهم من ذلك تركيز الوحي على هذه العالمية ، واهتمامه بتقريرها مراراً وتكراراً .

يتضح مما سبق ، انه من مكرر القول ان نقول ان الاسلام دين الكافة ، فبمقتضى الاثر ، وبمقتضى تلك الآيات وغيرها ، كان الاسلام دين البشرية ، لاحياة لها بغيره ، والناس جميعا مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، عن وحي من الله تعالى ، في القرآن الكريم ، الذى لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، في محكم آياته البينات . (٣)

والدعوة الاسلامية لاتستمد عالميتها من نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبويه الشريفة فحسب ، بل انها تتميز ـ ايضا ـ باتفاقها وملاءمتها للفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها ، مما يضيف الى عالميتها ابعادا طويلة ، وافاقا واسعة .

ان الاسلام ليس دخيلا على الكون ، ولا غريبا على فطرة البشر ، لذا فان قوى الانسان المختلفة ، من فكرية ووجدانية وارادية ، تجد كمالها وبواعثها من الدين ، كما تجد صيانتها ورعايتها وحفظها . (٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٤٤ .
(٢) انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ١ / ١٩٣ ،
السيوطي : الاتقان في علوم القرآن : ١ / ٢٥ ، ٢٧ .
(٣) انظر : ابو زهرة : الشيخ محمد : الدعوة الى الاسلام
(دار الفكر العربي بالقاهرة ـ طبعة اولى ـ ١٩٧٣ م) : ص ١٩ .
(٤) انظر : الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ٧٠ .

فالتدين ، ولا سيما في اديان التوحيد والخلود ، عنصر ضرورى لتكميل القوة الفطرية في الانسان . فيه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته ، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا . ثم هو فوق ذلك عنصر ضرورى لتكميل قوة الوجدان ، فالعواطف النبيلة من الحب والشوق والشكر والتواضع والحياء والامل وغيرها ، اذا لم تجد ضالتها المنشودة في الاشياء ، ولا في الناس ، واذا جفت ينابيعها في هذا العالم المتبذل المتبدد ، وجدت في موضوع الدين مجالا لاتدرك غايته ، ومنهلا لاينفذ معينه . واخيرا هو عنصر ضرورى لتكميل قوة الارادة ، يمدها باعظم البواعث والدوافع ، ويدعمها باكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط . (١)

وهكذا ، نرى الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الانسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها ، حتى انه كما صح ان يعرف الانسان بانه حيوان مفكر ، او بانه حيوان مدني بطبعه ، يسوغ لنا كذلك ان نعرفه بانه : حيوان متدين بفطرته . (٢)

فالاسلام اذن ، يلتقي مع فطرة الانسان ، وقد لازمه من بدايته ، من اول انسان هبط الى الارض . (٣)

قال تعالت صفاته : "قلنا اهبطوا منها جميعا فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ." (٤)

ذلك هدى الله ، الذى لم ينقطع عن الخلق قط ، تاتي به رسل الله تباعا ، وتحمله صفحة الكون في ايات تبصر وتذكر ، قال جل جلاله :

"افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والارض مددناها

---

(١) انظر : دراز : دكتور محمد عبد الله : الدين . ص ١٠٠ .
(مطبعة السعادة بالقاهرة ـ طبعة اولى : ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م)
(٢) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان .
(٣) انظر : الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ٨٥ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ٠ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ٠ ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد ٠ والنخل باسقات لها طلع نضيد ٠ "(١)

والفطرة التي نعنيها هنا ، هي الفطرة الاصيلة المتكاملة ، التي يظهر فيها عمل الروح ، الفطرة التي هي من صنع الله ، لا من دعوى العباد ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، قال تعالى في محكم تنزيله :

"فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ٠ "(٢)

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة :

"فسدد وجهك ، واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية : ملة ابراهيم التي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وانت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ٠ فانه تعالى فطر الخلق على معرفته وتوحيده ، وانه لا اله غيره ٠ وفي الحديث : "اني خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ٠ "(٣) وقوله تعالى : "لاتبديل لخلق الله" ، قال بعضهم معناه هو: لاتبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : "ومن دخله كان آمنا" وهو معنى حسن صحيح ٠"(٤)

---

(١) سورة ق : الآيات ٦ـ ١٠ ٠
(٢) سورة الروم : الآية ٣٠ ٠
(٣) تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣ ٠
(٤) المرجع السابق ـ نفس المكان ٠

وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : انه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة ، على الجبلة المستقيمه ، لا يولد احد الا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس ، وابراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم ، في قوله تعالى : "لا تبديل لخلق الله" : لدين الله .(١) وقال البخارى : قوله "لا تبديل لخلق الله" : لدين الله ، خلق الاولين : دين الاولين ، الدين والفطرة : الاسلام .(٢)

عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : "ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فابواه يُهوّدانه او يُنصّرانه او يُمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟"(٣)

واذا كان القرآن الكريم ، قد قرر ان التدين فطرة ، وان جميع الكائنات البشرية مشتركة في هذا القدر ، فهو يقرر ايضا ان هذا الدين هو دين التوحيد ، لا شيء غير ذلك : "الدين القيم" ، وهو الدين الذى دعا اليه ابراهيم عليه السلام ، والذى امر به محمد صلى الله عليه وسلم .(٤)

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان .
(٣) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب الجنائز : باب اذا اسلم الصبي فمات هل يصلى عليه : ٢ / ٩٧ (طبعة استانبول)
وانظر : نفس المرجع : باب ماقيل في اولاد المشركين : ٢ / ١٠٤ ،
مسلم : صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب القدر : ١٦ / ٢٠٧ ـ ٢١١ .
ومعنى جمعاء : مجتمعة الاعضاء سليمة من النقص ، وجدعاء : مقطوعة الاذن او غيرها . والمعنى ان البهيمة تلد البهيمة كاملة الاعضاء لا نقص فيها ، وانما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها .
(انظر : النووى : شرح صحيح مسلم : ١٦ / ٢٠٩ .)
(٤) انظر : صقر : الشيخ عطية : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ١٦ .
(مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع ـ بالقاهرة ـ الطبعة الاولى : ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م) .

قال الفرد الصمد في محكم كتابه :

" قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ٠ ديناً قيّماً ملة ابراهيم حنيفـــاً ومـا كـان من المشركين ٠ " (١)

ان بني آدم جميعاً في كل زمان ومكان ، ولدوا على الفطرة السليمة ، فيهم الشعور بمعبود يتهم لخالقهم ، وتفرده سبحانه وتعالى بالالوهية ، وفيهم الاستعداد ايضا للنظر في الكون الزاخر بادلة التوحيد ، للوصول الى هذه الحقيقة الوجدانيـــة عن طريق النظر والتأمل ، فكان ذلك ميثاق من الله ان يعبدوه وحده ، مادامـــت الوسائل متوفره ٠ وكل انسان فيه هذا الاستعداد ، فلا ينبغي ان يحتج بانـــه سلك سبيل الاولين سلوكا قهريا ، ليتخلص من العذاب ٠ (٢)

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

" واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربـــكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ٠ او تقولوا انما اشـرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون ٠ " (٣)

فاذا كان دين الفطرة هو التوحيد ، فما الذى يجعل الانسان ينقض هـــذا الميثاق ، ويخالف فطرته ؟ وما معنى هذه الالهة التي اتخذها الناس وعبدوها مـــن دون الله ؟ والتي جاءت الرسل لهدمها وابطالها ؟ (٤)

ونجيب على ذلك ، بان الانسان ـ اول ماعبد ـ عبـد الخالق جل وعـلا ، على صفته غير المحدودة ، غير ان داعي الحس ، الذى لايستطيع ان ينفك عن وحيـه

---

(١) ســـورة الانعـــام : آيـــة ١٦١ ٠
(٢) انظر : صقر : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ١٦ ٠
(٣) ســـورة الاعـــراف : آيـــة ١٧٢ ـ ١٧٣ ٠
(٤) انظر : صقر : المرجع السابق ـ نفس المكان ٠

تماما ، جعله يعتقد انه لابد ان يكون لهذا الخالق ممثلون في عالم الحس والمشاهده ، يجب عليه ان يبحث عنهم جهد طاقته ، ليستجلب رضاهم ، ويتقي سخطهم ، بالقرابين والضحايا والطقوس المختلفة ، حسب اختلاف الطبائع والبيئات والادراكات ، وحظها من الثقافة . ومهما اخذت هذه الطقوس من حيز تفكيرهم ، فان الفطرة تناديهم بان الله فوق كل ذلك ، ومن وراء ذلك . (١)

وعن ذلك ، قال الله تعالى في احدى آياته المحكمات :

" ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله .... " (٢)

وفي آية اخرى : " ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون . " (٣)

وفي آية ثالثة : " ولئن سالتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون . " (٤)

الى غير ذلك من آيات الله البينات ، التي تؤكد هذا المعنى . (٥)

وعلى هذا ، فان التوحيد ـ الخالص من شوائب الخيالات ـ هو اول ما كان عليه دين الانسان ، وكان عاماً في جميع المجتمعات البشرية ، فلما تدخلت الاهواء النفسية ، وعملت صور الخيال عملها ، واعتز كل فريق بما تأثر به عقله منها ، تنوعت الاديان ، واختلفت الجماعات ، وتفرقت القبائل . (٦)

---

(١) انظر : صقر : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ١٦ ـ ١٨ .
(٢) سورة الزمر : من الآية ٣٨ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٨٧ .
(٤) سورة العنكبوت : الآية ٦٣ .
(٥) انظر : سورة يونس : الآية ٣١ ، سورة العنكبوت : الآية ٦١ ، سورة لقمان : الآية ٢٥ ، سورة الزخرف : الآية ٩ .
(٦) انظر : صقر : المرجع السابق : ص ١٨ .

قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله :

"كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . " (١)

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٣ .

ج ـ الأصـــالـــه :

لاشك ان اهم ما يطمئن النفس البشرية الى اعتناق الدعوة لدين من الاديـان ، هـــي : الأصـالـة[1] ، التي يُقصد بها : ثبوت نسبتها الى الله تعالـــى ، بطريق الوحي الى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، دون وضع او تحريف ، حتى وصولها الينا . وبعبارة اخرى : ان تكون مصادر هذه الدعوة ثابتة الاتصال بمصدرها الاصلي (اللـه ثم الرسول) لا انقطاع فيها ولا تبديل . فاذا ثبت غير هذا فقد صار لزاما رفض هذه الدعوة ، وعدم قبولها علميـا .[2]

ودعوة الاسلام ليس لها الا مصدرين اصليين رئيسين :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السنة النبوية الشريفة .

فاذا ثبتت أصالة هذين المصدرين ، ثبتت أصالة الاسلام ، وصحة دعوته .[3]

---

(١) الأصالة : من الأصل : وهو أسفل كل شيء . وجمعه : أُصول . وأَصُلَ الشيءُ : اى صار ذا اصل . ويقال : استأصَلَت الشجرة : اى ثبت اصلها .
ويقال : ان النخل بارضنا لأصيل : اي هو به لا يزال ولا يفنى .
ورجل اصيل : اى له اصل ، ثابت الرأى ، عاقل .
وفلان اصيل الرأى ، وقد اصل رايه اصالة ، وانه لأصيل الرأى والعقل .
ومجد أصيل : اى ذو اصالة .
(انظر : ابن منظور : لسان العرب : ١١ / ١٦ ـ ١٨ .)

(٢) انظر : نوفل . الدعوة الى الله تعالى : ص ١١٨ .

(٣) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان .

١ ــ القرآن الكريم :

وصل كتاب الله تعالى الينا بطريق التواتر[١] : وهـــو التتابع دون انقطاع .[٢]

وعرف العلماء الخبر المتواتر ، بانه هو : ماروه جمع كبير ، يحيل العقـل اتفاقهم على الكذب عادة ، او صدوره منهم اتفاقا[٣] ، مثلهم في كل طبقة من ـــ طبقاته ، وان يكون قطعي الثبوت .[٤]

وهناك طريقتان لتلقي القرآن متواترا :

1 ــ طريقة التلقي بالمشافهة :

فمن الثابت دينياً وتاريخياً ان محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن ، والصحابة يسمعون منه ، ويحفظون مايسمعون . وكان من اخص صفاتهم : قوة الحفظ والضبط . ولقد تخصصوا في ذلك من بين الأمم ، وهم اصحاب المعلقات الشعرية المشهورة ، وارباب الفصاحة والكلام ، فمالهم ــ والحال كذلك ــ لا يسمعون القرآن ويتقنون حفظه ، هذا بالاضافة الى ان هناك امراً من الله تبارك وتعالى لهم بحفظه ، والتعبد بتلاوته ، والتدبر في آياته ، ومن هنـــا ، كانوا يقرؤونه في كل وقت ، وفي اى مكان حلّوا فيه . وكان لشغفهم به ، وحبهم له ،

---

(١) انظر : الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٤١ ــ ٢٤٣ ،
السيوطي : الاتقان في علوم القران : ١ / ٢١٠ ــ ٢٢٩ .

(٢) التواتر لغة : التتابع . يقال : تواترت الابل والقطا ، وكل شيء ، اذا جاء بعضه في اثر بعض . والمواترة : المتابعة ، ومنه : واترت الكتب فتواترت ، اى جـاء بعضها في اثر بعض ، وترا وترا ، من غير ان تنقطع .
(انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة وتر)

(٣) انظر : ابن الصلاح : مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح ــ توثيق وتحقيق: دكتورة عائشة عبد الرحمن (الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مركز تحقيق التراث ــ بالقاهرة ــ طبعة اولى ١٩٧٦ م) : ص ٣٩٢ ــ ٣٩٤ .

(٤) انظر : شاكر : الشيخ احمد محمد : الباعث الحثيث شرح اختصار علـــوم الحديث لابن كثير (مكتبة صبيح واولاده بمصر ، بدون تاريخ) : ص٣٧ .

وحرصهم على الا يفوتهم شيء منه ، يسارعون الى استماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم متى استطاعوا ، فاذا لم يستطيعوا ، ارسلوا عنهم من يحفظ ، ويجيء اليهم بما حفظ . (١)

روى عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انه قال :

"كنت انا وجار لي من الانصار في بني امية بن زيد (اى في ناحية بني امية ، سميت البقعة باسم من نزلها) وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوماً وانزل يوماً ، فاذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك . " (٢)

وكان من شدة حفظهم ، وقوة ضبطهم ، يلتزمون بالقراءة التي تلقوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واذا سمع احدهم اخاه يقرا بقراءة اخرى ، لا يعرفها مثلا ، فانه يتصدى له ، ويطالبه بالبينة على ماقرأ . (٣)

ومع ذلك ، فقد وجدت طبقة المتخصصين في حفظه كله ، بجميع سوره وآياته ، وهم الذين سُموا : القُراء . ولقد بدأ هؤلاء المتخصصون عملهم هذا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمروا على ذلك زمن ابي بكر وعمر وبقية عهد الخلفاء الراشدين ، مع غيرهم من آلاف الحفاظ لكتاب الله الكريم . (٤)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١١٩ .
(٢) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب العلم : باب التناوب في العلم .
(٣) انظر : المرجع السابق : كتاب استتابة المرتدين : باب ماجاء في المتأولين : حديث عمر بن الخطاب عن سماعه قراءة هشام بن حكيم لسورة الفرقان .
(٤) انظر : نوفل : المرجع السابق : ص ١٢١ .
واقرأ عن ذلك ايضا : البخارى : المرجع السابق : كتاب فضائل القران : باب جمع القرآن : حديث زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه بشأن يوم اليمامة : ٦ / ٩٨ (طبعة استانبول)

وقد انتشر الصحابة والقراء في كل الامصار ، يُحفّظون الناس القرآن ، وكان لكل مدينة من مدن الاسلام حظ وافر من اولئك العلماء والقراء ، فتخرج على ايديهم طائفة كبيرة من التابعين ، كان دأبهم كدأب سلفهم من الصحابة في حفظ القرآن الكريم ، وتحفيظه لغيرهم من اتباع التابعين ، وهكذا ، دون انقطاع او حدوث اى فجوة في هذه السلسلة التواترية المجمع عليها . (١)

٢ ـ طريقة التلقي بالتدوين :

كان القرآن الكريم ينزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ، فيامر كتاب الوحي بكتابته ، ويدلهم على موضع المكتوب ، ـ والمكان الذى يوضع فيه من السورة ، وكان المكتوب يوضع في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي بيوت الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ، وكان من الصحابة من يكتب السورة او الآيات او السور الطوال ، ومنهم من كتب معظم القرآن . (٢)

ولم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى ، الا والقرآن مكتوب كله ، محدد السور والايات ، بالترتيب الموجود الان في المصاحف التي بين ايدينا . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام ، وكان جبريل يعارضه بالقرآن مرة كل عام ، في شهر رمضان ، فلما كان العام الذى قبض فيه ، عرضه مرتين . (٣)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٢١ ـ ١٢٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ـ نفس المكان .
وراجع : البخارى : الجامع الصحيح : كتاب فضائل القرآن .
(٣) انظر : نوفل : المرجع السابق : ص ١٢٤ .
وراجع : البخارى : المرجع السابق ـ نفس المكان .

روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، عن فاطمة بنت محمد عليهما السلام ، انها قالت : "أَسَرَّ إليَّ النبي صلى الله عليه وسلم : إن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة ، وانه عارضني العام مرتين ، ولا اراه الا حضر اجلي ." (١)

ولما استخلف ابو بكر رضي الله تعالى عنه ، رأى جمع الوثائق المسجل فيها القرآن وضم بعضها الى بعض ، وقد كانت معروفة بين الصحابة ، واراد ان يجعلها في مصحف واحد ، يكون تحت بصره وهو خليفة المسلمين والمتولي امرهم . وكان هذا منه رضي الله تعالى عنه زيادة في التوثيق ، وتاكيداً على حفظ القرآن ، رغم ان — حفاظه وقراءه ومحفظيه كثيرون منتشرون بين المسلمين . (٢)

لقد ادرك الخليفة الاول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان طريق الجهاد طويل ، وان المعارك الرهيبة بين الاسلام والكفر متوقعة ، وان احرص الناس على حفظ القرآن الكريم ، هم احرصهم على تقديم ارواحهم في سبيل الله ، وتَقَدُّم الصفوف ، وهذا يُعرّضهم للاستشهاد ، فيقل حَفَظَةُ القرآن . وقد صَحّ ماتوقعه الخليفة ، حيث استُشهد عدد كبير من قراء القرآن الكريم في حروب الردة . (٣)

من هنا ، قام الخليفة الاول ابو بكر رضي الله تعالى عنه بجمع القرآن . (٤)

روى عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه انه قال :

---

(١) البخاري : الجامع الصحيح : كتاب فضائل القران : باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم (طبعة المكتبة الاسلامية ، استانبول) : ٦ / ١٠١ .
(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٢٥ .
وراجع : البخاري : المرجع السابق : كتاب فضائل القرآن : باب جمع القرآن : ٦ / ٩٨ .
(٣) انظر : نوفل : المرجع السابق ، نفس المكان .
(٤) انظر : المرجع السابق ، نفس المكان .

"ارسل إليَّ ابو بكر ، مَقْتَل اهل اليمامة[١] ، فاذا عمر بن الخطاب عنده . قال ابوبكر رضي الله عنه إن عُمَرَ أتاني ، فقال : إن القَتْل قد استَحَرَّ[٢] يوم اليمامة بقُراء القرآن واني اخشى ان يستحر القتل بالقراء بالمواطن[٣] ، فيذهب كثير من القرآن ، واني ارى ان تامر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني ، حتى شرح الله صدري لذلك ، ورايت في ذلك الذي راى عمر . قال زيد : قال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن ، فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ماكان اثقل علي مما امرني به من جمع القرآن . . . . "[٤]

ولم يكن عمل زيد هنا ، سوى جمع نصوص القرآن المكتوبة باذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكنها في مكتوبات غير مجتمعة ، بل متناثرة ، ثم تنسيقها وترتيبها في مصحف واحد ، حسب ترتيب الوحي .[٥]

وطريقة زيد هذه ، هي اوثق طرق التسجيل للنصوص الدينية ، اذ ان النص المراد تسجيله كتابة ، جاء من الصدور ومن السطور معا ، زد على ذلك ان زيدا نفسه يحفظ مايريد تسجيله ، شانه شان غيره من جمهرة الصحابة . ومع ذلك ، فهو لايدون النص القرآني من حامله ـ رغم حفظه له ـ الا بشهادة شاهدين ، يشهدان أن

---

(١) مَقْتَل : ظرف لأرسل : يعني عقب قتالهم (انظر هامش صحيح البخاري : ٦/ ٩٨)
(٢) استحرَّ : اشتد (انظر نفس المرجع والمكان)
(٣) المواطن : الاماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار (انظر نفس المرجع والمكان)
(٤) البخاري : الجامع الصحيح : كتاب فضائل القران : باب جمع القرآن : ٦ / ٩٨ . (طبعة استانبول)
(٥) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٢٦ .

النص المراد تدوينه ، مسجل بامر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولقد اخبرنا زيد انه وجد اصلا واحدا مكتوبا عند ابي خزيمة الانصارى ، الذى اختصه الرسول صلى الله عليه وسلم بمزية في شهادته ، حيث جعلها تعدل شهادة اثنين ، فقبل منه النص ، ولم يطلب شاهدا اخر ، على الرغم من حفظ زيد لذات النص ، وهو آخر سورة — براءة . (١)

وجاء الخليفة الثالث : عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، فجمع الناس على المصحف الموجود في خزانة الدولة من عهد ابي بكر رضي الله تعالى عنه . وكان الغرض من جمع عثمان ، هو ازالة ماجدّ بين المسلمين من اختلاف في القراءة ، لافي القرآن ، حيث اثار اختلاف القراءة جدلا بين بعض المسلمين ، جعل عثمان رضي الله تعالى عنه يُعجّل بسد بابه ، فجمع المسلمين على رواية واحدة ، وهي الرواية المطابقة للمصحف المحفوظ عنده ، والموجودة عليها المصاحف التي بين ايدينا الآن ، وهي كتابة ذات رسم تصح فيه سائر القراءات — (٢)

هكذا وصل الينا القرآن الكريم ، كتاب الله تعالى المبين ، لم يمسّه اى — تغيير او تبديل ، ولم تنقطع ابدا سلسلة اتصاله بمصدره الاصلي ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل عليه السلام ، عن الله تبارك وتعالى ، حيث نقل الينا باقوى طرائق الرواية تاكيدا وتوثيقا ، وهي طريقة التواتر بالمشافهة وبالكتابة معا ، وهي لم تتوفر لاى كتاب ديني ، اوغير ديني ، قبل القرآن الكريم ، على مدى التاريخ كله . (٣)

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : تفسير آية : "... واشهدوا ذوى عدل منكم ..."
(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٢٧ .
(٣) انظر : المرجع السابق ، نفس المكان .

٢ ــ السُّـنة النبـوية الشـريـفـة :

السُّـنة[١] : هي المصدر الثاني للاسلام ، بعد القرآن الكريم . منهما يتألف البناء الاسلامي ، واليهما يرجع المسلمون في كل مايعن لهما من أمـور . وهما على رأس مقومات الدعوة الى الله تعالى ، ففيهما ادلتها ، ومنها استشهاداتها ، وبهما يتحدث الدعاة ، لهداية الناس الى سواء السبيل .[٢]

ولقد جاء القرآن الكريم موضحاً أمورالدين كلها ، وجاءت السنة مبينة لهـذا التوضيح ومفسرة له . قال تعالى : "وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ."[٣]

وقال عز من قائل : "... وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ."[٤]

لهذا ، فالسنة ضرورية لفهم القرآن الكريم ، ومتممة لهدايته .

وهي والقرآن : وحي الله تعالى الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

القرآن: وحيه تعالى لفظاً ومعنى ، والسُّنة : وحيه تعالى معنى لا لفظا .[٥]

ولقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله جل وعلا :

"وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحي يوحى ."[٦]

---

(١) السُّنة ، لغة : الطريقة والسيرة ، حميدة كانت او ذميمة .
(انظر : الجوهرى : الصحاح : مادة سنن)
واصطلاحا : مشتركة بين نوع من العبادات ونوع من الادلة ، فهي في العبادات : النافلة التي واظب عليها النبي عليه السلام ، وهي في الادلة (وهـو المراد هنا) : ماصدر عن النبي عليه السلام ــ غير القرآن ــ من قول او فعل او اقرار ، وزاد بعض العلماء : اقوال الصحابة والتابعـين وافعالهم مما لامجال للرأى فيه ، ولا مجال فيه للاجتهاد .
(انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٣٦ .)
(٢) انظر : المرجع السابق : ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .
(٣) سورة النحل : آية ٦٤ . (٤) نفس السورة : من الآية ٤٤ .
(٥) انظر : نوفل : نفس المرجع والمكان . (٦) سورة النجم : الآيات ٣ ــ ٤ .

ولقد امر الله تبارك وتعالى بطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل طاعته من طاعة الله جل شانه ، فقال عز من قائل في محكم تنزيله :

" من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا . " (١)

وقال تعالت صفاته : " ياايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ... " (٢)

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يترصدون اقواله فيحفظونها ، ويرون سنته فيتمسكون بها ، وكانوا يكتبونها في عهده صلى الله عليه وسلم وبعده ، ويدل على هذا ، ماروى من ان ابا شاه ، اليمني ، التمس من الرسول صلى الله عليه وسلم ان يكتب له شيئا سمعه من خطبة عام الفتح ، فقال عليه الصلاة والسلام :

" اكتبوا لابي شاه ، ماشـــاء . " (٣)

روى الامام احمد بسنده ، عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه ، انه قال :

" كنت اكتب كل شيء اسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اريد حفظه ، فنهتني قريش ، فقالوا : انك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشـــر ، يتكلم في الغضب والرضا ، فامسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اكتب ، فوالذي نفسي بيـــده ماخرج منه الا حـــق . " (٤)

والاحاديث في ذلك كثيرة ، يتبين منها ثبوت كتابة السنة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وباذنـــه ، غير انها لم تاخذ الشكل الرسمي ، كتدوين عام الا في عهد الخليفة العادل : عمر بن عبد العزيز . (٥)

---

(١) سـورة النسـاء : الآيـة ٨٠ .
(٢) نفس السـورة : من الآيـة ٥٩ .
(٣) مسلم : الجامع الصحيح : ١ / ٦٦ .
(٤) مسند ابن حنبل : ٢ / ١٦٢ + ١٩٢ + ٣٤٠ . (طبعة القاهرة ١٣١٣ هـ)
وانظر : ابي داود : السنن الكبرى : كتاب العلم : الباب الثالث .
(طبعة القاهرة ـ ١٢٨٠ هـ)
(٥) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٣٨ .

فلقد تفرق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلدان ، بعد وفاته عليه السلام ، وكانوا مصدر العلم والعرفان ، تربى على ايديهم تلامذتهم من التابعين لهم باحسان ، فحفظوا منهم السنة ، ودونوها . وكان البعض يكتب ، والبعض لا يكتب ، معتمدا على ذاكرته ، وقوة حفظه ، حتى اذا جاء عمر بن عبد العزيز ، راى جمع الاحاديث وتدوينها تدوينا عاما ، خشية ضياع شيء منها بموت حفاظها ، وخشية التباس الحق بالباطل ، بعد اتساع رقعة الدولة ، ودخول الكثير من الاجناس المختلفة فيها . وكان منهم المخلص للاسلام ، والجاهل به ، والحاقد عليه ، فضلا عن الفسقة والزنادقة الذين حاولوا افساد الدين باختلاق الاحاديث ، والدس في السنة ، منتهزين وجود الخلافات السياسية والمذهبية ، والفتن المختلفة ، فصاروا يضعون الاحاديث التي تخدم افكارهم ، وتويد اتجاهاتهم .(١)

روى الامام البخاري بسنده ، ان عمر بن عبد العزيز كتب الى ابي بكر بن حزم ، فقال : "انظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاني خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ، ولا يُقبل الا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليفشوا العلم ، وليجلسوا حتى يُعلموا من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا ".(٢)

كانت السُّنة اذن ، مدونة تدويناً خاصاً ، على مستوى الافراد ، بطريق الحفظ والكتابة معا ، وذلك ابتداء من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومدونة تدوينا عاما ، بطريق الكتابة ، وذلك في عهد عمر بن عبد العزيز ، اى في عهد التابعين .(٣)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ١٣٨ ــ ١٣٩ .
(٢) الجامع الصحيح : كتاب العلم : باب كيف يقبض العلم : ١ / ٣٣ . (طبعة استانبول ١٩٨١ م)
(٣) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٣٩ .

واذا كانت السُّنة دونت في عهد التابعين ، وهم تلاميذ الصحابة الاجلاء ، وعنهم اخذوا ، فان السلسلة الاسنادية هنا تكون متصلة ، فالصحابة وهم الحلقة الاولى في سلسلة الاسناد (١) ، وهم الآخذون من المصدر الرئيسي للسُّنة ، وهو : الرسول صلى الله عليه وسلم ، هم المعروفون ـ دينا وتاريخاً ـ بأنهم احرص الناس على السُّنة ، يقتدونها بارواحهم ، ويجهدون انفسهم في تحصيلها وحفظها وعدم التفريط فيها ، فهم الواسطة النورانية بين الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم باحسان ، ولا يمكن لهذه الواسطة ان تكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، او تزيف في حديثه وهي كما وصفها القرآن الكريم (٢) ، بقوله تبارك وتعالى :

" محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعا سُجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شَطْأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وَعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً واجراً عظيما . " (٣)

انها حلقة مستكملة لكل شروط الرواية والنقل ، القائم على اقوى دعائم الصحة والثبوت ، وتربى على ايديهم الحلقة الثانية في سلسلة الاسناد ، وهى لاتقل عن سابقتها شيئا في التدين والحفاظ على الدين ، وقد حظى اهلها بلقاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ، كما حظي هولاء وهولاء بثناء القرآن الكريم عليهم

---

(١) السَّنَد : هو رواة الحديث ، او الطريق الموصلة الى المتن .
والاسناد : هو حكاية رواية الحديث .
(انظر : احمد محمد شاكر : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير)
(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٣٩ .
(٣) سورة الفتح : آية ٢٩ .

في قوله تقدست اسماؤه : "والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم ." (١)

ولقد سار الخلفاء الراشدون ، والصحابة ، والتابعون ، ومن بعدهم ، على التزام الصدق في الاخبار ، والتحرى عن دقة الرواة ، والتثبت من المرويات . وكان ابو بكر وعمر يطلبان في المرويات شاهدا آخر مع الراوى . قال علي بن ابي طالب : "حدّثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ماينكرون ، اتحبون ان يُكَذَّب اللهورسوله ." (٢)

كما ورد عن ابن سيرين انه قال : "ان هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم ." (٣)

ولقد بلغ من حرص علماء الحديث وائمته انهم يستوثقون من حفظ كل راوٍ ، بأن يقارنوا رواياته بعضها ببعض ، ويقارنوها بروايات غيره ، فان وجدوه كثير الخطأ ، حكموا بضعف روايته ، وردوها ، ولو كان تقياً عدلاً ، وذلك خشية ان تكون روايته دخلها السهو والخطأ . (٤)

كذلك عَنَوا بنقد المَتْن (٥) ، ووضعوا لقبوله شروطاً على رأسها : عدم مخالفته العقل ، او الحس ، او القرآن ، او السُّنة المتواترة او المشهورة ، فاذا لم تتوافر في المتن هذه الشروط ، كان الحديث مردودا . (٦)

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .
(٢) تذكرة الحفاظ : ١ / ١٥ .
(٣) مسلم : الجامع الصحيح : المقدمة .
(٤) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٤٣ .
(٥) المتن : هو الحديث المروى ، بذاته ونصه .
(انظر : شاكر : الباعث الحديث شرح اختصار علوم الحديث ، للحافظ ابن كثير
(٦) نوفل : المرجع السابق ، نفس المكان .)
(٦) انظر : نوفل المرجع السابق ، نفس المكان .

ولقد اشترط الامامان الجليلان البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة السُّنة ، لصحة الحديث والسّند ، شروطاً وضوابط مُحكمة ودقيقة ، تضمن ـ بلا شبهة ـ صحة الحديث سنداً ومتناً ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (١)

فاذا جئنا الى ماتشتمل عليه السُّنة ، وجدنا انها لاتشتمل الا على كل خير ، ولا تدعو الا الى مكارم الاخلاق ، وجليل الاعمال ، وليس فيها مايخالف العقل ، ولا مايضاد الفطرة ، ولا مايصطدم مع الحياة ، وكيف لا ؟ وهي المفسرة لكتاب الله ، الموضحة لآياته ، المبينة لنظمه ومبادئه العقدية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وغيرهـــا . (٢)

لذلك ، فقد اوصى الرسول صلى الله عليه وسلم ، بهـا ، اصحابه رضوان الله عليهم اجمعين ، لما يرجوه لهم من الخير العميم والنعمة البالغة ، فقال : (٣) "عليكم بسُنّتي ، وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عُضّوا عليها بالنواجذ"

ونخلص من هذا الى ان مصدرى الاسلام ، وهما : القرآن الكريم ، والسنة النبوية المشرفة ، ثابتتان بأدق طرق الاثبات العلمية ، وانهما صحيحان غير مزيفين ، وهو ماتتقرر معه اصالة الدعوة الى الله تعالى . (٤)

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص ١٤٥ .
(٣) الترمذى : السنن : كتاب الوصايا : الباب الرابع .
(٤) انظر : نوفل : المرجع السابق ، نفس المكان .

د ــ الاعجــاز ، والتمــام ، والخــلود :

بلغ من تقدير الاسلام للعقل البشرى ، ان جعل معجزته الخالدة ، وهي القرآن الكريم ، قائمة على العقل والفكر . لقد طلب الكفار من النبي صلى اللــه عليه وسلم ، آيات مادية كثيرة ، لتدل على صدق رسالته ، كالآيات التي جاء بهــا موسى عليه السلام ، من انقلاب العصا حَيّة ، واخراج يده بيضاء بعد ادخالهــا في جيبه . وكالتي جاء بها عيسى عليه السلام ، من ابراء الاكمه والابرص ، وخلق الطير من الطين ، واحياء الموتى . حيث قال الله تعالى عن ذلك في محكم تنزيله: "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي باللــه والملائكة قبيلا ــ او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حــتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا . "(١)

لم يشأ الله تبارك وتعالى ، ان يأتيهم نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بآيــة مادية كآيات الانبياء السابقين . ذلك لان البشرية في عهد الرسول عليه السلام قد بلغت حداً من النمو العقلي ، والكمال الفكرى ، لا ينبغي معه ان تظل كما كــان السابقون ، لا يبهرهم الا الحس الذى قد يخرج الى حد الفتنة ، اذ جعلتهم يغالون في تعظيم الانبياء ، ورفع درجة بعضهم الى بنوته لله ، تعالى اللــه عن ذلك علــوا كبيرا . (٢)

---

(١) ســورة الاســراء : الآيــات ٩٠ ــ ٩٣ .

(٢) انظر : صقر : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ١٧٨ ،
غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٨٧ ــ ٩٥ .

لقد اقتضت حكمة الله تعالى ، ان يرسل الى الناس في هذا الدور الاخير ، الذى بدأ يتخلص فيه الانسان من الاوهام والخزعبلات ، رسولاً ياخذ هم باحكام العقل ويقيم معجزته على اساس النظر والفكر ، فكان القران الحكيم ، هو معجزة الاسلام الكبر التي تتناسب مع عالمية الدعوة ، وشمولها ، وخلودها ، حيث كانت مجالا للعقل ، الذى هو قدر مشترك بين النوع الانساني في جميع اطواره ، وبيئاته ، وعصوره .[١]

يقول ابن تيمية : "ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم ، رسولا الى جميع الثقلين : جنّهم وانسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الانبياء ، كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه ، ان تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة لكل الخلق الذى بعث اليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ماليس عند الآخرين . وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية ، ما يبيّن ان القرآن حق."[٢]

كما قال تعالى : "قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ."[٣]

اخبر سبحانه وتعالى انه سيرى العباد الآيات في انفسهم ، وفي الآفاق ، حتى يتبين لهم ان القرآن حق ، فان الضمير عائد اليه ، اذ هو الذى ذكره .

ويقول محمد رشيد رضا[٤] :

"ان ماروواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة ، والمرسلة تارة اخرى ، من الآيات ـــ

---

(١) انظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص٨٧ ـ ٩٥ .
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٤ / ٦٢ .
(٣) سورة فصلت : الآيات ٥٢ ـ ٥٣ .
(٤) الوحى المحمدى : موضوع آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية : ص ٧٠ .

الكونية التي اكرم بها عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، هي اكثر من كل ماروا الانجيليون ، وابعد عن التأويل ، ومع ذلك فلم يجعلها برهانا على صحة الدين ، ولا امر بتبليغها للناس ، وذلك لان الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها ، وفي موضوعها ، لان البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد ، والاستقلال النوعي ، الذى لايُخضع عقل صاحبه فيه لاتّباع من تصدر عنهم امور عجيبة ، مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، بل لايكمل ارتقاؤهم ، واستعدادهم العقلي ، مع هذا الخضوع ، بل هو من موانعه . فجعل حجة نبوة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، عين موضوع نبوته ، وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وبعلومه وباعجازه اللفظي والمعنوى ، وبانباء الغيب : الماضية ، والحاضرة ، والآتيه ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال ، الى ماهم مستعدون له من الكمال . "

ان وجها واحدا من الاعجاز العقلي للقرآن الحكيم ، مايزال موجودا امام كل ناظر الى يوم القيامة ، يستطيع منه ان يصل الى الحق ، لو استقام فكره .

لقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، عن عجز الانس والجن معاً على ان يأتوا بمثل هذا القرآن ، واكد ذلك بالقسم ، فقال عز من قائل :

" قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . "(١)

واكثر من ذلك ، فقد تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، اوحتى بسورة واحدة من هذا الكتاب ، قال تعالى في محكم تنزيله :

" ام يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . "(٢)

---

(١) سورة الاسراء : آية ٨٨ .
(٢) سورة هود : آية ١٣ .

وقال جل وعلا : "وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعـــوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين ٠" (١)

وقال تقدست اسماوه : "ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم مـــن دون الله ان كنتم صادقين ٠" (٢)

وقال تعالت صفاته : "فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ٠" (٣)

ولا يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم ، ان يبلغ هذا للناس ، وعلى هذا النحو من التحدى الواضح ، الا اذا كان واثقا من صدق التبليغ ، مؤمنا بإحكام هذا الكتاب الالهي المعجز ، ولو كان هناك مجرد احتمال لان ياتي احد بمثل سورة واحدة مـــن القرآن ، لما اقدم على هذا التاكيد الجازم ، والتحدى السافر ، لهذه المجموعـة الكبيرة من العرب المشركين والمعاندين ، وهم المعروفين بالفصاحة والبيان ٠ (٤)

لقد كانت معجزات الانبياء السابقين وقتية ، تظهر ثم تنتهي ، لا يؤمن بهـا الا من رآها وعاصرها ، دون من غاب عنها او جاء بعدها ٠ لكن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم ، جاءت وبقيت اربعة عشر قرنا من الزمان ، ولم تنتـه ، ولن تنتـــه ابداً بإذن الله تعالى ٠ ذلك ، لانها عقلية ، دائمة دوام العقل ، الذى ـــ اختصت به البشرية عن سائر مخلوقات الله ، تنتشر بآثارها في كل مكان يوجد فيـــه العقل ، وتتجدد في كل حين آياته ، وتضيء الطريق امام الانسان ، على مـدى الدهر والزمان ٠ (٥)

---

(١) سـورة البقـرة : الآيـات ٢٣ ـ ٢٤ ٠
(٢) سـورة يـونس : آيـة ٣٨ ٠
(٣) سـورة الطـور : آيـة ٣٤ ٠
(٤) انظر : صقر الدعوة الاسلامية دعوة عالمية : ص ١٨١ ٠
(٥) انظر : المرجع السابق ، نفس المكان ٠

ولهذا ، فقد ضمن الله تعالى لهذه المعجزة الالهية : الخلـــود .

قال جل جلاله : "انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون . " (١)

وما تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا التراث الرباني المقدس ، الا لعلمه بتمـــامه وكماله ، فقال جل شانه :

" ... اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ... " (٢)

حيث كمل الدين ، وتمت النعمة ، ورضي الله تبارك وتعالى : الخالق البارئ ، ان يكون الاسلام دينا للبشرية جمعاء ، فهو خير مايصلحها ، وافضل ما ينزهها من الصغائر والنقائص ، واسمى مايوصلها الى طريق الهدى والحق .

وانما عبر الله تبارك وتعالى ، في هذه الآية الكريمة ، بالكمال والتمام ، لكي يشير الى ارتباط الدعوة الاسلامية بالدعوات السماوية قبلها ، وانها معهم : مكمـــلة ، ومتمـــمة . (٣)

فالاسلام : هو كلمـة اللـه الاخـيرة ، مصدق لما سـبق ، مكمـل بـمـا أتـى ، مهيـمـن بحقيقـتـه على كـل مـاض ، لا رسالة بعـده ، لانـه الرسالة الخـــاتمـة ، في سـلسـلة قـد تمـت ، وكمـلت . (٤)

---

(١) سـورة الحجـر : آيـة ٩ .

(٢) سـورة المـائدة : من الآيـة ٣ .

(٣) انظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٢٠٩ .

(٤) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ،
غلوش : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

قال الواحد الاحد في محكم آياتـه :

" وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم . " (١)

لقد أتى الاسلام ، في كل مجال ، بتوجيه رائع ، واصلاح سليم ، ولم يترك مشكلا الا ازالهـا ، ولا عقـدة الا حلـها ، ولا خطـأً الا اصـلحه ، ولا اعوجـاجـا الا قَـوّمـه .

وفي ذلك ، يقول الشيخ محمد عبـده :

" لم يـدع الاسلام أصلاً من اصول الفضائل ، الا أتـى عليـه ، ولا أُمـاً مـن أمهات الصالحات الا احياها ، ولا قاعـدة من قـواعـد النظـام الا قـررهـا ، فاسـتجمـع للانسان عند بلوغ رشـده : حـرية الفـكر ، واسـتقلال العقـل ، ـ ومـا بـه صـلاح السـجايا واسـتقـامـة الطـبع ، وما فيـه انهاض العزائم الى ـ العمل ، وسَـوْقها في سـبيل السـعي . " (٢)

وصدق اللـه تعـالى ، القائل في كتابـه العزيز :

" ... ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون . " (٣)

وقال عـز مـن قـائـل :

" ... ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . " (٤)

---

(١) سـورة الانعـام : آيـة ١١٥ .

(٢) رسالة التوحيد : ص ١٦٤ (طبعة دار المعارف بالقاهرة ـ الطبعة الثانية)

(٣) سـورة الانعـام : من الآيـة ٣٨ .

(٣) سـورة النحـل : من الآيـة ٨٩ .

واذا كانت رسالة الاسلام ، خالدة خلود الزمن والحياة ، لذلك فهي الرسالة الخاتمة ، ولن يكون هناك من نبي او رسول الى يوم القيامة ٠

ولقد ذكرنا بذلك القرآن الكريم ، فاصبح هذا امراً مقرراً مؤيداً بالدليل الواضح الجلي٠ قال تعالى : "ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ٠"(١)

وقد صور لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه الحقيقة الثابتة في حديث اللّبِنَة السابق توضيحه من قبل ٠ (٢)

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ ٠

(٢) انظر : البخارى : الجامع الصحيح : كتاب المناقب : باب خاتم النبيين ، مسلم : كتاب الفضائل : باب ذكر كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين : ٧ / ٥١ (طبعة دار الفكر) ، موضوع: الشمول والحيوية ، باول هذا المبحث ٠

الباب الثاني

منهج الدعوة ومقومات الداعية

الفصل الأول

قضايا الدعوة

المبحث الأول

نشر العقيدة الصحيحة

إن التعريف بعقيدة الاسلام - بادئ ذى بدء - هى أهم قضايا الدعوة على الاطلاق - وتتركز عقيدة الاسلام على الايمان بالله تبارك وتعالى اعتقاداً ، وعملاً . والايمان بالله تعالى ، يشتمل على : الاعتقاد بوجوده ، ووحدانيته ، ثم الايمان بملائكته وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر .

لذلك فقد استفاض القرآن المكى (١) فى سَوْق الأدلة على تثبيت العقيدة فى النفوس ، وغرسها فى الصدور ، مُتخذاً لذلك أسلوباً يعترف بالعقل ويحترمه ، وهو بهذا يعطى للانسان قَدْره ، ويُعلمه الاعتزاز بنفسه وبعقله (٢) .

١ - الايمان بوجود الله :

إن على العقل الانسانى أن ينظر فى نفسه ، ويعمل عقله ، الذى تَميّز به عن سائر المخلوقات ، ثم يُصدر حكمه بعد ذلك عما اذا كان هناك إلٰه من عدمه ؛ لذا فقد وجهه الله تعالى الى ما يثبت وجوده جل جلاله : " فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر." (٣) وقال تعالى : " وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ." (٤) وقال : "أفلا ينظرون

---

(١) "القرآن المكى : هو ما أنزل قبل الهجرة ، والمدنى : مانزل بعدها ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار" (السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن - تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم - طبعة القاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م جـ ١ ص ٢٣)

(٢) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى / ٧٣ .

(٣) سورة الطارق : الآيات ٥ - ٨ . (٤) سورة الفرقان : الآية ٥٤ .

الى الابل كيف خلقت . . . " (١) .

كما أن على العقل الانسانى أيضا ، أن ينظر فى كل ما يحيط به : من السماء التى بُنيت بقوة غير محدودة ، وفى الأرض التى مُهدت بقدرة فائقة ، وفى كل شىء فى الحياة : انساناً أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً : فسيرى دقة الخلق واحكام الصنعة ؛ وهذا لا يكون الاّ أثرا لمؤثر خالق حكيم (٢) : قال جل جلاله : " والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . " (٣) وقال : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . " (٤) .

" إن الله سبحانه وتعالى موجود ؛ والدليل على وجوده : قيام هذه الكائنات ناطقة بهذا الوجود ، فالبحر - وهو أمام الناس - منه الملح والعذب ، يلتقيان فلا يطغى هذا على ذاك ؛ وانما : " بينهما برزخ لا يبغيان " (٥) ؛ وفيه الفلك مواخر ، ومنه السمك والحلية ؛ والناس يعيشون الليل والنهار ، ويشاهدون ايلاج كل منهما فى الآخر ؛ ويرون الشمس والقمر : كل فى فلك يسبحون ؛ وكلها كائنات مرئية محسوسة ، جعلت أدلة ساطعة على وجود الصانع لمن يعقل ؛ أما من لا يعقل فهو الذى لا ينظر ، ولا يتأمل ، ولا يعمل عقله : فهو الذى لن يهتدى الى الحق ؛

---

(١) انظر : سورة الغاشية : الآيات ١٧ - ٢٠ .
(٢) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٧٣ .
(٣) سورة الذاريات : الآيات ٤٧ - ٤٩ .
(٤) سورة ق : الآيات ٦ - ٨ .
(٥) سورة الرحمن : الآية ٢٠ .

انه أعمى لا يبصر ، وجاهل لا يعقل ؛ انه يعبد مخلوقا مثله أو أقل منه ؛ ولو دعاه الى نجدة ما استجاب له ؛ فهو أول من يكذب به اذا جد الجد ." (١) .

تأمل قول الخالق البارىء المصور ، تبارك وتعالى :

" وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه
وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا
وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر
لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى
النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر
كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين
تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم
لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم
القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير." (٢) .

وقوله عز من قائل :

" وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح
أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ." (٣) .

إن فكرة الألوهية فى الاسلام : هى الفكرة الصحيحة التى بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الالهية ، وتضمنت تصحيحا دقيقا لتفكير العقول البشرية على اختلاف مستوياتها وعصورها ؛ وقررت بالثقة والطمأنينة ما يجب لله جل شأنه : من الكمال ، والايمان بوحدانيته وجلال سلطانه (٤) .

---

(١) نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٧٣ - ٧٤ .
(٢) سورة فاطر : الآيات ١٢ - ١٤ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .
(٤) أنظر : عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (طبعة دار المعارف بالقاهرة) : ص ١٣٤ .

تدبّر قول الله تبارك وتعالى :

" قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى
ءآلله خيرٌ أما يشركون . أمّن خلق السماوات والأرض
وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات
بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل
هم قوم يعدلون . أمّن جعل الأرض قرارا وجعل
خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين
حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب
المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض
أإله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات
البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته
أإله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدؤ
الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله
مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ." (١) .

جولة واسعة فى صفحة الكون ، وفى أقطار النفس الانسانية ؛ لا يملك المعاندون انكارها ؛ ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق تبارك وتعالى :

ويعرض القرآن الكريم هذه المشاهدات فى ايقاعات تملك على العقل مناحى فكره ، وتلزمه بالحجة الدامغة ؛ فهو يسأل فى تلاحق لا يدع له مجالا للشك : من خلق السماوات والأرض ؟ .

---

(١) سورة النمل : الآيات ٥٩ - ٦٤ .

من أنزل من السماء ماء فأنبت به هذه الحدائق ذات البهجة ؟ .

من جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لهـــا رواسـى ،

وجعل بين البحرين حاجزا ؟

من يجيب المضطر اذا دعاه ؟ من يكشف السوء ؟

من يجعل البشر خلفاء فى هذه الأرض ؟

من يهدى الانسان فى ظلمات البر والبحر ؟

من يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمة اللـه ؟

من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ لابـد اذن من الـه ؛ فلا يمكن أن يخضع كل ذلك للصدفة ، أو تدبره العشوائيه ؛ وفى كل مرة يسأل القرآن يواجههم باستفهام يحوى معان كثيرة : فهو تقريع للمعاندين ، وهو تقرير للموقنين ، وهو ارشاد للطالبين ؛"إإله مع الله؟" (١)

٢ - الايمان بوحدانية الله :

ان الفطرة السليمة ، البريئة من أمراض المواريث الاجتماعيـــة ، لتشهد شهادة فطرية ، بوحدة الناموس للوجود كله ، ووحدة الارادة النافذة التى أوجدته ، ووحدة الخالق المدبر لهذا الكون المنسق المنظم المرتب ، الذى لا يطرأ عليه خلل ما دام فى رعاية الله . وقد قدم القرآن الكريـــم ، عرض الدعوة الى الايمان بوحدانية الخالق - تبارك وتعالى - فى أسلـــوب

---

(١) أنظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ١٠٨ - ١٠٩ . ، سيد قطب : فى ظلال القرآن (طبعة دار احياء التـــراث العربى - بيروت) ١٧ / ٢٠ - ٢١ .

عبقرى التسلسل فى مجموعة السور المكية التى سجلت حيا ة الدعوة الاسلامية فى ظلال البيت العتيق ؛ محكما عقل الانسان بينه وبين المنكرين ، ويطلب من العقل عدم تصديق المنكرين ، حتى يأتوه بالدليل على ما يقولون . ان وجود أكثر من اله واحد مفسد للحياة : كافساد القيادة فى البشـــر اذا تنازعها أكثر من واحد . وبما أن الحياة قائمة بنظام بديع ، لا انفطار فيه ، ولا خلل ؛ فلا وجود اذن لأكثر من الـه ، وثبت وجود الاله الواحد وعلـى من يقول بخلاف ذلك فليأت بالدليل .(١) قال تعالى :

" لو كان فيهما آلـهة الا الله لفسدتا فسبحان اللـه رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهـم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلـهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ." (٢) .

على أن هؤلاء المنكرون ؛ يعبدون مخلوقات تعان ولا تعين ، ولا تخلق شيئا ، ولا تدفع عن نفسها شيئا ، فضلا عن أن تدفع عن غيرها ؛ قال جل جلاله : " أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ." (٣) وقال : " ذلكم الله ربكم لا اله الا هـو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ." (٤) .

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٧٤ .
،شلبى : الدعوة الاسلاميـــة : ص ٢٢٧ .
،قطب : فى ظلال القـــرآن ٢/ ٨ - ١٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيات ٢٢ - ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآيات ١٩١ - ١٩٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآيـة ١٠٢ .

فلا خالق سواه ، ولا معبود الا اياه ، الواحد الأحد ، الفـــرد الصمد ، الله ، ولا شريك له ولا ولد ،ولم يكن له كفوا أحد : " . . . ليس كمثله شيء وهو السميع البصير " (١) ؛ له الأمر جميعا وكل شيء عنده بمقدار؛ تبارك وتعالى عما يصفون .

وهذه العبودية لله تعالى ، تتمثل فى : التصور الاعتقادى ،وفى الشعائر التعبدية ، وفى التشريع والقانون (٢) :-

. لقد قرر الوحى الأمين أن التصور الاعتقادى :

" . . . إنما الهاكم اله واحد . . . . " (٣) .

وقال عز وجل : " وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو الـــه واحد فاياى فارهبون . وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغـــير الله تتقون . " (٤)

. . ولا تكتمل العبودية لله تعالى لمن لم يجعل حياته كلها لله وحده : قال تعالـــى :

" قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين .

لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . " (٥)

وقال جل وعلا : " اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا مـــن دونه أوليـاء قليلا ما تذكرون " (٦) .

---

(١) سورة الشورى : من الآية ١١ .
(٢) أنظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٥٤ .
(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١٠٨ .
(٤) سورة النحـــل : الآيات ٥١ - ٥٢ .
(٥) سورة الأنعـام : الآيات ١٦٢ - ١٦٣ .
(٦) سورة الأعراف : الآية ٣ .

كما لا تصح العبودية لله تعالى ما دام الفرد يتلقى القوانين التى تنظم حياته من غير وحى الله وتنزيله : قال جل شأنه " أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم . . . . . " (١) .

إن وحدانية الله تعالى ؛ أمر يقينى ثابت لكل ذى عقل بشرى مفكر ؛ وقد أوضح الواحد الأحد ذلك بدليل لا يجعل مجالا لأى شك أو ريبة فى قوله تعالى :

" ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذاً لذهب كل الٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . " (٢) .

فلو كان هناك أكثر من اله ، لتنازعت الآلهة ، ولانحازت المخلوقات كل الى خالقه ، ولتعالت كل مجموعة على الأخرى ، ولتطاولوا على بعضهم ، ولتنازعوا ، ولقامت بينهم الحروب ، ولفسد العالم وانهارت الحياة .

والحمد لله تعالى ، الذى لا شريك له ولا ولد .

٣ - الايمان بالملائكة والكتب والرسل :

والايمان بالله تبارك وتعالى ؛ يستلزم الايمان بالملائكة ، وهم مخلوقات نورانية : "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " (٣) .

---

(١) سورة الشورى : من الآية ٢١ .
(٢) سورة المؤمنون : الآية ٩١ .
(٣) سورة التحريم : من الآية ٦ .

وظيفتهم التسبيح ، والتحميد ، والتبليغ عنه ـ جل جلاله ـ لرسل الله عليهم صلوات الله وسلامه ، فضلا عن الوظائف الأخرى التى اختارهم الله لهـــا ويكلفهم بها حسبما تقضى ارادته وتنفذ مشيئته (١) ·

يقول عز من قائل : " شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ·" (٢)

ويقول جل ثناؤه : " ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشـاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون ·" (٣) وقال تقدست أسماؤه :

" وله من فى السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ·" (٤) ·

فهذه الآيات وغيرها اقرار بوجود الملائكة ، وبوجوب الايمان بها ، وبأنهـــم خلق الله الذين لا يتكبرون عن عبادته لا يعيون ولا يملون ، ينزهونه ليـــلا ونهارا فلا يضعفون ولا يسأمون ·

ولا يتم اسلام الفرد الا بايمانه بكتبه ـ تبارك وتعالى ـ التى أنزلها على رسله جميعا : مثل صحف ابراهيم ، وموسى ؛ والتوارة والانجيل ؛ فضلا عن كتابه الخالد الخاتم : القرآن الكريم ؛ كما لا يتم الا بالايمان المطلـــق بهؤلاء الرسل جميعا ، عليهم وعلى نبينا الكريم الصلاة والسلام الى يـــوم الدين ، ويقول عنهم الله :

"..منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك . . ." (٥) ·

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٦٨ ·
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨ ·
(٣) سورة النحل : الآية ٢ ·
(٤) سورة الأنبياء : الآيات ١٩-٢٠ ·
(٥) سورة غافـــر : من الآية ٧٨ ·

وهم المعصومون عن الرذائل ، الصادقون ، الأمناء ، المبلغون عن الله تعالى ما أمرهم بتبليغه (١) : قال جل جلاله .

" قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢) .

وقال عز من قائل :

" قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " (٣) .

٤ - الايمان باليوم الآخر :

والايمان بالله تعالى يستلزم أيضا : الايمان باليوم الآخر ؛ وهو الذى يقوم فيه الناس جميعا من قبورهم ليحشروا للحساب بين يدى الله تبارك وتعالى : " فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها " ؛ ويخبر الله سبحانه وتعالى عن وقوع الحياة الآخرة ، وأنها حياة بعد الموت آتية لا ريب فيها ؛ ويقيم سبحانه وتعالى الدليل الملموس على ذلك ، ويعرض رأى المنكرين ، ويسوق أدلتهم ، ويبين ضعف هذه الأدلة ، وأنها لا تنهض

---

(١) انظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٦٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٣٦ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

حجة على مزاعمهم الباطلة (١) . قال تعالى : " وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ." (٢) .

والقرآن بهذا يرد على مُنكرى البعث الجسمانى من المشركين والمعاندين ؛ اذ الضمير فى " يحييها " عائد على العظام ، ولا عظام للروح (٣) . وقال تعالى : " وقالوا ائذا كنا عظاماً ورُفاتاً ائنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ." (٤) . وقال جل شأنه :
" . . . وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا . أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا ." (٥) .

ان الايمان بالآخرة أمر ضرورى : لأن الحياة لا معنى لها اذا انتهت بمجرد الموت ؛ ذلك لأن الحياة هى صنع الله تعالى ؛ وصنعه تعالى لا عبث فيه ؛ وانهاء الحياة بالموت دون حياة أخرى بعده : عبث ، يتنزه الله تعالى عنه . اذ المشاهد أن من الناس من يموت مظلوما فى الدنيا ؛ لم يقتص له من ظلمه ؛ ومنهم من يحيى فقيراً ، ضعيفاً ، محروماً ، مريضاً ؛

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٧٨ ، ١٧٨ .
(٢) سورة يس : الآيات ٧٨ - ٧٩ .
(٣) أنظر : نوفل : المرجع السابق ص ٧٩ .
(٤) سورة الاسراء : الآيات ٤٩ - ٥٢ .
(٥) سورة الاسراء : من الآية ٩٨ - ٩٩ .

بينما هو على فضيلة وايمان ؛ فى الوقت الذى يتمتع فيه الظالمون والمتجبرون والملحدون بكل أنواع النعيم ، وشتى متع الحياة ؛ ولا يصيبهم ما أصاب أولئك ؛ فلو انتهت الحياة على هذا النحو دون الحياة الأخرى ، لتساوى هذا بذاك ؛ وفيه من الظلم ، ما يتنزه عنه رب العزة والجلاله ، سبحانه وتعالى : قال عز من قائل : "إنْ هى الا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين . أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين . وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إنّ يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ." (١) .

أما هؤلاء الماديون والطبيعيون ، ومن على شاكلتهم : الذين ينكرون هذا اليوم الآخر ؛ فهم المخدوعون والمفسدون فى الأرض، شرار الخلق ، مأواهم النار وبئس القرار . (٢) قال تعالى : " وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون . واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ." (٣) .

فان الأمر هيّن ، والمسألة سهلة بسيطة ، اذا قيست بمقاييس السلطان الالهى الذى لا نهاية لقدرته وقوته وجبروته .

---

(١) سورة الدخان : الآيات ٣٥ - ٤٠ .
(٢) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٦٨ .
(٣) سورة الجاثية : الآيات ٢٤ - ٢٦ .

يقول جلا وعلا : " أو لم يروا أن الله الذى خلق السمـــاوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شئ قدير " (١) ·

وقال عز من قائل : " أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد . ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . " (٢) ·

فان الله الذى خلق السماوات والأرض والخلق كله من عـــدم ؛ دون عجز أو قصور ابتداء ، لن يعجزه اعادتهم بعد الموت ، فهى أسهل من الخلق : وضرب لهم مثلا أيضا بالأرض الميتة التى لا زرع فيها ولا حياة ، فاذا ما نزل الماء من السماء أنبتت جنات وحب الحصيد : " والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج " (٣) . أى كما أحييناها بعد موتها بكل سهولة ، كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فهذا مثال واضح بسيط للبعث بعد الموت . (٤) ·

قال تعالى : " ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلـــك على الله بعزيز " (٥)

وقال جل جلاله : " وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحـــيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٣ ·
(٢) سورة ق : الآيات ١٥ - ١٦ ·
(٣) سورة ق : الآيات ١٠ - ١١ . وانظر حول هذا المعنى أيضا : سورة فصلت : الآية ٣٩ ·
(٤) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٢٦ تفسير سورة ق ·
(٥) سورة فاطر : الآيات ١٦ - ١٧ ·

الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون . أَوَ ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ." (١) .

ويبرز القرآن الكريم الغاية من البعث : انها اقامة العدل فى دار الجزاء ، حيث توفى كل نفس ما كسبت . قال تعالى :

" فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه . نار حامية ." (٢) وقال تبارك وعلا :

" ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ." (٣) .

وسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شى قدير .

وهكذا ، لاتكاد سورة من سور القرآن الكريم فى العهد المكى ، تخلو من الدعوة الى الايمان بالله تعالى ، واقامة الأدلة على وجوده ووحدانيته ، وتقبيح الايمان بغيره من هذه الآلهة الأخرى ، وكذلك الايمان باليوم الآخر ، واقامة الأدلة على ضرورة وقوعه ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها (٤) .

وذلك لبناء الروح الايمانية التى تصنع النفوس الأبية ، وهى التى تهون أمامها المصاعب ، وتصغر الشدائد ؛ وهى التى تتعشق المثل العليا والقيم الرفيعة ، وتجاهد لتحقيق أهدافها النبيلة ، ولو كلفها ذلك

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٨ - ٨٢ . (٢) سورة القارعة : الآيات ٦ - ١١ . وانظر حول هذا المعنى أيضا : سورة يونس : الآية ٤ ، سورة النحل : الآيتان : ٣٨ - ٣٩ ، وسورة سبأ : الآيات : ٣ - ٥ .

(٣) سورة النجم : الآية ٣١ .

(٤) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٧٠ .

أعز ما لديها (١) ·

لقد أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم قضية العقيدة فى حديثه الذى رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس اذ أتاه رجل يمشى فقال : يارسول الله ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر ؛ قال يارسول الله ، ما الاسلام ، قال الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان · قال : يارسول الله ، ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . . . . . " (٢) ·

---

(١) أنظر : نوفل : المرجع السابق، نفس المكان ·

(٢) البخارى : الصحيح : كتاب التفسير ، سورة لقمان ، باب قوله : ان الله عنده علم الساعة · جـ ٦ / ٢٠ (طبعة المكتبة الاسلامية ـ استانبول تركيا) ؛
وانظر : مسلم : الصحيح : كتاب أمارات الساعة : جـ ١ / ١٦١ - ١٦٤ (طبعة دار الفكر) ·

المبحث الثانـــى

الحـــثّ على العمل الصالـــح

إن العمل الصالح : أحد ركنى الاسلام ، سواء كان ماديـــاً أو روحياً ، وقد وضّح الله تعالى هذين الركنين فى كثير من الآيات ؛ منهـــا قوله تعالـــى :

" ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـــرب
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقـــام
الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهـــــدوا
والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئـــــك
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ." (١)

إن الاسلام : دين الروح والمادة ، ودين الدنيا والآخـــــرة ، والأعمال الصالحة ؛ هى ثمرة الايمان ، وبها تصلح الحياة ، وتمتلىء خيراً وصلاحاً واصلاحاً ، وتخلو من الشر والكفر والفساد ؛ وليس وراء ذلك ســـوى الحياة الطبيعية ، التى ينشدها الفرد والجماعة والناس كافة . ومن هنـــا تسلط الاعلام على الدعوة الى العمل الصالح ، وَعَدّه الشطر الثانى للدين ؛ فالاسلام ايمان وعمل ؛ والأصل هو الايمان ، ولازمه هو العمل الصالـــح ؛

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

ولا قيمة للايمان من دون هذا العمل ، ولا قيمة للعمل الصالح بدون هـذا الايمان (١) ٠

قـال تعالـى :

" إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم. دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " (٢) ٠

وقال عز من قائل :

" من عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ٠" (٣) ٠

إن العمل الصالح ، تحقيق فعلى للايمان والعبودية المجردة لله تعالى ، فقد الزم القرآن الكريم ـ الجماعة الاسلامية ـ بالعفو عن ظلم الذين لا يرجون أيام الله ، وهم الكفار والمعاندين للاسلام . قال تعالى : " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون . من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون" (٤) فهو توجيه كريم للذين آمنوا بالصفح عن الكفار ، والتجاوز عما يصدر عنهم من الاذى والافعال .قال ابن كثير (٥) : أمر المسلمون أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ، ليكون ذلك تأليفا لهم ، ثم لما أصروا على العناد ، شرع الله للمؤمنين الجهاد .

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٩٦- ٩٧ ، ١٧١ ٠
(٢) سورة يونس : الآيتان ٩- ١٠ ٠ (٣) سورة النحل : الآية ٩٧ ٠
(٤) سورة الجاثية : الايتان : ١٤ - ١٥ ٠
(٥) أنظر : تفسير القرآن العظيم : جـ ٢٥ تفسير سورة الجاثية .

وتمضى الآيات القرآنية تنادى بالعمل الصالح وتوضح جزاءه عند الله ،ونتيجته عند البشر بما فى ذلك الدعوة الى الله تعالى . فيقول عز من قائل :" ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها الا ذو حظ عظيم ." (١) .

فتدرك الجماعة الاسلامية أن النهوض بواجب الدعوة الى الله فى مواجهة الجاهلية التى تعتز بعاداتها وتقاليدها ، استكبارا على الحق ، أمر شاق ؛ ولكن شأنه عند الله عظيم ؛ فما أحسنها من كلمة وما أعظمها من رسالة ؛ فكلمة الدعوة الى الله هى أحسن كلمة تقال على وجه الأرض، وتصعد الى اعلى فى مقدمة الكلم الطيب ، ولكن شرط ذلك : العمل الصالح ،الذى يصدق الكلمة ،ويكون لها دليلا ثم استسلاما تتوارى معه الذات والأمانى ، حتى تصبح الدعوة وحدها خالصة لله (٢) .

---

(١) سورة فصلت : الآيتان ٣٣ - ٣٥ .

(٢) أنظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٥٩ - ٥٦٠ .

المبحث الثالث

الحث على مكارم الأخلاق

والفضيلة من ثمار الايمان ، والمؤمن القوى هو صاحب الخلق الطيب ، هو العادل المحسن ، والأمين الوفى ، والصدوق ، والجواد ، والمحب لأخيه ، الذى يمشى بين الناس بالخير ، ويدعوهم الى المعروف ، وينهاهم عن المنكر . وهو أخ للمؤمن ، لا يظلمه ولا يسلمه ، بل يبصره بالحق ، وينصره بالهداية (١) . قال تعالى : " ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم أن تكون أُمَّةٌ هى أربى من أُمَّةٍ..." (٢) .

وتقوم الأخلاق على منهج مبيّن لنوعية الأعمال من الخير والشر ؛ لعمل الخير ، ونبذ الشر . لقد خلق الانسان مفطوراً على الخير ، وأودع فيه القوة الضميرية التى تعينه على سلوك طريق الخير . لكن هذه القوة لا تكفى للعمل فى هذا المجال وحدها ؛ ولابد لها من موجه يوجهها ، ويوضح لها كيف تحكم وكيف تحاسب ، ويمدها بالطاقة المولّدة لها ، لتعمل فى هذا الميدان على أفضل . لهذا فقد ركّز الاسلام - من بين مكارم الأخلاق -

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٧٢ .

(٢) سورة النحل : الآيات ٩٠ - ٩٢ .

على صفة الاحسان ، والدعوة للتحلى بها ، وغرسها فى نفوس المؤمنين ، ليزدادوا بها ايمانا مع ايمانهم (١) : قال تعالى : " وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين " . (٢) وقال عز من قائل : " اللذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذله أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ." (٣) .

فهذا وعد من الله تعالى للذين أحسنوا بالايمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة ، بألا يغشى وجوههم غبار ولا سواد - كما يعترى وجوه أهل النار - ولا هوان ولا صغار ، فهم فى جنات النعيم خالدين فيها أبدا (٤) .

وفى الاسلام ، تأتى رابطة الأسرة ، بعد رابطة العقيدة ، فى رحاب الايمان بالله ، والخضوع لربوبيته جل شأنه ، فهو أرحم بالناس ، من الآباء بالأبناء . قال تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ." (٥) .

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ٩٠ - ٩٣ ، ١٧٢ .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٥ .
(٣) سورة يونس : الآية ٢٦ .
(٤) أنظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : جـ ١١ تفسير سورة يونس .
(٥) سورة الاسراء : الآيتان ٢٣ - ٢٤ .
وانظر حول هذا المعنى : سورة العنكبوت : الآية ٨ ، سورة لقمان : الآيتان : ١٤ - ١٥ ، الأحقاف : الآية ١٥ .

وفى مواجهة رذيلة قتل الأبناء ، للاملاق والفقر أو لغيره يقـــول تعالى : " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهـم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين " (١) . وقال عز من قائـــل : " ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطـــأ كبـيرا " (٢) .

وحرم الله الفواحش كلها ، من زنا وفجور وما اليها ، فقال فى محكم تنزيله : " . . . ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . . " (٣) وقال : " ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا " (٤) .

وحرم القتل بغير حق ، فقال جلا وعلا :

" ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا . " (٥) .

وتتوالى آيات الله البينات ، تدعو الى الفضيلة ومكارم الأخـــلاق ، والرحمة ، والمواساه ، وحفظ مال اليتيم والوفاء بالعهد والكيل ، وفضائـــل

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٤٠ .
(٢) سورة الاسراء : الآية ٣١ . وانظر أيضا : التكوير : الآيتان ٨ - ٩ .
(٣) سورة الأنعام : من الآية ١٥١ .
(٤) سورة الاسراء : الآية ٣٢ . وانظر المؤمنون : الآية ٧ ، الفرقان : الآية ٦٨ .
(٥) سورة الاسراء : الآية ٣٣ .

الصفات ، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن المكى من الدعوة الى الفضيلة فى كل جوانب الحياة . (١) .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع كل الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق ، عندما أوضح مفهوم الاحسان فى الاسلام حيث قال : " . . . . الاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . . . . " (٢) .

كذلك فان الآيات الأخيرة من سورة الفرقان (٣) ، ، قد تضمنت - باستيعاب وشمول - صفات عبد الرحمن ، التى يستحقون معها أخيرا أن : " . . . . . يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . " (٤) .

---

(١) أنظر : سورة الاسراء : الآيات ٣٤ - ٣٩ ، سورة لقمان : الآيات ١٣ - ١٩ وغيرها من السور المكية .

(٢) البخارى : الصحيح : كتاب التفسير ، سورة لقمان ، باب قوله : ان الله عنده علم الساعة : جـ ٦ / ٢٠ ، طبعة المكتبة الاسلامية ، استانبول - تركيا .
وانظر : مسلم : الصحيح : كتاب امارات الساعة - (طبعة دار الفكر) ١ / ١٦١ - ١٦٤ .

(٣) من الآية ٦٣ الى الآية ٧٤ .

(٤) سورة الفرقان : الآيتان ٧٥ - ٧٦ .

المبحـــث الرابـــع

اثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم

١ - أهمية الرســـل :

ان الانسان مزود - بفطرة الله تعالى - بحسن وادراك وذكـــاء وقدرات عقلية عليا ؛ تساعـــده على الفهم والتعلم والاستنتاج ، ويستطيـــع بذلك أن يعرف بعض جوانب الحياة المادية فى الكون المتصل به ، اتصـــالاً مباشراً عن طريق الاحساس والملاحظة والتجريب ، ولكنه يقف عاجزاً ، عمـــا يتصل بما وراء المادة وبالمغيبات فيما يتصل بمبدأ الحياة ، والايمان بالله ، وأهداف الحياة ، ومصير الانسان ، بعد هذه الحياة . كل ذلك لا يتصـــل بالحس والتجريب ؛ وانما يتم عن طريق الوحى الالهى ، عن طريق بشـــــر يختارهم الله تعالى ، ويرسلهم لتعليم الانسانية أهداف الحياة الكـــــبرى الأساسية ، وهذه احدى ضرورات الرسل (١) .

قال تعالى : " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا." (٢) وقـــال : " ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم." (٣) .

وحيث تعددت الشعوب ، وتنوعت الجماعات ، وتفرقت بهم اللغات ، والمساكن فكان لابد لكل قوم فيهم من نبى مرسل ، يرشدهم الى طريق الحق ، ويهديهم سواء السبيل . قال تعالى : " إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ،

---

(١) أنظر : الهاشمى : الرسول العربى المربى : ص ٥٤ .
(٢) سورة الاسراء : الآية ١٥ .
(٣) سورة النحل : الآية ٨٩ .

وان من أمة الا خلا فيها نذير" (١) ؛ وبلُغة قومه أيضاً حتى يمكنهم أن يفهموا دعوته ، ويناقشهم فيها اذا احتاج الأمر.قال عز من قائل : " وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم . . ." (٢) .

كذلك ، فالانسان ـ كما هو ثابت فى الدراسات النفسية ـ يحمل استعدادات وقوى ودوافع تحركه ليسلك وليتجاوب ؛ هذه الدوافع بشكلها الأولى تكاد تكون عامة فى أكثر الكائنات الحية ، بينما الميزة الأساسية والكبرى فى الكائن الانسانى أنه رغم ما يحمله من عوامل التوجيه لتلك الدوافع فى اتجاه الخير أو الشر ، أو فى السمو أو الهبوط ؛ فانه يحتاج فوق عقله وادراكه الى مُذَكِّرٍ ، ومُرشدٍ ، يُقوّى فيه عوامل الارادة الخيرة ، ودوافع العمل الصالح ؛ ويكون ذلك حين يعلم أن الله خالقه وأنه ناظر اليه ، وأنه هو المحاسب إنْ خيراً فخير ، وان شراً فشر (٣) .

لذا فان الانسان بحاجة الى وجود أفرادٍ انسانيين مختارين يصطفيهم الله تعالى لعباده ، ويرعاهم بحكمته ، ويزودهم برسالته ، ليكونوا للانسان مُرشِدين ومُعلِمين ومُذَكِّرين (٤) .

إن مجرد وجود المبادىء الصالحة ، أو حفظ الوصايا المرتلة ، لا يحرك فى الانسان العوامل القوية للعمل والتطبيق ؛ ولكن الانسان نفسه حين يرى المثل الانسانى البشرى الماثل بين يديه يعيش المبادىء

---

(١) سورة فاطر : الآية ٢٤ .
(٢) سورة ابراهيم : الآية ٤ .
(٣) انظر : الهاشمى : الرسول العربى المربى : ص ٥٤ - ٥٥ .
(٤) أنظر : الهاشمى : نفس المرجع والمكان .

الصالحة ، ويحيا الوصايا الخلقية الكريمة ، فان عوامل القدوة والتقليد والامتثال العملى ، تكون فى أشد مستواها قوةً وتنفيذاً (١) .

والرسل الكرام هم المثل الانسانى البشرى المتجسد ، الذى يحيى العقيدة الصحيحة والخلق السليم ، نموذجاً حياً ، وهذا أعظم مثل فى الحكمة الالهية بارسال الرسل ، كما أنه يمثل العدالة المطلقة (٢) .

قال تعالى : " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (٣)

وقال جل شأنه : " ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورُسلاً لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليماً . ورسلاً مُبشّرين ومُنذِرين لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرُسل وكان الله عزيزاً حكيماً ." (٤) .

٢ - محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً :

يتصدى القرآن الكريم لهؤلاء المنكرين للرسالة الاسلامية ؛ ولرسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولقد بَنَى هؤلاء انكارهم على أمور واهية ؛ ففى صميم أفئدتهم اقرار بأنه رسول الله ، فلم يتعودا منه كذبا . قال تعالى : " . . . . فإنّهم لا يُكذِّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يَجْحَدُون " (٥) .

---

(١) أنظر : الهاشمى : الرسول العربى المربى : ص ٥٥ .
(٢) أنظر : المرجع السابق، نفس المكان .
(٣) سورة الاسراء : الآية ١٥ .
(٤) سورة النساء : الآيات ١٦٤ - ١٦٥ .
(٥) سورة الأنعام : من الآية ٣٣ .

فمن بين دواعي انكارهم أن الرسول لا يصح أن يكون بشـــــراً ، ولا يصح أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،إنهم يرونه ملاكاً ؛ فان كان رجلاً فكان يجب أن يكون معه ملك يشهد له بذلك . قال تعالـى : " وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزل اليـه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً " (١) . ويرد عليهم الله تبارك وتعالى فريتهم ، فيقول عز من قائل : " وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعـــام ويمشون في الاسواق . . . " (٢) .

فقولهم هذا عبث لا منطق فيه ، وهو قولٌ قديمٌ ، قالهآباؤهـــم وأجدادُهم من قبل ، فالله تعالى يصطفي من عباده من يشاء ، وهو يرسل للبشر رجلاً ليكون من جنس من أُرسل اليهم ، والملائكة هم المبلغون عـــن الوحي ، والمُنذِرين بالعذاب للمعاندين والمكذبين ؛ قال تعالـــى : " وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل مـــن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدًى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون . " (٣)

وتمضي آيات أخرى من السور المكية تقرر أن الأنبياء بشر أوحـــى اليهم من عند الله ؛ وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ،هو رسول الله حقـــا

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٧ .
(٢) نفس السورة : من الآية ٢٠ .
(٣) سورة الأنعام: الآيات ٩١ - ٩٢ .

الى العالمين ، مُؤيِّداً إياه بالمعجزة التى تشهد بصدق رسالته ، وهى القرآن الكريم ، الذى تحدَّاهم عليه الصلاة والسلام به ، بأن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات فعجزوا ، فتحدَّاهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ؛ ثم قطع بعجزهم نهائيا ؛ وثبت بالتالى كون القرآن معجزة تشهد بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعواه بالرسالة (١) .

قال تعالى : " وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين"(٢) .

ان الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لا ريب أنه من عند الله تعالى ؛ يشهد بذلك حال محمد صلى الله عليه وسلم نفسه ، ويشهد له تاريخه الطويل بينهم : فهو أمى ، لم يقرأ ولم يكتب ، ما تحدث عن نبوة أو رسالة ، ولا كان يتلو من كتاب ؛ وهو الصادق الأمين ، لم يكذب ولم يخدع ؛ عاش بينهم على ذلك أربعين عاما ؛ فاذا ما طلع بين عشية وضحاها ، فكلم الناس بالوحى ، وحمل اليهم دعوة الحق ، باذن من ربه ،

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٧٢ - ١٧٣ .
وانظر كذلك : موضوع : الاعجاز والكمال والخلود بالفصل الثالث : خصائص الدعوة من الباب الأول لهذه الرسالة : ص

(٢) سورة يونس : الآيات ٣٧ - ٣٩ .
وانظر أيضا : يونس : الآية ١٥ ، الشورى : الآية ٢٤ ، الأحقاف : الآية ٨ ، الطور : الآية ٣٣ .

ليعبدوا الله على بصيرة ؛ أَمِثْل هذا يُتَّهم بالايجب اتهامه به ؟ قال تبارك وتعالى : " واذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءَنا أئت بقرآن غير هذا أو بَدِّله قل ما يكون لى أن أُبَدِّلَه من تلقاء نفسى إنْ أتَّبِعُ الا ما يوحَى الىّ إنّى أخاف إنْ عصيتُ ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عُمُراً من قبله أفلا تعقلون ." (١) .

وقال جلا وعلا : " وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المُبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين ." (٢) .

وهكذا ، تتوالى آيات الله المحكمات ، تثبت الرسالة لنبيه الأمين ، مما لا يدع شكا فى قلوب المؤمنين ، ويكون حجة على الكافرين المعاندين ، حتى يستحقوا عذاب ربهم يوم الدين .

---

(١) سورة يونس : الآيات ١٥ - ١٦ .

(٢) سورة العنكبوت : الآيات ٤٨ - ٥٠ .

الفصل الثاني

أساليب الدعوة

المبحث الأول

الحكمة

ان الاسلام مع انكاره على اليهود والنصارى انحرافهم بالعقيدة ، كانت وسيلة فى اقناعهم : التفاهم بالحسنى ؛ والدعوة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ،والمجادلة بالتى هى أحسن . وهو يتركهم وما يدينون ، اذا لم يتعرضوا له بأى أذى ، ولم يصدوا عن سبيله ، وهو يطالب اتباعه بتحقيق العدل معهم والانصاف فى معاملتهم (١) .

وكان أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله يتمثل فى الآية الكريمة : " أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ." (٢) .

والحكمة لغة : أصلها من حكم ؛ والحكم : القضاء ؛ والحكيم : العالم المتقن للأمور (٣) .

واصطلاحا : هى ما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة (٤) .

وهى المقالة المحكمة الصحيحة ، وهى الدليل الموضح للحق

---

(١) أنظر : محمد الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية (دار العربية بيروت ـ طبعة ثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م) : ص ٣٣ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٣) الجوهرى : الصحاح : مادة ح . ك . م .

(٤) أنظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة النحل .

المزيل للشبهة (١) ·

وهى وضع الشىء فى مكانه وفى زمانه ، وهى العدل فى تقدير الأمور ،

وهى الوسيطة بين الافراط والتفريط · (٢) ·

وهى الحجة المفيدة لليقين . وهى معرفة الحق والعمل به (٣) ·

والحكمة ؛ كأسلوب ، ووصف ، للكلمة التى تنقل الدعوة الى الله تعالى : هى أسلوب يؤدى به الداعية رسالته ، دون فضل يتحدث به ، أو شهوة فى شهرة يعرف بها ؛ وليس له منّه على الدعوة ؛ بل الله يمن عليه أن هداه الى الايمان . ان النظر فى أحوال المخاطبين ، وظروفهم ، والقدر الذى ينبغى أن يستخدمه الداعية كل مرة فى تبليغ رسالته ، بحيث لا يثقل ولا يشق التكاليف قبل أن تستعد النفوس للتحمل الشامل للدعوة ، وطريقة المخاطبة ، والتنويع فى الأسلوب ، حسب مقتضيات الأحوال ، هو الحكمة التى تريدها الدعوة فى العصر الحديث ، كبديل للحماس المتزايد ، والاندفاع الملتهب ، الذى يتجاوز حدود الحكمة ، فيضر الداعية والدعوة على السواء · (٤) ·

والحكمة ؛ فى أدق موازينها هى : العيش فى الجو القرآنى الكريم ، والهدى النبوى الشريف (٥) ·

---

(١) أنظر : الزمخشرى الخوارزمى : تفسير الكشاف (انتشارات أفتاب ـ تهران) ٢/٤٣٥ ·

(٢) أنظر : محمد أبو طالب شاهين : بحث مقدم للمؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة والدعاة المنعقد فى المدينة المنورة فى الفترة من ٢٤ - ٢٩/٢/١٣٩٧هـ ـ المجلد الأول ص ١٥ ·

(٣) أنظر : ابن تيمية : رسالة معراج الوصول : ص ١٤ ·

(٤) أنظر : سيد قطب : فى ظلال القرآن : ١٤/١١٠ ·

(٥) أنظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٣٤٦ ·

ولا شك أن هذا هو أشمل تعبير يمكن أن توصف به الحكمة فـــى مجال الدعوة ؛ بل وفى كل مجالات الحياة ؛ فلا يوجد فى الدنيا ما يفوق حكمة القرآن الكريم ثم السنة النبوية الشريفة .

ويشتمل أسلوب الحكمة على عدة صيغ منها :

١ - صيغة البرهـــان :

وهو اقامة الحجة على المدعو ، ويخاطب به الأذكياء (١) .

ومن أمثلة ذلك ما أجراه النبى صلى الله عليه وسلم من الحـــوار مع الحصين ، الذى كانت تعظمه قريش وتجلّه ؛ فأرسلوه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكلمه حتى ينتهى عن دعوته . فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قال : أوسعوا للشيخ . فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنـــك ؟ انك تشتم آلهتنا وتذكرها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حصين ، كم تعبد من اله ؟ قال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء . فقال : فاذا أصابك الضرّ ، من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . قال : فاذا هلـــك المال ، من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء . وهنا أقام رسول الله صلـــى الله عليه وسلم الحجة عليه وقال : فيستجيب لك وحده ، وتشرك معـــــه ؟ أسلم تسلم . فأسلم الحصين . فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن قال لأصحابه : شيّعوه الى منزله (٢) .

---

(١) أنظر : الامام الغزالى : الاقتصاد : ص ١٤٠ .

(٢) أنظر : الحلبى : انسان العيون : ١/٣١٨ .

هنا ، نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل مع الحصين أولا أسلوب الأدب والتوقير ، وهو من الأساليب النفسية ، حيث قال لأصحابه : أوسعوا للشيخ ، عند دخوله عليه ، وهو ما عرف عن قريش من تعظيمهم وتبجيلهم له ؛ ولا يخفى ما فى ذلك من راحة نفسية للشيخ ، وتهيئته وجدانيا وعاطفيا لقبول الدعوة . ثم ناقشه الرسول صلى الله عليه وسلم مناقشة منطقية عقلية هادئه ، يتدرج معه فى الدليل الى أن حانت الفرصة فأقام عليه الحجة ، التى لم يكن هناك حيالها سوى قبول الاسلام عن رضا وقبول واقتناع بالدليل والحجة والبرهان . وبعد ذلك ؛ وزيادة فى توقير الشيخ واكرامه ، لم يتركه الرسول صلى الله عليه وسلم يعود الى قومه بمفرده ، بل أمر أصحابه أن يشيعوه الى منزله ، حتى تزداد راحته واطمئنانه النفسى ، فيكون أكثر تهيئة لدعوة من يراه من قومه ؛ ويكون الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك قد أصاب بدعوته أكثر من هدف واحد .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما رواه ابن عباس رضى الله تعالى عنه : " أن ضماداً قدم مكة ، وكان من أَزْد شَنُوءَة ، وكان يَرْقِى من هذه الرّيح ؛ فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إنّ محمداً مجنونٌ . فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدىّ . . . فلقيه ، فقال : يا محمد انى أَرْقِى من هذه الرّيح[1] ، وان الله يشفى على يدىّ من يشاء ، فهل لك ؟

---

(١) يرقى : بكسر القاف ، والمراد بالريح هنا : الجنون ومسّ الجن ؛ وفى غير رواية الامام مسلم : يَرْقِى من الأرواح ، أى الجن سُمُّوا بذلك لأنهم لا يُبصرهم الناس ، فهم كالروح والريح . (انظر : صحيح مسلم بشرح النووى - ٦ / ١٥٧ شرح) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد . فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ؛ فما سمعت مثل كلمتك هؤلاء ، ولقد بلغن ناعوس البحر[1] ، . . . ؛ هات يدك أبايعك على الاسلام . فبايعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى قومك . قال : وعلى قومى . . . " (٢) .

فاذا تأملنا هذا النص ، نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد راعى مقتضى الحال للمخاطب وهو ضماد ، فهو فى حكم الطبيب ، أى عنده قدر من الثقافة . والذكاء فضلا عما لمسه فيه من الايمان بوجود الله حينما قال له : ان الله يشفى على يدى من يشاء ، لذلك فقد ألقى عليه هذه المقدمة البليغة ، التى جذبته ، وحركت وجدانه الفطرى ، وشعوره الدينى ؛ فما لبث الا أن بايع الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاسلام . لم يعبس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه عندما أفصح له سبب مجيئه اليه ،

---

(١) وفى بعض الروايات : قاعوس البحر ؛ وفى بعضها الآخر : قاموس البحر ومعناها عميقا : عمق البحر ولجته ، أو وسطه ولجته .
(أنظر : صحيح مسلم بشرح النووى ٦ / ١٥٧ - ١٥٨ شرح) .

(٢) الامام مسلم : الصحيح بشرح النووى : كتاب الجمعة حديث ٤٦ . جـ ٦ / ١٥٦ - ١٥٨ .
وانظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ١٠ - ١١ ، ابن الجوزى : الوفا ١ / ٢٠٠ ، ابن كثير : السيرة ١ / ٤٥٣ مع ٢ / ٤٠ ، السيوطى : الخصائص ١ / ٣٣٤ ، الحلبى : انسان العيون ١ / ٣٨٤ .

ولم يطرده ، بل أنصت اليه واستمع لما قاله ؛ ثم فاجأه بحديثه الذى يقطر ايماناً وبلاغةً وحكمةً ، تؤكد نبوته ،وتزيل أى شك فى رسالته ، وكان ذلك دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً جازماً على كذب المشركين وضلالهم باتهامهم له صلى الله عليه وسلم بالجنون . ثم نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفوت الفرصة باسلام ضماد فحسب ،بل عهد اليه أيضاً بدعوة قومه الى الاسلام ، ووعده ضماد بذلك .

أما القرآن الكريم ، فتزخر آياته البينات بالعديد من الأمثلة لأسلوب البرهان ـ مثله فى ذلك مثل جميع الأساليب الأخرى .

تدبر قول الله تبارك وتعالى :

" واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ." (١) وقال جل وعلا : " هذا خَلْقُ الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين " (٢) . وقال تبارك اسمه : " أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكَّرون" (٣) .

فأقام الله تعالى الحجة عليهم بأنه لا خالق الا الله ،ولا نافع ، ولا محيى ، ولا ممیت الا هو سبحانه جل جلاله ، ثم بعد ذلك تساوون من يخلق بمن لا يخلق ، وتشركون فى عبادته . تبارك وتعالى عما يشر

ثم يطلب الله تعالى منهم برهانا على صحة ما يشركون فيقول : " أم اتخذوا من دونه آلهة هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ." (٤) . ثم يرد عليهم ببرهان

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٣ .
(٢) سورة لقمان : الآية ١١ .
(٣) سورة النحل : الآية ١٧ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٤ .

واضح فيقول تعالى : " ان الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ." (١) ويقول تعالت صفاته : " والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ." (٢) . فهم أصنام مصوره يقابلونك بعيون كأنها ناظرة وهى جماد لا تبصر ، واذا دعوتهم لا يسمعون دعاءك ، فكيف عن المساعدة والامداد ؟ حجة لامناص منها الا بالتسليم والايمان .

وهكذا تمضى الآيات بأسلوب البرهان تقيم الحجة على الكافرين ، وتسوق الدليل الى المعاندين المتكبرين (٣) .

٢ - صيغة التلميح والتدرج :

وهو أسلوب يبتدىء فى فرض التكاليف بالأخف ، ثم ينتقل الى الخفيف ؛ فالصلاة مثلا : يؤمر بها فى بادىء الأمر مع السكوت عن حكم الكلام فيها ، ثم تأتى مرحلة النهى عن الكلام فيها ويجعل الكلام من مبطلاتها . وكذلك الانفاق ، جاء أولا على وجه التطوع ، ثم على وجه الفرضية والانتقال الى مرحلة فرض الزكاة . والخمر أيضا ضارة بالصحة ، وفيها اثم كبير ، ومنافع للناس ، ثم تأتى مرحلة التحريم الثانية لتمنع الخمر فى الصلاة ، ثم المرحلة النهائية فتحرم تحريماً قاطعاً فى جميع

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٤ .
(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٩٧ - ١٩٨ .
(٣) أنظر : سورة الروم : الآية ٣٠ ؛ الأنبياء : الآيات ١٩ - ٢٣ ؛ المؤمنون : الآيات ٩١ - ٩٢ ؛ الفرقان : الآيات ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥ - ٤٨ ؛ يس : الآية ٦٩ ؛ الأعراف : الآية ١٨٨ ؛ القصص : الآية ٥٧ ؛ النحل : الآيات ٥٧ - ٥٩ ؛ الاسراء : الآيتان ٩٤ - ٩٥ ؛ العنكبوت : الآيتان ٤٨ - ٤٩ وغيرها .

الأحـــوال (١) .

والتشريع الاسلامى وان كان قد بدأت أحكامه فى القرآن المدنى ، عند قيام الدولة الاسلامية ، الا أن القرآن المكى لم يخل من بعض التلميحات التشريعية ، التى تمهد لأسلوب التدرج فى الأحكام .

وكان من أمس ما يحتاجه المجتمع الجاهلى : القضاء على ثلاثـــة أمراض اجتماعية ، هى : الخمر ، والربا ، والرق .

وكان لابد للجماعة الاسلامية ، أن تتهيأ منذ حياتها الأولـــى للتخلص من هذه الأمراض الثلاثة ؛ فجاءت بعض الآيات القرآنية ـ فى مكـة ـ تمهد لذلك ، وتهيىء العقول لخطوات تتوالى فيما بعد (٢) .

عن الخمر ؛ يقول الله تعالى : " ومن ثمرات النخيل والأعنـاب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إنَّ فى ذلك لآية لقوم يعقلون . " (٣) .

فيلقى بذلك ، ظلالا ذات معنى رفيع على الثمرات المنبثقة عـــن الحياة التى وهبها الله بالماء الذى أنزله من السماء ؛ ثم يتخذ الناس منه سَكَراً ، ورزقاً حسناً ؛ فيُلمِّح الى أن الرزق الحسن : غير السَّكَر ، وهـــو الخمر ؛ التى ليس لها نصيب من الاتصاف بالرزق الحسن . والعربى يفهـم أن : فى المعار يض مندوحة عن التصريح ، فيلحظ من خلال تفيوء ظـلال هذا المعنى أن هذه توطئة لحكم سيأتى ، ويرشح لهذه التوطئة لفـــظ : (تتخذون) فالسَّكَر مأخوذ من الثمرات الطيبات ، فيه تتدخل ارادة الانسان وهـــو

---

(١) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٩٢ .
(٢) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٤٨ - ٥٤٩ .
(٣) سورة النحل : الآية ٦٧ .

شاهد معروف . وعَجُز الآية : لقوم يعقلون ، شرح ثان يفيد أن هـــذه التوطئة للحكم القادم ، انما يلحظها ويدركها العاقلون ، الذين يدركون أن الله الذى صنع لهم هذا الرزق ، ووهبهم أسباب الحياة ؛ هو الـــذى يستحق العبودية لجلاله وحده (١) .

وكان من عادة الجاهلية : تنمية أموالهم عن طريق الربا ؛الذى كان نوعان : ربا البيع ،وربا الهدية . فكان بعضهم يهدى جزءاً من مالـه الى الاغنياء ، طمعاً فى أن تُرد له الهدية مضاعفة ، كنوع من أساليب تنمية المال فى الجاهلية . ولفظ الربا عام ، يشمل أنواعه كلها ؛ وهو عمل ممقوت أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً ؛ لا بركة فيه ولا خير (٢) .

ومنذ العهد المكى ، والقرآن الكريم يحاول بطريقته الهادئـة الرقيقه ، التلميح بأن الربا نظام فاشل ، لا يرضاه الله تعالى،كأسلـوب تتعامل به الجماعة الاسلامية . قال عز من قائل : " وما آتيتم من ربا ليربـوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المُضْعِفُون ." (٣) .

فنفت الآية الكريمة ، أسلوب التعامل الربوى ، كنظام لتنميـــة المال ؛ ووضعت بديلاً مباركاً : هو الزكاة . فان العقيدة التى ما زالـت حارة فى نفوس القوم ،تحملهم على ادراك أبعاد : (وجه الله) ؛ انـــه

---

(١) أنظر : سيد قطب : فى ظلال القرآن : تفسير سورة النحل ١٤ / ٧٨ .

(٢) أنظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة الروم ٣ / ٤٣٤ .

(٣) سورة الروم : الآية ٣٩ .

غايتهم القصوى وأمنيتهم العزيزة ، ورجاؤهم الفريد ، وما دامت الـــزكاة هى التى ستقربهم من غايتهم وأملهم ورجائهم ،فكم تكون فرحتهم ، وكم يكون تسارعهم الى الامتثال اليها ، وبُغضهم للربا ، وكراهيتهم للمُرابين (١) .

وبذلك تتهيأ النفوس المؤمنة الصادقة ،لاستقبال خطوات الحكم الحازم الأخير فى الربا ، وهى مستسلمة راضية ، قوية الثقة والطمأنينـــة الى حكم الله العلى العظيم (٢) .

أما الرق ، فقد كان عامّاً فى الجزيرة العربية ، بل وفى العالـم كله ،وحياة الأرقاء كانت تعانى من قسوة الأسياد الجبابرة ، ومعاملتهـــم لهم معاملة الأنعام ؛ لذلك ، أعلن الله تعالى ،أن تحرير العبيد مـــن أجل الأعمال التى تقرب المؤمنين من ربهم . قال تعالت صفاته :

" فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ." (٣) .

والعقبة : استعارة للعمل الشاق على النفس ،تشبيها لها بعقبة الجبل ، وهو ما صعب منه وقت الصعود ، فانه يلحقه مشقة فى سلوكها . ومعنى اقتحمها : دخلها بسرعة وشدة ؛ فاقتحام هذه العقبة ـ وهـــو مثال ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان حتى ينال رضـــا الرحمن ـ يكون بعتق رقبة فى سبيل الله ، وتخليص صاحبها من الأســـر والـــرق (٤) .

(١ ، ٢) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٥١ .
(٣) سورة البلد : الآيات ١١ - ١٣ .
(٤) أنظر : تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٧٦ سورة البلد .
: ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة البلد .
: الألوسى : روح المعانى : سورة البلد .

ثم أوضح الله الحكمة فى عِظَم أجر من أعتق رقبة فى سبيل الله ، حيث قال جل شأنه : " ولقد كَرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ." (١) .

فقد شرف الله ذرية آدم بالعقل والعلم والنطق وتسخير جميع ما فى الكون لهم ، فهم يُحملون بَراً على ظهور الدواب والأنعام ، وبحراً على ظهور السفن بأمان وأطمئنان ؛ ورزقهم من أطيب المطاعم والمشارب ، وفَضَّلهم بذلك على كثير من مخلوقاته من سائر الحيوانات والبهائم والوحش والطير وغير ذلك . فاذا كان الله قد اختص الانسان بكل هذه الميزات ، فالواجب على أخيه الانسان أن يعتبر من ذلك ، فيحرر رَقَبَةً ابتغاء مرضاة الله ، أو على الأقل يحسن معاملته ويرعى حقوقه .

وقد سبق الصِّدِّيق أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ الى اقتحام هذه العقبة ، فأعتق الذين أسلموا من موالى المشركين الطغاه .

وهكذا يُراعى أسلوبُ الدعوة فى العهد المكى أحوالَ المخاطَبين ، فيبدؤهم بالتلميح أولاً ثم التدرج بهم توطئة لفرض التكاليف ، فاذا ما درجت عليها نفوسُهم ، وتقبلتها مشاعرُهم ، جاءت فى صورتها النهائية ؛ فاحتوى هذا العهد تمهيداً وتوطئةً لبعض التشريعات التى فُرضت على المسلمين فى العهد المدنى .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ٧٠ .

٣ - صيغة المَثَل :

استعمل العربُ المَثَلَ فى كلامهم ، وأرادوا به الشىء العجيب المدهش فى صفته وحقيقته ، وكثيراً ما أتَوْا به على صورة التشبيه للدلالة على ما يقولون . (١) .

والمَثَلُ فى كل أحواله ، يُقرِّب المعانى ، ويضع صورتها مثيرةً لدى المستمع ، ويجعلها - مع القرب والاثارة - فى وضع ثابت بالدليل . (٢) .

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الأمْثال المختلفة ، جريا على عادة العرب ولغتهم . والأمْثال القرآنية هادفة ، ولها أثرها الواضح فى تبليغ الدعوة ؛ ولذا جاءت كثيراً فى كتاب الله . (٣) .

والمَثَل يكون حقيقةً فيطلق على نفس الشىء وذاته ، مثل قوله جل وعلا : " أَوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كَمَنْ مَثَلُه فى الظلمات ليس بخارجٍ منها كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون ." (٤) أى كمن هو فى الظلمات . وقوله تعالى : " إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ." (٥) ؛ أى طريقة خلق آدم فى الغرابة والبشرية .

ويكون المَثَل فرضياً غير حقيقى ، فيأتى على صورة التشبيه ، كما فى قوله تعالى : " مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمَثَل الحمار يحمل أسفارا . . ." (٦) فَشَبَّه اليهودَ الذين كُلِّفوا حمل التوراة ، والعمل بها ،

(١ ، ٢ ، ٣) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .
(٤) سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ٥٩ .
(٦) سورة الجمعة : من الآية ٥ .

ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها كالحمار يحمل الكتب الكبيرة النافعة ولا يستفيد بها . وقد عقب القرآن الكريم على هذا التشبيه بقوله :"...بئس مَثَل القوم الذين كذّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين." (١) وكما في قوله تعالى : " وانما مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنَت وظن أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أَمْرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها صعيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ." (٢) .

فَشَبَّه اللهُ الحياةَ الدنيا في فَنائها وزَوالها كَمَثَل مطرٍ نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض فنبت بالماء كل لون ، حتى اذا أخذت الأرض حسنها وبهجتها وتزينت بالحبوب والثمار والأزهار ، وظَنَّ الناسُ أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، مُحَصِّلون ثَمَرَتَها وغَلَّتَها ، جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات اما ليلاً أو نهاراً ، فأصبحت خاوية لا شيء فيها وكأنها قد حُصِدت بالمناجل ، وكما لم تكن عامرةً من قبل . وقال تعالى : " أم تحسِب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا " (٣) ؛ فَشَبَّه المشركين بالأنعام بل أسوأ منها .

وتمضي آياتُ الله البيّنات تضرب الأمثال ، للكافرين والمكابرين والمعاندين ، فيقول جل ثناؤه في محكم تنزيله : " وضرب اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رَغَداً من كل مكان فكَفَرت بأَنْعُمِ الله فأذاقها

---

(١) سورة الجمعة : من الآية ٥ .
(٢) سورة يونس : الآية ٢٤ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٤٤ .

الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ." (١) فهذا مَثَلٌ ضربَه الله لهؤلاء وغيرهم ، بقوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فعصوا وتمردوا ، فبدّل الله نعمتهم بنقمه .

وقرية أخرى ضرب الله بها المَثَل ، كما جاء في قوله تعالى من سورة يس(٢) : " واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون . اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا انا اليكم مُرسَلون . . . (الى قوله تعالى) يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسولٍ الا كانوا به يستهزئون ."

قال القرطبي (٣) : " وهذه القرية هي : انطاكية ، في قول جميع المفسرين ؛ أرسل الله اليهم ثلاثة رسل وهم : صادق ، ومصدوق ، وشمعون ، أمر (الله تعالى رسوله) صلى الله عليه وسلم ،بانذار هؤلاء المشركين أن يحل بهم ما حل بكفار أهل القرية المبعوث اليهم ثلاثة رسل من الله ، وقيل : هم رسل عيسى " ،حيث كانت عقوبتهم صيحة واحدة ، فاذا هم مَيّتون لا حراك بهم .

ومثال آخر في حياتهم المعيشية ، وهو واضحٌ حاسمٌ ؛ لا مجال فيه للشك أو الريبة ؛ قال تعالى : " ضرب لكم مَثَلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانُكم من شركاءَ فيما رزقناهم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسَكم كذلك نُفَصّل الآيات لقوم يعقلون " (٤) .

---

(١) سورة النحل : الآية ١١٢ . (٢) الآيات من ١٣ الي ٣٠ .
(٣) تفسير القرطبي : ١٥ / ١٤ (٤) سورة الروم : الاية ٢٨ .

وهو مَثَلٌ شاملٌ لكل ما كانوا يتخذونه شريكاً من دون الله ، فهم في العادة الغالبة ، لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال ، ولا يُسَوّون عبيدَهم بأنفسهم في شيء ، أفليس من العجب ـ بعد ذلك ـ أن يجعلوا لله شركاء من عبيده ، وهو الخالق الرازق وحده (١) .

وقد يستعمل المعاندون أسلوبَ المَثَل أيضاً ، للقدح في القرآن الكريم أو في الرسول الأمين ، ولكن الله تعالى يرد عليهم بالحق الواضح ، والنور الساطع ، الذي يدفع باطلَهم . وفي ذلك يقول الله تعالى :

" ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شرٌ مكاناً وأضلُّ سبيلا " (٢) .

والأمثال القرآنية ،تستمد عناصرها من الطبيعة ، لِتَظَلَّ قريبةً من الانسان أياً كان ، تعيش معه ، وتؤثر فيه ؛ ومن هنا فان روعة التصوير التي بدت فيها ضرورية لها . وحتى يُؤدّي المَثَلُ دورَه التأثيري تماماً ، رأيناه يتَّخذُ من الطبيعة ميداناً يقتبس منها صُوَرَه . فمن نباتها ترى الجنة تنبت سبع سنابل ، وترى الشجرة الطيبة والخبيثة ، والزرع الذي أخرج شطأه ،ومن حيواناتها نرى الحمار والكلب ، ومن حشراتها نرى البعوض والعنكبوت ، ومن طيورها نرى الهدهد ، ومن أحجارها نرى الرماد الصلد والجبل (٣) .

---

(١) أنظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٤٤٩ .
(٢) سورة الفرقان : الآيات ٣٣ - ٣٤ .
(٤) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٧٤ .

وانما كان الأمر كذلك ، لأن القرآن لا يقصد الاهتمام بالمَثَل بـه ، بقدر ما يهتم باقتراب الصورة فى نفس المدعو مع شِدّة وضوحها وتأثيرها (١) .

والناظر فى المَثَل القرآنى يلحظ دقته الفريدة المؤثرة ؛ فهـو دائما لا يمثل بالغريب ، وانما يتخير من المحسوسات الموجوده ، ويجليهـا بأوصافها ، ويضعها فى المثال شاهدة واضحة على ما يريد ذكره وبيانـه . وفى الممثل به لا يضع وصفا زائدا أو خياليا ، لتكون صورته صادقة ملموسة . ومن ذلك قوله تعالى :

" مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بيتـاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون" (٢) ؛ حيث يضرب الله هـذا المَثَل ليُبَيّن أن قدرة الله هـى القدرة ، وما عداها من قوة فهو هزيـل ، ولا اعتبار له . والذى يتعلق بقدرة غير قدرة الله تعالى فهو كالعنكبـوت التى تتعلق بالواهى والضعيف حيث تتخذ لنفسها بيتا ضعيفاً واهيـاً ، بل هو أضعف البيوت على الاطلاق ؛ والكل يعرف ذلك أنّى كان ؛ لأن العنكبوت توجد فى كل مكان وتنسج بيتها فيه ؛ ولذلك ضرب الله هـذا المثل وكله دقة وواقعية ، لأن ضعف العنكبوت وبيته لا يُنكَر ، كما أن وجودَه معروفٌ للجميع . (٣) .

ومن هذه الدقة ؛ قوله تعالى : " مَثَلُ الذين ينفقون أموالهم فـى سبيل الله كَمَثَلِ حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبه والله يضاعف لمن يشاء " (٤) ؛ اذ أنه لا يوجد من يمنع وجود هذه السنابل بحياتهـا

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤١ .
(٣) أنظر : غلوش : نفس المرجع ص ٣٧١ - ٣٧٢ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٦١ .

الكثيرة الناتجة من الحبة الواحدة على النحو المذكور . ولكى تكون هـذه الواقعية أكبر فى الدقة ، نجد المَثَلَ يذكر من الأوْصاف والقيود ما يجعله مُستساغاً سهلاً ، فيبين كيف تتحول الحبة الواحدة الى مئات من الحب، وذلك لأنها تزرع فتنبت سبع سنابل وفى السنبلة الواحدة مائة حبة ؛ وهذا ركن مشاهد (١) .

والمثل القرآنى يترك المخاطب - بعد الدقة والوضوح - يستنتج وجه الشبه شَحْذاً لعقله ، ومشاركة فى العمل ، وهذا من شأنه أن يدفع الى الايمان بحماس واقتناع . كما أنه يضرب المثل أحيانا ويترك بعض جوانبه عَمْداً لكى يفكر المستمع فيها وذلك كقوله تعالى : " مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالُهم كَرَمَا اشتدّت به الريح فى يومٍ عاصف لا يَقْدِرون مما كَسَبُوا على شيءٍ ذلك هو الضلال البعيد ." (٢) .

حيث شَبّه اللهُ تعالى أعمالَ الكافرين برمادٍ طيّرته رياحُ شديدة وفى يوم القيامة ، لا يجد الكافر أثرا لعمله . والمَثَل يذكر أنه لا أثر لعمل الكافر ، بينما الواقع أن له عقوبات كثيرة ، تركها المَثَلُ لكى يجتهد المستمع فى تَفَحُّصِها واستنتاجِها ؛ وقد جاء الاستفهام عقب بعض الأمْثال لهذا الهدف (٣) .

يقول الله تعالى : " مَثَلُ الفريقين كالأعْمى والأصَم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون " (٤) ؛ والمثل مضروب للمؤمنين والكافرين ؛

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٧٢ .
(٢) سورة ابراهيم : الآية ١٨ .
(٣) أنظر : غلوش : نفس المرجع : ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .
(٤) سورة هود : الآية ٢٤ .

فالمؤمن بصير سميع ، والكافر أعمى وأصم ، وبعد ضرب المثل أتى الاستفهام بـ : هل يستويان مثلا ؟ وهو استفهام انكارى ، ينفى ما استفهم عنه ، ويثبت أن الفريقين لا يستويان أبدا ؛ وهذا المنهج فى النفى والاثبات أفضل من النفى ابتداءً (١) .

وهكذا تتضح دقةُ المَثَل فى صدق جوانبه ، ووضوح وجه الشّبَه فى ضربه واشتراكه مع عقل المخاطب فى استنتاج بعض أهدافه . وهذا يؤثر فى الانسان حيث يجذب الانتباه اليه ؛ ويجعله يربط بين المُمَثَلُ به ؛ وله أن يستنتج من خفايا المثل الكثير وكلها مفيدة للدعوة ولأهدافها (٢) .

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٧٤ .
(٢) نفس المرجع والمكان .

المبحث الثاني

الموعظة الحسنة

الموعظة لغةً : أصلها من : وَعَظَ ، والوعظُ : هو النُّصح والتذكير بالعواقب ، وهو ما يرقق القلب ، ويميله نحو الطاعة : من قولٍ أو فعل (١) واصطلاحاً : هي نُصْحُ الناس ،وتذكيرهم بما في القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية الشريفة ، من الزواجر والوقائع ،ليحذروا بأسه تعالى (٢) . وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها (٣) . وهي أيضا : أن يخلط الرغبة بالرهبة ، والانذار بالبشارة ، والوعد بالوعيد أو هي : الأمارات الظنية ،والدلائل الاقناعية (٤) .

والموعظة الحسنة تكون بالكلمة الرقيقة الهادئة ، التي تدخل الى القلوب برفق وأناة ، فتجذب الوجدان الى استشعار روحانية الدعوة .

ومع قسوة العداء والمجابهة ، من المشركين في العهد المكي ، كان القرآن الكريم يحرص على أن تكون الدعوة بالموعظة الحسنة ،فكم من قلوب شاردة ،هداها الله تعالى بالموعظة ؛ قال عز من قائل :

" ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ." (٥) .

---

(١) أنظر : الجوهري: الصحاح : مادة : وعظ .
(٢) أنظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة النحل ٢ / ١٩٥ .
(٣) أنظر : الزمخشري : تفسير الكشاف : سورة النحل ٢ / ٤٣٥ .
(٤) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٩١ .
(٥) سورة فصلت : الآيات ٣٤ - ٣٥ .

فليس للداعية أن يرد بالسيئة ،اذ لا تستوى آثار السيئات وآثار الحسنات ،فالصبر والتسامح فى مواجهة الشر قد يرد النفوس الجامحة الى الثقة والايمان ،فتنقلب من الخصومة والعداء ، الى الطاعة والولاء (١) .

وفى الانسان ؛ وخاصة العربى المسلم ؛ طابع الحياء والشهامة التى تأبى الا أن تعود الى الحق ،وتعترف به فضيلة خلقية ؛ فأشاد القرآن الكريم بالموعظة الحسنة أسلوباً ووصفاً لنوع الكلمة التى يجب أن يستخدمها الداعية فى تبليغ دعوة الحق (٢) .

ولأسلوب الموعظة الحسنة ، كثير من الصيغ والاشكال منها :

١ - الترغيب والترهيب :

وهو أسلوب يراعى حال النفس البشرية ، القائمة على غريزة حب الذات . وقد عُرف الانسان بأنه مُحبٌّ لما ينفعه ، مُبغض لما يكره ؛ لانه يحب ذاته . فلو أن الدّاعية ركّز على هذه الغريزة ، وساق للانسان الأدلة على نجاته فى الدنيا والآخرة ، لو فعل الخير ؛ وعلى شقائه فى الأولى والآخرة ، لو فعل الشر ؛ لأصاب المحزّ ، وسار على طريق الدعوة الصحيح (٣) .

ويتطلب هذا الأسلوب : توضيح ما تشتمل عليه أوامر الله تعالى من المصالح ، وما تحتويه نواهيه من المضار ؛ فهو يدعو الى الخير ويحبب فيه وينهى عن الشر وينفر منه (٤) .

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .
(٢) أنظر : نفس المرجع والمكان .
(٣) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٩٢ .
(٤) أنظر : نوفل : نفس المرجع والمكان .

وهو فن يُعَدُّ من أهم مؤثرات الدعوة الى الله تعالى ، ومن أنجح أساليبها ؛ ذلك لأن الانسان اذا استثير شوقه الى شيء ما زاد اهتمامه به ، وسرعان ما يتحول هذا الشوق الى نشاط يملأ حياة الفرد عملاً وتحمساً وتعلقاً بما تشوق له ، ورغبةً فى الحصول عليه . أيضاً فان الخوف من شيء ما يجعل الانسان يهابه ولا يرغبه ويبتعد عنه حذراً من الوقوع فيه ، وهذا شيء طبيعى لأن الرغبة هى التى تهوّن الأشياء ، والرهبة هى التى تصورها بصورة سيئة ؛ كما أن التأثير بالترغيب والترهيب ، يتفق مع فطرة الانسان ، وطبيعته المحبة للثواب والنعيم ، الكارهة للعقاب والبؤس (١) .

والقرآن الكريم - من خلال هذا الفن - يُرغّب الانسان فى الايمان بالله تعالى ، واتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويُبيّن أن ذلك هو منهاج النجاة من كل شدة وعذاب ويذكر أن الناجين دائما هم المتبعون للرسل ، فلقد نَجّى اللهُ أَتْباعَ نوحٍ عليه السلام يقول الله تعالى :" فأنجيناه والذين معه فى الفلك برحمةٍ منا وقطعنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين " (٢) . ونَجّى الله أَتْباعَ هود ؛ يقول جل جلاله :" ولما جاء أمْرنا نجّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجيناهم من عذاب غليظ." (٣) .

وعلى هذه الوتيرة فى الانجاء جرى الأمْر مع أَتْباعِ الرّسل كلهم ، لأن إنجاءَهم يخضع لقاعدةٍ يجب أن تبقى واضحة ، وقد عرّفها الينا الله ، بقوله تعالى : " ثم نُنْجِى رُسُلَنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا نُنْجى المؤمنين ." (٤) .

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٧٢ .
(٣) سورة هود : الآية ٥٨ (٤) سورة يونس : الآية ١٠٣ .

وكما أن الاتّباعَ سبيلٌ الى الانجاء ، فهو أيضاً سبيلُ النصر ؛ يقول تبارك وتعالى : " ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون " .

وكما أن الاتباع سبيل الى الانجاء والنصر ؛ فهو أيضا طريق التمكن في الأرض والتمتع بخيرها ، والأمن والهدوء فيها ؛ كوعد الله تعالى : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا " (١) .

وما أعطى الله تعالى هذه النعم الغالبة الا لأنهم يعبدون الله وحده ولم يشركوا به شيئا .

وتمضى الآيات القرآنية الكريمة ، تحمل بين كلماتها ألواناً من الترغيب ، وأنواعاً من الترهيب ، تجذب قلوب الناس الى فعل الخير ، وتنفّرها من فعل الشر ، بقوة ، وواقعية ، وصدق . يقول الله تعالى في محكم تنزيله:" بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ." (٢) ؛ فتوعدهم الله تبارك وتعالى بالعذاب والدمار لما يصفون به الله تعالى من الزوجة والولد .

وقال عز من قائل : " ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتَى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا ." (٣) ؛

---

(١) سورة النور : الآية ٥٥ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٨ .
(٣) سورة الفرقان : الآيات ٢٧ - ٢٨ .

فيُحذّر اللهُ تعالى من مَغبّة الشرك والعِناد ، وهو الندم والحسرة على نفسه لما فرّط في جنب الله ؛ وعض اليدين كناية دقيقة عن ذلك ، يوم لا ينفع الندم ، ولا يجدى الأسف ، فيصبح هلاكاً وحسرةً وأسفاً ،مُتمنياً لو لم يكن قد صاحب هذا الذى أضله وتسبب فى وقوعه يوم القيامة فى هذا العذاب الوبيل .

وقال جل جلاله : " فاذا جاءت الصاخة . يوم يفرالمرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ." (١) .

فبينت الآيات الكريمة حال الانسان من أهوال يوم القيامة ،وفراره من أقرب أقربائه وأحب أحبائه ، من شدة الهول ، وقسوة الفزع ؛ فيومئذ تكون وجوه المؤمنين مضيئة مشرقة ، فرحة ضاحكة ، مستبشرة بما رأته من كرامة الله ، وبما ينتظرها من النعيم الدائم . أما وجه الكفار الفجرة ، فيعلو وجوههم غبار ودخان ، وتغشاها ظلمة وسواد ، حيث جمع الله الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الكفر الى الفجور (٢) .

وفى هذا التصوير الصادق ، مقابلة دقيقة بين حال المؤمنين ، ترغب الناس فى الدخول فى زمرتهم السعيدة ، وبين حال الكفرة الفجرة ، تنفر من مجاراتهم أو اتباع سبيلهم رهبة وخوفا من عذاب الله فى هذا اليوم الموعود .

---

(١) سورة عبس : آلايات ٣٣ - ٤٢ .

(٢) الصاوى : حاشية على الجلالين : ٤ / ٢٩٤ .

وتمضى الآيات القرآنية ، بأسلوبها البلاغى المعجز ، وتصويرها الفنى الدقيق ، تدعو الى الخير وترغب فيه ، وتنهى عن الشر وتنفر منه ، بحيث تكاد لا تخلو سورة من سور القرآن الكريم : مكية كانت أو مدنية ، من هذا الأسلوب البيانى الرائع فى الترغيب والترهيب ، مما يضيق المقام عن الاشارة اليه .(١)

٢ - القَصَص :

القصص : تعبير عن الحياة ، تمر بأحداثها وأشخاصها وأزمانها متضمنا أفكارا ومشاعر ، وتُمَيِّزُ - غالباً - بالاثارة والجاذبية ، الاّ أن بعضه هو الذى يستحق البقاء لأنه يبغى هدفا ويقصد خيرا للفرد والجماعة . والقصة القرآنية من هذا النوع الهادف القائم على الحق والمساق لغرض محدد ، وكل ما فيها من فنية مؤثرة هو أصل هدفها المطلوب ؛ فهو الذى يحدد مساقها ويبرز بعض جوانبها ، ويخرجها للناس شكلاً وموضوعاً . (٢)

يقول الشيخ محمد عبده (٣) : " جاءت آيات القصص على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذى لم يسبق اليه ولم يلحق به ، فهو فى القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ، ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام ، وترتيبه على حسب الوقائع حتى فى القصة الواحدة ؛ وانما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر الى النظر تحريكاً ، ويهز النفس للاعتبار هزاً"

---

(١) راجع أيضا : موضوع : الوعد والوعيد من قسم جـ : "المجادلة بالتى هى أحسن " من هذا الفصل .

(٢) أنظر : غلوش : دكتور أحمد أحمد : الدعوة الاسلامية ووسائلها فى عصر النبى عليه السلام (دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤه الفجالة - القاهرة - طبعة أولى ١٩٧١م)ص ١١٢ ، الهاشمى : دكتور عبد الحميد : الرسول العربى المربى (دار الثقافة للجميع . سوريا . دمشق طبعة أولى ١٤٠١هـ-١٩٨١م)ص ٢٤٩ . (٣) تفسير المنار ١ / ٣٦ .

؛ ذلك لأنّ القرآن هو كتاب الدعوة ، ولا بد أن يفى لها بالتأثير والهداية (١) .

ويضم القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة : طائفة ، هى أحسن القصص الهادفة ، التى تتميز بالصدق والواقعية والبعد عن الخرافة والخيال (٢) .

ويتضمن القصص القرآنى الحكيم ، أنواعاً ؛ منها : القصة الواقعية التاريخية التى حدثت فعلاً ، وهى مقصودة لذاتها بأماكنها وحوادثها وأشخاصها ، ومثل ذلك قصة موسى عليه السلام ، حين خرج من مدينة فرعون خائفاً يترقب ، ثم شهامته عندما مدّ يدَ المعونة للآخرين بقوة وأمانة لامرأتين اضطرتا الى العمل بكل أدب وحياء ، ثم الى عمالة كريمة مأجورة (٣) ، ثم الى زواج واستقرار فيما بعد . قال الله تعالى :

" ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الىّ من خير فقير . فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت احداهما يا أبت استئجره ان خير من استأجرت القوى الأمين . قال انى أريد أن انكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك . . . . " (٤) .

---

(١) أنظر : غلوش : نفس المرجع والمكان .
(٢) أنظر : الهاشمى : نفس المرجع والمكان .
(٣) أنظر : الهاشمى الرسول العربى المربى : ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
(٤) سورة القصص : الآيات ٢٣ - ٢٧ .

ومنها القصة الواقعية التى تعرض نموذجاً لحالة انسانية من خلق وانفعال ، والمراد منها العظة والعبرة . ومثال ذلك : قصة ابنى آدم ، وتمثل نوعا من السلوك الانسانى الهابط القائم على الغيرة ، والحسد ، والضغينة ؛ يقول عز من قائل :

" واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأقتلنك قال انما يَتَقَبَّل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتُلَنى ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب العالمين . انى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال ياويلتَى أعَجَزتُ أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين." (١) .

ومنها القصة التمثيلية ؛ التى تقدم واقعة حدثت فيما مضى ، ويمكن أن تقع فى أى زمان ومكان ، ومع أى انسان أيضا . مثال ذلك قوله تعالى :

" واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا . ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله

---

(١) سورة المائدة : الآيتان ٢٧ - ٣١ .

لا قوة الا بالله ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا ."(١)

فالقصة بأحداثها وأهدافها ؛ تبين غرور الكافر المادى بما لديه من متاع أما الانسان المؤمن فانه واثق بالله ، ثم تسير الأحداث الى ختامها حين يخسر الكافر كل شيء فى هذه الحياة الدنيا ، بأساً وفقراً وهماً وغماً ، ويفوز المؤمن بالله بحسن العاقبة فى الحياة الدنيا والآخرة : خيراً ، وسعادة .

كذلك فان القصص النبوى ، يتضمن نماذج مشرقة ، من أساليب الدعوة الى الله تعالى :

ففى ايضاح أن المعروف لا يضيع ، وأن المؤمن لا يفقد الأمل بأى انسان ، وبيان ثبوت أجر المتصدق ، وان وقعت الصدقة فى غير أهلها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال رجل : لَأَتَصَدَّقَنَّ الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدّق الليلة على زانية ؟ . قال : اللهم لك الحمد؛على زانية ؛ لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة أخرى ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى ؛ فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى ؟ قال : اللهم لك الحمد ؛ على غنى ، لَأَتَصَدَّقَنَّ الثالثة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق ؛ فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . فقال اللهم لك الحمد ؛ على زانية ، وعلى غنى ، وعلى سارق . فَأُتِىَ فَقِيلَ له : أما صدقتك فقد قبلت ؛ أما الزانية : فلعلها تستعفف بها عن زناها ، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق يستعفف بها عن سرقته "(٢) .

---

(١) سورة الكهف : الآيات ٣٢ - ٣٩ .

(٢) مسلم : الجامع الصحيح : باب ثبوت أجر المتصدق ، وان وقعت الصدقة فى يد غير أهلها .

وفى فضل المحبة بين الأخوة ، وفضل التزاور بين الأصحاب فى الله تعالى : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة : أن رجلا زار أخا له فى قرية ،فأرصد الله تعالى على مدرجته (١) ملكا ، فلما أتى عليه ،قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربّها ؟ (٢) قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله تعالى . قال : فانى رسول الله اليك ، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه . . " (٣) .

وفى بيان فضل الأمومة وما تتميز به ايثار لأبنائها ، وشفقة عليهم : قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها : " جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها ،فأطمعتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ،ورفعت الى فيها تمرة لتأكلها ،فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبنى شأنها ؛ فذكرت الذى صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ان الله قد أوجب لها بها الجنة " (٤) ؛ وذلك لرحمتها ورأفتها وعطفها على بنتيها ، وايثارها لابنتيها بنصيبها من التمرات رغم حاجتها اليها .

وفى بيان خطأ بعض المعايير الاجتماعية السائدة :

روى أن رجلا مرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل جالس عنده : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حَرِيٌّ إنْ خَطب أن يُنكح ، وان شفع أن يشفع . فسكت رسول الله صلى

---

(١) مدرجته : طريقه (أنظر : الفيروز أبادى : القاموس المحيط)
(٢) أى احسان تحفظه (أنظر : الفيروز أبادى : المرجع نفسه)
(٣) مسلم : المرجع السابق :
(٤) مسلم : الجامع الصحيح :

الله عليه وسلم ،ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : يارسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ؛ هذا حَرِيٌّ إن خَطَب أن لا يُنكح ، وان شفع أن لا يشفع ، وان قال أن لا يُسمع لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا ،وهو يشير للفقير الصالح المسلم ، خير من ملء الأرض مثل هذا " (١) .

وفضلاً عن هذه القصص القصيرة ، التى يزخر بها كلٌ من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ،والتى تحمل بين طياتها العظات والعبر ، فان هناك أيضا من القصص الطويل ـ نسبياً ـ الذى يحتوى على العديد من نماذج القدوة الحسنة والأعمال الصالحة ، ومكارم الأخلاق ، وتصحيح العقائد . ومثال ذلك فى القرآن الكريم : قصة يوسف عليه السلام التى استغرقت سورة بأكملها (٢) ، وكذلك قصة السيدة مريم وعيسى عليهما السلام (٣) ، ثم سورة الكهف التى احتوت على مجموعة هادفة من القصص القرآنى الحكيم .

أما من أمثلة القصص النبوى الطويل نسبياً نجد هذه القصة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " انطلق ثلاثة نفر (٤) ممّن كان قبلكم ، حتى آواهم البيت الى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

---

(١) البخارى : الجامع الصحيح ، مسلم : المرجع السابق .
(٢) أنظر : سورة يوسف . (٣) أنظر سورة مريم .
(٤) النفر : من ثلاثة الى عشرة (انظر: الفيروزأبادى : القاموس المحيط)

قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق (١) قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بى طلب الشجر يوماً ، فلم أرح (٢) عليهما حتى ناما . فحلبت لهما غَبوقَهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً . فلبثت والقدح على يدى ،أنتظر استيقاظهما حتى بزغ الفجر ، والصبية يتضاغون (٣) عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم ، كانت أحب الناس الى ، وكنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ،فراودتها على نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين (٤) ، فجاءتنى ، فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى اذا قدرت عليها قالت: اتق الله ، ولا تفض الخاتم الا بحقه ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس الى ، وتركت الذهب الذى أعطيتها . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم انى استأجرت أجراء ، وأعطيتهم أجرهم ، غير رجل واحد ، ترك الذى له وذهب ؛ فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله ، أدّ الى أجرى ؛ فقلت : كل ما ترى من أجرك ، من الابل والبقر والغنم والرقيق ؛ فقال : يا عبد الله ،

---

(١) أغبق : تقديم شرب اللبن بالعشى ؛ومنها الغبوق : مايشرب بالعشى . (أنظر :الفيروزأبادى : القاموس المحيط : مادة غبق : ٣/ ٢٧١) .

(٢) الرواح : الرجوع . (٣) يتضاغون : يصيحون من الجوع والعطش .

(٤) عام القحط والجدب . (انظر : المرجع السابق) .

لا تستهزىء بى ؛ فقلت : لا أستهزىء بك ؛ فأخذه كله فاستاقه ،فلم يترك منه شيئاً . اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ؛ فانفرجت الصخرة ؛ فخرجوا يمشون "(١) .

فالأول فى هذه القصة النبوية الشريفة : يمثل محبة الوالدين واكرامهما وبِرَّهما وخِدْمَتِهما . والثانى : يمثل أهمية الحياة الشريفة والنظيفة وعدم استغلال المال ـ الذى هو نعمة من الله تعالى ـ لمحاربة الله ـ جل شأنه ـ بافساد الاتقياء الطاهرين . والثالث : يمثل الأمانة وحفظ حقوق العمال وصيانة أجورهم وأتعابهم ، واستثمارها لخيرهم اذا تأخر صرفها لهم .

وكل هذه الأحداث وقعت فعلاً وصدقاً فيما مضى ؛ فان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ،لا ينطق الا الصدق ، ولا يقول الا الحق ؛ فهى عبرة وعظة وتوجيه الى ما يجب أن يكون عليه المسلم المؤمن من البر بالوالدين ، وحُسْن السلوك وسلامة المعاملات ، وفضائل الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، فضلاً عن القدوة الحسنة لغيره من عباد الله .

٣ - القَسَم :

القَسَم ؛ لغة : هو الحَلِف واليمين . أَقْسَمَ بالله ،واستقسم به ، وقاسمه : حلف له . تقاسم القوم : تحالفوا . وأقسمت : أى حلفت ؛ وأصله من القسامه . والقَسَم : اليمين . والقسامة : الجماعة يقسمون على الشىء أو يشهدون يمين القسامة (٢) .

---

(١) الامام البخارى : الجامع الصحيح ، الامام مسلم : الجامع الصحيح

(٢) أنظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة " قسم " .

وأسلوب القَسَم ؛ عرفه الناس قديماً ،واستعملوه كثيراً ، تأكيداً لخبر ، أو تعظيماً لشيء ، أو جمع الانتباه حول غاية ؛ فيحدث تأثيره فيهم على نحو يجعلهم يؤمنون به وبدعوته . والقَسَم العربى ؛ بايجازه وقصره ، يلائم الطبع العربى الفصيح ، الذى تكفيه الاشارة ، وتقنعه اللمحة(١) .

ومن هنا كان ضرورياً أن يتضمّن الأسلوب القرآنى المُحكم ، هذا النوع من البلاغ للناس ، لما فيه من فائدة الاقناع باثارة العواطف ؛ ولم يكن عجباً أن وُجد أسلوبُ القَسَم بكثرة مع أول ظهور الدعوة فى العهد المكى (٢) .

ولقد أحاط القَسَم القرآنى ، بدعامتى الدعوة : الايمان بالله ، والتصديق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى شمول ووضوح :

فعن الايمان بالله تعالى ، يوجهنا الأسلوب اليه ، عن طريق القَسَم بذاته هو جل جلاله ؛ فيقول فى محكم تنزيله : " ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ."(٣) ؛ فنجد هذه الصيغة ، تقسم باسم من أسماء الله تعالى يشير الى نعمة فى الناس ، اذ هو المربى الذى يَسوس الانسان ، ويُربيه ، ويُدبّره (٤) .

ولا يَقفُ القَسَم عند حد الاقسام بالذات العلية وصفاتها ؛ بل جاء القسم أيضا بآثار الله ، مبرهنا على ضرورة الايمان به ، بأدلة سهلة ؛ مثل قوله تعالى :

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
(٢) أنظر : المرجع السابق نفس المكان .
(٣) سورة يونس : الآية ٥٣ .
(٤) أنظر : محمد عبده : تفسير سورة الفاتحة (كتاب التحرير . القاهرة طبعة ١٣٨٢) ص ٢٧ .

" والليل اذا يغشى . والنهار اذا تجلى . وما خلق الذكر والانثى . انّ سعيكم لشتى ." (١) وقوله جل وعلا : " والشمس وضحاها. والقمر اذا تلاها . والنهار اذا جلاها . والليل اذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ." (٢) .

وقوله تقدست أسماؤه : " والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى ." (٣) .

" فان القسم بهذه الأمور يبين أدلة الألوهية كلها ؛ لأن من نظر في بنيان السماء المنسق ، وبسط الأرض المنظم ، وخلق الانسان المكرم؛ لعاش مع أدلة القدرة والغاية ، والكمال " (٤) ، واندفع بواسطة احاطته بهذه الآيات المشاهدة الى الايمان بالله الخالق لكل هذا ؛ وبذلك يعطي القسم دليلا بينا واضحا على أن الله واحد لا شريك له .

كذلك فان المشركين والكافرين يأخذون من هذه الأقسام رَدْعاً لهم ، واستهانة بآلهتهم ؛ فلئن كانوا عبدة كواكب ، فان القَسَم بَيّن سقوطها وأفولها ، وليس ذلك من صفات الاله . يقول الرازي : " كان من المشركين من يعبد النجم ،فقرن الله بتعظيمه ـ عند القسم به ـ وصفاً يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة لأنه هاوٍ آفل " (٥) .

---

(١) سورة الليل : الآيات ١ ـ ٤ .
(٢) سورة الشمس: الآيات ١ ـ ١٠ .
(٣) سورة النجم: الآيات ١ ـ ٢ .
(٤) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (دار الهلال ـ القاهرة) ص ٩٩ .
(٥) مفاتيح الغيب : ٧/٧٢٧ ، وانظر : سورة النجم : الآية ١ .

ولئن كانوا من عبدة النور والظلمة ،فالآيات الكريمة ، توضّح عجزها ؛ لأن الظلام يغشاه النور ويزيله ،والنور يتجلى بزوال الظلام ؛ وكلاهما محدود متجدد متغير ، وليس ذلك أيضا من صفات الاله (١) .

ولئن كانوا من عبدة البشر ، فالآيات تبين أن الله خلق الذكر والأنثى ، فكيف يكون المخلوق معبودا ؟ (٢) .

ولئن كانوا من عبدة الأصنام ، فعليهم أن يلحظوا أدلة الألوهية الصادقة البادية فى هذه الأقسام ، ويعلموا أن أصنامهم جزء من الأرض التى طحاها الاله الواحد الخلاّق لكل شىء (٣) .

وكما أقسَم الله تعالى ، بذاته العليه ، وأفعاله المعجزة ،تدليلا على وجوب الايمان به ، نرى أن هذا الأسلوب قد استعمل أيضا للدلالة على أن الله تعالى واحد لا شريك له ؛ يقول عز من قائل : " والصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذِكراً . ان الهكم لواحد . رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق ." (٤) ؛ فأقسم الله تعالى بطوائف الملائكة التى صفت نفسها للعبادة ، أو زَجْراً للشياطين عن استراق السمع ، والتى تتلو الآيات لذكر الله تعالى . (٥)

وهكذا يُثبت القَسَم قضيتى الألوهية والتوحيد بما هو مشاهد ومحسوس . (٦) .

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٧ .
(٢) أنظر : نفس المرجع والمكان . (٣) أنظر: نفس المرجع والمكان .
(٤) سورة الصافات : الآيات ١ - ٥ .
(٥) أنظر : غلوش المرجع السابق : ص ٣٣٨ .
(٦) أنظر : المرجع السابق ص ٣٣٨ .

أما عن تصديق الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، نلحظ أن القسم يناقشه على أساس موضوعي واضح ، نابع من مواقف الناس أنفسهم ؛ ذلك أن المعاندين وقفوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، موقفا غريبا ؛ فهم لا يكتفوا بتكذيبه والصدّ عنه ، وانما أخذوا يتهمونه بضلال العقل ، وسفه الرأى ؛ لأنه خرج على مألوفهم ، وموازينهم ؛ فكان لابد للقَسَم من أن يرد على هؤلاء المعاندين من مواقفهم ، ويثبت للنبي صلى الله عليه وسلم أنه الرسول بحق . يقول تبارك وتعالى : " يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين ." (١) ويقسم رداً على المعاندين بقوله عز من قائل : " ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وان لك لأجرا غير ممنون . وانك لعلى خلق عظيم ." (٢) ؛ ليرد بهذه الصيغة اتهامات المعاندين ؛ حيث جمعت الآيات تأكيدات كثيرة لتنفى الجنون عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ، وتذكر أن العقل الذى تحلى به ، نعمة الهية عالية ؛ فان اضافة لفظ الرب اليها ، مع اضافة ضمير النبي الى الرب ؛ أكبر دليل على أن الله تعالى قد أتم نعمة العقل لرسوله الكريم ، وسوف يرقيه الى غاية ، لا غاية وراءها . (٣)

وهكذا نزّه القسم القرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما نسبوه اليه ، حسدا ، وعداوة ، ومكابرة ؛ وأكد له كمال العقل ، وكمال الخلق . (٤)

وكثيرا ما أكد القَسَم ضرورة الايمان بالكتب المنزلة ، وبالملائكة ، وباليوم الآخر ؛ فالقسم بذلك يُعرّف بأسس الايمان ، داعياً الى التصديق

---

(١) سورة يس : الآيات ١ ـ ٣ . (٢) سورة القلم : الآيات ١ ـ ٥ .
(٣) أنظر : ابو السعود : التفسير ٥ / ١٢٨ .
(٤) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٩ .

بها ،رادًا كل اتهامات المعارضين المعاندين ، مؤكدًا أن النصر ثابت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا ، وفى الآخرة (١) .

وأسلوب القَسَم القرآنى ، الى جانب ذلك ، يُبصّر بالناس ، ويضع بعض الحقائق عنهم ، لكى يكون الداعية على معرفة بعادات المدعوين وغرائزهم ، وبذلك يتلاءم معهم فى دعوته ؛ فيوجه اليهم الأسلوب المناسب ، حتى يؤثر فيهم بمرونة وهدوء (٢) ، ويصل الى غايته من أيسر الطرق ، وأكثرها اتفاقا مع حال المخاطبين .

والقسم القرآنى ، يؤدى دورة كأسلوب للدعوة الى الله ، صانعا التأثير النفسى والعاطفى بواسطة : المقسم به ، والمقسم عليه ، أو بهما معا ؛ الأمر الذى يجعل المدعو يتعلق بالدعوة ،ويؤمن بها ، ويسعى الى نجاحها . وهذا التأثير يأتى من عدة طرق (٣) :

أولا : <u>التهيئة النفسية :</u>

فقد تَعوّد العقل العربي أن يؤثر الحلف فيه ، لادراكه أن الكلام العظيم ، المستحق للاهتمام ، هو الذى يبدأ باليمين ؛ فاذا حلف الانسان على شىء ما ، لكان ذلك دالاً على أهمية الشىء ، وسمو منزلته. وعن بعض الأعراب أنه لما نزل قوله تعالى : " فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون " (٤) ؛ " من ذا الذى أغضب الجليل ، حتى ألجأه

---

(١) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٣٩ .
(٢) نفس المرجع والمكان .
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٣ .
(٤) سورة الذاريات : الآية ٢٣ .

الى اليمين ؟ "(١) ؛ فكان لابد من استعمال هذا الاسلوب ،في الدعوة الى الله ، ليثير النفس تجاه المقسَم عليه ، الذى هو القرآن الكريم : أحد عناصر الدعوة وأساسياتها (٢) .

ومع أن القَسَم فى ذاته يثير النفس ، ويؤدى الى التصديق ، الا أنه فى القرآن الكريم أدق ؛ بسبب اختياره لما يقسم به ، وأكثر تهيئة للنفس لدقة ترتيبه لهذا المقسوم به ؛ وبصفة خاصة : حينما يثير حالات يهتم الناس بها ، فيرتبها ترتيبا يبرزها فى صورة مثيرة ظاهرة ، ثم يقسم بها (٣) .

تأمل قول الله تبارك وتعالى : " والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا ."(٤) ؛ وموطن الاثارة فى هذا القسم القرآنى أن العربى عاش فى بيئة جافة ، نادرة المطر ، مما جعله يتطلع الى السماء دوما ، راجيا أن يرى سحابة يطمع فى مائها ؛ هذا التطلع ، جعل ذكر الرياح مثيرا له ، وملفتا لانتباهه ، فأقسم الله بها تعظيما لما عظموا ، وتدليلا بها على ما سوف يليها من بيان (٥) .

---

(١) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن : ٢/١٣٣ .
(٢) أنظر : غلوش : المرجع السابق : ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .
(٣) أنظر : المرجع السابق : ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .
(٤) سورة الذاريات : الآيات ١ - ٤ . الذاريات : الرياح التى تذرو التراب . الحاملات وقرا : السّحب التى تحمل الأمطار. الجاريات يسرا : السفن تجرى على وجه الماء . المقسمات أمرا : الملائكة تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد كل ملك مخصص بأمر. (أنظر : الجمل : حاشية : ٤/٢٠١) .
(٥) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

ومن ذلك أيضا ، قوله تعالت صفاته : " والعاديات ضبحـــــاً. فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعا . ان الانسان لربه لكنود ." (١) ؛ فأقسم الله تعالى بالخيل التى هى من أهم ما يحتاجـــــه العربى فى هذه الصحراء الواسعة ، تحمله ، وتحمل متاعه ، ويدافع بهـا عن ماله وعرضه وأهله من غزو الأعداء وغيرهم .

ثانيـا : الوعـد والوعيـــد :

راعى القسم هذا النوع من الخطاب ، لتأثيره وفاعليته ، فيذكـــر الانسان بما ينتظره بعد الموت ، وينبهه الى حتمية يوم القيامة ، وضـرورة البعث والحساب والجزاء ليتحدد مقره فى الآخرة ؛ إما فى الجنة ، واما فى النار ؛ وبذلك يؤثر أسلوب القَسَم فى الناس ، طمعا فى وعده ، وخوفاً مـن وعيده ؛ فيتمسكون بالحسنى ؛ ليصلوا الى الفوز والسعادة (٢) .

فأقسم ـ تبارك وتعالى ـ على ضرورة العذاب للكافرين والمعاندين ؛ قال : " والطور . وكتاب مسطور . فى رَقٍ منشور . والبيت المعمـــور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . ان عـــذاب ربـــك لواقـــع . مالـــه

---

(١) سورة العاديات : الآيات ١ ـ ٥ .
العاديات ضبحاً : الخيل تُحدث أنفاسها صوتا عند الجرى .
الموريات قدحـاً : الخيل تخرج الشرر من الأرض بوقع حوافرهـــا على الحجارة من شدة الجرى .
المغيرات صبحـاً : الخيل تغير على العدو صباحا .
(أنظر : الألوسى : روح المعانى : ٣٠/ ٢١٥) .

(٢) أنظر غلوش : المرجع السابق : ص ٣٤٩ .

من دافع ." (١) ؛ أقسم تعالى بهذه الأشياء الخمسة للتنبيه على ما فيها من عظيم قدرته ، على أن عذاب المشركين حق " (٢)

وأقسم تعالى على أهوال يوم القيامة ؛ فقال جل جلاله :

" فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر اذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق ." (٣) فيقسم الله بهذه الأشياء الثلاثة مقررا بعدها أهوال يوم البعث وأحواله الحتمية .

ثالثا : <u>الموافقة الحسنة بين طرفي القَسَم :</u>

حين أنكر المعاندون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع تسليمهم بكمال صفاته الشخصية ، حتى قبل البعثة ؛ فيأتي القسم بعمر النبي ؛ قال تقدست أسماؤه : " لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون." (٤) .

وهكذا ؛ لا يقسم الله تعالى الا بما هو واضح ومعروف ، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية :" أما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض ؛ فهذه يقسم الله بها ، ولا يقسم عليها" (٥) . يقول

---

(١) سورة الطور : الآيات ١ - ٨ . الرَّق (بالفتح) : ما يكتب فيه وهو جلد رقيق (انظر الجوهري:الصحاح:مادة رق) البيت المعمور : تطوف به الملائكة الابرار ، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض ، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون اليه . (انظر ابن كثير:تفسير القرآن العظيم : ٤/٣٢٣) .
السقف المرفوع: السماء بلا عمد . البحر المسجور: الموقد نارا يوم القيامة (أنظر ابن الجوزي:زاد المسير : ٨/٤٨) .

(٢) ابن الجوزي : زاد المسير : ٨/٤٨ .

(٣) سورة الانشقاق : الآيات ١٦ - ١٩ . لتركبن طبقا عن طبق : أي أهوالا وأحوالا هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض (أنظر : الألوسي : روح المعاني : ٣٠/٨٢ .)

(٤) سورة الحجر : الآية ٧٢ . (٥) التبيان في أقسام القرآن (مطبعة حجازي بالقاهرة طبعة أولى ١٣٥٢) ص ٢ .

الله تعالى : " والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلـــــى . وللآخرة خير لك من الأولى.ولسوف يعطيك ربك فترضى." (١) . ويقول عـز من قائل : " والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشـــــرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا . انما توعدون لواقع." (٢) .

ان القَسَم القرآني ، وهو يراعي الموافقة الحسنة بين طرفيه ، يهدف الى البيان المؤثر ، والتدليل السهل ، ويضع المستمع أمام نفسه ؛ فليس له أن يصدق بشيء ، ويكذب - تماما - بنظيره ، وليس له كذلك أن يكذب بهما معا ؛ لأن المقسَم به دائما يكون من المُسَلمات الحِسّية التي تواتـــر صدقها ؛ ومن هنا ، لا يجد المخاطَب الا التصديق بالمقسَم عليه (٣) .

وهكذا ، نجد أن أسلوب القَسَم القرآني ، يحتل مكانة هامة بـــين أساليب الدعوة في عهدها المكي .

---

(١) سورة الضحى : الآيات ١ - ٥ .
(٢) سورة المرسلات : الآيات ١ - ٧ .
(٣) أنظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٥٤ .

المبحث الثالث

المجادلة بالتى هى أحسن

المجادلة ، لغةً : مادتها جدل . والاسم : الجدل ، وهو شدة الخصومة . قال تعالى : " وكان الانسان أكثر شيء جدلا . . "(١) أى منازعة فى الرأى ، والخصومة بالباطل . (٢)

واصطلاحاً : المناظرة ، فمن احتاج منهم الى ذلك فليكن بالوجه الحسن ، أى بالرفق ، واللين ، وحسن الخطاب (٣) ، من غير فظاظة ولا تعنيف (٤) . أو هى الدليل المؤلف من مقدمات مسلمة عند الخصم (٥) .

ليس هدف الداعية : الغلبة ، ولا المخاصمة ، ولا الشهرة ، ولكن هدفه : الدعوة الى الله . فاذا احتاج الداعية - مع صنف من الناس - الى الجدال ، فليكن بالتى هى أحسن : بالاقناع الموصل الى الحق فى قالب الكلمة الطيبة ، بعيداً عن الحماس الشارد عن الحُجة البيضاء . وكثيرا ما يختلط على النفس البشرية قيمة رأيها ، حتى ليصبح التنازل عن الرأى ، تنازلا عن الهيبة والكيان ، فحدد القرآن الكريم أسلوب التبليغ من هذا الصنف : الجدل بالحسنى . فهو الذى يهدىء من حساسية الكبرياء ، ويشعر المجادل بأن ذاته مصونة ، وقيمته محفوظة ، وكرامته موقرة ، وأن ما

---

(١) سورة الكهف : من الآية ٥٤ .
(٢) أنظر : الفيروزبادى : القاموس المحيط : مادة ج د ل .
(٣) أنظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : سورة النحل ٢/٥٩١ .
(٤) أنظر : الزمخشرى : تفسير الكشاف : سورة النحل ٢/٤٣٥ .
(٥) أنظر : نوفل : الدعوة الى الله تعالى : ص ١٩١ .

يقصده الداعية من مجادلته :الوصول الى الحق والاهتداء الى طريقه ، حسبة لله تعالى ، لا ابتغاء النصر لرأيه ، أو الهزيمة للرأى الآخر (١) .

" وبالتى هى أحسن : قيد مهم ،غفل عنه المسلمون ،فوقعوا فى شباك مكيدة ، كانت مبيتة للأمة الاسلامية ، تواطأ عليها أعداؤهم من خارجها ، ومن داخلها ، حتى أضناها الخلاف ، وضيعها التشدق والجدال "(٢) .

ثم هو قيد مهم -أيضا -لأخلاق الداعية ، الذى يهدف معارضيه الى أن يخرج عن اطار المنهج الذى رسمه لدعوته ، فيستفز حتى ينفذ صبره ، ويفسد منهجه . (٣)

ذكر الامام الغزالى -رضى الله عنه : أن المدعو الى الله تعالى بالحكمة قوم ،والموعظة قوم ،وبالمجادلة قوم . وعلى ذلك بقوله : فان الحكمة ان غذى بها أهل الموعظة ،أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع ، التغذية بلحم الطير . والمجادلة ان استعملت مع أهل الحكمة ، اشمأزوا منها ، كما يشمئز الرجل من الارتضاع بلبن الآدمى . ومن استعمل الجدال مع أهل الجدال ، بغير الطريق الأحسن -كما أوصى القرآن -كان كمن غذّى البدوى بخبز البرّ ، وهو لم يألف الا التمر ، أو البلدى بالتمر ، وهو لم يألف الا البرّ(٤) .

---

(١) أنظر : سيد قطب : فى ظلال القرآن: ١٤ / ١١٠ .
(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية (طبعة دار القلم بالقاهرة ١٩٦٤م) ص ٤٣ .
(٣) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ٣٥٠ .
(٤) أنظر : القسطاس المستقيم:ص ١١ - ١٢ .

وهو تصنيف مقبول ، اذا نظرنا الى الاسّاليب الثلاثة مجـــزأة : الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن . ولكـــن اذا نظرنا الى أحوال الشخص الواحد ، وأنه قد تعتريه حالات ثلاث : حالـــة الفطنة ، وحالة الوجدان والعاطفة ، وحالة الكبرياء والذاتية ، أدركنا أن هذه الاسّاليب الثلاثة : تصح لرجل واحد ، فقد يكون فى حالة تستدعـى الخطاب بالحكمة ، أو تستدعى الخطاب بالموعظة الحسنة أو تستدعى الخطاب بالمجادلة بالتى هى أحسن . (١)

وقد استخدم النبى صلى الله عليه وسلم الاسّاليب الثلاثة مع مفاوضى قريش عندما جاءوا يغرونه بالمال والملك والشرف على أن يتخلى عن دعوتـه : ففى المرة الاولى قرأ عليهم آيات من سورة فصلت ، الى أن وصل الى قولـــه تعالى :

" فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ." (٢)

وفى المرة الثانية ،قال لهم واعظاً ومجادلاً بالتى هى أحسن : " ما جئـت بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكـــن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشـــيرا ونذيرا ـ فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم . وان تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على ، أصبر لأمر الله ، حـــتى يحكم الله بينى وبينكم " (٣) .

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
(٢) الاية : ١٣ .
(٣) البخارى : الجامع الصحيح ، وانظر : الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣٤٠ ، نسيم الرياض : شرح الشفاء للقاضى عياض : ٢ / ٥٢٦ - ٥٢٧ .

وبما أن الاسلام دين عام، وهو دين المنطق والحكمة، ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الانسان، بل نحو قوى الانسان كلها من قلب وعقل وعاطفة، كان من الطبيعى له أن يخاطب كل هذه القوى النفسية، ويهذبها، لتتضامن جميعها فى الايمان، وفى تربية الشخصية الانسانية الحقة (١).

وبهذا يمكن أن ندرك أن الأسلوب الذى دعت اليه الآية الكريمة، يصلح لطوائف الناس، عندما تبرز هذه الخصائص متفرقة. كما أنها كذلك تصلح لواحد من الناس، تقويما لجميع قواه العقلية، والقلبية والعاطفية. وبذلك تنفرد دعوة الحق بأسلوبها الخاص، فى استخدام مناهج الفكر والعمل مع الجماعة، بأسلوب غاية فى التهذيب، والبناء، لجميع قوى الانسان، الذى تنقل اليه الدعوة، ليكون ربّانياً فى دنياه وأخراه على السواء (٢).

ان الجدل، أو الحوار، وسيلة هامة من وسائل القرآن الكريم، للوصول الى هذه الدعوة مع الخصوم: باحداث تغييرات جذرية فى أنفسهم، تدفع بهم الى الانتقال من صفوف المعارضة الى صفوف الأعوان (٣) وفى سبيل تحقيق هذا الهدف، وضع القرآن الكريم دستوراً

---

(١) أنظر: محمود فتح الله حب الله: الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بالقاهرة - طبعة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م، ص ٢٨٧.

(٢) أنظر: شلبى: الدعوة الاسلامية ص ٣٥٢.

(٣) أنظر: خلف الله: دكتور محمد أحمد: محمدوالقوى المضادة (مكتبة الانجلوا المصرية، طبعة عام ١٩٧٣م): ص ٢٥٤.

للجدل والحواروتعبير : الجدل بالتى هى أحسن ،فيه تلميح الى النقيض وهو : الجدل بالتى هى أسوأ ،وهو الذى لايستهدف الحق، أو هو الذى يتخذ من المقدمات الباطلة أساسا لتحقيق النصر. قال تعالى: " ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون ٠ " (١)

ولأن القرآن الكريم يطالب بالجدل بالتى هى أحسن ،فقد نهى عن أى عمل انفعالى ،تكون نتيجة ضارة بدعوة الحق التى ينشدها(٢). قال تعالى : " ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ٠٠٠ " (٣)

وتحقيقا لأسلوب المجادلة بالتى هى أحسن عمد القرآن الكريم ، والرسول الامين صلى الله عليه وسلم ،الى مجموعة من الصيغ استخدمت فى الصراع العقدى الذى قام بينه على الصلاة والسلام والذين معه ،من جانب ،والمشركين والوثنية من جانب آخر ، نذكر من بينها مايلى :

١ - اثبات الحقيقة الدينية :

والحقيقة الدينية فى منطق الدعوة الاسلامية ،انما هى الحقيقة التى تصدر عن الملأالاعلى ،ويهبط بها الوحى من السماء الى الأرض،على رسول من الرسل ،أو نبى من الانبياء ،ليبلغها الناس ،ويطلب اليهم

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٦ ٠
(٢) انظر : خلف الله : المرجع السابق : ص ٢٥٥ ٠
(٣) سورة الانعام : من الآية ١٠٨ ٠

ممارسة الحياة على أساس منها . (١)

وهذه الحقيقة هى التى يتخذ منها القرآن الكريم . .الاداة الى تقويم الآراء والمعتقدات الدينية . فما اتفق واياها كان هو الحق ، وما اختلف واياها كان هو الباطل .

والحقيقة الدينية حين تتخذ أداة لتقويم الحاضر، تكون موضع الجدل والحوار. ذلك لأن الذين يستمسكون بالحاضر . . ينفرون فى الوقت نفسه من احداث تغييرات جذرية فيه . ومن هنا يقفون فى وجهه ويعملون على التخلص من الداعية اليه والقائمين عليه ، ويعلمون فى الوقت ذاته على صد الناس عنه .(٢)

والمشركون لم يكونوا يملكون من الحقائق الدينية النازلة من السماء الشئ الكثير . ومن هنا كان الخلاف فيما بينهم وبين الدعوة كبيراً وقوياً وعنيفا . كانوا يملكون الحقائق التى لاتستند الى علم أو كتاب من السماء . انما هى مجموعة من المواريث التاريخية التى توارثتها الاجيال ، والتى كانت مجموعة من الافكار المتولدة عن الرغبات أو المصالح الشخصية ، أو بعض الأفكار التى تسربت اليهم من أهل الكتاب .

هذه الحقائق الواهية . . هى التى اتخذوا منها الأداة لتقويم ماجاءهم به محمد ـ عليه السلام ـ ومن هنا . . كان انكارهم لنبوته ، ورفضهم الشديد لدعوته . وكان رفضهم لنبوته ـ عليه السلام ـ قائما على أسس ثلاثة (٣)

---

(١) محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٦١ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٦٢ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٦٤ .

الأول : أن المولى -سبحانه وتعالى - لو أراد أن يرسل للناس رسولا لجعله من الملائكة ، ولم يجعله من البشر. ولقد أبطل القرآن هذا المعيار ووضحه في كثير من الآيات ، منها قوله تعالى : "ومامنع الناس أن يؤ منوا اذ جاءهم الهُدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا" (١) وقوله عز من قائل : " ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون" . (٢)

اذ الواضح من هذه الآيات أن القرآن الكريم يقرر قاعدة أو سنة اجتماعية هي أن القائد الروحي لابد من أن يكون من جنس ونوع الذين يقودهم ، أو الذين يحمل اليهم رسالة السماء (٣) .

الثاني : أن الذي ينزل عليه من السماء بهذه الآراء والمعتقدات التي يدعوهم اليها ليس ملكا من الملائكة وانما هو شيطان من الشياطين . وقد عرض القرآن الكريم لهذا الذي يقولون وحاورهم فيه الى أن انتصر عليهم . يقول الله تعالى : " وماتنزلت به الشياطين.وماينبغي لهم ومايستطيعون. انهم عن السمع لمعزولون .... هل أنبئكم على من تنزل الشياطين. تنزل على كل أفاك أثيم.يلقون السمع وأكثرهم كاذبون " (٤) ويقو عز من قائل: " انا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب.وحفظا من كل شيطان مارد.لا يسَّمَّعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دُحوراً ولهم عذاب واصب. إلا مَنْ

---

(١) سورة الاسراء : آية ٩٤ - ٩٥ .
(٢) سورة الانعام آية ٩ .
(٣) محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٤٤ .
(٤) سورة الشعراء: آية ٢١٠ ثم ٢٢١ - ٢٢٣ .

خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب" . (١) كما يقول الله تعالى على لسان الجن : " وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأناكنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا " (٢)

الثالث : أن الذى يجيئهم به محمد عليه السلام ليس الحقيقة الدينية النازلة من السماء ، وانما هى الاقوال التى تعلمها عن بعض الناس ،أو تدارسها فى الكتب . انه يفترى على الله الكذب حين يدعى أن هذا الذى يجيئهم به هو وحى السماء . انه عندهم ليس الا أساطير الاولين .

وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك ، ورده عليهم ، وانتهى به الأمر الى التحدى بالاتيان بمثل هذا الذى يرونه افتراء على الله .

يقول الله تعالى : واذا تتلى عليهم آياتنا ـ قالوا قد سمعنا لونشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين . واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم" (٣) .

ويقول عز من قائل : " واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون.قل نزله روح القدس من ربك ليثبت ـ الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين . ولقد نعلم أنهم يقولون انما يُعَلِّمه بشرٌ ـ لسانُ الذى يُلحدون اليه أعجمىّ وهذا لسانٌ عربىٌ مبين" (٤) .

ويقول جل شأنه : "وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزروا ، وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى

---

(١) سورة الصافات:آية ٦ - ١٠ .
(٢) سورة الجن : آية ٨- ٩ .
(٣) سورة الانفال : آية ٣١ - ٣٢ .
(٤) سورة النحل :آية ١٠١ - ١٠٣ .

عليه بكرة وأصيلا.قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض انه كان غفورا رحيما " (١)

لقد جعل القرآن الكريم من دلالات صدق النبى صلى الله عليه وسلم -فى هذا الصراع الفكرى : تلك الحقيقة الدينية الثابته ، وهى أن مايدعواليه -عليه السلام- قد دعت اليه الرسل من قبل ، وأن كتابه قد جاء مصدقا لما فى كتبهم من آراء ومعتقدات(٢) . يقول الله تعالى فى محكم كتابه : " وماكان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين."(٣) .

ويقول جل جلاله : " لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يدية وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " . (٤)

ويقول عز من قائل : " والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه وان الله بعباده لخبير بصير ." (٥)

ويقول تقدست أسماؤه : " بل جاء بالحق وصدّق المرسلين" (٦)

وصدق الله العظيم.

---

(١) سورة الفرقان :آية ٤ - ٦ .
(٢) محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٧٨ .
(٣) سورة يونس آية ٣٧ .
(٤) سورة يوسف : آية ١١١ .
(٥) سورة فاطر : آية ٣١ .
(٦) سورة الصافات : آية ٣٧ .

٢ - اثبات الحقيقة العلميـــة :

والحقيقة العلمية هى الحقيقة التى تأتى نتيجة لاعمال الفعـــل البشرى فى الكون بمن فيه ، ومافيه . (١)

والقرآن الكريم - وهو عماد الدعوة - هو الذى يدفع العقل البشرى الى التفكير فى الكون بمن فيه ومافيه : يدفعه الى ذلك على أساس أن هذا هو السبيل الوحيد للوصول الى الحقائق الدينية الكبرى التى تتصل بالخالق سبحانه وتعالى . وهذا الوصول هو الذى يؤكد الصفات الذاتية للمولـى سبحانه وتعالى من علم وحكمة ، ومن قدرة وخبره ، ومن . . . الخ . ويؤكد هذا الوصول أيضا معانى هذه النعم العـــديدة التى خلقها الله للانسان، وكيف سخر الله للانسان : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض، والهواء والماء وماأشبه .

ان كل هذه النعم : انما هى الوسيلة التى يجذب بها القرآن الكريم . . الانسان الى التعرف على الخالق ، والى شكره على نعمائه .

وهذه الحقائق العلمية ، أداة أخرى من أدوات تقويم تلك الحصيلة من الافكار والاراء التى يملكها المشركون . وأعتماد القرآن الكريم على الحقائق العلمية فى كيفية التعرف على الذات الالهية ، هو الذى من أجله أعتـــبر القرآن الكريم . . الكفر آفة عقلية ، والايمان صحة عقلية .

ان القرآن الكريم يجعل الكفرة كالانعام أو أضل ، من حيث أنهـم لا يستخدمون حواسهم وعقولهم فى الوقوف على الحقيقة . وشرالدواب عـــند الله هم الكفرة الذين لا يسمعون ولا يعقلون . (٢)

---

(١) محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٨٠ .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

يقول الله تعالى : " ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ." (١)

ويقول فى وصفهم أيضا : " ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا" (٢)

ولأن الايمان صحة عقلية ،خاطب القرآن العقل فى أكثر من موطن ، وطلب الى الانسان ألا يتبع ماليس له به علم . فان المؤمن لا يتبع الظنون والاوهام ، وانما يتبع الحقائق الدينية ، والحقائق العلمية . (٣)

يقول الله تعالى : " ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك عنه مسئولا " (٤)

ويقول عز من قائل : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ومن الجبال جدد بيض وحمرٌ مختلفٌ ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ان الله غفور رحيم " (٥)

ويقول جل جلاله : " قل أنظروا ماذا فى السماوات والأرض..." (٦)

" قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدء الخلق..." (٧)

" أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها..." (٨)

---

(١) سورة الانفال : آية ٢٢ .
(٢) سورة الفرقان : آية ٤٤ .
(٣) انظر : محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٨١ .
(٤) سورة الاسراء : آية ٣٦ .
(٥) سورة فاطر : آية ٢٧ .
(٦) سورة يونس : آية ١٠١ .
(٧) سورة العنكبوت: آية ٢٠ .
(٨) سورة الحج : من الآية ٤٦ .

" أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت.والى السماء كيفرفعت. " (١)
الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا التى جاء بها القرآن الكريم يلح أشد الالحاح بالنظر الفعلى ، والتفكر ، والتدبر ، والتذكر ،فلا تقرأ منه . . الا وتراه يعرض عليك الأكوان ، ويأمرك بالنظر فيها ، واستخراج أسرارهـــا ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها . واكثار القرآن من شئ دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به (٢)

ان التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودتهم يكون تفاضلهم فيه . ان سنن الله فى ابداع خلقه ، ونظام الحركة والسكون ، والتحليـــل والتركيب، لا يحيط بها علما غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظـرا وتفكيرا ، واختبارا وتدبرا ، وتجربة وتصرفا ، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها مالم يكونوا يعلمون ويظنون ، ومن منافعها مالم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون (٣)

اتخذ القرآن الكريم من هذه الحقيقة العلمية الوسيلة الـــى التغلب على القوى المضادة ـ التغلب عليها من الداخل . ذلك لأن دفعها الى التفكير فى كيفية الخلق ، وفى ظواهر المخلوقات ، هو الذى يدفعهـــا الى التسليم بكل مايدعو اليه محمد ـ عليه السلام ـ وذلك الذى يدعو اليـــه ليس الا فطرة الله ، التى فطر الناس عليها . ذلك هو الدين القيم.

واذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم اكتفينا فـــى هذا المقام بما يلـــى :

---

(١) سورة الغاشية: آية ١٦ـ١٧ .

(٢) انظر : محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة :ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

يقول الله تعالى : " ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا الى ثمرة اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون " . (١)

وقال عز من قائل : " أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون " (٢) .

وقال جل جلاله : " ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله

---

(١) سورة الانعام : الآيات من ٩٥ الى ٩٩ .
(٢) أواخر سورة يس .

أحسن الخالقين . ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون.(١)

ولعل من أوضح الآيات فى ذلك هذه الآيات الواردة فى سورة النحل والتى تدعو الى استخدام العقل فى التذكر والتفكير اذ لعله أن يصل الى الهداية وشكر الخالق على النعم التى تفضل بها على الانسان وهى كثيرة (٢) . يقول الله تعالى :

" خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين . والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون.ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، ان ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب، ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات، ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه، ان فى ذلك لآية لقوم يذّكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟

---

(١) سورة المؤمنون : الآيات من ١٢ - ١٦ .

(٢) محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص ٢٨٦ .

أفلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، ان الله لغفور رحيم. والله يعلم ماتسرون وماتعلنون . والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ومايشعرون آيان يبعثون . الهكم اله واحد ، فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ، انه لايحب المستكبرين " . (١)

وصدق الله العظيم .

---

(١) سورة النحل : الآيات من ٣ - ٢٣ .

٣ - صيغة التجربة التاريخية :

وتسمى فى القرآن الكريم : بسنة الله فى خلقه .

وهذه السنن قد أتخذت وسائل لتحقيق الأهداف التالية :

الأول : بيان أن هذا الكون يجرى على سنن مضطردة لاينالها التغيير والتبديل . وهذا البيان يوضح أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بعلمه وحكمته وكل صفاته الالهية .

الثانى : تنبيه وتحذير للذين يقفون من محمد - عليه السلام - ودعوته موقف المعارضة وبيان لهم أن عاقبتهم ستكون مثل عاقبة أولئك الذين وقفوا فى وجه الاصلاح من السابقين عليهم . وهى عاقبة سيئة على كل حال .

الثالث : التأكيد للنبى - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بأنهم المنتصرون حتما : لأن سنة الله فى خلقه أن الذين يرثون الأرض ومن عليها هم الذين يستهدفون الصالح العام والخير العام، والذين يحققون هذا الهدف عن طريق العمل الصالح . (١)

والآيات القرآنية التى تشير الى التجارب التاريخية التى مرت بها الانسانية كثيرة جدا فى القرآن . والظواهر الاجتماعية التى تشير اليها ، أو التى يمكن الوقوف عليها من هذه التجارب كثيرة جدا هى الأخرى (٢) .

يقول الله تعالى فى محكم كتابه : " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم

---

(١) انظر : محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص٢٨٩ ومابعدها.

(٢) انظر: محمد خلف الله : محمد والقوى المضادة : ص٢٨٩ .

الا نفورا . استكبارا فى الأرض ، ومكر السئ ، ولا يحيق المكر السئ الا بأهله، فهل ينظرون الا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا . أ لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وماكان الله ليعجزه من شئ فى السماوات ولافى الأرض انه كان عليما قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا ." (١)

وموقف القرآن الكريم من محمد عليه السلام - ودعوته : موقف الكاشف له عن سنن الله فى خلقه . ولذا نرى القرآن يمض معه الى أبعد من ذلك فيقول :

" ياأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس...." (٢)

- ويقول عز من قائل : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين.الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ." (٣)
- وقال جل شأنه : " قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا

---

(١) سورة فاطر : الآيات من ٤٢ ـ ٤٥ .
(٢) سورة المائدة : آية ٦٧ .
(٣) سورة الحجر : الآيات ٩٤- ٩٩ .

على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ." (١)

ويقول تقدست أسماؤه : " انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا . ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ." (٢)

يقول الاستاذ الامام محمد عبده فى تفسير المنار معلقا على هذه الآية : أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم الى الجحيم . . لأنك لم تبعث ملزما لهم ، ولاجبارا عليهم . . فيعد عدم ايمانهم تقصيرا منك تسأل عنه ، بل بعثت معلما وهاديا بالبيان ، والدعوة وحسن الأسوة : لاهاديا بالفعل ، ولا ملزما بالقوة . وفى الآية تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى . وفى الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مصيطرين ، ولا متصرفين فى الانفس ، ولا مكرهين . فاذا جاهدوا . . فانما يجاهدون دفاعا عن الحق ، لااكراها عليه . وفيها أن الله تعالى لايطالب الناس بأن يأخذوا منهم الا العلم الذى يهديهم الى معرفة حقوق الله ومعرفة حقوق العباد ." (٣)

---

(١) سورة الانعام : الآية ٣٣ - ٣٥ .
(٢) سورة البقرة : آية ١١٩ .
(٣) تفسير سورة البقرة .

٤ - اثارة الوجـــدان الفطـــرى :

اذا كانت الدعوة الاسلامية قد أعتمدت فى دفاعها أو هجومهـــا على كثير من الآراء الشائعة فى البيئة آن ذاك ، وذلك عن طريق القـــرآن الكريم ، فان القرآن أيضا قد استثمر مافى الانسان من قوى نفسية : كان يستثير كثيرا من الانفعالات والعواطف والغرائز الانسانية حين يخاطب خصومـــه أو حين يحاول التأثير فيهـم . (١)

وصلة العواطف والانفعالات بالافكار والآراء صلة قوية ، لا يستطيع أحد أن ينكرها . فالافكار ذات تأثير لا يسعنا انكاره فى حياتنا الفردية والاجتماعية . وهذا التأثير لا يتم الا اذا استندت هذه الأفكار الى دعائم عاطفية . بل نجد كثيرا من الأفكار مصدرها المشاعر والعواطف .

والقرآن الكريم بكثرة استثارته لهذه العواطف ، يلفت الذهـــن الى أنه قد اهتم بها ، ولاحظ قدرتها على التأثير فى أفكار الناس وآرائهـــم .

ومن أهم العواطف التى يستثيرها القرآن الكريم : عاطفة التدين أو غريزة التدين . وتبدو مظاهر هذه الغريزة فى كثير من الانفعالات ، أو انفعال واحد معقد هو : التقديس لذات يعتقد أنها فوق الذوات ، لهـــا من القوة والقدرة ماتستطيع أن تحول به الأمور كيفما تشاء ، وأنّى تشاء (٢)

والقرآن يتحدث عن التدين على أنه : فطرة الله . هذه الفطـرة التى يصرح بها فى قوله تعالى : " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة اللـــه التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكـــن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليـــه ، واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونـــوا

---

(١) انظر : محمد خلف الله : محمد والقوى المضاده : ص ٣٠٩ ومابعدها .
(٢) انظر : المرجع السابق : ص ٣٠٩ - ٣١٠

من المشركين ." (١)

والقرآن يلحظ أن التدين لايكون موجها الى اله واحد . بل قد يسلم الانسان نفسه الى وثن أو انسان أو مبدأ فيقول :

" انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا..." (٢)

ويقول : "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله"..(٣) ويقول : " ان الذين تدعون من دون الله : عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ." (٤)

وهذا الانفعال المعقد . . يشتمل على كثير من الانفعالات الأولية . فهو يتضمن الاعجاب. وهذا بدوره يتضمن العجب والشعور بالخضوع أو الاستسلام. ثم . . قد ينضم اليه الخوف فتكون الروعة والاجلال .

والاجلال ينتابنا حين نشعر أن القوى التى تثير اعجابنا وخوفنا هى قوى تعنى بنا ،وتسهل لنا السبل . ولذلك فان الانسان لايشعر بالاجلال الصحيح الا بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى . (٥)

ولقد اعتمد القرآن الكريم -فى اثارة هذا الانفعال المعقد - الى اثارة التقديس والاجلال فى جدله . . فى كثير من المواطن . فزاده يقول فى الدفاع عن نفسه ،أمام من يقولون بالنبوه :

" وانه تعالى جد ربنا مااتخذ صاحبة ولا ولدا" (٦)

ويقول : " وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا اذا . تكاد السماوات

---

(١) سورة الروم : آية ٣٠ .
(٢) سورة العنكبوت : آية ١٧ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٦٥ .
(٤) سورة الأعراف : آية ١٩٤ .
(٥) انظر: محمد خلف الله: محمد والقوى المضادة :ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٦) سورة الجن : آية ٣ .

يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولدا . وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ان كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ." (١)

ويقول : " وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم. ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ." (٢)

ويقول فى سبيل الدفاع عن الوحدانية :

" وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . " (٣)

ويقول : " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السماوات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لايَخْلقون شيئاً وهم يُخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضَراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ." (٤)

فهو فى آية الجن يعتمد على ذلك التقديس الذى يحوط به البشر الله فينزهه سبحانه وتعالى عن أن تكون له صاحبة أو أن يكون له

---

(١) سورة مريم : الآية ٨٨ - ٩٥ .
(٢) سورة الانعام : الآية ١٠٠ - ١٠٣
(٣) سورة القصص : الآية ٦٨ .
(٤) سورة الفرقان : الآيات ١ - ٣ .

ولد . وهو فى آية " مريم " يخبرهم بأنهم قد أتو شيئا خطرا ، حتى لتكاد السماوات يتفطرن ، وحتى لتكاد الأرض أن تنشق ، والجبال أن تخر هذا الشئ هو ادعاؤهم أن للرحمن ولدا . ثم هو يعتمد على ما بالنفس من تقديس واجلال للاله . وما بها من خضوع واستسلام ، فيقول ماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . ويخبرهم بأن كل مافى السماوات والأرض آتى الرحمن عبدا . (١)

وهكذا . . نجد القرآن الكريم يذكرهم بما للاله من قدرة ، وماله من ذات يجب أن تنزه عن كل نقص ، وأن يبعد عنها كل مامن شأنه أن يشين .

---

(١) أنظر : محمد خلف الله . محمد والقوى المضادة . ص ٣١٢ .

الفصل الثالث

وسائل الدعوة

المبحث الاول : المناقشـــة

على الرغم من تطور وسائل الاتصال فى العصر الحديث، الـــتى تستخدم لنشر الأفكار والدعوات ،فان الاتصال عن طريق اللغة والمقابلـة الشخصية ، مازال هو العامل الأساسى فى ابلاغ أية دعوة . لأن اللغـــة تمثل أهم طريقة للتفاعل الاجتماعى بين الأفراد ، وعن سبيلها ، يمكن الالمام بمعرفة أحوال الناس ، والمشاركة فى الأفكار والمشاعر ، والمعتقدات. ونتيجة لهذا ، يمكن تحديد وتشخيص وحل المشكلات فى المجتمع(١) .

وقد نشطت الدراسات الاجتماعية الحديثة ،فى تصوير وسائـــل الاتصال بالجماعة ،عن طريق اللغة ،حيث توصل الدارسون الى وضـــع عدة وسائل لتبليغ أية دعوة للناس .

وقد سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كل طريق سليم، لتبليـغ دعوة الحق على الوجه الأكمل ، وسلك خصومه فى المقابل كل طريق يخطـر بالبال ،ليثنوه عن القيام بأمر الله تعالى ،فلم يفعل . (٢)

ومن الوسائل التى اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم لتبليـــغ الدعوة ، وسيلة المناقشـة .

والمناقشة ،لغة : "الاستقصاء فى الحساب" (٣) ،وهى تعـــنى ،

---

(١) انظر : بيل : جورج م.بيل ،حوم بوهلين ،ج .نيل روادابـــا- القيادة وديناميكية الجماعات- ترجمة : دكتورمحمدعلى الفريـــان ودكتور ابراهيم خليل شهاب(مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشـــر القاهرة طبعة ابريل ١٩٦٩م)ص ٧٨ .

(٢) انظر : سعيد حوى : الرسول صلى الله عليه وسلم،ص ٨٣

(٣) الفيروز أبادى : القاموس المحيط : مادة نقش ٢ / ٢٩١ .

اصطلاحاً : تبادل الأفكار والآراء ، وجها لوجه ، بين اعضاء جماعة صغيرة نسبياً" . (١)

وحدد بعض الباحثين سمات هذه الوسيلة فقالوا عنها : انها تتيح الحد الأقصى من التفاعل المتبادل ، بين الأعضاء ، وانها تعلم الاعضاء التفكير في حيز اطار الجماعة الذي ينمي الاحساس بالمساواة ، وانها تساعد على انبثاق قيادة . (٢)

ولقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الدراسات منذ أن قام بتبليغ دعوة الحق للناس كافة :-

ذكر الواحدي (٣) ، ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يناجي عتبة بن ربيعه ، وابا جهل بن هشام ، والعباسي بن عبد المطلب، وأبياً ، وامية بن خلف ، ويدعوهم الى الله تعالى ، ويرجو اسلامهم ، فقام ابن أم كلثوم ، وقال : يارسول الله ، علمني مما علمك الله . وجعل يناديه ، ويكرر النداء ، ولا يدري ان النبي مشتغلٌ مقبلٌ على غيره .

وذكر ابن كثير ، انه صلى الله عليه وسلم كان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا . (٤) وقد أسلم من بين هؤلاء ، بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم : العباس بن عبد المطلب.

وقد تتفتت الجماعة الى وحدات صغيرة ، لتيسير المناقشة ، يقتصر فيها على عضوين اثنين فقط ، لمناقشة موضوع ما (٥) ، ولقد سبق القرآن الكريم،

---

(١) تكون هذه الجماعة عادة بين الخمسة والعشرين . (انظر: شلبي: الدعوة الاسلامية : ص ٣٥٣) .
(٢) بيل : القيادة وديناميكية الجماعات : ص ١٨٣ .
(٣) اسباب النزول .ص ٤٧٨
(٤) تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٤٧٠ .
(٥) بيل : القيادة وديناميكية الجماعات : ص ١٩٩ .

هذه الدراسات الاجتماعية ، منذ فجر الدعوة الاسلامية ، حيث دعـــــا المخاصمين ، الى ان يقوموا ، قومة خالصة لله ، مثنى وفرادى (١) ، قال تعالى " قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكـــم من جنه ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ." (٢)

قال ابن كثير : أى تقوموا قياما خالصا لله عز وجل ، من غير هـوى ولاعصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جفـون ؟ فينصح بعضكـم بعضا ، " ثم تتفكروا" أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد - صلى الله عليـــه وسلم ويسأل غيره من الناس فى شأنه ، ان أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك . (٣)

انها دعوة خالصة الى منهج البحث عن الحق ، ومعرفة الافـتراء من الصدق ، وتقدير الواقع الذى يواجهونه من غير زيف ولا تشويه . وهـــى " واحدة " ان تحققت ، صح المنهج ، واستقام الطريق . (٤)

فقد يكون الاجتماع للمناقشة ، بين الخصوم وحدهم ، مثنى ، أو فرادى ، أو بين الداعية والخصوم معا ، لان الجماعة ، قد يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر ، والمنع من التفكر ، واما الاثنان ، اذا نظرا نظر إنصاف ، وعرض كل واحد منهما على صاحبه ماظهر له ، بصدق واخلاص ، فلا يكاد الحـق أن يعدوهما . واذا كان الواحد جيد الفكر ، عرف الحق . (٥)

ومن أمثلة ذلك : المناقشة التى دارت بين رسول الله صلـــى الله عليه وسلم وبين الحصين ، عند ما أرسلت قريش اليه صلى الله عليه وسلم

---

(١) شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٣٥٤ .
(٢) سورة سبأ . ص ٤٦ .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٥٤٣ .
(٤) انظر : سيد قطب : فى ظلال القران : ٢٢/ ٢٩١٤ . (طبعـــة دار الفكر) .
(٥) انظر : تفسير البحر المحيط : ٧/ ٢٠١ .

حتى ينتهي عن دعوته ،فكان من نتيجة هذه المناقشة الذكية الحكيمـــــة ، التي اجراها الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ان اسلم الحصين . (١) .

---

(١) انظر الحلبي : انسان العيون : ١/ ٣١٨ .
وراجع : موضوع : "اسلوب البرهان" من قسم ا :" الحكمة " مـــن الفصل الثاني :"اساليب الدعوة" من الباب الثاني بهذه الرسالة .

المبحث الثاني : الندوة

الندوة ،لغةً : الجماعة . والنادى ،والندوة ،والمنتدى : (١) مجلس القوم ،نهارا ،او المجلس ما داموا مجتمعين فيه. ندا القوم ندوا : اجتمعو واصطلاحاً : هى طائفة من الاحاديث والكلمات او المحاضرات يعرضها اشخاص لموضوع مشكلة واحدة . (٢)

وقد سبق الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم الى ذلك قديما ، منذ ان نزل قوله تعالى : " وانذر عشيرتك " (٣) ،حيث جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ندوة مرتين ،كانت كل منهما على صورة وليمة اكلو فيها اللحم وشربوا اللبن ، وبعد الطعام ،دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى دعوة الحق ،فتكلم القوم كلاماً ليناً ،الا ابو لهب،فانه قال : يابنى عبد المطلب ، هذه والله السوأة ، خذ واعلى يده ،قبل ان ياخذ على يده غيركم ،فان اسلمتموه حيئذ ،ذللتم ،وان منعتموه ، قتلتم. فقالت أخته صفية ـ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ رضى الله عنها: أى أخى ،أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من بنى عبد المطلب نبى ،فهو هو . قال : هذا والله الباطل والامانى ،وكلام النساء فى الحجال (٤) اذا قامت بطون قريش، وقامت معها العرب ، فما قوتنا بهم ، فوالله ، مانحن عندهم الا أكلة رأس فقال أبوطالب:

---

(١) انظر الفيروز أيادى : القاموس المحيط : مادة ندا : ٤ / ٣٩٤ .
(٢) انظر : بيل : القيادة وديناميكية الجماعات : ص ٢٠٣ .
(٣) سورة الشعراء :آية ٢١٤ .
(٤) يعنى أن هذا ليس من شأن النساء ،انما شأنهم أن يتزين بالخلاخيل وغيرها (انظر أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص١٤١) .

والله لنمنعنه مابقينا . (١)

وبهذه الوسيلة ، تم ابلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته الى قومه وعشيرته انقياداً لقول الله تبارك وتعالى . فنجد فى هذه الندوة أنه قد تكلم القوم كلاماً ليناً ، وتكلم أبو لهب برأى مضاد ، وحجّته أخته صفية رضى الله عنها تدحض رأيه وتسفه كلامه ، وذلك أثر طبيعى لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. لهم ، فهو انفصال ، أو تفاعل داخل الجماعة مطلوب حصوله ، لأن الاقناع لايتم الا عن طريق الحوار المحدود ، حيث تقام الأدلة وتناقش البراهين . (٢)

وعند ما حجت صفية بنت عبد المطلب أخاها أبا لهب(عبد العزى ابن عبد المطلب) ، لم يخرج من المأزق الا بغلظة التعبير : كلام النساء فى الحجال .(٣)

ولقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة - عشرون رجلا أو قريب من ذلك ، من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد ، فجلسوا اليه ، وكلموه ، وساءلوه ، فى ندوة مفتوحة ، يستوضحون منه مبادئ الدين الجديد ، ويرد عليهم بمميزاته وخصائصه ، التى جعلت منه خاتم الأديان ، ومهيمنا عليها ، يسألونه استجلاء للحق ، وبحثا عن طريق الهدى ، ويجيبهم صلى الله عليه وسلم بما أتاه الله من علم وخبره ، بذكاء وفطنة تتفق مع حال المخاطبين ، ونفسية المدعوين . كل ذلك،

---

(١) انظر : الزرقانى : شرح المواهب اللدنية للقسطلانى ، ابن كثير : السيرة : ١ / ٤٥٨ - ٤٥٩ ، الحلبى : انسان العيون ١/ ٣٢١. والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ٦ / ٩٤-٩٥ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ١ / ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) انظر : بيل : القيادة وديناميكية الجماعات ص ١٩٩

(٣) انظر : شلبى : الدعوة : ص ٣١٧ .

ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، يتأهبون لصد النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته . فلما فرغ من مساءلته صلى الله عليه وسلم عما أرادوا سؤاله في هذه الندوة المباركة ، التي أحاطها الله تعالى بعنايته ، وأولاها رعايته ، دعاهم الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى، في وقت لمس فيه منهم تفتح قلوبهم وانشراح صدورهم بما سمعوا منه ، وتلا عليهم القرآن ، حتى اذا سمعوا آياته المعجزات البينات ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله تعالى ، وآمنوا بدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصدّقوه ، فقد عرفوا منه ماكان يوصف لهم في كتابهم من أمره . (١)

فلما قام الوفد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مؤمنين بدعوته أعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال ، مانعلم ركبا أحمق منكم . فقالوا لهم ، وقد سيطرت مبادئ الاسلام السامية على مشاعرهم ، وتحكمت" الحسنى" في كلماتهم ؛ عاملين بمفهوم "المجادلة بالتي هي أحسن" ، في حلم وصبر : سلام عليكم ، لانجاهلكم، لنا مانحن عليه ، ولكم مانتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا . (٢)

وفي ذلك يقول الله تعالى : " الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا

---

(١) انظر: ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٢٩١ - ٢٩٢ .
البيهقي : دلائل النبوة : ٢ / ٧٦ .
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٤٠ ، تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٣٩٤ .
الحلبي : انسان العيون : ١ / ٣٨٤ .

(٢) انظر: المراجع السابقة ، نفس الأماكن .

من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ." (١) .

---

(١) سورة القصص : الآيات : ٥٢ - ٥٥ .
وانظر : الزمخشري : تفسير الكشاف : ٣ / ١٨٤ .

المبحث الثالث : المناظـــرة

المناظرة ،لغةً : من ناظره : أى صار نظيرا له . والتناظـر: التراوض فى الأمر. والنظير: المناظر أو المثل . (١)

واصطلاحاً : هى محاورة تجرى بين شخصين أثنين ، من ذوى المعرفـة ، قادرين على الحديث عن موضوع معين . (٢) وهى أيضا : توجه المتخاصمين فى النسبة بين الشيئين اظهارا للصواب(٣) .

ويجوز أن تطلق المناظرة على المكابرة أو المجادلة حين تخـرج عن قصدها (٤) .

وقد سبق قادة الدعوة الاسلامية ، بتوظيف هذا الأسلوب فـى العمل لتبليغ الدعوة ، تأسياً بالرسول صلى الله عليه وسلم، عندما ناظـر ضماد رضى الله تعالى عنه وقد أتاه قاصدا شفاءه مما نسبه اليه المشـركون العائدون من مس أوجنون ، وكان نتيجة لهذه المناظرة أن أسلم ضماد مـع عهد من الرسول صلى الله عليه وسلم بنقل الدعوة الى قومه (٥) .

وبنفس الوسيلة الذكية ، أسلم عمرو بن عبسه السلمى نتيجة محاورة بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم :-

---

(١) انظر: الفيروز ايادى : القاموس المحيط: ٢ / ١٤٥ مادة : نظر.

(٢) انظر بيل : القيادة وديناميكية الجماعات .

(٣) انظر: غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٣٨٠ .

(٤) نفس المرجع : ص ٣٨١

(٥) انظر: الامام مسلم: الصحيح بشرح النووى :كتاب الجمعة حديث ٤٦ . ٦ / ١٥٦ -١٥٨ والبيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٠ -١١ ، ابن الجوزى : الوفا ١ / ٢٠٠ ، ابن كثير السيرة ١ / ٤٥٢-٤٥٣ ، السيوطى: الخصائص ١ / ٣٣٤
انظر: ابن كثير : السيرة النبوية ١ / ٤٤٢-٤٤٣ .

عن أبى امامه ،عن عمرو بن عبسه السلمى رضى الله تعالى عنه أنه قال : " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أوّل ما بعث وهو بمكه ، وهو حينئذ مستخفٍ فقلت : ماأنت ؟ قال : أنا نبى . فقلت: وماالنبى؟ قال : رسول الله . قلت : أالله أرسلك ؟

قال : نعم . قلت : بم أرسلك؟ قال : بأن تعبد الله وحده لا شريك له ، وتكسر الاصنام ، وتوصل الارحام. قال ، قلت : نِعْمَ ماأرسلك به ،فمن تبعك على هذا ؟ قال : حر وعبد - يعنى أبا بكر وبلال - قال : فكان عمرو يقول : لقد رأيتنى وأنا رُبْع الاسلام . قال : فأسلمت ،قلت: فاتبعك يارسول الله ؟ قال : لا ،ولكن الحق بقومك ،فاذا أُخْبِرتَ أنى قد خرجت "فاتبعنى" (١)

وبالمناظرة عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام على سويد ابن الصامت، الذى قدم مكه حاجاً أو معتمراً ،فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به فدعاه الى الله والى الاسلام ،فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك؟ قال مجلة لقمان (٢) يعنى حكمة لقمان ،فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعرضها على . فعرضها عليه . فقال له : ان هذا لكلام حسن ، والذى معى أفضل منه ؛ قرآن أنزله الله تعالى علىّ، هو هدى ونور.فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه الى الاسلام فلم يبعد عنه ،وقال : ان هذا القول حسن.ثم انصرف عنه فقدم

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية : ١ / ٤٤٢ - ٤٤٣ .
انظر : مسلم : الجامع الصحيح : اسلام عمرو بن عبسه : ١ / ٥٦٩ حديث رقم ٨٣٢ ولفظه مطول مختلف .

(٢) المجلة : الصحيفة .

المدينة على قومه ،فلم يلبث أن قتلته الخزرج . فان كان رجال من قومه ليقولون : إنّا لنراه قد قُتل وهو سلم. (١)

ويوضح هذا أن الله قد شرح صدر سويد بن الصامت بالايمان نتيجة للمناظرة الذكية التى ناظرها معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما دعا قومه الى قتله خشية انتشار دعوة الحق .

ويلاحظ فى هذا كله ،بوضوح ،أن عنصر المناظرة فى هذه الوسيلة - وهو المحاورة - كان طبيعياً ،صادقاً ، مخلصاً ،لايهدف الا الحق ، ولايرمى الا الى الخير، لايحمل صفة التعصّب أو التعنت ،التى تعمى القلوب عن رؤية الحق ، واتباع طريق الهدى والرشاد .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الأسلوب-كما فى غيره- قدوة حسنة لأصحابه ،يترسمون خُطاه ، ويهتدون بهديه ، ويطبقون أساليبه فى الدعوة الى الله ، وهداية الناس الى طريق النور، وسبيل الجنة .

لذلك فقد اتبع الصحابى الجليل : مصعب بن عمير أسلوب المناظرة فى الدعوة الى الله تعالى ،فى يثرب، فأسلم بدعوته كثير من الانصار ،كانوا نواة مثمرة لبيعة العقبة الكبرى- بعد العقبة الاول والتى كانت نقلة كبيرة على طريق دعوة الحق . (٢)

---

(١) انظر: ابن هشام : سيرة النبى(تحقيق محى الدين)٢ / ٣٤-٣٦ ، (تحقيق الثلاثة) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٧ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢/ ١٦١ - ١٦٢ ، ابن عبدالبر : الدرر ص : ٧٠ ، ابن كثير : السيرة : ٢ / ١٧٣ - ١٧٤ ، الحلبى : السان العيون : ٢ / ٧ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبى (تحقيق محيى الدين) ٢ / ٤٢-٤٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى:٣ / ١١٦-١١٨ ، ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الاصحاب:٤ / ١٤٧٣-١٤٧٤ ، ابن الاثير : أسد الغابة : ٤ / ٣٧٠ ، الزرقانى : شرح المواهب للعسقلانى : ١ / ٣١٥-٣١٧ . وراجع أيضا : الموضوع:مصعب بن عمير بيثرب . من الفصل الرابع طلائع النصر من الباب الثالث من الرسالة .

المبحث الرابع: الهجرة

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ،التبليغ العام للدعوة ، بالهجرة الى الحبشة ،فهو يعلم أن الله قد هيأ لدينه أناساً مخلصين بره ، وأن النجاشي رجل لايُظلم أحد عنده ، وأنه يؤمن بأن عيسى - عليه السلام - بَشَّر به ،فوجه صلى الله عليه وسلم البعثة الأولى من المهاجرين الى الحبشة ،ليعيشوا هناك بدينهم الجديد ،بعيدا عن سطوة الجبارين من كفار قريش، ولعل المسلمين بسلوكهم ، وايمانهم يتركون أثرا ، ولوكان قليلا وسط بيئة تعلم أن نبيا خاتما قد أطل زمانه ،ومنهم من ينتظر قدومه ومبعثه . (١)

قاد جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ،هذه الهجرة الاولى للحبشة ،لتبليغ الدعوة ، بما يحمله فى صدره من كلام الله تبارك وتعالى ، وفى نفسه من سنة رسوله الأمين صلوات الله وسلامه عليه . وهو ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم أعلم الناس به ، وأعرفهم بأحواله ، وأحقهم بحمل رسالته الى من يريد ابلاغها لهم. لهذا كان جعفر هو المتحدث مع النجاشي فى شأن الفتنة التى أثارتها قريش ،لما أرسلت رسولها فى طلب المهاجرين الى الحبشة . (٢)

ان الذين هاجروا الى الحبشة ،كانوا غالبيتهم من ذوى القوة والمَنَعَة ، وكان لهم من عصبيتهم، مايدفع الأذى عنهم الى حد كبير(٣) ، أما الموالى المستضعفون ،الذين كانوا يتلقون معظم التعذيب، فلم يهاجر

---

(١) انظر: محمد شديد :الجهاد فى الاسلام(مؤسسة المطبوعات الحديثة ص٤٤ ، رؤف شلبى: الدعوة الاسلامية .ص٣٣٥ - ٣٣٦

(٢) الرسولين هما :عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل وجمعت قريش لهم هدايا للنجاشي وبطارقته (انظر: ابن هشام: سيرة النبى: (تحقيق محيى الدين ١ / ٣٥٦) .

(٣) انظر : ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ٢ / ٦٦ .

منهم أحد ، وظلوا فى مكة حتى نهاية العهد ، وقد كانوا أحق بالهجرة والنجاة ، اذا كانت الهجرة لم تقرر الا لهذا الغرض فقط.

فلماذا هاجر الاقوياء ، وبقى الضعفاء ، ان كان الفرار هو الهدف من الهجرة ؟ ولماذا هاجرت نساء من بين أشراف قريش، ولم تتعرض احداهن لأذى أو فتنة ؟ ولماذا هاجر أبو موسى الاشعرى ، ومن منوا اليمن رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، ولحقوا باخوانهم فى الحبشة ؟ وقد كانوا بعيدا عن أرض المعركة ؟ ولماذا أيضاً ، بقى معظم المهاجرين بالحبشة ، ومعهم جعفر بن أبى طالب ، حتى السنة السابعة من الهجرة ، بعد أن أصبح للاسلام دولة قوية فى المدينة وقويت فيها شوكة المسلمين ؟ (١)

لقد كانت هذه الهجرة ، جهود فى تبليغ الدعوة ، ووسيلة فعالة من وسائلها ، على الصعيد العالمى الطبيعى ، بل ان محاولة قريش، استرداد المهاجرين دليل على ماأدركوه من امكان انتشار الاسلام، نتيجة

---

(١) انظر : محمد شديد : الجهاد فى الاسلام : ص ٤٧ .
ويثبت ابن عبد البر أن هجرة أبى موسى الأشعرى كانت بطريق المصادفة ، فيروى أنه كان يريد المدينة ، ولكن الريح رمت سفينتهم الى الحبشة ، فاستقر بها حتى هاجر مع جعفر بن أبى طالب. (انظر : الدرر فى اختصار المغازى والسير : ص٤٥)
والراجح ان هجرة أبى موسى كانت بغرض الدعوة الى الله تعالى بعد أن لمس الايمان شغاف قلبه ، وسيطر الاسلام على كيانه ، ودفعه الاخلاص الى المساهمة فى أمر الدعوة مع زملائه فانضم اليهم ، والا فلم يكن هناك مايجئه أبدا الى البقاء فى الحبشة هذه المدة الطويلة الى أن هاجر الى المدينة .

لهذه الهجرة فى أرض الحبشة وخوفهم من بناء قاعدة اسلامية ، تناهض القرشيين فى مكه . والا فهجرة المسلمين من مكه كانت راحة لهم من هم تكاثرهم فى داخل أم القرى ، غير أن الأمر لم يكن مسألة راحة من أشخاص بقدر ما هو سد الطريق على الدعوة ، حتى لا تنتشر وتنمو وتفشو(١) .

ولقد أُسقط فى يد قريش ، عند ما رجع رسولاها ، بخفى بعير ، فى يوم مطير ، وقرروا أن يتعاقدوا على بنى هاشم وبنى عبد المطلب. (٢)

وعلى هذا ، فان التفسير الذى يقبله العقل ، وترتاح اليه النفس لهجرة جعفر بن أبى طالب وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بالاضافة الى إبعاد المسلمين عن الأذى ، هو ايصال دعوة الحق الى أهل الحبشة ، بمفهومها العالمى الشامل ، الذى يتفق مع فطرة الانسان فى كل عصر ومكان ، ولقد أسلم النجاشى بمجرد أن سمع العرض الرائع الذى عرضه جعفر بن أبى طالب ، مُعرّفاً بالاسلام ، مُوضّحاً أهدافه ، مُبيّناً ماينتظر المؤمنين به من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولعل أهم نتائج هذه الهجرة ، يؤكد هذا المعنى ، وهو وصول وفد من نصارى الحبشة الى مكه ، لفهم شئ أوسع عن الاسلام من منبعه الأصيل : محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن سمعوا عنه من جعفر وأصحابه

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
انظر : ابن هشام : سيرة النبى (تحقيق محيى الدين) : ١ / ٣٧١ - ٣٧٢ .

خلال دعوتهم الى الله تعالى ،أثناء اقامتهم بينهم بأرض الحبشة . (١)

كذلك فقد روى البيهقي أنه : " لما قدم عمرو بن العاصي من أرض الحبشة ،جلس في بيته ،فلم يخرج اليهم ،فقالوا : ماشأنه، ماله لا يخرج؟ فقال عمرو : ان اصحمه يزعم أن صاحبكم نبي " (٢)

ويشير ماتقدم الى أن هجرة الحبشة ، قد أتت أكلها ،فيما يختص بهدف الدعوة الى الله تعالى ،الى جانب حماية الرعيل الأول من المسلمين ، من أذى المشركين والمعاندين .

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٩١ - ٢٩٢ ،
البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ٧٦ ،
ابن كثير : تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٩٤ السيرة ٢/ ٤٠،
الحلبي : انسان العيون : ١/ ٣٨٤ .
وراجع : موضوع " الندوة " من هذا الفصل : (وسائل الدعوة) .

(٢) دلائل النبوه . ٢/ ٧٧ .
وأصحمه : هو اسم نجاشي الحبشة (انظر : الزرقاني : شرح المواهب ١/ ٢٧١) .

المبحث الخامس : الرسل والرسائل

لقد كان ارسال الرسل ، وسيلة هامة من وسائل الدعوة ، سواء في داخل الجزيرة العربية ، أو خارجها .

ولعل ماقام به الصحابى الجليل " مصعب بن عمير " فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد بيعة العقبة الأولى ، فى مجال نشر واذاعة دعوة الحق بين أهل المدينة ، يعد خير برهان على مدى تأثير وفعالية هذه الوسيلة الدعوية الهامة . (١)

وكذلك تعتبر الرسائل ، التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء ورؤساء القبائل ، فى الداخل والاكاسرة والأباطرة والحكام فى الخارج ، من أنجح الوسائل فى التبشير بالاسلام والدعوة الى الله .

ومن أشهر هذه الرسائل ، وأقواها أثراً ، رسالته صلى الله عليه وسلم الى نجاشى الحبشة ، التى بعث بها مع عمرو بن أمية الضّمرى ، قال فيها : " بسم اللهالرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، الى النجاشى الاصحم ، ملك الحبشة ، السلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ، ألقاها الى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته ، كما خلق آدم بيده ونفخه . وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ،

---

(١) راجع : الفصل الرابع : " طلائع النصر " من الباب الثالث من هذه الرسالة .

والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني ، فاني رسول الله . وقد بَعثتُ اليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فاذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر ، فاني أدعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وبلّغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى." (١)

واضح من هذا الكتاب ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ركز على أمرين : أولهما : الدعوة الى الاسلام :-

فهو يتابع دعوته حيث تجد المناسبة والرجل المناسب وقد وجد فيه قلبا مفتوحا يدخل فيه الحق لأن العادل يستمع الى الحق فيتبع أحسنه .

ثانيهما : الحث على رعاية المهاجرين :-

فقد دعاه صلوات الله وسلامه عليه ، الى الاحسان اليهم في اقامتهم وألا يرهقهم بتجبر ذوى السلطان . (٢)

---

(١) البيهقي : دلائل النبوة : ٢/٧٨ - ٧٩ .

(٢) انظر : أبو زهرة : خاتم النبيين : ١/٥٢٣ - ٥٢٤ .

المبحث السادس: المؤتمرات الدورية

المؤتمر ، لغةً : من الائتمار وهو المشاورة (١)

واصطلاحاً : هو مكان تجمع الناس في مكان معين ، في زمن معين بصفة دورية ، سنوياً أو شهرياً أو أسبوعياً .

وكان أشهر هذه المؤتمرات ، وأكثرها وفودا من مختلف الجهات هو موسم الحج .

وكان من عادة العرب كلما حضروا الى مكة في هذا الموسم ، أن ينتهزوا فرصة الأشهر الحرم ، في موسم الحج (٢) ، فيعرضوا بضائعهم في أسواق مكة وماجاورها .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرتاد هذا الموسم المبارك ، كل عام ، يأتي القبائل في منازلها ، يعرض دعوته ، ويسألها نصره ، وحمايته ، حتى يبلغ رسالة ربه ، غير مبال بما يلقاه من مناوأة قريش لدعوته ، وسعيها لدى القبائل في تشويهها ، وتمويه الحق بالباطل في أمرها ، واثقا بالله ، موقنا أن الغلبة للحق ، وان طال الزمن ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . (٣)

---

(١) انظر : الفيروز أبادي : القاموس المحيط : مادة أمر : ١ / ٣٦٤ .

(٢) وهي : شوال ، ذو القعده ، وعشر من ذي الحجة .

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي ١ / ٤٢٣ ومابعدها . ،
البيهقي : دلائل النبوة ٢ / ١٦١ ومابعدها ،
الزرقاني : شرح المواهب ١ / ٣٠٩ ومابعدها ،
دحلان : السيرة النبوية ١ / ٢٨٤ وما بعدها ،
دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢١١ ومابعدها .

فمن القبائل من كان يغلظ فى الرد ، ومنها من كان يساومه فى الثمن ، ومنها من كان يسخر منه ، ويستهزئ بدعوته ، ومنها من كان يستأنى بالرد ، حتى يفكر فى الأمر ، وينظر فى العواقب . (١)

ومن المؤتمرات الدورية الشهيرة أيضا : الاسواق : -

ففى الجزيرة العربية ، وعلى الرغم من تعمق القوم فى تقديس الأصنام وتعظيم الحجر فقد اتجه العرب بعقولهم الى حياتهم ، ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاما يكفل الأمن والسلام ، ويقلل الصراع والشرور . ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة ، فأحاطوا بفصولها ، ونظموا التجارة على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقا تدور مع أيام السنة ، وفى جميع أماكن الجزيرة ، وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق ، جعلوها مكانا للكسب المادى ، وتقوية للشعور القومى ، وللتسابق اللغوى والأدبى ، وكأنها مؤتمرات تمهد لوحدة مقبلة . (٢)

وظهرت دقة تنظيم الأسواق فى اختيار الأمكنه والازمنة :

فعن الامكنة ، وزعوها فى ملتقى جميع أبناء الجزيرة .

وعن الأزمنة ، جعلوها فى الأشهر الحرم .

وبهذه الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة ، والقول الجرئ ، والنقد الحر .

وكان أشهر هذه الاسواق ثلاثة : عكاظ ، ومجنه ، وذو المجاز .(٣)

---

(١) أنظر : المراجع السابقة ، نفس الأماكن .
وراجع بالتفصيل : المبحث الاول : " عرض الدعوة على القبائل " من الفصل الرابع : " طلائع النصر " من الباب الثالث من الرسالة .

(٢) انظر : غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٩٣ .

(٣) أنظر : الازرقى : أخبار مكة : ١ / ١٢١ - ١٢٢ ، غلوش : الدعوة الاسلامية : ص ٩٣ ،
جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤ / ١٣٠ - ١٤٣ .

فأما عكاظ : فهى سوق بين مكه والطائف ،على بعد يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكه .

وأما مجنه : فهى سوق بأسفل مكة ،على نحو أثنى عشر ميلا منها .

وأما ذو المجاز : فهى سوق على يمين الموقف من عرفه ، على بعد فرسخ (١) منها ، وهى أقرب الأسواق الثلاثة مكانا الى مكه .

فكان العرب يبدءون بعكاظ ،فيحضرون اليها مع هلال ذى القعده ، فيقيمون بها عشرين يوما ،ثم ينصرفون الى مجنة ، فيقيمون بها عشرة أيام ، فاذا رأو هلال ذى الحجة ،انصرفوا الى ذى المجاز ،فأقاموا بها ثمانى ليال ،ثم يتروون من مائها فى اليوم الثامن ،ويخرجون الى عرفة ليؤدوا مناسك الحج . (٢)

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،يتردد على هذه الأسواق فى أماكنها ومواعيدها فى كل عام ،يقابل الأفراد والجماعات، يعرض عليهم الاسلام ويوضح لهم أهدافه السامية ويدعوهم الى الدخول فيه ، للفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وأنه بعث . بأمر الله - ليبلغهم عنه ، مايصلح حياتهم الدنيا ، ويؤهلهم لكسب وعده تعالى لهم فى الآخرة ، يوم الحساب ويسألهم أن يصدقوه ،ويمنعوه من كفار قريش ،حتى يبلغ عن الله مابعثه به (٣)

---

(١) الفرسخ : ثلاثة أميال .
والميل = ١٧٦٠ ياردة ،أى نحو كيلو متر ونصف .

(٢) انظر : الازرقى : أخبار مكة : ١/ ١٢١ - ١٢٢ ،
جواد على المصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤/ ١٣٠ ١٤٣

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤٢٢ ،
الزرقانى : شرح المواهب : ١/ ٣٠٩ .
وراجع بالتفصيل : الفصل الرابع "طلائع النصر" من الباب الثالث من هذا البحث .

وقد كانت وسيلة المؤتمرات الدورية ، من أنجح وسائل الدعوة في عهدها المكي ، في التعريف بدعوة الاسلام ونشرها بين القبائل ، واذاعتها بين الشعوب . وكانت أطيب ثمارها ، وأعزها لدعوة الحق الحق ولرسول الاسلام صلى الله عليه وسلم : بيعات العقبة ، وما تلاها من نصر مبين للاسلام والمسلمين ، فقد كانت هي ركيزة العمل التمهيدي ، لنقل الدعوة ، من مكة المكرمة الى المدينة المنورة .(١)

---

(١) انظر : الفصل الرابع : " طلائع النصر" من الباب الثالث من هذه الرسالة .

المبحث السابع : المقابلة

المقابلة ، لغة : المواجهة ، نقيض المدابرة ، من أقبل نقيض أدبر ، وأقبل ، مقبلا : أى عقل بعد حماقة ، وقبل على الشئ ، وأقبل : أى لزمه وأخذ فيه . وقابله : واجهه . وتقابلا : تواجها . ورجل مقابل : كريم النسب من قبل أبويه وأقتبل أمره : استأنفه . واقتبل الخطبة : ارتجلها . (١)

واصطلاحاً : هى مواجهة الأفراد أو الجماعات ، بالزيارة أو اللقاء أو غيرها ، وجهاً لوجه والتحدث اليهم لعرض المبادئ وشرح الأهداف (٢)

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، دائم الحرص على أن تتم المقابلة بينه وبين خصوم الدعوة مباشرة . فاذا تمت المقابلة ، مصادفة ، انتهز الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم الفرصة ولم يفوتها ، وقام بدعوته بحكمة وفطنة .

روى عن معاوية بن أبى سفيان - رضى الله تعالى عنه ، أنه قال: " خرج أبو سفيان الى باديةٍ له ، مردفاً هِنْداً (٣) ، وخرجت أسير أمامهما ، وأنا غلام على حمارة لى ، اذ سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبوسفيان : انزل يامعاوية ، حتى يركب محمد . فنزلت عن الحماره ، وركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار أمامنا هنيهة ، ثم التفت الينا فقال :

---

(١) انظر: الفيروز أبادى : القاموس المحيط : مادة قبل : ٤ / ٣٤-٣٥.

(٢) انظر: حسانين : دكتور سيد أبوبكر: دراسات فى تنظيم المجتمع : (المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة طبعة أولى ١٩٦٩م) ص١٧٠ ، بيل : القيادة وديناميكية الجماعات ص ٢٣٩ .

(٣) هى هند بنت عتبة ، زوجة أبو سفيان ، وأم معاوية .

ياأبا سفيان بن حرب ، وياهند بنت عتبة والله لتموتن ثم لتبعثن ، ثم ليدخلن المحسن الجنة ، والمسئ النار ، وأنا أقول لكم بحق ، وانكم لأول من أنذرتم . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حم تنزيل من الرحمن الرحيم . . . " ، حتى بلغ : " . . . . قالتا أتينا طائعين" (١) ، فقال له أبو سفيان : أفرغت يامحمد ؟ قال : نعم . قال معاوية : ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحماره ، وركبتها ، وأقبلت هند على أبي سفيان ، وقلت : ألهذا الساحر أنزلت ابنى ؟ قال : لا والله ، ماهو بساحر ولاكذاب" (٢)

نلاحظ ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وان لم يكن قاصدا لقاءهما ، الا أنه لم يتوانى عن عرض الدعوة ترغيباً وترهيباً بمجرد أن سنحت له فرصةٌ مواتيةٌ لذلك ، غير عابئ بما قد يحدث له من صدٍّ أو أذى ، ولقد مال اليه أبو سفيان بقلبه ، عند ما سمع آيات الله البينات تتلى عليه من الرسول الامين صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى الرغم مما كان يعرف من محاولات عقبة بن أبي معيط الكثيرة ، الرامية الى ايذائه صلى الله عليه وسلم وصحبه ، كان يكثر من مجالسته . ولما دعا النبيَ صلى الله عليه وسلم لوليمة فى بيته ، إثْر عودته من سفر ، استجاب له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكل حتى أنطقه شهادة التوحيد (٣) .

---

(١) سورة فصلت : الآيات : ١ - ١١ .

(٢) الكاند هلوى : حياة الصحابة : ١ / ٦٧ .
وأخرجه الطبرانى فى الكبير ، وابن عساكر فى الكنز : ٧ / ٩٤ .

(٣) انظر : الحلبى : انسان العيون (الطبعة الثالثة - المطبعة الازهرية بالقاهرة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م) ١ / ٣٥٣ .

ويحدثنا ابن اسحاق عن اسلام اياس بن معاذ ، وقصة أبـــــى الحيسـر : أنس بن رافع ، التى تعتبر نموذجاً رائعاً لهذه الوسيله الناجحه من وسائل الدعوة الى الله تعالى :-

فقد قدم أبو الحيسر الى مكة ومعه فتية من بنى عبد الاشهـــل فيهم اياس ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فأتاهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم فجلس اليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ قالو : وماذاك ؟ قال : أنا رسول الله ، بعثنى الى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىّ الكتاب . ثم ذكر لهـم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال أياس بن معاذ رضى الله عنه ، وكان غلاماً حدثاً : " هذا والله خير مما جئتم له " (١)

وبالمقابلة ، والمواجهة الشخصية ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو الى مايمكن تسميته بالمؤتمرات الطارئة ، التى تعتبر من أكثـر الوسائل فعالية ، وأقواها تأثيرا فى الترويج للمذاهب والدعوات (٢) .

وقد لجأ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى ذلك فى العهد المكى ، حين أنزل الله تعالى عليه : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" (٣) فصعد الصفا ، ونادى بطون قريش ، فلما أجتمعوا اليه ، بلغهم رسـالة الله سبحانه وتعالى ، على نحو محدد ودقيق ، أبرأ به ذمته ، وأعذر بـــه الى الله تعالى ، على نحو سبق بيانه (٤) .

---

(١) ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٢٧-٤٢٨ . وبه القصة كاملة وراجع أيضا : الفصل الرابع: "طلائع النصر" من الباب الثالث للرسالة

(٢) انظر: سيد أبوبكر حسانين : دراسات فى تنظيم المجتمع ص١٧٦ ، بيل : القيادة وديناميكية الجماعات ص ٢٩٤ .

(٣) سورة الحجر : آية ٩٤ .

(٤) انظر: مرحلة : "التبليغ الى الاقارب" من الفصل الثالث: مراحـل الدعوة من الباب الأول للرسالة .

الفصل الرابع

صفات الداعية وعوامل نجاحه

المبحث الاول : ايمان الداعيـة

كان ايمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه وبدعوته ، يفـوق كل تصور ، ويتعدى كل حدود : تأمل موقفـه صلوات الله وسلامه عليـه عندما ذهب اليه عمه أبو طالب - بعد شكاية رجال من أشراف قريش لعيب آلهتهم - فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " ياأبن أخى ان قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبق علىّ وعلى نفسك ولاتحملنى من الأمر مالاأطيق". (١) فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرتـه والقيام معه . فما كان من الرسول صلى الله عليه وسلم وبايمان الداعيـة بنصر الله تعالى له ، مهما طال الأمد ، الا أن قال :

" ياعم ، والله ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته " (٢)

ان الجو الذى قيلت فيه هذه الجملة المنهجية : جو الكثـرة العاتية ، التى تهجم بثقلها على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلو كانـت شخصيته صلوات الله وسلامه عليه لاتساوى فى وزنها الاجتماعى ، ثقل المجتمع كله ، لما أمكن أن يضع هذا المعيار الخالد ، الذى يصور المستوى السامق ، فى عزة النفس ، والايمان بالله تعالى ، وبالاسلام ، وبما يدعوا اليه ، ممـا ينبغى أن يتسلح به الداعية .

لقد كان ايمانه الكامل - باعتباره داعية أسلم وجهه لله وهـو محسن ، تفوق قدرة البشر ، حتى لو استطاعوا أن يخلعوا قرص الشمس مـن

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى . (تحقيق محيى الدين) ١ / ٢٧٨ ، وانظـر : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٢ / ١٤ ، ابن كثير : السيرة النبويـة ١ / ٤٦٣ ، الحلبى : انسان العيون ١ / ٣٢٣ .

(٢) ابن هشام : نفس المرجع والمكان ، وانظر : باقى المراجع السابقة نفـس المكان .

فلكها ، ويضعوه فى يمينه ، وأن ينتزعوا القمر من هالته فيضعوه فى يساره مقابل أن يتخلى عن عقيدته ، أو يتزحزح عن رسالته ، ماقبل ، ومارضى، ولاستمر على دعوته : دعوة الحق ، الى أن يظهرها الله تعالى ، أو يهلك فى سبيلها راضيا مرضيا" . (١)

موقف آخر من مواقفه العديدة - عليه الصلاة والسلام يوضح ايمانه بربه وبدعوته : عند ما عرض نفسه على بنى عامر ، فدعاهم الى الله عز وجل ، ولكنهم أرادوا أن يتخذوا الدعوة فيما بعد ، ملكا عضودا لهم ، فرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رفضا باتا قاطعا . يقول ابن هشام(٢) : " فقال رجل منهم (٣) : والله ، لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال : أرأيت ان كسنا بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر الى الله حيث يشاء . فقال : أفتهتدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله ، كان الأمر لغيرنا ؟ لاحاجة لنا بأمرك ، فأبواعليه " .

كان واضحاً تماماً لديه صلى الله عليه وسلم أن مطلق دعوته : هو أن الحاكم الحقيقى للبشر لايجوز أن يكون غير الله تعالى ، وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكيته ، لابد وأن يؤدى بهم الى الهاوية .

وهذا موقف آخر يقفه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مؤكدا ايمانه بربه ، واعتزازه بدعوته ، عند ما جاء وفد قريش بعمارة بن الوليد يدفعونه

---

(١) سيرة النبى : تحقيق الثلاثة ١ / ٤٢٤-٤٢٥ . وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢ / ٣٤٩ وابن الجوزى : الوفا ١ / ٢٥١ ، ابن كثير : السيرة ٢ / ١٥٧ - ١٥٩ ، الحلبى : انسان العيون ٢/٣-٥

(٢) هو : بيحرة بن فراس (انظر : ابن هشام : نفس المرجع والمكان)

الى أبى طالب ليكون له نصره وميراثه ،على أن يدفع اليهم ابن أخيه صلى الله عليه وسلم ليقتلوه - قاتلهم الله أنى يؤفكون - ورد عليهم بحزم: "ماهذا بالنَّصَف ،تسومونني سوم العرير الذليل قالوا : فأرسل اليه فلنعطيه النَّصَفَ. فأرسل اليه أبو طالب،فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى ،هؤلاء عمومتك ، وأشراف قومك ، وقد أرادوا ينصفونك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا أسمع . قالوا :تدعنا وآلهتنا ،وندعك والهك . قال أبو طالب : قد أنصفك القوم،فاقبل منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:أرأيتم ان أعطيتكم هذه ،هل أنتم معطىَّ كلمة ان أنتم تكلمتم بها العرب ،ودانت لكم بها العجم ؟ فقال أبو جهل : ان هذه لكلمة مربحه ،نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها . قال : قولوا لااله الاالله ...." (١) .

حقاً انها كلمة مربحة ،وتجارة مع الله لن تبور ،خيرها عميم ، وربحها موفور ،وعائدها مضمون ،ضمنه الله تعالى لعباده المخلصين :الذين لايدعون مع الله الها آخر وبالآخرة هم موقنون ،وايمان كامل من الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وبدعوته وبوعد ربه الذى كلفه بهذه الدعوة "... ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" (٢) .

وفى لحظة الكرب ،تبدو طبيعة الداعية ،وثقته بربه ،فان الأمر كله لله ،وأمره كله خير ،فهو يفعل مايؤمر به ،وينفذ ماجاءه ،أما أن يستجيب الناس ،فتلك مشيئة الله .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٠٢ .
وانظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٢١٩ .
(٢) سورة المنافقون : الآية ٨ .

وتبدو طبيعة الداعية ، وقد أرتبطت بالجو الربانى ، حينما رأى رسول الله صلى اللهعليه وسلم صدود ثقيف عن الدعوة ، وايذاءهم له (١) ، حيث وقف يدعو ربه بخشوع ، وصبر ، وايمان ، فيقول : " اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت أرحم الراحمين ، وأنت رب المستضعفين ، الى من تكلنى ؟ الى عدو بعيد يتجهمنى؟ أم الى صديق قريب ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى غضبك ، أو يحل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوة الا بك " (٢)

ان أصدق شهادة على ايمان الرسول الداعية صلوات الله وسلامه عليه بربه الكريم ، ودعوته الصادقة : هو قول الله تعالى : " قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السماوات والأرض لااله الا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون . " (٣)

---

(١) انظر : المبحث الثانى : " موقف ثقيف من الدعوة . . . " من الفصل الثالث من الباب الثالث من الرسالة .

(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ٢١٩/١ - ٢٢١ ، وانظر : الحلبى : إنسان العيون : ٣٥٤/١ - ٣٥٥ .

(٣) سورة الاعراف : الآية ١٥٨ .

المبحث الثانى : ثقة الداعيـــــة

ا - ثقته فى نفســـه :

لقد كانت ثقة الرسول الداعية صلوات الله وسلامه عليه بنفسه ، هى ثقة الانبياء ، التى تضفى نور الهدى على من حولها ، انها ثقة من نعتـــه رب البريه بقوله تعالى :

" وانك لعلى خلق عظيم" (١) وقوله عز من قائل :

" .... بالمؤمنين رؤوف رحيم ." (٢) وقوله جل وعلا :

" وما أرسلناك الا رحمة للعالمين . " (٣)

عند ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أهله وعشيرته ، يدعوهم الى الله ، فوقف يخطبهم فقال : " ان الرائد لايكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ماكذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ماغررتكم ، والله الذى لاالهالا هو، انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة " (٤) .

كان واثقا من نفسه ، مؤمنا بدعوته ، فخورا بتاريخه الطويـــل بين قومه وعشيرته ، فهو ينادى بأعلى صوته ، قائلا فى فخر واعتزاز : " أنا النبى لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب" (٥) وكأنما يتحدى المشركين ويدلهـــم

---

(١) سورة القلم : الآية ٤ .
(٢) سورة التوبة :من الآيـــة ١٢٨ .
(٣) سورة الانبياء : الاية ١٠٧ .
(٤) الحلبى : انسان العيون: ١ / ٣٢١ - ٣٢٢ .
(٥) البخارى : الصحيح : كتاب المغازى . باب يوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم: ٥ / ٩٨ - ٩٩ .
مسلم : الصحيح : كتاب الجهاد والسير . باب غزوة حنين : ١٢ / ١١٣ - ١٢١ .

على مكانه فى المعركة ،غير وجل أو هياب ،واثقا من نفسه ومن نصر الله تعالى له ولجنده (١)

روى الامام مسلم فى صحيحه باسناده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ان الله اصطفى كنانه من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة ،واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم " (٢)

وروى أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع" (٣)

فهو خير البشر جميعا سواء فى الدنيا أو فى الآخرة يوم البعث الاكبر، وقد دفعت هذه الثقة بالنفس الرسول الداعية الى السير فى دعوته حتى النصر .

لقد كان سلوكه وسيرته بينهم - قبل البعثة - مدعاة للفخر والعزة والكرامة والثقة بالنفس ،وأيد القرآن الكريم كل ذلك فى موضع الاستدلال على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ،قال جل وعلا مخاطبا رسوله الأمين : " قل لو شاء الله ماتلونه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون . " (٤)

فوجودى مشهود كله لكم ، وأنتم أيضا مشهودون لى ،والحياة مكشوفة بيننا : عادة ،وسلوكا ،وأخلاقا ،طيلة أربعين سنة ،ثم بعد ذلك تكذبون ؟ ولهذا فقد نفى القرآن عنهم ،فى هذا الاستفهام التأنيبى

---

(١) كان ذلك فى غزوة حنين عند ما أنكشف المسلمون وولوا مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض جهة العدو راكبا بغلته ، وعمه العباس آخذا بلجامها يكفها عن الاسراع فأقبل المشركون اليه فلما غشوه لم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وأخذ يردد قوله المذكور (انظر : المراجع السابقة : نفس المكان)

(٢) كتاب الفضائل . (٣) نفس المرجع والمكان . (٤) سورة يونس/ ١٦

المزلزل ، التعقل والتفكير . (١)

ان الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. تنطلق باعتزازه بشخصه ، وثقته في نفسه ، فهو يعلن صراحة أن كل من لم يؤ من به ، من أهل النار ، مقسما على ذلك بكل يقين واصرار ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والذى نفس محمد بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم يموت ولم يؤ من بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار" (٢) ، والرسول بهذا أيضا ينسخ كل الملل السابقة ، بثقة من يكلم حقا من السماء (٣) وقال صلوات الله وسلامه عليه : " مامن الانبياء من نبى الا قد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله الى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" (٤) .

يقول الامام النووى ، ان هذا الحديث ((علم من أعلام النبوة ، ودليل واضح على ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه وبدعوته ، فانه أخبر عليه السلام بهذا فى زمن قلة المسلمين ، ثم من الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم حتى انتهى الأمر ، واتسع الاسلام ، وزاد عدد المسلمين الى هذه الغاية المعروفة)) (٥) .

وروى الامام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤ تون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ، آمن بنبيه ، وأدرك النبى صلى

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ١٩٤ - ١٩٨

(٢) مسلم : الصحيح بشرح النووى : باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (طبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢م) ج ٢ / ١٨٦ .

(٣) انظر: المرجع السابق : ٢ / ١٨٨ (شرح) .

(٤) المرجع السابق : باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ٢ / ١٨٦ .

(٥) المرجع السابق : ٢ / ١٨٨ (شرح) .

الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه ،فله أجران ٠٠٠٠" (١) ،وفي ذلك ثقة من الرسول برسالته ،وعدل منه أيضا لمن آمن به من أهل الكتاب،حيث جعل له أجرين : أحدهما لايمانه بنبيه قبل النسخ،والثاني لايمانه به صلى الله عليه وسلم. (٢)

---

(١) المرجع السابق : باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:٢ / ١٨٧ ٠

(٢) انظر : المرجع السابق : ٢ / ١٨٩ (شرح) ٠

ب - ثقة المجتمع فى الداعيـــة :

لقد أجمع الناس فى مكه ،على وصف محمد صلى الله عليه وسلم دون سواه : بالأمين ، والمجتمع الجاهلى خال من الالقاب، فارغ من الرتـــب غير أن ثقة المجتمع فى أخلاق محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعـــث، ألزمت المجتمع أن يحمى هذه الشخصية الفريدة فيه : فأجمعوا على أن يلقبوه بالأمين . (١) قال الصالحى الشامى (٢) :

والأمين : ذكره ابن فارس ، ومعناه : القوى ،الحافظ ، الذى يوثق بأمانته ويرغب فى ديانته .... وقد كان يدعى بذلك فى صغره صلى الله عليـــه وسلم لوقاره ، وصدق لهجته ، وهديه ، واجتناب القاذورات والأدناس."

وروى ابن سعد ،عن الربيع بن خثيم قال : " كان يتحاكم الـــى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فى الجاهلية قبل الاسلام" (٣)

ولا يعنى ذلك سوى الثقة المطلقة بهذا الامين .

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، خمساً وثلاثين سنـــة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، بعد أن جمعت الحجارة لبنائها ،كل قبيلـة تجمع أحجارها على حده ، ثم قاموا ببنائها جميعا - ولما بلغ البنيـــان موضع الركن (٤) ، اختصموا فيه : كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) سبل الهدى والرشاد - المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة ١٩٧٢م - الجزء الأول ص ٥٣٦ .

(٣) الطبقات الكبرى : ١٥٧/١

(٤) يعنى بالركن هنا : الحجر الأسود ، وسمى ركنا لانه مبنى فـــى الركن قاله أبو ذر .
(انظر : ابن هشام : سيرة النبى - تحقيق محيى الدين - هامش ٢١٣/١) .

الأخرى ، واشتد الحوار والجدل بينهم حتى أعدوا للقتال ، ثم اجتمعوا في المسجد ، وتشاوروا ، وتناصفوا ، وكان أبو أمية بن المغيرة أسنّ قريش كلها ، قال : يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه - أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل ، رسول الله - صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا : " هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم ، أخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : هلم الي ثوباً . فأتي به ، فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي : الأمين " (١) .

وبيت القصيد في هذا الرضا الذي شمل الجميع (٢) :

أولا : أن آبا أمية بن المغيرة ، هو الذي أقترح التحكيم لأول داخل ، وهو يومئذ أسنّ قريش كلها ، وهذا له وزنه الاجتماعي والتاريخي

ثانيا : أن المتخاصمين لم يشذ منهم واحد في قبول التحكيم .

ثالثا : أنهم لم يناقشوا الرسول . صلى الله عليه وسلم في حكمه ، أو في تحديد طرف الثوب لكل قبيلة .

رابعا : النتيجة ، أنه هو وحده صلى الله عليه وسلم الذي رفع الحجر من الثوب ووضعه بيده الشريفة دون أي اعتراض .

---

(١) ابن هشام : المرجع السابق - تحقيق الثلاثة : ١/١٩٢-١٩٨ .

(٢) انظر : رؤوف شلبي : الدعوة الاسلامية : ص١٧٧ .

وفى هذا مافيه من التسليم التام بعدالته ، والثقة الكاملة فيه ، وفى رجاحة عقله ، وذكاء بصيرته ، ونزاهة نفسه .

ومرة أخرى يضع المجتمع نفسه ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعترف بصدقه ، ويؤكد ثقته به :

روى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال : " لما نزلت : " وأنذر عشيرتك الأقربين" (١) نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قريش بطناً بطنا ، فقال : أرأيتم لو قلت لكم ان خيلا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك كذبا . . . " (٢)

لقد أراد صلى الله عليه وسلم بادئ ذى بدء - أن يتفق معهم على شرط ، يكون عليهم حجة ، قبل أن يبلغهم رسالة الله تعالى ، وقد علموا أنه نبى مرسل ، وأنه ليكلم من السماء ، فوضع فرضاً من الفروض : لو أنه أخبرهم خبرا خطيرا يهدد مستقبل حياتهم ، أكانوا مصدقين ؟ فأجابوه : نعم ، مؤكدين بذلك مالمسوه من تاريخه المعروف عندهم ، بل وأكثر من ذلك اصرارهم على هذا التأكيد قائلين : " ماجربنا عليك كذبا" ، الأمر الذى يدل على كامل ثقتهم به صلى الله عليه وسلم .

واستمرت هذه الثقة ، حتى مع وجود النزاع الحاد ، والخصومة المستحكمة التى بدأوا بها ، واستمرأوها :

---

(١) سورة الشعراء : آية ٢١٤ .

(٢) البخارى : الجامع الصحيح : كتاب التفسير : سورة تبت يدا ٦ / ٩٤ - ٩٥ .
وانظر : الطبرى : تاريخ ٢ / ٢١٦ ، البيهقى : دلائل النبوة : ١ / ٤٣١ ، ابن الجوزى : الوفا ١ / ١٨٣ ، ابن كثير : السيرة ١ / ٤٥٥ - ٤٥٦ .

لقد قال لهم " النضر بن الحارث " (١) يوماً ، وهو من أشد المتحمسين لعداء الدعوة ، وله دور كبير في معاندة آيات الوحي الصادق ، قال لهم : " قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بماجاءكم به ، قلتم ساحر ، لا والله ، ماهو بساحر ... " (٢)

ولقد قالها أبو سفيان لهرقل ، حين سأله : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقاله ؟ فقال له : لا . قال : فهل يغدر ؟ فقال : لا . (٣)

لقد وقفوا له موقف الخصم الفاجر ، ونوعوا له جميع الاتهامات ، الا الكذب والغدر . لقد شهدوا له بالامانة والصدق ، وتأكدوا من سموأخلاقه .

وحتى مع نذالتهم في خصومتهم معه ، كانوا يتركون ودائعهم عنده بعد أن آذوا أصحابه ، وحبسوه ثلاثة أعوام في شعب بني هاشم وأرادوا قتله ، وكانت مع كل هذه المواقف المتغطرسة في لجاجة الباطل من جانبهم كانوا يتأكدون أنه الأمين الصادق ، الذي يطمأن على وديعة الا عنده ، وخَلَّفَ عليّاً رضي الله عنه في فراشة ليلة الهجرة ليرد اليهم ودائعهم (٤) :

---

(١) هو من ثقيف ومن أطباء العرب تعلم الطب عن أبيه الحارث ، وكان من أشد الناس عداوة واستهزاء بالاسلام ، يأتي في أسفاره بكتب فيها بعض الحكايات فيعارض بها القرآن ، ويقول للناس هذا والله خير مما جاء به محمد . قتل بعد موقعة بدر . (انظر : السيوطي الخصائص الكبرى : هامش ١ / ٢٨٢)

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي - تحقيق الثلاثة : ١ / ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) أنظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري : (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة - طبعة ١٩٥٩م = ١٣٥٨هـ) - ١ / ٣٨ .

(٤) انظر : رؤوف شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ١٧٩ .

قال ابن هشام : " أما على ،فان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكه ،حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكه أحد عنده شئ يخشى عليه ،الا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته " (١) .

وماتنتهى ثقتهم فيه أبا حتى مع الحروب التى أثاروها على الدعوة بعد الهجرة ؟ فمازالوا فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنه صادق وأنه أمين وأنه على الحق .

ذكر القاضى عياض بن موسى (٢) : أن الاخنس بن شريق ،لقى أبا جهل يوم بدر ،فقال : ياأبا الحكم ،أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فانه ليس هاهنا غيرى وغيرك ،فقال أبوجهل : والله ان محمدا لصادق وما كذب محمد قط .

قسم وتأكيد معاً ، وممن ؟ ،من أبى جهل أعتى أعداء محمد صلى الله عليه وسلم، يؤكد صدقه مبنياً على تجاربهم السابقة فى معاملاتهم معه ، وقربهم منه .

لقد كانت ثقة المجتمع فى الداعية مبينة على وضوح فى سلوكه ومعرفة تامة بأخلاقه ، ومعاملة مستمرة : تظهر فى كل يوم :

---

(١) سيرة النبى ـ تحقيق الثلاثة : ١ / ٤٨٥ .
وراجع فى ذلك بالتفصيل الفصل الخامس" الهجرة " من الباب الثالث من هذه الرسالة .

(٢) انظر : على القارى وأحمد شهاب الدين : شرح الشفاء : الطبعة الأزهرية بالقاهرة طبعة أولى ١٣٢٠ هـ : الجزء الاول ص ١٨١ .

جليل خلقه ، ونفيس صدقـه ، وعظيم وفاته ، ورفيـع محبته للناس جميعـــا . وكانت ثقة الداعيـة بنفسـه ، قائمة على ثقته بربـه ، وثقته بالحـق الذى يدعوا اليه ، وثقته بنصر الله تعالى له (١) .

---

(١) أنظـر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ١٨٠ .

المبحث الثالث : السلوك المطابق لمبادئ الدعوة

من أساسيات العمل مع الجماعة : أن تبرز الأهداف التى يدعو اليها الداعية ، بعد أن يتحلى بها الدعاة سلوكا عمليا . (١)

وقد التزم الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم كطبيعته التى خلقه الله عليها - بالسلوك المطابق للمبادئ الاسلامية : تنقية للدعوة - فى صورتها العملية - من أدنى شائبة تحسب عليها .

لهذا ، فان الدعوة الاسلامية ، فى عهدها الملكى ، قد تجنبت أى صدام مسلح ، حتى تعطى فرصة كاملة لابراز معالم الدعوة ، وحقيقة الاسلام . ولذلك التزمت بالصبر الايجابى : الذى يزاول العمل فى اخلاص مع التحمل لشدائد الأمور . (٢)

تأمل موقف المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وماتحلى به من صبر وحكمة عند مناقشته عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - أحد كفار قريش - عند مساومته للرسول صلى الله عليه وسلم فى الاسلام ، قال - عليه الصلاة والسلام بعد أن عرض عليه ماعرض من حطام الدنيا الزائل .

" أفرغت يا أبا الوليد؟" ، بهذا الأدب الجم ، وبهذا النداء الهادئ العذب تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم الى عتبة ، الذى قال كثيرا ، وأفرط فى الحديث ، وذكر كلاما يثير الحليم ، ويهيج ويغضب ، لقد خاطب عتبة النبى صلى الله عليه وسلم قائلا : " أيها الرجل ، ان كان انما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا وأخذا ، وان كان انما بك من الباءة ،

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٦٠ .
(٢) انظر : نفس المرجع والمكان .

فاختر أى نساء قريش شئت ، فلنزوجك عشرا " (١)

انه عرض رجل جاهل ، لا يعرف أقدار الناس ، ولا منازل الرجال ، فلقد عرفت قريش محمد صلى الله عليه وسلم فى شبابه أعف الرجال نفساً ، وأطهرهم قلباً ، وأنقاهم خاطراً ، عصمه الله تعالى من المفاسد والخبائث(٢) : فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان صلوات الله وسلامه عليه- هو الأمين وحده ، دون سائر شباب قريش وشيوخها أجمعين ، فماذا حدث لعقولهم بعد أن جاءهم بالروح الأمين ؟

مقالة شنعاء ، عمياء ، قالها عتيبه بن ربيعة ، ويستحق فى مقابلها رداً مساوياً لها قوةً ، وايلاماً ، ولكن الداعية الأول : محمد صلى الله عليه وسلم ، قدّم فى رده عليه مايُعد برهاناً على أنه : لايخالفهم الى ماينهاهم عنه .

لقد أبرز النبى صلى الله عليه وسلم - مبادئ الدعوة فى رده : أفرغت ياأبا الوليد ، فى اتزان وصفح كريم ، وعفو صادق . قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنا بها أن مبدأ العمل مع الجماعة فى نظر الدعوة هو : مطابقة سلوك الداعية الى المبادئ التى تدعوا اليها . (٣)

ثم تلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه القرآن حتى وصل الى قوله تعالى فى سورة فصلت : " فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . " (٤) . فأمسك عتبه بفم رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) السيوطى : الخصائص الكبرى : ١ / ٢٨٣ .
وانظر : السهيلى : الروض الانف : ٣ / ١٤٩ .
ابن الجوزى : الوفا : ١ / ٢٠١ .
(٢) أنظر : البيهقى : دلائل النبوة : ١ / ٣٧٧ .
(٣) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية / ٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٤) آية ١٣ .

خوفا من نزول هذه الصاعقة ،فانه يعلم أن محمدا لصادق ،وماكذب قط .

فبات هذا الحدث في سجلات التاريخ ،شهادة رائعة الدلالة ، على أن الاسلام مايرجو للبشرية ،الا خيرا : يحقق لها السعادة والأمن والتكريم(١) .

لقد كان السلوك المطابق لمبادئ الدعوة، هو منهج العمل مع الجماعة ،الذى يوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم،القيادة التى تحمل معه فى حقل الدعوة الاسلامية ـ مسئولية العمل . (٢)

لقد كان الخلق الفاضل ،والمؤانسة ،والوداد ،والصفح : أساليب العمل مع معاندى الدعوة ،حتى برزت معالم الاسلام وحقائقه ومزاياه ،ولهذا فما كانت تحمل نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم حقدا لواحد من المجابهين العتاه القساة للدعوة ،فى تصرفاتهم نحو المسلمين الاول ،فلقد كان يدعو ربه أن يعز الاسلام بأحد العمرين : أحد الرجلين اللذين أطنبا فى السخرية بالاسلام والمسلمين (٣) .

روى عن أنس رضى الله تعالى عنه : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عشية الخميس ،فقال : اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام . فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم " (٤)

---

(١) انظر القصة كاملة فى :ابن هشام:سيرة النبى(تحقيق الثلاثة) :١ / ٢٩٥ ،ابن الجوزى : الوفا ١ / ٢٠١ ،ابن كثير : السيرة : ١ / ٥٠٤-٥٠٥ ، السيوطى : الخصائص ١ / ٢٨٣ . ، الحلبى : انسان العيون ١ / ٢٣٩ ،الزرقانى :شرح المواهب ١ / ٢٥٦ .

(٢) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٥٠ .

(٣) انظر : البيهقى : دلائل النبوة: ٢ / ٣ .

(٤) السيوطى : الخصائص الكبرى ١ / ٣٣٣ .
وانظر : ابن سعد :الطبقات٣ / ٢٦٧ ،البيهقى : نفس المرجع والمكان ،الحلبى :انسان العيون ١ / ٣٦٧ ، الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٢٧٢ .

ولقد كان عقبة بن أبي معيط من كبار المستهزئين بالاسلام والمسلمين ،كثير الاذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم:"وكنت بين شر جارين : أبي لهب ،وعقبة بن أبي معيط، ان كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي " . (١) ومع هذا ،فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من مجالسه عقبة بن أبي معيط، ليدعوه الى الاسلام.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى في تحمل أعباء الرسالة ،وكان عمله الكريم نبراساً يهتدى به الدعاة الى الله في كل مكان .

ولقد أثبت الله تعالى منهجه في العمل مع الجماعة بقوله عز من قائل مخاطباً رسول الهدى صلوات الله وسلامه عليه : " فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير " (٢) . وقال جل شأنه : " فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير " (٣)

" وحقيقة الأمر : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في كل مايأتيه وكل مايقوله قرآناً مطبقاً " . (٤) ومن هنا كان قوله سبحانه وتعالى في بيان ذلك في شأنه صلى الله عليه وسلم: " . . . ان اتبع الا مايوحى

---

(١) الحلبي : انسان العيون : ١/٣٥٣ .
(٢) سورة هود : الآية ١١٢ .
(٣) سورة الشورى :الآية ١٥ .
(٤) عبد الحليم محمود : الاسلام والعقل . دار الكتب الحديثة طبعة ١٩٦٦م/١٢٤ - ١٢٥ .

الى انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ." (١) وكان قوله جل وعلا : " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون "(٢).

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يتبع الا مايوحيه اليه رب العالمين فهو عبد مأمور، ورسول مبلغ عن رب العزة والجلالة ، ويخشى ماوراء مخالفة أمره أو تبديل وحيه من عذاب يوم شديد الهول هو يوم القيامة ذلك لأن الله تعالى خالق البشر أعلم بنفوسهم وسرائرهم فجعله صلى الله عليه وسلم برسالته على طريقة واضحة ، ومنهاج سديد رشيد من أمر الدين فاتبع (يا محمد) ماأوحى اليك من ربك من الدين القيم ولا تتبع ضلالات المشركين.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالا وأسوة لتطبيق مبادئ الدعوة سلوكياً ، حتى كانت حقيقة نفسه الشريفة من حقيقة الرسالة ، وكانت عظمة نفسه الزكية من عظمة هذه الرسالة .

ان الحقيقة المحمدية كالحقيقة الاسلامية : أبعد من كل مدى وأسمى من كل تصور. ان محمدا صلى الله عليه وسلم وحده ، هو الذى ترقى الى هذا الأفق من العظمة ، انه وحده الذى بلغ قمة الكمال الانسانى المجانس لنفحة الله ، هو الذى أعد خاصة لهذه الرسالة الكونية العالمية ، حتى لتتمثل فى شخصيته الحية ، انه وحده أهل لهذا المقام الرفيع: " . . . الله أعلم حيث يجعل رسالته . . . " (٣) ولهذا كان خلقه القرآن ، وكان وصفه الكريم ، من رب العزة والجلالة : " وانك لعلى خلق عظيم " . (٤) .

---

(١) سورة يونس: الآية ١٥ .
(٢) سورة الجاثية : الآية ١٨ .
(٣) سورة الانعام : من الآية ١٢٤ .
(٤) سورة القلم الاية ٤ .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه مشغولا بهموم البشرية كلها ، بينما لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم . يهتم بأمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل الى الله ، منقطع عن الدنيا : فهو فى الدنيا . . وليس فيها ، لأن قلبه لا يتعلق الا بالله وبما يرضى الله . (١)

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسبق الناس الى العمل بما جاء به ، ودعا اليه : ومن بهاء ماجاء فى سيرته العطرة : انه لم يأمر أتباعه وأصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - بأمر ، الا وقد سبقهم الى العمل به (٢) .

وبذلك حدد صلى الله عليه وسلم قاعدة من قواعد منهج العمل مع الجماعة ، هى : اتحاد السلوك مع المبادئ التى يدعو اليها . وقد اقتضاه هذا المنهج صبرا طويلا على مشقة التبليغ، وكفاحا مريرا لعداوة المكابرين (٣) .

---

(١) انظر : النووى : أبو الحسن على الحسنى : الرسالة المحمدية (طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة) ص ٨٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٣) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية . ص ٢٥٨ .

المبحث الرابع : مقدرته على استقطاب المجتمع للدعوة

ان أهم مايهدف اليه الداعية : جذب المجتمع المحيط به نحو الدعوة التى يدعو اليها لكى يتعرف عليها ويقتنع بها ويعتنقها ولن يصل الداعية الى هذا الهدف الا اذا كان على معرفة تامة بالمجتمع : عاداته ، تقاليده ، أنماط الثقافة فيه ، حتى يمكنه من خلال ذلك أن يخطط لمسار دعوته بين هذا المجتمع . (١)

ووسيلة التعرف على المجتمع ماتبرز ، من خلال المنهج الاسلامى فى العمل مع الجماعة ، بصورة أكثر شمولاً واتساعاً : فهى تأخذ فى مفهوم التعرف على المجتمع - بخلاف ماسبق - : تبادل المعرفة ، بين طبيعة المجتمع ، وطبيعة الداعية : فلقد تعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على طبيعة المجتمع الذى بادءه بدعوته ، بأسلوب الممارسة العملية ، والاشتراك الفعلى ، وهو أقوى نمط ، فى ادراك حقائق الأمور .(٢)

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المجتمع الذى نقل اليه الدعوة فى عيشة المستوعب لثقافة البيئة ، دون أن يشارك حياة ذلك المجتمع فى اتجاهاتها التى تؤثر مستقبلا عليه ، فهو لم يغفل عنها ، ولم ينغمس فيها ، بل عاش فيها حياة المجتمع الفاضلة الكريمة : (٣)

كان عليه الصلاة والسلام عند ظئره حليمه ، ثم عند قريش على قراريط (٤)

---

(١) ، (٢) أنظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : / ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) نفس المرجع السابق والمكان .

(٤) انظر : ابن هشام : سيرة ١ / ١٦٧ ، ابن سعد : الطبقات ١ / ١٢٥ ، البيهقى : دلائل ١ / ٣٣٦ ، الحلبى انسان العيون : ١ / ١٤٩ .

وكان تاجرا معهم فى السوق ٠ (١)

وكان حكما بينهم فى مدلهمات الأمور عند وضع الحجر الأسود ٠(٢)

واشترك معهم فى حلف الفضول (٣)

لقد عاش معهم الحياة الاجتماعية ولكن فى جانبها الطاهر النظيف العفيف ٠

وعاش معهم الحياة الساسية ولكن فى جانبها العادل الواضح الجرئ ٠

وعاش معهم الحياة الاقتصادية ولكن فى جانبها الأمين النزيه الحلال ٠

ومع هذا فماسجد لصنم قط ، ولاحلف باللات والعزى ، ولا احتفل بعيد لهم ، ولا شرب لهم خمرا ، ولا طعم لهم ذبيحه ذبحوها على النصب(٤)

لقد عصمه الله ـ جل شأنه ـ منذ أن اختاره لهداية العالمين رسولا بشيرا ونذيرا ٠ وكانت لديه ممارسة كاملة بالجانب الرفيع من ثقافة المجتمع، وكانت عنده حصانة فطرية ، بحيث لاينجذب الى أية ثقافة لاتتفق

---

(١) انظر:ابن هشام : السابق ١ / ١٨٧ ،ابن سعد :السابق ١ / ١٢٩ ، ١٣٠ ،الحلبى : السابق ١ / ١٥٧ ٠

(٢) انظر:ابن هشام : السابق ١ / ١٩٧ ،السيوطى : الخصائص ١ / ٢٢٤ ،الحلبى:السابق ١ / ١٧٢ ٠

(٣) انظر : ابن هشام : السابق ١ / ١٣٣ ،ابن سعد : السابق ١ / ١٢٨ ،الحلبى : السابق ١ / ١٥٣ ٠

(٤) انظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ١٨٣ ،ابن سعد :الطبقات الكبرى ١ / ١٥٥ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١ / ٢٥٠ - ٢٥٢ ، السيوطى :الخصائص : ١ / ٢٢٠-٢٢١-٢٢٧-٢٤٦ ٠

مع فطرته النقية الصافية التى خلقه الله عليها ليكون للعالمين نذيرا : فهو لم يندمج كليا فيحيى حياة المجتمع كلها ، ولم ينعزل عنها فيجهلها كلها . لقد كان موجودا فى أوساطها ، لافى وسطها .

كان ايجابيا مع الحياة الفاضلة : يشترك مع المجتمع فى فضليات الأخلاق ، وعظائم الأمور .

وكان ايجابيا فى الوقوف ضد الحياة المنحرفة : يرى فساد المجتمع فينأى عنه ، مبتعدا عن شرور البشر ، ساعيا لاصلاح حالهم .

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم منفتحا على المجتمع كله : بذاته وطهارته ، يعصمه الله من كل شر ، وينزهه عن كل سوء .

وفى الجانب الآخر : كان هو صلوات الله وسلامه عليه معروفا للمجتمع الذى نشأ فيه منذ اللحظة الاولى التى ولد فيها - ولم يحظ نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام - بانكشاف تام لحياة الفاضلة ، وتصرف كامل على شخصيته الكبيرة الفذة ، الا محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

لذلك فلم تكن هناك لحظة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا لحظة من حياة المجتمع الجاهلى ، غائبة عن أى منهما : فكان التعرف على المجتمع ، وتعرف المجتمع عليه : شاملاً واسعاً ، بالممارسة الفعلية والمشاركة الوجدانية (٢)

لكل ماتقدم فقد أحدثت الدعوة الاسلامية انجذابا كاملا ، وانتباها

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ١٩٢/ - ١٩٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١٩٤/ - ١٩٨ .
وراجع أيضا : المبحث الأول : "ايمان الداعية" والمبحث الثانى "ثقة الداعية" من هذا الفصل فى هذه الرسالة .

مركزا للمجتمع الانسانى الذى نشأت بينه ، وترعرعت فى جنباته . لقد جذب محمد صلى الله عليه وسلم حوله الفكر الانسانى كله ، بمختلف عقائده ومذاهبه ودياناته ، ولم يعرف التاريخ داعية أحدث مثل هذا الانتباه حوله وحول دعوته ، غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلقد تعلق به وبدعوته ، أجيال من العلماء والمفكرين منذ نشأة فى جوار البيت العتيق ، وحتى فاضت روحه الطاهرة الى الرفيق الاعلى ، ثم بعد ذلك ، الى أن يرث الله الارض ومن عليها .

لقد جذبت دعوة الحق ، وهى مازالت وليدة حديثة ، رجالا من النصارى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة حين بلغهم خبره من الحبشة (١) ، ولما سمعوا منه آيات الله البينات ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له ، وآمنوا به ، وعرفوا أنه النبى الذى وصف لهم فى كتابهم . (٢) " فلما قاموا عنه ، أعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم . . . فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا مانحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا" (٣)

---

(١) انظر : مرحلة " التبليغ للناس كافة" بالفصل الثالث من هذا الباب من هذه الرسالة .

(٢) وانظر بتفصيل أكثر : وسيلة "الرسل والرسائل" بالفصل الثالث بالباب الثانى من الرسالة . وراجع : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٩١-٢٩٢ ، البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٧٦-٧٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٤٠ ، الحلبى : انسان العيون ١ / ٣٨٤ .

(٣) ابن هشام : نفس المرجع والمكان .
وانظر أيضا : المراجع السابقة فى نفس المكان .

لقد خرج أبو جهل وجماعته على حدود الأدب ، فى مجابهة هذا الوفد الكريم، الذى استجاب لنداء الله ، وانجذب بالقرآن الذى تلاه عليهم نبى الدعوة ، محمد صلى الله عليه وسلم كما انجذبت اليه المجتمعات فى مكه وخارجها . ولئن كانت أطراف الجزيرة العربية ، قد انجذبت من بعيد ، فان القوم فى داخل مكه أيضا قد نجذبت نحو الدعوة الجديدة ، غير أنهم يحملون صدورا صدئة ، وقلوبا مظلمة ، وعقولا متحجرة ، وآذانا صماء ، وعيونا عمياء ، وأفئدة خاوية (١)

لقد استطاع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن يحدث انتباها نحو الدعوة ، وانجذابا نحو معجزتها الخالدة ، الى درجة سترت ثلاثة من أعتى الخصوم ليبيتوا ثلاث ليال سويا ، يستمعون فيها الى القرآن الكريم ، حتى أحسوا بلذة روحانية ، غريبة عليهم ، ملكت عليهم مشاعرهم ، وارتبطت بها أفكارهم ، فعادوا الكرة مرات ثلاث ، دون ارداة ولا وعى ، ودون موعد ولا اتفاق ، وهم من فحول الكفر ، وقادة الضلال ، فلما كشفهم الصباح مرات ثلاث تعاهدوا ، وحلفوا على الكفر والضلالة ، فعاودهم ماران على قلوبهم من قبل ، فأغمضوا أعينهم عن نور الحقيقة ، وأغلقوا قلوبهم عن طهارة الايمان . (٢)

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٤٠ .

(٢) الثلاثة هم- أبوسفيان بن حرب، أبوجهل بن هشام ، الاخنس بن شريق بن عمر وبن وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة خرجوا ليلة - دون موعد - ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتو يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، مجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثانية تكرر ماحدث، وفى الليلة الثالثة أيضا جمعهم الطريق بعد أن تفرقوا . فقال بعضهم لبعض : لا نبرح =

لقد أكسبت هذه المعارضة : الدعوة الاسلامية انتشارا كبيرا فى البلاد ، وفى القبائل التى كانت تفد للحج كل عام . فقد وزع كفار قريش ومعاونيهم أنفسهم فى كل موسم ، فجعلوا يجلسون لسبيل الناس، حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد الا حذروه من محمد صلى الله عليه وسلم ومن دعوته ، فجعل الناس يتناقلون ذكره ، وينشرون خبره ، حتى غطى أمره وأمر دعوته بلاد العرب كلها . (١)

فساعدت قريش بهذه المعارضة ، على انتشار دعوته ، والناس فطرياً مجبولون على حب الاستطلاع (٢) ، وكل قاطن فى بيته ، بعيد عن تأثير كفار قريش ومشركيهم ، فهو طليق التفكير من ضغط العادات ، وجبرية التقاليد : فسوف يفكر بأسلوب سليم ، نقى من غوغائية الجاهلية ، التى يعيش فيها : أبو جهل ، والوليد ، وعتبه والأخنس والنضر وغيرهم ، لذلك فان سُمُوَّ الدعوة وارتقائها سوف تجعل قلبه يخفق بنبضات الايمان ، اذا أراد الله تعالى أن يشرح صدره بالاسلام .

وتلك واحدة من امتيازات الدعوة الاسلامية يوم أن تكون خالصة لوجه الله ، يأتيها نصره من حيث لا تعلم . (٣)

ولله جنود السماوات والأرض .

= حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .
أنظر بالتفصيل : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣١٥-٣١٦ ، البيهقى : دلائل النبوة : ١ / ٤٥٣-٤٥٢ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ١ / ٥٠٦ ، السيوطى : الخصائص : ١ / ٢٨٥-٢٨٦ .

(١) انظر : ابن هشام : المرجع السابق : ١ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٣) انظر : نفس المرجع والمكان .

المبحث الخامس : الصبر وتحمل المشاق

ومن أهم عوامل نجاح الداعية فى دعوته ، تحليه بفضيلة الصبر ، وقدرته على تحمل المشاق ، لذلك فقد خاطب الله تبارك وتعالى رسوله المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى محكم تنزيله مؤكدا ضرورة التحلى بالصبر ، باعتباره منهجا رئيسا للدعوة فى مختلف مراحلها وأطوارها .

قال تعالى : " واتبع مايوحى واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (١) ".

وقال عز من قائل : " واصبر وماصبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ." (٢)

وقال جل وعلا : " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ... (٣) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تؤكد على الصبر والتى يزخر بها القرآن المكى (٤)

والصبر المقصود : صبر ايجابى ، يزاول أعمال الدعوة ، وتحمل أعبائها مع تحمل أذى الكافرين والمعاندين ، فلو سمح القرآن الكريم للجماعة الاسلامية بالدفاع عن النفس فى هذه المرحلة ، لصعب على الدعوة أن تثبت للناس - على مدى الحياة - أنها دعوة لخير الانسانية ، تهدف الى السلام ، وتسعى الى الحرية ، ولكانت خلافات متباينة فى محيط الاسرة الواحدة ، ولصح للكافرين يومها أن يقولوا : ان محمدا يفرق بين المرء وزوجه ، وبين

---

(١) سورة يونس : ١٠٩ . (٢) سورة النحل : ١٢٧ .

(٣) سورة الكهف : آية ٢٨ (٤) انظر : سورة هود / ٤٩ ، مريم آية ٦٥ ، طه آية ١٣٠ ، الروم آية ١٦٠ ، آية ١٧ ، غافر آية ٥٥ ، ٧٧ الاحقاف آية ٣٥ ، ق آية ٣٩ ، الطور آية ٤٨ ، القلم آية ٤٨ ، المعارج آية ٥ ، المزمل آية ١٠ ، المدثر آية ٧ ، الانسان آية ٢٤

المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه . لقد قيل ذلك دون حرب أو مقتله ، فماذا يمكن أن يقال لو أذن بالقتال فى هذا العهد ؟

لابد من مرحلة طويلة ، يبرز فيها بالسلوك العملى ، أن دعوة الاسلام : دعوة لخير الانسان ، وكرامته ، وعزته ، واحترامه . ولن تبرز هذه المعالم ، الا اذا صفى الدعاة أنفسهم من كل شبهة تعوق هذه المعالم عن الظهور ، ولهذا يتكرر الأمر بالصبر فى الآيات المكية ، ليعلم الدعاة الى الله تعالى أن الصبر الطويل : من أهم عوامل نجاح الدعوة ، حيث يمكن الغير من التعرف على امتيازات الاسلام . (١)

لقد جعل الله ابتلاء الدعاة ، فى كل عصر من العصور ، تدريباً تربوياً ، ليخلصهم الى طاعته ، وينقيهم من كل شبهة ويمحصهم من كل آفة .

وفى ذلك يقول تبارك وتعالى :

" الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ." (٢)

وهذا قانون الهى : " سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ." (٣) وهى اختبار : يصفى الله به العاملين والمبلغين رسالاته ، أمثال : نبى الله نوح ، وابراهيم ، وموسى ، عليهم جميعا وعلى نبينا الكريم الصلاة والسلام .

ذلك لأن طبيعة الدعوة ، تحتاج دائما الى الصبر عند عرضها ، والصبر عند مجابهة خصومها ، ولهذا : رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .
(٢) سورة العنكبوت : الآيات ١ - ٣ .
(٣) سورة الاحزاب : الآية ٦٢ .

أن يستنصر بالدعاء على كفار مكة ليبيدهم الله بهلاك من عنده ، نظير مافعلوه فى جماعة المسلمين :

روى عن خباب - رضى الله تعالى عنه أنه قال : " أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله ، فقعد وهو مُحْمَرٌ وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب مايصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت مايخاف الا الله" . (١)

لقد كانت المدرسة النبوية تربى القيادة على أرفع مستوى يجردها من كل هوى وشائبة ، لتخلص الطوايا والنفوس لله رب العالمين . وهذه التربية تنسجم مع التوجيه القرآنى الحكيم : " فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم . . . . " (٢) ، فكانت توجه القلوب والحواس الى رضوان الله ، والى الصبر والتحمل ، حتى يأذن الله بمايشاء لهذه الطليعة الاولى فى حياتها الدنيا ، وفى حياتها الاخرى على السواء .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى عَمّاراً ، وأمه ، وأباه رضى الله عنهم أجمعين - يُعذَّبون أشد العذاب فى مكه ، فما كان يزيد على أن يقول لهم : " صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة" (٣) .

---

(١) الامام البخارى : الجامع الصحيح : كتاب مناقب الانصار ، باب مالقى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكه . الجزء الرابع : ص٢٣٨ - ٢٣٩ ، وانظر : الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٢٦٦ .

(٢) سورة الاحقاف من الآية ٣٥ . (٣) الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣٣٧ .

فالدعوة الاسلامية ،في مرحلة العرض، تحتاج الى نوع خـــاص من الجهاد ،هو : جهاد الصبر، لتمحص المسلم، وتجرده من كل شـــهوة وهوى ،وتتأكد من صلاحيته للعمل الاسلامى ،بعيدا عن كل لون ثقافـــى يتأثر به ،مثل : الثأر، والعصبية للجنس والوطن ،أو حب الدنيا ، وايثـــار الراحـــة .

ان الفترة المكية ،كانت فترة تربية واعداد ،لقوم معينين وســـط ظروف معينة : هى ظروف المجتمع العربى الجاهلى ،الذى يؤثرفى حياتـــه مواريث الآباء والاجداد ،فكان من أهداف هذه التربية : تدريب الداعيـــة المسلم على الصبر واحتمال الشدائد التى لايصبر عليها فى العادة ،حتى يخلص وجدانه وفكره لله رب العالمين .

وان اعداد النفوس وتربيتها : مطلب صعب ،يحتاج الى زمـــن غير قصير، وصبرا طويل ،لكى يعطى فرصة أوسع ،للخصوم والمعانديـــن ، ليتفكروا ،ويتأملوا ،ويتدبروا ،ويبحثوا أسباب رفضهم للدلائل والبراهين التى طال شرحها ،وتكرر عرضها ،ويبحثوا كذلك أسباب تخلق المسلمين بالصـــبر مع القدرة على اتخاذ موقف دفاعى : كما حدث من عمر بن الخطاب -رضـــى الله عنه - الذى بدَّل عنفه فى الجاهلية ،قوة للاسلام والمسلمين ،وغير ظلمـــه وقسوته فى الجاهلية عدلا ورحمة لمبادئ الدعوة ورعاياها ،بعد أن استروحت نفسه عبير الاسلام، واستنشقت رئتاه نسيم الهدى ،فتذوق حلاوة الايمـــان، وانقاد فى قوة عارمة ليكون للدعوة والدعاة ،معيناً ،ومساعداً ،ونصيرا . تلك واحدة من آثار منهج الصبر المتعددة . وشاء الله أن يكون ذلك دائمـــا هو طابع العمل فى الدعوة ،لما يعلمه جل شأنه - من أن بعض المعانديـــن

الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ، ويؤذونهم (مثل عمر) ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الله ، ومن قادة الدعوة المخلصين . (١) .

---

(١) انظر : رؤوف شلبي : الدعوة الاسلامية . ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .

المبحث السادس : اعداد قادة الدعوة

ومن أهم عوامل نجاح الداعية ونشر دعوته بين المجتمع اعداد قادة يتوسم فيهم الايمان والاخلاص بدعوته لمعاونته فى مهمة نشرها فى مختلف المناطق ولقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكوين الجماعة الاسلامية بمكه ، لتكون النواة والاساس والركيزة للمجتمع الاسلامى فى المستقبل - وحين بدأ الرسول الكريم الخاتم - عليه الصلاة والسلام - تربية هذه الجماعه كان يعلم أن مدى رسالته وهدفها هى القضاء على الجاهلية فى كل اتجاهاتها وفى كل امكنتها وأزمنتها ، ومن ثم فقد أعد هذه الجماعة على مفهوم عالمية هذا الدين : لقد رباهم بالقرآن الكريم على وحدة الدين ، ووحدة الرسالة ووحدة المؤمنين فى كل مكان وزمان ، قال تعالى : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبرعلى المشركين ماتدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب." (١)

وكانت التربية على هذه الوحدة من العمق والاستجابة بحيث كانت الجماعة الاسلامية تحس بالحب لجميع أهل الكتاب ، وفى ذلك يقول جل جلاله : " غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" (٢) .

وبهذا المفهوم ، قضى الرسول صلى الله عليه وسلم على العصبية

---

(١) سورة الشورى : الآية ١٣ .

(٢) سورة الروم من الآية ٢-٥ .

الجاهلية فى نفوس المؤمنين ، وجعل آصرة العلاقة ورباط الود : " لا اله الا الله ، محمد رسول الله" مهما اختلفت اللغات والاوطان والجنسيات . وهذه التربية هى الأساس الذى تقوم عليه دعامة المجتمع الاسلامى فى المستقبل ، حيث بُعث محمدٌ صلى الله عليه وسلم للأبيض والاسود والاحمر والأصفر ، للناس كافة ليحيى كرامة الانسان . (١)

لقد حدد القرآن الكريم المهمة الاساسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم صراحةً : فقال عز من قائل : " هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (٢) فقد أحصت هذه الآية الكريمة من مهمات الرسول صلوات الله وسلامه عليه : التعليم والتربية لجماعة المسلمين : تعليم الكتاب والحكمة ، وتربية الأنفس عليهما . وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستغرقا بهذا الجانب، لأنه الجانب الذى يأتى منه كل خير ، ولا يستقيم أى جانب من جوانب الحياة الاّ به . ولا يؤتى الانسان ، ولا تؤتى أمة ، ولا تؤتى الانسانية كلها .. الا من التفريط فى العلم الصحيح والانحراف عنه : إما إلى الجهل ، أو الى مايضر علمه ولا ينفع. (٣)

فالأمة بلا علم ينير لها جوانب حياتها ، وبلا تربية تُعرّف كل فرد من أفرادها واجبه ، تصبح أمة فوضوية : تصرفاتها غير منضبطه .

والظاهرة التى نجدها فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٥٣ - ٥٥٤

(٢) سورة الجمعة الآية ٢ (٣) انظر رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية: ص ٢٠١ .

أنه بدأ ، منذ الايام الاولى لمبعثه ، فى تشكيل قيادة واعية ، لهـا كـل مقو ماتها الفكرية والسلوكية والاخلاقية والتشريعية ، وصهر أفراد هذه القيادة انصهاراً تاماً فى بوتقة الدعوة الى الله . (١)

لقد كانت تربية النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الرعيل ، على المستوى الرفيع نفسياً ووجدانياً . لقد أخذ الداعية الأول صلى الله عليه وسلم على نفسه مسئولية اعداد قيادة يصل بها الفكر الى أرفع مستويات العقيدة : وضوحاً وشمولا ، كما أخذ على نفسه مسئولية حمايتها من الجو الذى تتعرض له إن عَنَّ لواحد منها فى هذه المرحلة شئ من ذلك .

وأما المستوى الوجدانى ، الذى وصلت اليه التربية ، فان سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يمثله أصدق تمثيل ، وكان يومئذ شاباً فى التاسعة عشر من عمره : لقد كرهت أمه دخوله فى الاسلام ، وكان سعد بها باراً رقيقاً مهذبا ، فهددته ألا تأكل ولا تشرب حتى يكفر ويرتد ، والا ماتت فيُعَيَّرَ بها . فما كان من سعد الا أن قال لها : " تعلمين والله ياأُمَّه ، لوكان لك مائة نفس ، تخرج نفساً نفساً ، ماتركت دين هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلى ان شئت أولا تأكلى " (٢)

لقد هانت عليه روح أمه ، ولا يعنيه منها اذا كانت روحاً واحده أو مائة روح ، فليس أمامه مايعدل دين الحق وزنا وثقلا بعد أن هداه الله اليه وشرح صدره بنوره .

---

(١) انظر : سعيد حوى : الرسول صلى الله عليه وسلم - (المؤسسة العربية الحديثة الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) الحلبى : انسان العيون : ١/ ٣١٢ - ٣١٣ وانظر : الواحدى أسباب النزول ص ٣٥٦-٣٥٧ ، الألوس : روح المعانى : ١٩/ ١٣٩ .

وسعد بن أبى وقاص نفسه هو الذى بلغت به قوة العقيدة، ومتانة الايمان أن كان أول من أراق دما فى الاسلام. (١)

لقد ارتفعت قيم العقيدة فى صدور الرجال الى درجة تعلو وتسموفوق كل المعانى الاجتماعية التى درج عليها القوم فى بيئتهم:

دخل حصين على النبى صلى الله عليه وسلم واسطةً من قِبَل قريش، ليحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن الدعوة، وكان ولده عمران رضى الله عنه - أحد تلامذة الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدرسة الأرقم بن أبى الارقم، ضمن كتيبة الدعوة التى يربيها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فما وقف عمران لوالده، ولا أحس باحترام فى نفسه لرجل كافر، مهما كانت قرابته له، فلما فرغ حصين من شأنه، عرض رسول الله صلى عليه وسلم الاسلام عليه، فأسلم فقام اليه ولده عمران: يقبل رأسه، ويديه ورجليه، ورأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذا المشهد فبكى، وقد دخل من ذلك فى نفسه صلى الله عليه وسلم رأفة واشفاقا (٢)

لقد قطعت العقيدة أواصر الود بين الابن وأبيه، فلم يعبأ بدخول رجل كافر الى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم أياً كان ذلك الرجل، حتى ولو كان أبيه، ولما أن شرح الله صدره للاسلام، حتى نهض عمران من مجلسه، يقبله ويوفيه حقه عليه من التكريم والتبجيل، فان آصرة

---

(١) انظر بالتفصيل: الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ٢/٣١٨، الحلبى: انسان: ١/٣١٩ وراجع أيضا الحديث عن هذا الصحابى الجليل فى: "السابقون الاولون" الفصل الاول من الباب الثالث من الرسالة.

(٢) انظر: الحلبى: انسان العيون ١/٣١٨، محمد يوسف الكاندهلوى: حياة الصحابة رضى الله عنهم - مطابع دار النصر بالقاهرة طبعة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م - الجزء الاول: ص ٥٥.

العقيدة أقوى وأمتن من آصرة الدم والنسب.

لقد بات واضحاً فى شعورسعد بن أبى وقاص، وعمران بن حصين وكل تلامذة مدرسة الأرقم بن أبى الأرقم، قول الله تبارك وتعالى فى محكم تنزيله : " وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الىّ ثم الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون " . (١)

وقول عز من قائل : " ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعلمون ." (٢)

فكان ذلك هو مستوى تربية القيادة وجدانياً ، تلك القيادة التى قبلت عن رغبة وايمان ، تحمل أعباء الرسالة ، ولو كان ذلك ثمنه : الاهل والوطن والاقربين .

وكان اعداد القيادة فكرياً وعقلياً يتبع المنهج الربانى الذى نزل به الروح الأمين ، مبلغا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عن رب العالمين

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يبلغهم الوحى ، وكانوا هم بالسليقة والفطرة ، أقدر الناس على تفهم أسلوب القرآن الكريم الذى نزل بلغتهم التى ألقوها ، وكانت صدورهم أكرم وعاء طاهر يعى ويحفظ ماجاء به الوحى الامين ، وكانت عقولهم وقرائحهم نقية صافية ، واسعة الفهم عميقة الادراك . (٣)

تأمل مادار بين النجاشى وجعفر بن أبى طالب رضى الله عنه

---

(١) سورة لقمان : الآية ١٥ .
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٨ .
(٣) انظر رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

حول الدين الجديد وموقفه من عيسى بن مريم عليه السلام: لقد شرح لـه جعفر ،حقيقة هذا الدين،كما تعلمه فى مرحلة تربية القيادة بمدرسة الأرقم بن أبى الأرقم فقال للنجاشى : " بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه، وصدقه ، وأمانته ،وعفافه ،فدعانا لتوحيد الله ، وأن لانشرك به شيئا ، ونخلع ماكنا نعبد من الاصنام ،وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ،وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ،ونهانا عن الغش، وقول الزور ،وأكل مال اليتيم ،وأمرنا بالصلاة والصيام ،فآمنا به وصدقناه ، وحرمنا ماحرم علينا ،وحللنا ما أحل لنا ، فتعدى علينا قومنا . . .فعذبونا . . . ." (١) ثم يقرأ على النجاشى آيات من التنزيل الحكيم،فيبكى هو وأساقفته ،ثم يقول مقالته التاريخية : " ان هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة " (٢) ،ثم حدد له جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه بآيات القرآن ،رأى الاسلام والمسلمين فى عيسى بن مريم أنه هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ،ألقاها الى مريم العذراء البتول . (٣) .

لقد لخّص الصحابى الجليل : جعفر بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، أهم قضايا الدعوة ،كما تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو وزملاءه فى مدرسة الأرقم ،فى هذه المقالة الموجزة الرائعة ، فقد أثبت الوحدانية لله جل جلاله ، والرسالة لمن اصطفاه على العالمين ، ونهى عن الشرك والوثنية ،وأمر بالاعمال الصالحة ،والاخلاق الكريمة ونهى عن الفواحش والدنس ونادى بعبادة الله الواحد الأحد والتى عمادها

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢١٣ ومابعدها ،
وانظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢ / ١٨٠ - ١٨١ .
(٢) ابن هشام : نفس المرجع والمكان . وانظر : ابن الاثير . نفس المرجع والمكان . (٣) انظر: المرجعين السابقين نفس المكان.

الصلاة ثم الصيام . لقد شملت هذه المقالة مايصلح حال الجماعة الاسلامية ويسمو بهم الى مستوى القيادة والريادة للعالم أجمع .

لقد كانت مهمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مركزة حول بناء الجماعة الاسلامية الرائدة ، فآخى بين أفرادها - منذ العمل المكى - على المواساة ، واقامة الحق ، وتحقيق العبودية لله الواحد الأحد . (١) وقد أرسى الوحى الالهى ، قواعد هذه العبودية : فعمق فى شعور الرعيل الأول أن كل شئ فى الوجود مرتبط بمشيئة الله ، وتحت سلطانه وتصرفه وقدرته : قال تعالى فى محكم تنزيله : " انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ." (٢) وأن الله وحده هو الذى يهب الرزق والعمر والولد قال جل شأنه : " له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شئ عليم " (٣) وقال : " .... يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير " (٤) . وقال جل وعلا :" ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " . (٥)

وقد بسط الله لهذه الجماعة الاسلامية - فى الفهم والذكاء ونورانية القلب والمشاعر - ماجعلهم يفهمون حقيقة الدنيا حتى ولو كانت فى أوج عظمتها وكبريائها ، فانها متاع الغرور ، وهى ظل زائل ، وعرض تافه قصير العمر ، خفيف الوزن ، معدوم المعنى ، قال تعالى فى محكم كتابه :

---

(١) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية . ص ٥٥٦ .
(٢) سورة يس : الآية ٨٢ .
(٣) سورة الشورى . الآية ١٢ .
(٤) سورة الشورى : الآيات من ٤٩ - ٥٠ .
(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٦ .

" انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" . (١) فبات في ضمير الجماعة وفي عقلها ،أن هذه الحياة الدنيا لاأمن فيها ولا أطمئنان اليها ولاثبات ولااستقرار على وجهها ، ولايملك الناس من أمرها شيئا . هذه هي الحياة الدنيا أما الحياة الباقية الخالدة التي يدعواليها الله تعالى بقوله : " والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم" . (٢) فهي دار السلام والبقاء والاستقرار وهي التي يهدى الله اليها من يشاء ومن يستحق من عباده المخلصين ،لذلك فقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم قلوب أصحابه من فكرة التبعية لغير الله ،ومايتعلق بها من أخطاء ومفاسد .

وفي هذه المرحلة من الاعداد والتربية ،قد يصاب الاتباع بضيق أقتصادي ،حتى يعوزهم مايسد الرمق ،أو يذهب الظمأ ،فكان النبي صلى اللهعليه وسلم يتكفل في هذه المرحلة بالانفاق على من تدور عليه الدائرة ،سواء من عنده أو من القادرين ، وهذا مانسميه اليوم بالتكافل الاجتماعي : فكان صلوات الله وسلامه عليه اذا أسلم الرجل والرجلان، ممن لاشئ لهما ضمهما الى الرجل الذي في يده السعة فينالا من فضله وطعامه (٣) .

---

(١) سورة يونس:الآية : ٢٤ . (٢) سورة يونس : الآية:٢٥ .

(٣) انظر : البيهقي : دلائل النبوة ٢ / ٤ ،الحلبي : انسان العيون : ١ / ٣٦٦ - ٣٦٧ مقالة عمر بن الخطاب .

لما أسلم خالد بن سعيد ، انتهره أبوه ، وغضب عليه ، وحلف ليمنعه القوت . وبايمان وثقة قال لأبيه : ان منعتني فان الله يرزقني ماأعيش به . فانصرف خالد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يلزمه ويعيش معه.(١)

وتلك قاعدة أساسية فى تربية القادة والدعاة : أن يعزفوا عن الحياة وزينتها ، ويرغبوا الى الله وماعنده . وفى فترة وجيزة من الزمن ، استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يربى جيلا يحب الخير ، ويبغض الشر ، ويتفانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير ، فخرجت نماذج ماعرف العالم - بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام - أقوى منها ولا أصلب فى هذا الأمر . (٢)

روى عن أبى موسى أنه قال : " انتهينا الى النجاشى ، وهو جالس فى مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه ، وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس . . . وقد قال عمرو وعمارة : " انهم لا يسجدون لك " - فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال جعفر : لا نسجد الا لله . " (٣)

انه بمحمد صلى الله عليه وسلم أصبح الضمير يقظاً على اليوم الآخر ، لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها ، اليوم الآخر الذى دعا اليه كل المرسلين ، وغفل عنه جل الناس ، وهو من أهم قضايا الانسان لأنها قضية مصيره ، ويجعلها الانسان أبسط قضاياه ، لغلبة الحس بالدنيا

---

(١) انظر : البيهقى : المرجع السابق : ١ / ٤٢٤ ، الحلبى : المرجع السابق : ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) انظر : سعيد حوى : الرسول : ص ٤٦٧ .

(٣) البيهقى : دلائل النبوة : ص ٢ / ٦٣ ومابعدها .

عليه ،حتى اذا مات الانسان وانكشف له صدقه الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص (١) .

لقد استعذبت أرواح هؤلاء الأوائل رسالة الاسلام ، منحوها النفس والنفيس، وآثروها على كل الوجود ، وسموا بأنفسهم فوق المجتمع الجاهلى بمادياته ومعنوياته - هذه القيادة التى رباها محمد صلى الله عليه وسلم لتتحمل مسئولية نشر الدعوة الاسلامية ،أريد لها أن تنتشر فى ربوع الجزيرة ؛ والاسلام مازال فى مكه ، يسير وتيدا بين الاصفياء المختارين حتى اذا ماظهرت الدعوة جهرا ، وأُذن للنبى صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بها ،كان القادة فى شتى أنحاء الجزيرة العربية وخارجها : أعلام هداية ،تساند ، وتؤيد ، وتصدق ، وتدعو ، وتنشر دعوة الله ،فتظهر رقعة العمل للدعوة على مساحة شاسعة مترامية الاطراف ، وقد وجدت فى كل ناحية منها : داعية يثق فى صدق وايمان برسالته ، ويجاهد فى اخلاص ويقين لنشر دعوة الحق ،فتشتعل الجزيرة عندئذ بمشاعر من النور والايمان ، تتلاقى مع صوت الحق ،الذى يصدع به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكه أم القرى مركز الاشعاع لجميع الدعاة . (٢)

لهذا فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض من أعدهم لتحمل مسئولية قيادة الدعوة ، بالتوجيه الى ديارهم ، يدعون الى الاسلام فى أثناء المرحلة السرية ،حتى اذا سمعوا بظهور النبى صلى الله عليه وسلم جاهرا بدعوته ،فيلحقوا به جنودا أوفياء ، مدربين على الدعوة

---

(١) انظر : سعيد حوى : الرسول . ص ٤٢٩ .

(٢) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

وتحمل أعبائها . ويتضح هذا فى عدة نماذج :

النموذج الأول : فى مكه المكرمه ، نرى الصديق أبابكر رضى الله عنه يدعو الى الاسلام كل من توسم فيه خيرا ، وعرف عنه صلاحاً . لقد كرس جهده الصادق لنشر الدعوة الاسلامية ، وقاد أصدقاءه الى مركز الارشاد : الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمهم الاسلام ويتلو عليهم القرآن ، ويمنحهم من فيوضات النبوة قبساً ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة . وكان النجاح حليفه - بفضل من الله تعالي - فقد أسلم بدعايته : عثمان بن عفان ، الزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم . (١) .

النموذج الثانى : لما أسلم الطفيل بن عمروالدوسى ، على الرغم من الجهد الذى بذلته قريش ، حتى لا يدخل الطفيل فى دين الاسلام ، أدرك الطفيل أنه بدخوله فى هذا الدين ، صار متحملا مسئولية العمل له . فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : " يانبى الله ، انى أمرؤ مطاع فى قومى ، وأنا أرجع اليهم وأدعوهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عوناً فيما أدعوهم اليه . فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل له آية " (٢)

فاذا مضينا نستطلع عمل الطفيل فى حقل الدعوة الى

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢٥٠-٢٥١ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٥٥٩ ، الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣١٢ .

(٢) ابن هشام : المرجع السابق : ١ / ٣٨٢-٣٨٣ .
وانظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٧٢-٧٤ ، السيوطى : الخصائص : ١ / ٣٣٦-٣٣٩ ، الكاندهلوى : حياة الصحابة : ١ / ٢٠٥ - ٢٠٦ .

الله تعالى ، نجده قد دعا أباه ، وزوجته ، ثم دعا قومه ومازال بأرض دوس ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينه ، ومضى بدر ، وأحد ، والخندق ثم قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معه من قومه ، وكانت عدتهم تقرب من ثمانين بيتاً من دوس . (١)

واستمر الطفيل نموذجاً رائعاً من نماذج تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لقادة الدعوة ، جهاداً وصدقاً واخلاصاً ، حتى كان أحد أبطال الجيش الاسلامى الذى حارب طليحه الكذاب فى حروب الرده عهد خلافة الصديق أبى بكر رضى الله تعالى عنه . (٢)

النموذج الثالث : لما أسلم أبو ذر الغفارى ، قال له النبى : صلى الله عليه وسلم " اكتم هذا الأمر ، وارجع الى قومك ، فأخبرهم يأتونى ، فاذا بلغك ظهورنا ، فأقبل " . (٣) ثم قال صلى الله عليه وسلم : " انى قد وجهت الى أرض ذات نخل ، لا أحسبها الا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم (٤) فانطلق أبو ذر ، بهذه الشحنة من التوجيه النبوى ، يدعو الى الله ، حتى أتى أخاه أنيساً ، فقال له أنيس : ماصنعت؟

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٨٤-٣٨٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٣٥٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٧٣-٧٤ ، السيوطى الخصائص الكبرى : ١ / ٣٣٦-٣٣٩ ، الكاندهلوى : حياة الصحابة ١ / ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) انظر : ابن هشام : المرجع السابق نفس المكان ، ابن سعد : المرجع السابق : ٢ / ١٠٨-١٥٧ ، ابن كثير : المرجع السابق : ٢ / ٧٥ .

(٣) الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣١٦ .

(٤) المرجع السابق نفس المكان .

قال : صنعت أنى أسلمت وصدقت . قال : فمابى رغبة عن دينكما ، فانى قد أسلمت وصدقت. قال : ثم احتملنا حتى أتينا قومنا غفار، فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينه وأسلم بقيتهم بعد قدومه صلى الله عليه وسلم ثم تبعتهم قبيلة أسلم فأعلنا اسلامها ايضا مما دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

" غفار : غفر الله لها ، وأسلم : سالمها الله" (١)

هكذا تبدو أهمية اعداد القيادة وتربيتها ، على أسس المنهج الربانى الذى أوحى به الله تعالى الى عبده الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، ومن ثم نشرها فى انحاء الجزيرة العربية لمتخفف عن المركزالرئيسى للدعوة والارشاد فى مكه المكرمه ، أعباء الدعوة فى تلك الديار، فكانوا بذورا طيبة تنموا وتترعرع ، فى ظلال النبوة الكريمة حتى أذن الله تعالى لنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه بالهجرة الى يثرب ، كانوا للدعوة قوة وسندا ليستبدل منهجا جديدا ، بعد أن وضعت لبنة البناء العظيم للأمة الاسلامية فى مكة المكرمه . (٢) .

---

(١) الامام مسلم : الصحيح : كتاب فضائل الصحابة : باب فضائل أبى ذر رضى الله عنه . وانظر: البيهقى : دلائل النبوة ١ / ٤٥٧-٤٥٨ ، ابن كثير: السيرة النبوية : ١ / ٤٤٧-٤٥١ ، ابن حجر: فتح البارى : ٨ / ١٧٤-١٧٥ (طبعة مصطفى الحلبى وأولاده بالقاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م) ، الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣١٦-٣١٧ .

(٢) انظر : رؤوف شلبى : الدعوة الاسلامية :ص ٣٠٩-٣١٠ .

الباب الثالث

أعوان الدعوة ومعارضوها

الفصل الأول

السابقون الأولون

"..رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر ، وما بدّلوا تبديلا " (١) .

" محمد رسول رسول الله والذين معه : أشداء على الكفار رحمـــاء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا . . " (٢)

لقد بلغ السابقون الأوّلون من الايمان بالله ، والثقة برسوله الكريـم مبلغا جعلهم يستهينون بكل ما لاقوه من تعذيب ،وعنت ، واضطهـــاد ، ويبذلون فى سبيل الدعوة الى الله كل غال ونفيس .

وكيف لا ؟ . . وقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلـــم يتلقون المنهاج الربانى للدعوة فى مدرسة النبوة الخالدة الرشيدة ، علـى يد معلمهم الأول ، ورائدهم المعصوم ، يتخذونه قدوتهم الحسنة ،وينهجون نهجه المستقيم ، فاختصوا بذلك بأمور ، وتميزوا بميزات يستحيل أن تتيسـر لمن بعدهم ، يمكن أن نوجز بعضها فيما يلى (٣) :ـ

(١) ـ كانوا يتلقون المنهاج الربانى ؛ والوحى يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم والسماء متصلة بالأرض بأصداء الوحى . فكان نـزول الوحى أمرا عظيما فى حياتهم ، كانوا يشعرون بعظمته . . فيشدهم الى الايمان ، ويحسّون بآثاره . . فيهز وجدانهم ، ويدفعهم الى البذل والفداء فى أنقى صوره وأعلى مراتبه .

---

(١) سورة الاحزاب : من الآية ٢٣ . (٢) سورة الفتح : من الآية ٢٩ .
(٣) أنظر : عدنان النحوى : دور المنهاج الربانى فى الدعوة الاسلامية : ص ١٢٣ - ١٢٧ (مكتبة الاعتصام بالقاهرة ـ طبعة أولـــى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) .

(٢) - كانوا يتلقون هذا المنهاج الربانى بأصليه ، الكتاب والسُّنـــــة ، تلقياً مباشراً من رسولهم وقائدهم وأستاذهم ومربيهم صلوات اللـــه وسلامه عليه فكانوا يسألون فيجابون ، وكانوا يرون ويسمعون . . لا شك فى رواية ، ولا ريب فى حديث . كانت أمامهم القدوة الفـــذّة الفريدة ، فى كل يوم ، ومع كل موقف . لقد كانت صحبة الرســـول وحدها مدرسة خالدة لا تتكرر . يقول الله تعالى فى محكم تنزيله : "لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلـــو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين " (١) .

فارتبط القرآن الكريم ، فى قلوبهم ، بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم : أحاديثه ، وأفعاله ، وبيانه .

(٣) - كانوا يعيشون أحداث النزول ، ووقائعها ، ولحظاتها مع كل مـــا فيها من روعة وجلال ، وتجارب ومعاناة ، ونعمة وشدة ، ورخـــاء وبلاء . كانوا يعيشونها فى مكة المكرمة ، مع صدود قريش، وتعذيبها للمؤمنين (كما عاشوها فى المدينة المنورة مع كل أحداثها : فى بدر وأحد وحنين والخندق وسائر ميادين الجهاد ، وفى عرفة ومـــنى)، هنا وهناك ، فى ميدان النبوة ، وساحات الايمان . مع المقاطعة ، والجوع ، والعطش والحرمان ، مع الدعاء والقيام والابتهال ، بـــين

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٤ .

التضرع والخوف ، والأمل والرجاء ، والفرحة والحزن ، والعسر واليسر ، فارتبطت الآيات فى صدورهم بالأحداث : تنبض لها القلوب ، ويهتز لها الشعور ، وتهوّن عليهم معاناتهم فى سبيل الله سبيل نصرة ورسوله ، ونفتح فى نفوسهم آفاقا جديدة وآمالا عريضه وثقة كاملة بالنصر والفوز : فتفجرّ فيهم الطاقات ، وتضاعف من الحماس .

(٤) - لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوم هم أهل الفصاحة والبيان ، وأرباب البلاغة والتبيان ، يتسابقون فى ميادينها ، ويعقدون لها المواسم والأسواق ، فلما جاءهم القرآن الكريم : أعلى بيانا وأعظم فصاحة ، تحدّاهم ، فأعجزهم عن بلوغه ، حتى اذا سمعه الأعرابى الأمّى : أسره بيانه واعجازه ، وخفقت له جوارحه ، وهزته آياته ، واثقين أنه كلام فوق كلام البشر ، فزادهم ذلك ثقة فى إمامهم وقائدهم صلى الله عليه وسلم ، وايماناً برسالته ، ودعوته الى الله .

لقد ظلت مدرسة النبوة الخالدة تعمل وتربى وتؤدب منذ أن بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وطوال حياته . ثم امتد عطاؤها بعد ذلك ، فقام عليها صحابته وتلامذته رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وكان من فضل الله تعالى ، على عباده المخلصين المؤمنين التابعين ، أن يعوضهم عن هذه الصحبة الشريفة الكريمة - بعد أن انقضت بانقضاء رائدها وقائدها - صلوات الله وسلامه عليه بالأجر والثواب ، والبركة والخير ،

لأنهم آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا عملا صالحا ، واتبعوا ما أنزل الله تعالى ، وتأسّوا بنبيه ورسوله عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى ،وقوله الحق : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم " (١) .

كان السابقون الأولون هم عون الدعوة وعضدها القوى بعد الله عز وجل : فأم المؤمنين : خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكنه ، ووزيره ، ومديرة شئونه ساندت الدعوة منذ اللحظات الأولى ، فى شخص زوجها : المصطفى ؛ الداعية الأول فى الاسلام عليه الصلاة والسلام : فهدّأت من روعه ، وبشّرته بالنبوة ـ حينما قصّ عليها أمره مع جبريل عليه السلام فى غار حراء ، قائلة : " أبشر يا ابن عم ،واثبت . فو الذى نفس خديجة بيده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة " (٢) ثم أكّدت بشراها له بتلك النبوة ، عندما انطلقت . من فورها ـ الى ابن عمها : ورقة بن نوفل ، تخبره بما حدثها به زوجها الكريم عليه الصلاة والسلام فيؤيد رأيها ، ويقول : " قدوس ، قدوس . . لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذى كان يأتى موسى ، وانه لنبىّ هذه الأمة . . . فليثبت " (٣) .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١/٢٣٦ - ٢٣٨ .
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

وكان منها رضى الله عنها هذه التجربة الذكية ـ عند ما زاره جبريل ـ عليه السلام ـ فى أيام الوحى الأولى ، فبعثت فى نفسه صلى الله عليه وسلم الثقة والطمأنينة والسكينة مؤكدة له أن ما يراه حق : " وانه لَمَلَكٌ وما هذا بشيطان (١) " .

فلما تأكد أمر الوحى ، كانت خديجة رضوان الله عليها أول من آمن بالله ورسوله ، وصدّق بما جاء به ، فآزرته على أمره ، وعاونته على دعوته الى الله : تصدقه ، وتثبته ، وتهوّن عليه أمر الناس ، فخفف الله بها عن نبيه صلى الله عليه وسلم (٢) .

إن الظروف المادية الحسنة ، التى كانت تنعم بها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قد أعفت النبى صلى الله عليه وسلم من عناء الكفاح اليومى فى سبيل طلب لقمة العيش ، فأتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع الى التأمل ، وميل الى التفكير المستغرق ، وما شارف الأربعين من عمره صلى الله عليه وسلم ، حتى كان قد ألف الخلوة فى غار حراء ، وما كانت خديجة رضى الله عنها ، فى وقار سنها ، وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت ، فاذا انطلق الى غار حراء ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد

---

(١) راجع قصة هذه التجربة الذكية من خديجة رضى الله عنها مع جبريل عليه السلام فى : المرجع السابق : ١ / ٢٣٩ ، وأيضا فى : ابن الأثير : أسد الغابة : ٥ / ٤٣٣ ، وموضوع حصافة خديجة بالفصل الأول من الباب الأول.

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٤٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٥ / ٤٣٣ .

وحدتـــه (١) .

ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة الى جانب زوجها النبى المصطفـــى صلوات الله وسلامه عليه تنصره وتعينه على احتمال أقسى ضـــــروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة الى شعب أبى طالب ، بعد أن أعلنت قريش عليهم حربا مدنيـــة لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة (٢) ، لـم تتردد خديجة رضى الله عنها فى الخروج مع زوجها ، وقامت تتبع رجلهـــا ونبيها صلى الله عليه وسلم ، وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد ، وأقامت هنالك فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات ، تذوق مع الرسول صلى الله عليه وسلم - ومن تبعه من قومه - أهوال الحصـار المنهك ، وتكافح الوهن الذى أخذ يدب الى جسدها منذ جاوزت الستين ، كيما تظل الى جانب زوجها الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى معركته الفذة مع كفار قريش (٣) .

ولما فشل الحصار الظالم - أمام ذلك الايمان الراسخ الصـــادق ، وآن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعود الى بيته فى مكة ، تحاملت خديجة

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٢٥٣ ، المحب الطبرى : السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين (مكتبة التراث الاسلامى - حلب - بدون تاريخ) ص ١٩ ، بنت الشاطئ : نساء النبى صلى الله عليه وسلم (دار الكتاب العربى - بيروت - بدون تاريخ) ص : ٣٨ - ٣٩ ، وراجع الفصل الأول : مقدمات الدعوة - من الباب الأول من هذه الرسالة .

(٢) أنظر : ابن هشام : المرجع السابق ١/٢٥٤ ، الطبرى : تاريـــخ الرسل والملوك ٢/٢٠٦ - ٢٠٧ ، وراجع : الفصل الثالث : القوى المضادة من الباب الثالث من هذه الرسالة .

(٣) أنظر : نفس المراجع والأماكن السابقة ، بنت الشاطئ : نساء النبى: ص ٤٢ - ٤٣ .

رضى الله عنها ، حتى بلغت فراشها ، وقد نال منها الاعياء ،واستنفذ الاضطهاد والعذاب ما أبقى لها الزمن من قوة فى عامها الخامس والستين ، فرقدت هناك ثلاثة أيام ، وزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم الى جانبها ، حتى أسلمت الروح الى بارئها ، وكان ذلك قبل هجرته صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين (١) .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول فى فضلها ومنزلتها عند الله : " أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب " (٢) ، وعندما سألته ابنته فاطمة رضى الله عنها عن أمها بعد وفاتها قال : " هى بين مريم وسارة فى الجنة " (٣) رضى الله تعالى عنها وأرضاها .

والصدّيق : أبو بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه أول من أسلم من الرجال ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، وفى الغار ، وفى الهجرة (٤) شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالسبق الى الاسلام

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤١٦ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢/ ٢٢٩ ،ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الاصحاب (دار نهضة مصر للطبع والنشر) : ١/ ٣٨ ،ابن الاثير : أسد الغابة : ٥/ ٤٣٩ ،المحب الطبرى : السمط الثمين : ص ١٩ ، ٣٢ .

(٢) ابن هشام : نفس المرجع : ١/ ٢٤١ ، ابن الاثير : نفس المرجع : ٥/ ٤٣٨ ، المحب الطبرى : نفس المرجع : ص ٢٧ - ٢٨ ، ٣٢ .

(٣) المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .

(٤) أنظر : المسعودى : مروج الذهب : ٢/ ٢٨٣ ، ابن الاثير: أسد الغابة : ٣/ ٢٠٥ ، ٢١١ ، ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة : ٤/ ١٦٩ .

فقال : " ما دعوت أَحَداً الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوه (١) ونظر، وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عَكَمَ (٢) عنه حين ذكرته لـــــه ، وما تردد فيه (٣) " .

فلما أسلم رضى الله عنه أظهر اسلامه ،ودعا الى الله والى رسولـه . وكان أبو بكر رجلا مَأْلَفاً لقومه ، مُحبّباً ،سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريـش، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير أو شر . وكان رجلاً تاجراً ذا خلـق ومعروف . وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمْر : لعلمـــه وتجاربه وحسن مجالسته . وكان اليه الاشناق فى الجاهلية ـ والاشْنـــاق : الديّات ـ كان اذا حمل شيئا قالت فيه قريش : صّدقوه وأمضوا حمالته ،وحماله من قام معه أبو بكر ،وان احتملها غيره ، خذلوه ، ولم يصدّقوه (٤) . لذلـك ، فقد مّهدت له هذه الصفات . . الطريق الى الدعوة : فجعل يدعو الى الله ، والى الاسلام : من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه ، فأسلم على يديه جماعة لمحبتهم له وميلهم اليه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العـــــوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له ، فأسلموا ،وصلوا .

---

(١) كبوة : تأخير وقلة اجابة . (أنظر: ابن منظور ـ لسان العرب مادة ك ب و) .

(٢) عكم : تلبث (أنظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة عكم) .

(٣) ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٢٥٢ ، ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٠٦ .

(٤) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ابن عبد البر: الاستيعاب : ٣/ ٩٦٦ ،ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٠٦ ، ٢١٤ .

فكان هؤلاء النفر الثمانية (١) الذين سبقوا الناس بالاسلام فصلّوا وصدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جاءه من عند الله . (٢) .

وان من يتأمل هؤلاء الخمسة ، الذين دخلوا الى الاسلام ـ في فجر أيامه ـ بدعوة أبى بكر رضى الله تعالى عنهم أجمعين ليتبيّن بكل وضوح ، ما كان يتمتع به الصديق من اصابة فى الرأى ،وبعد فى النظر : فهم نصف العشرة المبشرين بالجنة فى حياتهم ، وهو سادسهم . (٣)

وفضلا عن هذا كان رضى الله عنه مُنفقاً فى سبيل الله باذلاً في سبيل نشر الدعوة : فعن اسامة بن زيد عن أبيه رضى الله تعالى عنهما أنه قال : كان أبو بكر معروفا بالتجارة ، ولقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أربعون ألف درهم ، فكان يعتق منها ، ويقوى المسلمين ،ويعولهم وينفق منها فى سبيل الله ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهم ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما نفعنى مال ما نفعنى مال أبى بكر (٤) . فلقد أعتق سبعة ،كلهم كان يعذب فى سبيل الله : أعتق بلالاً ، وعامر بن فهيره ، وزنيره ، والنهدية وابنتها ، وجارية بنى المؤمّل ، وأم عبيس (٥) ،اشتراهم جميعاً من ماله ،

---

(١) وردت فى ابن هشام حيث يقصد مع هؤلاء الخمسة : أبو بكر ، وعلى ، وزيد (راجع ١ / ٢٤٥ - ٢٤٨) .

(٢) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٣) أنظر : ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٣٧٧-٣٧٨ .

(٤) أنظر : ابن سعد : الطبقات : ٣/ ١٧٢ ، ابن عبد البرالاستيعاب: ٣/ ٩٦٦ ، ابن الأثير : أسدالغابة : ٣/ ٢١٨ ، ابن حجر: الاصابة فى تمييز الصحابة : ٤/ ١٧٢ (طبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر) .

(٥) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣١٨ - ٣١٩ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ٢١٨ ، ابن حجر : الاصابة : ٤/ ١٧٢ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٩٣ .

ثم أعتقهم فى سبيل الله ، حتى أن أبا قحافة (والده) قال له يوما :"يابنى، انى أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك اذ فعلت ما فعلت ، أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ، ويقومون دونك ؟ فما كان من أبى بكر رضى الله عنه الاّ أن قال : يا أبت انى انما أريد ما أريد ، لله عز وجل (١) . انه لا ينبغى من وراء ذلك جاها ولا قوة ولا منعة : انما بفعله فى سبيل الله ، وعلى طريق الدعوة الى الله .

وكان رضى الله عنه عظيم الصبر متحملا الاذى فى سبيل الله ، مآزرا لرسوله : فعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت : لما اجتمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ،ألحّ أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الظهور ، فقال : يا أبا بكر : انا قليل . فلم يزل أبو بكر يلحّ ، حتى ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفوق المسلمون فى نواحى المسجد : كل رجل فى عشيرته . وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ـ فكان أول خطيب ـ بعد النبى ـ يدعو الى الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه . وثار المشركون على أبى بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوا فى نواحى المسجد ضربا شديدا . ووُطىء أبو بكر ، وضُرب ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق : عتبة بن ربيعه ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ،ويحرفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبى بكر ، حتى مايعرف وجهه من أنفه . وجاء بنو تيم (٢) يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر ،

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣١٩ ،ابن كثير: السيرة النبوية : ١/ ٤٩٣ .

(٢) بنو تيم : هم قبيلة أبى بكر (راجع نسبه فى ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٠٥) .

وحملته فى ثوب ، حتى أدخلوه منزله . . ولا يشكون فى موته . ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد ، وقالوا : والله ، لئن مات أبو بكر ، لنقتلن عتبة ابن ربيعة . ورجعوا الى أبى بكر ، فجعلوا يكلمونه حتى أجاب وتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فمسّوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه ، أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئا أو تسقيه اياه . فلما خلت به ، ألحّت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : والله مالى علم بصاحبك . فقال : اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب ، فاسألها عنه . فخرجت حتى جاءت أمّ جميل . فقالت لها : ان أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟ . . فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وان كنت تحبين ، أن أذهب معك الى ابنك . قالت: نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دنفا . فدنت أمّ جميل ، وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله ، ان قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وانى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ (فبالرغم مما هو فيه ، فما كان يشغل باله ويلحّ على تفكيره الاّ هذا السؤال الذى كرره عدة مرات ! !) قالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا شىء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم . قال : فان لله علىّ أن لا أذوق طعاما ، ولا أشرب شرابا ، أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمهلتاه ، حتى اذا هدأت الرِّجْلُ ، وسكن الناس ، خرجتا به ، يتكىء عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبّله . وأكبّ عليه المسلمون . ورقّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة

شديدة . فقال أبو بكر : بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس بى بأس ، الا ما نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمّى ،برّة بولدها ، وأنت مبارك ، فادعها الى الله ، وادع الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها الى الله ، فأسلمت !!! (١) .

ان هذه الرواية ، توضح بجلاء ، مدى ما يتمتع به الصدّيق ، من صفات التضحية والفداء ، وتحمل البطش والاذى فى سبيل الدعوة . ثم ،ها هو ذا ، بينما هو فى حالة من الوهن والاعياء (يستند على امرأتين)يسأل عن رسول الله ، وما أن وجده بخير ، حتى انتهز الفرصة السانحة ، وأمّه على ما هى عليه من العطف والحنان نحوه ، ومن الغضب والغيظ من المشركين الكفار، فيسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها ، ويدعوها الى الله ، وما أن استجاب له الرسول وفعل ، حتى أضاء قلبها نور الايمان . . فأسلمت . وكسبت الدعوة رصيداً جديداً من السابقين الأولين .

لقد أوذى أبو بكر رضى الله عنه على نحو يتعذر على الفرد العادى تحمله ، حتى ضاقت عليه مكة ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما رأى ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الى الحبشة ، فأذنَ له . فخرج رضى الله تعالى عنه مهاجرا ، حتى اذا سار من مكة يوما ، أو يومين ، لقيه ابن الدغنّه ، وهو يومئذ سيد قومه ، فقال ابن الدغنة : الى أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي ١ / ٢٩٠ ، ابن عبد البر: الاستيعاب ٣ / ٩٦٧ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٣ / ٣١٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١ / ٤٣٩ - ٤٤١ .

وآذونى ، وضيّقوا علىّ . قال : ولم ؟ فوالله انك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، أرجع ، فأنت فى جوارى . فرجع معه ، وكفّت عنه قريش . ومالبث الداعية الكريم رضى الله تعالى عنه أن ردّ على ابن الدغنة جواره ، وهو أحوج ما يكون اليه ، عندما أحسّ منه قيدا على خلوته مع الله ، وأملى عليه شروطا فى عبادته الى الله ، ومنعه من نشاطه فى الدعوة الى الدين الحق ، الذى لن يقبل الله غيره دينا (١) .

وتتجلى صدّيقية الصدّيق رضى الله عنه فى موقفه من معجزة الاسراء والمعراج ؛ ففى الوقت الذى ارتد فيه بعض ضعاف الايمان من المسلمين ، عندما حدثهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن معجزة اسرائه ومعراجه (٢) ، لم يتردد أبو بكر رضى الله عنه فى تصديقه وتأييده ، فيقول لمن أبلغه وهو منكر له : " والله ، لئن قاله (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) فلقد صدق . فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض - فى ساعة من ليل أو نهار - فأصدّقه !! فهذا أبعد مما تعجبون منه . . . . ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسمع منه الخبر ، فقال له : صدقت ، أشهد أنك رسول الله " (٣) .

فما كان من الرسول النبى صلى الله عليه وسلم ازاء هذا الايمان الكامل ، والثقة التامة التى لمسها من أبى بكر ، الاّ أن قال له : " وأنت يا أبا بكر : الصدّيق " (٤) .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣٧٢ - ٣٧٤ ، الامام البخارى : الجامع الصحيح : ٢/ ١٩٠ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٦٣ - ٦٦ .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣٩٨ ، ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/ ٢٠٦ .(٣) ابن هشام : المرجع السابق - نفس المكان ، وانظر : ابن الاثير : نفس المرجع والمكان .

(٤) أنظر : ابن هشام : نفس المرجع والمكان ، وانظر ابن الاثير نفس المرجع .

فيومئذ سمّاه : الصّدّيق (١) . وصدق الرسول الكريم : فلقد صدّقه أبو بكر بادىء ذى بدء ، عندما كانت الدعوة ما تزال فى مهدها ، وصدّقه فى كل خبر يأتيه من السماء ، وها هو ذا يصدّقه فى المعجزة الكبرى ، التى تحار فيها العقول ، ولا يسلم بها الآ كل مؤمن صادق الايمان .

وهذه صورة فريدة من التضحية بالروح والفداء لا نعلم أن أحدا سبق أبا بكر اليها : لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج الى يثرب ، أتى أبا بكر ، فخرجا من خوخة فى ظهر بيته . فجعل الصّدّيق رضى الله تعالى عنه يمشى ساعة بين يديه ، وساعة خلفه ، حتى فطن الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا بكر ، مالك تمشى ساعة خلفى ، وساعة بين يدى ؟ قال : يارسول الله ، أذكر الطّلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرّصد فأمشى بين يديك . فقال : يا أبا بكر لوكان شىء لأحببتَ أن يكون بك دونى ؟ قال الصدّيق : نعم ، والذى بعثك بالحق ، ما كانت لتكن ملمّة الا أحببت أن تكون لى ، دونك . فلما انتهيا الى الغار من ثور ، قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله ، حتى أدخل فأحسّه وأقصّه ، فان كانت فيه دابة ، أصابتنى قبلك . ودخل أبو بكر ، فاستبدأ الغار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : انزل يا رسول الله . فنزل . وكان بالغار جحر ، فخشى أبو بكر أن يخرج منه شىء يؤذى رسول الله ، فألقمه قدمه ، وكانت به أفاعى وحيّات ، جعلن يضربنه ويلسعنه ، وهو صامت متماسك لا يزعج رسول الله ، حتى فاضت دموعه رغما عنه ، فلاحظها الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٩٩ ، وابن الاثير : أسد الغابة : ٣ / ٢٠٦ .

وقال له : يا أبا بكر ، لا تحزن ، ان الله معنا . فأنزل الله سكينته وطمأنينته على أبى بكر ـ لأنّ النبىّ لم تزل السكينة معه (١) . وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبد الله ، أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما ـ اذا أمسى ـ بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . كما كانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام ـ اذا أمست ـ بما يصلحهما (٢) .

تضحية منقطعة النظير ، وفداء ليس له مثيل ،لا يصدر الا ممن كان فى ايمان أبى بكر ، وثقته بقائده المعصوم صلى الله عليه وسلم : فلذ تى كبده ، وهما فى مقتبل العمر ، يعرّضهما لخطر مرتقب يخشى منه على حياتهما معا ، لما كان قد وصل اليه مشركو قريش من الغيظ والغضب من محمد صلى الله عليه وسلم وكلّ من يسانده أو يعاونه .

لقد قدّم الصديق الكثير فى سبيل الله ، لخدمة الدعوة والثبات على الحق ، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتأييده فى كل مراحل دعوته. رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

وهذا الفاروق : عمر بن الخطاب يسلم ،فيتردد صدى اسلامه فى أرجاء مكة ،ويقض مضاجع القوم الكافرين ،ولا يصدقوته : أيمكن أن يسلم عمر ؟ لابد أن من نقل الخبر وهم فيه ، كما وهمت أم عبد الله بن عامر حين مرّ بها عمر بن الخطاب وهى وأهلها يرتحلون الى أرض الحبشة ، وقد خرج زوجها : عامر بن ربيعة فى بعض حاجاتهم :

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٤٨٥ - ٤٨٦ ، البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٢٠٩ - ٢١٤ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٢٣٤ — ٢٣٨ .

(٢) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

قال لها عمر : انه للانطلاق يا أم عبد الله ؟ فردت عليه وقد ذكرت ما كانوا يلقون من البلاء والاذى : نعم والله ، لنخرجن في أرض الله . آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله مخرجا . فما زاد عمر على أن قال : صحبكم الله (١) .

فأحست منه رقة لم تكن تراها من قبل ، وتحدثت بذلك الى زوجها عامر حين عاد ، وقالت فيما قالت : يا أبا عبد الله ،لو رأيت عمر آنفا ،ورقته وحزنه علينا ؟ سألها زوجها مستخفا بسذاجتها وطيب قلبها : أطمعت في اسلامه ؟ أجابت : نعم . قال عامر : " فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار ابن الخطاب (٢) " !

وتناقل المشركون كلمته ، وما منهم الا وهو على رأي عامر بن ربيعه ، يأسا من اسلام عمر بن الخطاب ، لما كان يرى من غلظته وشدة قسوته على الاسلام . وما كان الذي ظنته أم عبد الله بن عامر من رقته الا وهما . هذا هو ما تعلل به المشركون وهم يسمعون ما أنكرت آذانهم من القصة الغريبة عن اسلام عمر بن الخطاب (٣) .

خرج متوشحا سيفه ، وأخذ مسراه الى الصفا في عينيه بريق يتوهج . فهناك عند الصفا بيت يعرفه ، سمع أن محمدا يجتمع فيه مع رهط من صحابته ، نحو أربعين (٤) ، ليعبدوا رب محمد . وفي طريقه الى هذا البيت عند

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٣٤٢ - ٣٤٣ ، البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ٣ - ٩ .

(٢) ابن هاشم : نفس المرجع والمكان ،وانظر : البيهقي : نفس المرجع والمكان . (٣) بنت الشاطئ . مع المصطفى ص ١١٦ .

(٤) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٣٤٣ ، البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ٩ .

الصفا لقيه نعيم بن عبد الله فسأله : أين تريد يا عمر ؟ . أجاب : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتله . قال له نعيم : غرّتك نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ سأله عمر مستريبا : وأى أهل بيتى ؟ قال نعيم : " صهرك وابن عمك ، سعيد بن زيد بن عمر ، وزوجه فاطمة بنت الخطاب ، أختك . فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما . (١) .

وسلك الخبر مسمع عمر ، فعدل عن طريق الصفا وانطلق الى بيت صهره وابن عمه ، يهدر بالغضب والوعيد .

فلما دنا من البيت ، توقف يصغى الى تلاوة خافته ، ثم اقتحم الباب ، فلمح أخته فاطمه تخفى صحيفة معها . . سأل وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد : ماهذه الهيمنة (٢) التى سمعت ؟ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

وبطش بابن عمه سعيد بن زيد ، فقامت فاطمة لتكفّه عن زوجها ، فضربها فشجّها ، وعندئذ قالا معا ، فى تحدّ واصرار :

" نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك " (٣)

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١/٣٤٣ ، وانظر البيهقى : دلائل النبوة : ٢/٩ .

(٢) الهينمه : كلام لا يفهم (راجع : السهيلى : الروض الآنف : جـ ٣ ص ٢٧٨) .

(٣) ابن هشام نفس المرجع السابق ١/٣٤٤ - ٣٤٥ ، وابن كثير : السيرة النبوية : ١/٤٤٠ - ٤٤٢ .

وفجأة ، تراخت قبضة عمر عن سعيد ، وكأنما أخذ بايمانهما أو كأنه ندم حين رأى دم أخته يتدفق من أثر شجّته . قال لها مسترجعا : "أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون منها آنفا (فقد كان معهما خباب بن الأرت) ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد "(١) .

وأقسم لها بآلهته ،ليردّن الصحيفة اليها بعد أن ينظر ما فيها . لكنها أبت عليه أن يمسّها حتى يطهر . فقام عمر فاغتسل ،فأعطته اياها ، وفيها سورة طه . وقرأها عمر ،فبدا عليه الخشوع وقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ـ وكان قد تغيب في بعض البيت ـ فقال له :"يا عمر ، والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ،فاني سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام ،أو بعمر ابن الخطاب ، فالله الله ياعمر . فقال له عند ذلك عمر : فدلّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم "(٢) .

وعاد السارى فأخذ طريقه الى الصفا .

طرق باب البيت على المصطفى وصحابته ، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب ، ثم أقبل على المصطفى ، فقال وما يخفى فزعه :يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف . قال عليه الصلاة والسلام: ائذن له.

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٣٤٤ - ٣٤٥ ، وانظر : ابن كثير السيرة النبوية : ١/ ٤٤٠ - ٤٤٢ .

(٢) ابن هشام : نفس المرجع والمكان ، وانظر : ابن كثير : نفس المرجع والمكان .

ونهض اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بحجزته (١) أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة . وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ أجاب عمر : جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . (٢)

عندئذ كبر المصطفى عليه الصلاة والسلام تكبيرة عرف منها أهل البيت من الصحابة : أن عمر قد أسلم . وسرى صداها فى أرجاء مكة بخبر اسلام عمر ، فبات المشركون بين مصدق ومكذب ، حتى غدا عمر عليهم وهم فى أنديتهم حول الكعبة ، وقد تقدمه جميل بن معمر الجمحى - وكان أنقل قريش للحديث - فصاح بأعلى صوته : يا معشر قريش ، ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ . قال عمر من خلفه : كذب ، ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . وثاروا اليه ، فواجههم فردا لا يباليهم ، ثم أخذ مجلسه قرب الكعبة وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا ! (٢) .

وأقام عمر رضى الله تعالى عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ، فلم يطق التخفّى ، وراح يسأل النبى : يارسول الله ، ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ فقال : نعم ،

---

(١) الحجزة : موضع شد الازرار (أنظر : ابن منظور : لسان العرب: مادة حجز) .

(٢) راجع قصة اسلام عمر فى : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣٤٢-٣٤٩ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٤ / ٥٧ - ٦٦ ، الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٢٧٢ - ٢٧٧ .

والذى نفسى بيده ، انكم على الحق ان متم أو حييتم . قال : ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق : لتخرجن . فما لبث النبى صلى الله عليه وسلم أن خرج فى صفين : احداهما فيه عمر ، والآخر : فيه حمزة ولهما كديد كأنه كديد الطحين . فدخلوا المسجد ، وقريش تنظر ، وتعلوها كآبة ، فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان (١) .

ويومئذ ، سماه النبى صلى الله عليه وسلم الفاروق : عن أيوب بن موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ، وهو الفاروق : فرق الله به بين الحق والباطل " (٢) ولقد استجاب الله لنبيه الكريم حينما دعاه مخلصا : " اللهم أيد الاسلام بعمر بن الخطاب " (٣) . عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال : " لما أسلم عمر ، كان الاسلام كالرجل المقبل : لا يزداد الا قُربا ، فلما قتل ، كان الاسلام كالرجل المدبر : لا يزداد الا بُعدا(٤) " .

وأذن الله للمسلمين بالهجرة الى المدينة ، فهاجر اليها عمر ولكن على نحو فريد : عن على بن أبى طالب أنه قال : " ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر ، الا مختفيا ، الا عمر بن الخطاب : فانه لما همّ بالهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وامتضى فى يده أسهما ، واختصر عنزته (٥) ، ومضى قِبَل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى

---

(١) أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ٢٧٠ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٤ / ٥٧ .

(٢) ابن سعد : نفس المرجع والمكان ، وانظر : ابن الاثير : نفس المرجع.

(٣) ابن الاثير : المرجع السابق ٤ / ٦٦ ، وانظر : ابن حجر: الاصابة : ٤ / ٥٩٠ . (٤) ابن الاثير : المرجع السابق ٤ / ٥٨ .

(٥) العنزة : عصا ،لها زج كالرمح الصغير (انظر : ابن منظور: لسان العرب : مادة عنز) .

المقام فصلى متمكناً أيضاً ، ثم وقف على الحلق : واحدة ، واحدة . فقال لهم : " شاهت الوجوه ، لا يرغم الله الاّ هذه المعاطس : من أراد أن يثكل أمه ، أو يوتم ولده ، أو يرمل زوجته : فليلقني وراء هذا الوادى " . فما تبعه أحد ، الاّ قوم من المستضعفين ـ الذين لا يجرؤون على الهجرة بغير سند أو معين ـ علّمهم وأرشدهم ، ومضى لوجهه " (١) .

وقدم عمر بن الخطاب الى المدينة ، فى عشرين راكبا ، فسألـه الأنصار : " ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال :"هو على إثـرى " (٢) .

عن عبد الله بن مسعود ،قال : " كان اسلام عمر : فتحاً ، وكانت هجرته : نصراً ، وكانت امارته : رحمةً ، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم : قاتل قريشا ، حتى صلّى عند الكعبة ، وصلينا معه " (٣) .

وعنه أيضا ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : " ما زلنا أعزة ، منذ أسلم عمر " (٤) .

رضى الله تعالى عن الفاروق وأرضاه .

---

(١) ابن الاثير : أسد الغابة ٤/٥٨ .
(٢) المرجع السابق : ٣/٢١١ ، نفسه أيضا : ٤/٥٩ .
(٣) ابن هشام : سيرةالنبى ١/٣٤٢ ، وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/٢٧٠ ،ابن الاثير : أسد الغابة ٤/٥٨ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٧٠ ، وانظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢/٣ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/١١٤٩ .

ومن السابقين الأوّلين الذين جعلهم الله عونا لرسوله فى نشر دعوة الاسلام : ذو النورين : عثمان بن عفان رضى الله عنه ،أسلم مبكرا بدعوة أبى بكر رضى الله تعالى عنهما ـ فأخذه عمه الحكم بن أبى العاص بن أميه ، فأوثقه رباطا ، وقال : أترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ والله ، لا أحلّك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين . فقال عثمان : والله ، لا أدعه أبدا ، ولا أفارقه . فلما رأى الحَكَمْ صلابته فى دينه ، تركه(١) .

وهاجر الى الحبشة الهجرتين جميعا ، ومعه فيهما امرأته : رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان أول من هاجر الى الله ـ عز وجل ـ بأهله ـ بعد لوط ـ عليه السلام ـ فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم . فقدمت امرأة من قريش ، فقالت : " يا محمد ، قد رأيت ختنك ، ومعه أمرأته " . قال : " على أى حال رأيتهما ؟ " قالت :" رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه : الدبّابة (٢) ، وهو يسوقها " . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صحبهما الله ، ان عثمان لأوّل من هاجر بأهله ، بعد لوط" (٣) . وكان رضى الله تعالى عنه من العشرة المبشرين (٤) .

---

(١) أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ٥٥ ، الكاندهلوى : محمد يوسف : حياة الصحابة . (طبعة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م دار الفكر ـ بيروت) : ١ / ٢٨١ .

(٢) أى الضعيفة التى تدب فى المشى (انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة دبب) .

(٣) ابن سعد : المرجع السابق ٣ / ٥٥ ، وانظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٦٦ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٤ ـ ٥ .

(٤) أنظر : المحب الطبرى : الرياض النضرة ١ / ٨ ـ ١٧ .

وفى الحبشه ،تروى بعض الأخبار أن من كان يكلّم النجاشى ،عن النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله : هو عثمان بن عفان.روى البيهقى عن عروة بن الزبير ، أنه قال : " انما كان يكلم النجاشى : عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه " (١) . والمشهور أن جعفرا هو المترجم (٢) .

ويمكن أن يستدل من ذلك : أن عثمان قد تكلم أيضا فى الدعوة الى الله والتعريف بها عند النجاشى ، ان لم يكن هو المتكلم ، وجعفر هو المترجم . أى أنهما قد اشتركا معا فى هذا الحديث الجليل .

وكان عثمان رضى الله تعالى عنه أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له بمصاحبته فى الجنة : روى عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " عثمان بن عفان أشبه الناس بى خُلُقاً وخَلْقاً ، وديناً وسَمْتاً ، وهو ذو النورين : زوجته ابنتىّ ،وهو معى فى الجنة ، كهاتين ، وحرك السبابة والوسطى " (٣) .

وعند فتح مكة اشتد البلاء على من كان فى أيدى المشركين من المسلمين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان ليبلغ عنه الأسرى - بعد أن اعتذر عمر رضى الله عنه لعدم وجود عشيرة له بمكة ، فخرج عثمان رضى الله عنه على راحلة ، حتى جاء عسكر المشركين فعبثوا به وأساءوا له القول ، ثم أجاره أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج ، وردف خلفه ، فلم يدع أحد بمكة من أسرى المسلمين ، الا أبلغهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ، غير مبال أذى المشركين ومعارضتهم (٤) . رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

---

(١) دلائل النبوة ٢ / ٧٦ ، وانظر: ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٢٧ ، وراجع أيضا التعريف بجعفر بن أبى طالب فى هذا الفصل .

(٢) أنظر : البيهقى : نفس المرجع والمكان ،وابن كثير نفس المرجع والمكان .

(٣) المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة (محمد أمين الخانجى وشركاه بمصر ١٣٢٧ هـ) : ٢ / ٨٧ . (٤) أنظر نفس المرجع : ٢ / ٩٦ .

وأسبق السابقين الى الاسلام من الذكور علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : كان . . رضى الله تعالى عنه أول ذكر من الناس ، آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلّى معه ، وصدّق بما جاءه من الله تعالى ،وهو يومئذ ابن عشر سنين . وكان مما أنعم الله به على عليّ رضى الله عنه أنه كان فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام (١) . لذلك ، فقد لازم الرسول صلى الله عليه وسلم فى غدوه ورواحه ، ومنذ طفولته ، يكتسب منه الخلق العظيم ، ويتربى فى مدرسته الربانية الشريفة ، يساند الدعوة الوليده ، وهو ما يزال غرا صغيرا : بالقدر الذى يسمح به سنه ، وتتحمله طاقته المحدودة ،والمتزايدة بمرور الأيام والسنين (٢) .

لقد تعلم من الرسول الرائد صلى الله عليه وسلم : الجرأة فى الحق : فكان اذا حضرت الصلاة ، خرج صلى الله عليه وسلم الى شعاب مكه ، وخرج معه على بن أبى طالب ، مستخفيا من أبيه : أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا ، رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . فلما لقيهما أبو طالب ، يوما ، على هذه الحال ، سأل على : " أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال رضى الله تعالى عنه : " يا أبت ،آمنت بالله ، وبرسول الله ،وصدّقته بما جاء به ، وصلّيت معه لله ، واتبعته (٣) " .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ٢ / ٣١١ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٤ / ١٨ .

(٢) أنظر : المراجع السابقة نفس المكان .

(٣) ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

فى مثل هذه السن الصغيرة ، يجهر لأبيه بالحق ، لا يخشى فيه لومة لائم . وكأن الشيخ العجوز : أبى طالب ، قد سرّه هذا الموقف الجرئ ، من أصغر أبنائه (١) فقال له بكل الثقة : أما انه لم يدعك الآ الى خير ، فالزمه " (٢) . ولا شك أن الشيخ الوقور ، قد حدثته نفسه بأن هذا النضج المبكر ـ الذى لمسه فى ولده ـ لم يكن الآ ثمرة صغيرة ، من ثمرات الحق ، وداعية الحق صلى الله عليه وسلم .

ولقد بلغ بالشاب الصغير ، الذى ما يزال فى مقتبل العمر ، وفى أحلى سنواته ، أن يتقدم مختاراً ، مُعَرّضاً حياته لخطر محقق ، مفتدياً رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وروحه ـ عندما أجمع الكفار رأيهم على قتل النبى الداعية ، تخلصاً من دعوته ، ووأداً لرسالته : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه ، يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه ـ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ مكانهم ، قال لعلىّ : " نم على فراشى ، وتسجّ ببردى هذا : الحضرمى الأخضر ، فنم فيه ، فانه لن يخلص اليك شىء تكرهه منهم " . وأطاع علىّ رضى الله تعالى عنه دون تردد أو خوف . فلما أغشى الله أبصارهم ، وخرج المصطفى صلى الله عليه وسلم مهاجرا ، وأتاهم من يخبرهم بأن الله تعالى ـ قد خيّب آمالهم ، جعلوا يتطلعون الى فراش النبى ، فيرون عليّا على الفراش ، متسجيا ببرده الأخضر ، فيطمئنوا ، ويقولوا : " والله ان هذا لمحمد نائما ، عليه برده " . فلم يبرحوا كذلك ،

---

(١) أنظر : ابن عبد البر : الاستيعاب ٣ / ١٠٩٠ -

(٢) ابن هشام : السابق ١ / ٢٤٧ ، وانظر : الطبرى : المرجع السابق : ٢ / ٣١١ ، ابن عبد البر : المرجع السابق : ٣ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦ .

حتى أصبحوا . فلما قام علىّ رضى الله تعالى عنه عن الفراش ، قالوا :" والله ، لقد صدقنا الذى حدّثنا" (١) .

تضحية وفداء ، مع ايمان ويقين ، بالرغم من الخطر المحدق فى كل لحظة من لحظات الليل الطويل . وكان من الممكن أن تتم خطتهم بالولوج الى الدار ، وقتل النائم فى الفراش ، كما كان مخططا لها أن تتم ، لولا عناية الله ورعايته : ففى بعض الأخبار أن السبب المانع لهم من التقحم على الدار ، وجود امرأة بها ، عيّرتهم بفعلتهم . اذا فعلوها - وهى بداخلها (٢) . رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

ومن أعوان الدعوة فى مكة ، السابقين الى الاسلام : سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أسلم قديما بدعوة أبى بكر - رضى الله تعالى عنهما . وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة فى حياتهم (٣) ، وأول من أراق دماً فى سبيل الله (٤) : فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اذا صلّوا ، ذهبوا الى الشعاب ، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم . فبينما سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة ، اذ ظهر عليهم نفر من المشركين ، فناكروهم ، وعابوا عليهم دينهم ، حتى قاتلوهم ، فاقتتلوا ، فضرب سعد رجلا من المشركين بلَحْى بعير فشجّه : فكان أول دم أهريق فى

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٤٨٠ - ٤٨٣ ، وانظر: ابن الاثير : أسد الغابة : ٤ / ١٨ - ١٩ ، ٢٥ ، ابن حجر : الاصابة: ٤ / ٥٦٨ .

(٢) انظر : السهيلى : الروض الأنف ٤ / ٢١٠ .

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ١ / ٢٧٥-٢٧٦ ، الطبرى : تاريخ : ٢ / ٢١٦ ، ابن عبد البر : الاستيعاب ٣ / ٩٦٦ ، ابن الاثير : أسد الغابة : ٣ / ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٣٧٧-٣٧٨ ، الحلبى : انسان العيون : ١ / ٢٨٣ .

(٤) أنظر: ابن كثير : السابق ٢ / ٢٩٠ ، المراجع السابقة نفس الاماكن .

الاســـلام (١) .

وكان صَلْباً ، جَلْداً . حاولت أمه ـ وكان باراً بها ـ أن تفتنه عـــن دينه ، ولكنه أبى ، وصمد وثبت . ولنسمعه ـ رضى الله تعالى عنه ـ وهو يقص قصته معها فيقول : " نزلت هذه الآية فيّ : " وان جاهداك على أن تشـرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا . ." (٢) قال : " كنت رجلا برّا بأمى ،فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الدين الـذى أحدثت ، لتدعن دينك هذا ،أو لا آكل ولا أشرب ، حتى أموت فتعيّر بى . قال : قلت : لا تفعلى يا أمّه ، فانى لا أدع دينى . قال : فمَكَثَتْ يومـــاً وليلة لا تأكل ، فأصبَحَتْ وقد جَهِدَتْ . فقلت : والله ، لو كانت لك ألـــف نفسى ،فخرجت نفساً نفسا ، ما تركت دينى هذا لشىء . فلما رأت ذلـك : أكلت وشربت . فأنزل الله هذه الآية " (٣) .رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

ومن هذا النفر الكريم موضوع المبحث سيد الشهداء حمزة بـــن عبد المطلب رضى الله عنه : وحمزة الشهيد هو أسد الله ، وأسد رسولـه صلى الله عليه وسلم وعمّه رضى الله تعالى عنه (٤) أسلم يوم ضُرب أبو بكر(٥) :

---

(١) أنظر : ابن هشام : السابق ١/٢٦٣ ، الطبرى : السابق ٢/٣١٨ ، ابن الاثير : السابق ٢/٢٩١ ، الحلبى : انسان العيـــون : ١/٣١٩ . (٢) سورة لقمان : من الآية ١٥ .

(٣) أنظر : ابن هشام : السابق ١/٢٦٣ ، الواحدى : أسباب النزول /٣٥٦ تحقيق أحمد السيد صقر . طبعة أولى ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ابن الاثير : السابق ٢/٢٩٢ ، الحلبى : السابق ١/٣١٢ .

(٤) أنظر : ابن سعد : الطبقات : ٣/٨ ،ابن عبد البر : الاستيعاب : ١/٣٦٩ ، ابن حجر : الاصابة : ٢/١٢٢ .

(٥) أنظر : ابن كثير : السيرة النبوية ١/٤٤١ ، وراجع : التعريـــف بأبى بكر فى أوائل هذا الفصل .

وكان أبو جهل قد اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فآذاه، وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمى، فى مسكن لها فوق الصفا، تسمع ذلك. ثم انصرف عنه أبو جهل، فعمد الى ناد لقريش عند الكعبة: فجلس معهم. ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قَنَصٍ له - وكان صاحب قَنَص، يرميه ويخرج له - فكان اذا رجع من قَنَصِه، لم يرجع الى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان اذا فعل ذلك، لم يمر على ناد من قريش، الا وقف وسلّم وتحدث معهم. وكان أعزّ قريش وأشدّها شكيمة. وكان يومئذ مشركا: على دين قومه. فلما مرّ بالمولاة، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع الى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك - محمد - من أبى الحَكَم؟ وحكت له ما رأت وما سمعت. فاحتمل حمزة الغضب - لِما أراد الله تعالى به من كرامته - فخرج سريعا لا يقف على أحد - كما كان يصنع - يريد الطواف بالبيت، معدا لابى جهل أن يوقع به - فلما دخل المسجد، نظر اليه جالسا فى القوم، فأقبل نحوه، حتى اذا قام على رأسه: رفع القوس، فضربه بها، فشجّه شجّة منكره، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فردّ ذلك علىّ ان استطعت. وقامت رجال من قريش: من بنى مخزوم، الى حمزة، لينصروا أبا جهل، فقالوا: ما نراك يا حمزة الا قد صبأت. فقال حمزة: وما يمنعنى، وقد استبان لى منه ذلك. أنا أشهد أنه رسول الله، وأن الذى يقول: الحقّ، فو الله لا أنزع، فامنعونى ان كنتم صادقين". قال أبو جهل: "دعوا

أبا عماره ، فانى والله ،لقد سَبَبْتُ ابن أخيه سَبّاً قبيحاً . ونمّ حمزة ـ بذلك ـ على اسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

فلما أسلم حمزة : عرفت قريش ،أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ وامتنع ،وأن حمزة سيمنعه : فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه (٢) .

لقد كان اسلام حمزة ـ أول الأمر ـ أَنَفَة رجل ، أبى أن يهان مولاه ، ثم شرح الله صدره : فاستمسك بالعروة الوثقى ، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز (٣) .

عند ما توجه عمر الى مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، ليعلن اسلامه ضرب عليهم الباب ، وعرفوا صوته ، فانبرى حمزة أسد الله ـ من بين الحاضرين فقال فأذن له يا رسول الله ، فان كان جاء يريد خيرا : بذلناه له ، وان كان جاء يريد شرا : قتلناه بسيفه . فما كان من المصطفى صلى الله عليه وسلم الاّ أن أقر حمزة فى رأيه (٤) . لقد استشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة والمنعة لما رأى من عزيمة حمزة . واخلاصه ، وصدقه ، فلم يتردد فى الاذن لعمر . وغنم الاسلام مغنما كبيرا بدخول حمزة وعمر فى رحابه . رضى الله تعالى عنهما ، وأرضاهما .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٩١ - ٢٩٢ ، ابن سعد : الطبقات ٣ / ٩ ، البيهقى : دلائل النبوة ١ / ٤٥٩ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١ / ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٢) أنظر : المراجع السابقة نفس الأماكن .

(٣) أنظر : محمد الغزالى : فقه السيرة ص ١٢٢ .

(٤) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣٤٢ - ٣٤٦ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٤ / ٥٧ / ٦٦ ، ابن كثير : المرجع السابق ١ / ٤٤٠ - ٤٤٢ .

وكان أول من اعتمد عليه الداعية الرسول صلى الله عليه وسلم فـــى نشر دعوة الحق واعلان مبادىء الاسلام السمحة خارج الجزيرة العربيـــــة جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه : كان من السابقين الى الاسلام ،ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم بعد اسلام أخيه علىّ بقليل ، كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً وخَلْقاً (١) .

وجعفر من أوائل المهاجرين الى الحبشة ، وهو أول سفراء الاسلام خارج الجزيرة العربية ، وموقفه مع النجاشى ـ ملك الحبشة ـ من أبلغ المواقف فى الدعوة الى الله ، والايمان برسوله ، والرغبة فى رسالته :

لما أرسلت قريش : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبى ربيعه الـى الحبشة ، لاحداث الوقيعة بينهم وبين النجاشى ، جمع النجاشى المهاجرين ، فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ،ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ . فكان الذى كلّمه : جعفر بن أبـــى طالب رضى الله تعالى عنه ـ فقال له :

" أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتـــة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ،ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا : نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحـــــن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ،وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عـــن

---

(١) أنظر : ابن عبد البر : الاستيعاب ١ / ٢٤٢ - ٢٤٣ ،ابن الاثير : أسد الغابة ١ / ٢٨٧ . وهو فى ذلك يتشابه مع عثمان بن عفان رضى الله عنهما .

الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ (فعدد اليه أمور الاسلام) ـ فصدّقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله : فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا : فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . فقال له النجاشى : هل معك مما جاء به عبد الله من شىء ؟ . قال له جعفر : نعم . فقال النجاشى : فاقرأ علىّ . فقرأ عليه جعفر ـ رضى الله تعالى عنه ـ صدرا من سورة كهيعص . فبكى النجاشى ، حتى اخضلّت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخْضَلُوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم . ثم قال لهم النجاشى : ان هذا والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا (موجها حديثه الى مندوبَىْ قريش) ، فلا والله ، لا أسلمهم اليكما ، ولا يكادون ."(١)

فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله ، لآتينه غدا عنهم ، بما استأصل به خضراءهم (أى شجرتهم التى منها تفرعوا) . فقال له عبد الله بن أبى ربيعه ، وكان أتقى الرجلين : لا تفعل ، فان لهم أرحاما ، وان كانوا قد خالفونا . قال عمرو : والله ، لأخبرنه أنهم يزعمون

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٣٤ - ٣٣٨ ، وانظر : البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ٦٤ - ٧٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٠ - ١٣ .

أن عيسى بن مريم عبد (١) .ثم غدا عليه من الغد ، فقال له : أيها الملك ، انهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل اليهم ، فسلهم عما يقولون فيه . فأرسل اليهم النجاشى ليسألهم عنه . فاجتمع القوم ،ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم ، اذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ، ما قال الله ، وما جاءنا به نبيّنا ، كائناً فى ذلك ما هو كائن (٢) . فلما دخلوا عليه ، قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قال جعفر ابن أبى طالب أيضا : نقول فيه الذى جاءنا به نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، يقول : هو عبد الله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته : ألقاها الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشى بيده الى الارض ،فأخذ منها عودا ، ثم قال : والله ، ما عدا عيسى بن مريم ،ما قلت : هذا العود . فتناخرت بطارقته حوله ،حين قال ما قال . : فقال : وان نخرتم والله . ثم وجه حديثه الى جعفر وأصحابه فقال : " اذ هبوا فأنتم شيوم بأرضى (آمنون) ، من سبّكم غرم ، من سبّكم غرم ، من سبّكم غرم ، ما أحب أن لى دبرا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم . (الدّبر بلسان الحبشة ـ الجبل) ، ثم أدار الحديث الى بطارقته فقال : ردّوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فو الله ما أخذ الله منى الرشوة حين ردّ علىّ ملكى (٣) ، فآخذ الرشوة فيه ،وما أطاع الناس فىّ ، فأطيعهم فيه" (٤) .

---

(١) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

(٢) أنظر المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

(٣) راجع قصة تملك النجاشى على الحبشة فى : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣٣٩ - ٣٤١ ، البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٦٤ - ٦٥ ، ٧٤ - ٧٥ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٢٤ - ٢٥ .

(٤) ابن هشام : المرجع السابق : ١ / ٣٣٤ - ٣٣٨ ، وانظر :البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ٦٤ - ٧٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ١٠ - ١٣ .

فخرج من عنده : رسولا قريش ، مقبوحين ، مردودا عليهما ما جاءا به . وأقام عنده المهاجرون المسلمون بخير دار ، مع خير جار (١) .

فقدّم بذلك جعفر الى الدعوة : خطوة مباركة كان لها ما بعدها في مجال الدعوة الى الله تعالى . رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه من أوائل من ساند الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، أسلم قديما : أول الاسلام ، حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وذلك قبل اسلام عمر بزمان (٢) . ولما أسلم عبد الله بن مسعود ، أخذه الداعية الاوّل : رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، فكان يخدمه . وقال له : اذنك علىّ ، أن تسمع سوادى ، ويرفع الحجاب . فكان يلج عليه صلى الله عليه وسلم ويلبسه فعليه ، ويمشى معه ، وأمامه ، ويستره اذا اغتسل ، ويوقظه اذا نام (٣) .

وكان يعرف بين الصحابة بصاحب السواد والسواك . وهاجر الهجرتين جميعا : الى الحبشة والى المدينة . وهو الذى أجهز على أبى جهل ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة (٤) .

---

(١) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .
(٢) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/١٥١ ، ابن الاثير : أسد الغابة ٣/٢٥٦ .
(٣) انظر : ابن سعد : المرجع السابق : ٣/١٥٣ ، ابن الاثير : المرجع السابق : ٣/٢٥٧ .
(٤) أنظر : المرجعين السابقين ـ نفس الاماكن .

فكان دوره فى الدعوة ـ فى عهدها المكى ـ متصلا بخدمة قائدها ومرشدها صلى الله عليه وسلم ساهرا على راحته ، ملبيا لطلباته ، منجزا لحاجاته .

لذلك فعندما سئل حذيفة رضى الله تعالى عنه عن أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم هَدْياً ودَلاً ، فيؤخذ عنه ، ويسمع منه ، قال : كان أقرب الناس هدياً ، ودَلاً ، وسَمْتاً برسول الله صلى الله عليه وسلم : ابن مسعود . ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن : ابن أم عبد (١) ، هو من أقربهم الى الله زلفى (٢) .

كان رضى الله تعالى عنه أول من جهر بالقرآن بمكة : فقد اجتمع يوما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : والله ، ما سمعت قريش هذا القرآن ، يجهر لها به قطّ ، فمن رجل يُسْمِعُهموه ؟ . فقال عبد الله ابن مسعود : أنا . قالوا : انا نخشاهم عليك ، انما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم ان أرادوه . وبكل الثقة بالله ، والايمان برسوله الكريم ، والرسالة الخالدة الخاتمة يقول ابن مسعود : دعونى ، فان الله سيمنعنى (٣) .

وغدا ابن مسعود ، حتى أتى المقام فى الضّحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ : " بسم الله الرحمن الرحيم " ـ رافعاً بها صوته ـ " الرحمن . علّم القرآن " (٤) . ثم استقبلها يقرؤها . فتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أمّ عبد ؟ ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا اليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل هو يقرأ ، حتى بلغ منها

---

(١) ابن أم عبد ، هو : عبد الله بن مسعود . فأمه هى : أم عبد بنت عبد ود بن سواء ، من هذيل (انظر : ابن سعد : المرجع السابق : ٣ / ١٥٠ ، ابن الاثير : المرجع السابق ٣ / ٢٥٦) .

(٢) انظر : ابن سعد : المرجع السابق ٣ / ١٥٤ ، ابن الاثير : المرجع السابق ٣ / ٢٥٨ :

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣١٤ ، ابن الاثير : المرجع السابق : ٣ / ٢٥٦ . (٤) سورة الرحمن : الآيات ١ ـ ٢ .

ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف الى أصحابه ، وقد أثّروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك . قال الصحابى الجليل : ما كان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم ، لاغادينّهم بمثلها غدا . ورفق به الصحابة ، فقالوا له : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون (١) .

وأصبح عبد الله بن مسعود : أول من جهر بالقرآن الكريم فى مكة ، وأول من ترددت أصداء صوته بالذكر الحكيم بين جنبات المسجد الحرام .

تقدم يوما - فى بدء اسلامه - وكان ما يزال غلاما يافعا ، الى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فقال له : يا رسول الله ، علّمنى من هذا القرآن فمسح - عليه الصلاة والسلام - رأسه ، وقال : " انك غلام معلّم " (٢) . قال ابن مسعود : " فلقد أخذت منه سبعين سورة ، ما نازعنى فيها بشر " (٣) . رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

ومنهم : الزبير بن العوام ، الذى أسلم باكرا وهو ابن ست عشرة سنة ، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . من المهاجرين الأوّلين ، فقد هاجر الى الحبشة الهجرتين معا ، كما هاجر الى المدينة (٤) . عُذّب كثيرا بسبب اسلامه : فقد كان عمه يعلقه فى حصير ، ويدخن عليه النار ، ويقول له : ارجع الى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١/ ٣١٤ - ٣١٥ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/ ١٥٠ - ١٥١ ؛ أنظر : ابن الأثير : المرجع السابق : ٣/ ٢٥٦ . (٣) ابن سعد : نفس المرجع والمكان ، انظر : ابن الاثير : نفس المرجع والمكان .

(٤) أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى (طبعة دار بيروت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م) ٣/ ١٠٢ ، المحب الطبرى : أبو جعفر ، أحمد بن محمد (ت ٦٩٤هـ) : الرياض النضرة ، فى مناقب العشرة . طبعة أولى . محمد أمين الخانجى وشركاه بمصر ١٣٢٧هـ الجزء الثانى / ٢٦٣ .

(٥) أنظر : ابن سعد ، المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .

أبـــدا (١) .

كان ورعا مجاهدا : فهو أول من استل سيفا فى سبيل الله تعالى روى عن سعيد بن المسيّب أنه قال : " بينا الزبير بمكة ، اذ سمع نغمـة أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ ، فخرج عريانا ما عليه شىء ، بيده السيف مصلتا ، فتلقاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مالك يازبير ؟ قال : سمعت أنك قد قتلت . قال : فما كنت صانعا ؟ قال : أردت والله أن أستعرض أهـل مكة ، وأجرى دماءهم كالنهر ، لا أترك أحدا منهم الا قتلته ، حتى أقتلهـم عن آخرهم . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ،ودعا له ، وخلع رداءه وألبسه. فنزل جبريل عليه السلام وقال : ان الله يقرئك السلام ،ويقول لك : أقـرئ منى على الزبير السلام ، وبشره أن الله أعطاه ثواب كل من سل سيفا فـــى سبيل الله ، منذ بعثت الى أن تقوم الساعة ، من غير أن ينقص من أجورهـم شيئا لأنه أول من سل سيفا فى سبيل الله عز وجل " (٢) وكان الزبير من العشرة المبشرين بالجنة (٣) .

بلغ من ورعه وحبه للشهادة فى سبيل الله ، أن سمّى أبناءه بأسماء الشهادة . روى عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قال الزبير ابن العوام: " ان طلحة بن عبيد الله التيمى يسمّى بنيه بأسماء الأنبياء ، وقد علـــم أن لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وانى أسمى بَنِىّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا . . . . " (٤) .

---

(١) أنظر : المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان ،الكاندهلوى : محمد يوسف : حياة الصحابة (طبعة دار الفكر بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) : ١/ ٢٨٣ .

(٢) المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة : ٢/ ٢٦٤ ، أنظر: ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة : ١/ ٥٤٥ ،الكاندهلوى : حياة الصحابة (طبعة دار الفكر بيروت١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م) : ٢/ ١٢ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣/ ١٠١ . (٤) المرجع السابق نفس المكان .

وكان شجاعا ، صلبا ، قويا ، منذ نعومة أظفاره : فقد قاتل بمكة ، وهو غلام ـ رجلا ، فكسر يده ، وضربه ضربا شديدا ، فمرّ بالرجل على صفية بنت عبد المطلب (أم الزبير) وهو يحمل (أى الرجل) فقالت: ما شأنه؟ قالوا : قاتل الزبير (١) .

أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقربه اليه حتى قال عنه : " ان لكل نبى حواريا ، وحواريّى : الزبير ،ابن عمتى " (٢) .

لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقى الزبير ـ فى طريق الهجرة ـ فى ركب من المسلمين ، كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله تعالى عنه ثيابا بيضاء (٣) . رضى الله تعالى عنه وأرضاه،و جزاه عن كرمه وجهاده خير الجزاء .

ومن السابقين الاوّلين ، الصحابى الجليل : طلحة بن عبيد الله القرشى التيمى ، الذى كان عونا للرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، حضر سوق بُصرى (٤) ـ عام البعثة ـ فسأله راهب هناك : هل ظهر أحمد بعد ؟ قال : من أحمد ؟ قال الراهب : ابن عبد الله بن عبد المطلب،

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣/١٠٥ - ١٠٦ ،
وانظر : المحب الطبرى : المرجع السابق ٢/٢٥٦ .

(٢) والحوارى : الناصر . والحواريون : أنصار عيسى عليه السلام (أنظر : المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان) .

(٣) أنظر : المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة ٢/٢٦٧ .

(٤) بصرى : بالضم والقصر ، موضع بالشام من أعمال دمشق (أنظر: ياقوت : معجم البلدان) .

هذا شهره الذى يخرج فيه ، وهو آخر الأنبياء ، ومخرجه من الحـــرم ، ومهاجره الى نخل وحرّة ، وسياج ، فاياك أن تسبق اليه . قال طلحـــة : " فوقع فى قلبى ما قال ، فخرجت سريعا حتى قدمت مكه فقلت : هل كان من حدث ؟ قالوا : نعم ، محمد بن عبد الله الأمين تنبأ ، وقد تبعه ابن أبى قحافة . فخرجت حتى دخلت على أبى بكر فقلت : اتبعت هذا الرجـــل ؟ قال : نعم فانطلق اليه فادخل عليه ،فاتبعه . . فانه يدعو الى الحـــق" (١) ، فخرج أبو بكر بطلحة رضى الله عنهما فدخل به على رسول الله صلى اللـه عليه وسلم ، فأسلم طلحة ،وأخبر رسول الله بما قال الراهب فسرّ بذلك (٢) .

وكان ذلك قديما ،" قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلـــم دار الأرقم " (٣) .

وطلحة بن عبيد الله ممن عذبوا فى سبيل الله (٤) وفى سبيل دعوة الحق : روى أنه لما أسلم أبو بكر وطلحة ، أخذهما نوفل بن خويلد بـــن العدوية ، فشدهما فى حبل واحد ولم يمنعهما بنوتيم ، فلذلك سمّيـــا : القرينين (٥) . كذلك روى عن مسعود بن خراش رضى الله تعالى عنه قـــال : " بنيا نحن نطوف بين الصفا والمروة اذا أناس كثير يتبعون شابا موثقا بيـده فى عنقه . قلت : ما شأنه ؟ قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ٢٥١ ، انظر : المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة :٢ / ٢٥١ ، الكاندهلوى : حيـاة الصحابة ١ / ٢٨٢ .

(٢) أنظر : ابن سعد ، المحب الطبرى ، الكاندهلوى : نفس المراجـع والاماكن (٣) ابن سعد : نفس المرجع ٣ / ٥٥ .

(٤) كان يدعى : أسد قريش (ابن سعد ٣ / ٢١٥) .

(٥) أنظر : ابن سعد : نفس المراجع ٣ / ٢١٥ ، المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .

صباً ، وامرأة وراءه تدمدم (١) وتسبّه . قلت من هذه ؟ قالوا : الصعبة بنت الحضرمي ،أمه " (٢) .

كان رضي الله تعالى عنه ، كريما ، جوادا في سبيل الخير وفي سبيل الله ، فلقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم : طلحة الخير ، وطلحة الجود ، وطلحة الفياض ، لسعة عطائه (٣) . " عندما ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحزّار في هجرته الى المدينة فكان الغد لقيه طلحة بن عبيد الله جائيا من الشأم في عير ، فكسا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر من ثياب الشأم وخبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من بالمدينة من المسلمين قد استبطئوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجل رسول الله السير ومضى ـــ طلحة الى مكة حتى فرغ من حاجته ثم خرج بعد ذلك مع آل أبي بكر فهو الذي قدم بهم المدينة " (٤) .

وعن قبيصة بن جابر أنه قال : " ما رأيت أحدا أعطى لجزيل مال من غير مسأله من طلحة بن عبيد الله " (٥) .

وكان يعد من حلماء قريش وروى عنه أنه قال : " ان أقل العيب على الرجل جلوسه في داره " (٦) .

---

(١) أي تغضب ، الدمدقة : الغضب ،أدممت : قبّحت الفعل . ودمدم عليه : كلمة مغضبا . (أنظر : الفيروزأبادي : القاموس المحيط ٤ / ١١٣ - ١١٤) .

(٢) ابن حجر : الاصابة في معرفة الصحابة ٣ / ٤١٠ .
وانظر : الكاندهلوي : حياة الصحابة ١ / ٢٨١ .

(٣) أنظر : المحب الطبري : نفس المرجع ٢ / ٢٥٠ ، الكاندهلوي : ٢ / ٣٠٤ .

(٤) ابن سعد : نفس المرجع والمكان ، ٣ / ١٧٣ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣ / ٢٢١ .

(٦) نفس المرجع والمكان .

بشره النبى صلى الله عليه وسلم بالشهادة حيث قال : " من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله" (١) . . وعندما تحرك جبل حراء ، وعليه النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وطلحة رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اثبت حراء ، فما عليك الا نبى أو صِدّيق أو شهيد " (٢) . وقال عنه ، مع الزبير ،:" طلحة والزبير : جاراى فى الجنة ." (٣) رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما .

وممن عاون رسول الله صلى الله عليه وسلم - وآزره فى دعوته باكرا ، قبل دخوله عليه الصلاة والسلام ، دار الأرقم بن أبى الأرقم ، وقبل أن يدعو فيها : الصحابى الجليل : عبد الرحمن بن عوف ، وكان اسمه عبد الكعبه ، فلما أسلم سماه النبى صلى الله عليه وسلم : عبد الرحمن (٤) ، وسماه أيضا : " الصادق البار" (٥) ، كما شهد له بالصلاح : فقد تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تبوك ، ثم عمد الناس ، وعبد الرحمن يصلى بهم ، فصلى مع الناس الركعة الأخيرة ، فلما سلم عبد الرحمن ،قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتم صلاته ، فلما قضاها أقبل عليهم ، وقال :" قد أصبتم وأحسنتم " ،يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها ، ثم قال : " ما قبض نبى حتى يصلى خلف رجل صالح من امته " (٦) .

---

(١) المحب الطبرى : الرياض النضرة : ٢ / ٢٥٤ .
وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣ / ٢١٨ - ٢١٩ .
(٢) المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .
(٣) المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٥٣ .
(٤) أنظر : ابن سعد : نفس المرجع : ٣ / ١٢٤ ، المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٨١ ، الكاندهلوى : حياة الصحابة : ١ / ٦٧ .
(٥) المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .
(٦) المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٨٢ .

هاجر رضوان الله عليه هجرتى الحبشة ، وهجرة المدينة (١) ،أثبت له رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة فى السماء والارض ،فقال له :"أنت أمين فى أهل السماء ، وأنت أمين فى أهل الأرض" (٢) ، كما اختصه بأنه وكيل الله فى الأرض ، فقال عليه الصلاة والسلام : " عبد الرحمن بن عوف : وكيل الله فى الأرض" (٣) ، وقال له صلى الله عليه وسلم : " أنت وليّى ،فى الدّنيا والآخرة " (٤) .

وكان رضى الله تعالى عنه : ورعا تقيا ، يخشى الله تعالى ،ويهاب غضبه ، شأنه فى ذلك شأن الصحابة الابرار ، فكان قدوة حسنة ، تفيد الدعوة وينهل منها الدعاة فقد روى أنه أتى بطعام ، وكان صائما ، فقال : قتل مصعب بن عمير . وهو خير منى ، فكفن فى برده : ان غطى رأسه بدت رجلاه ، وان غطى رجلاه ، بدا رأسه ـ وقتل حمزة ، وهو خير منى ، فلم يوجد له ما يكفن فيه الا برده . ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام (٥) .

روى أن رجلا ليّن الصوت قرأ عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فما بكى أحد من القوم الا فاضت عينه ، الا عبد الرحمن بن عوف ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " ان لم يكن عبد الرحمن فاضت عينه ، فقد فاض قلبه" (٦) .

---

(١) أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣ / ١٢٥ ، المحب الطبرى : الرياض النضرة : ٢ / ٢٨٢ .
(٢) المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .
(٣) المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣ .
(٤) المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٥) أنظر : المحب الطبرى : نفس المرجع : ٢ / ٢٨٦ .
(٦) المحب الطبرى : نفس المرجع والمكان .

ومن دعائم الدعوة الأوائل مصعب بن عمير رضى الله عنه : لما انصرف أهل العقبة الأولى (الاثنى عشر) بعد أن تمت بيعة النساء ، أوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم الى المدينة : مصعب بن عمير ، يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، ويدعو الى الله تعالى ، فأبلى فى ذلك بلاء حسنا .

وأسلم على يديه - بادىء ذى بدء - ثلاثة من قادة الأوس والخزرج هم : أسيد بن الحضير ، وأسعد بن زرارة ، وسعد بن معاذ .

فهؤلاء أربعة من السابقين الى الاسلام ، كان لهم دور مميز فى الدعوة الى الله بدار هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم جعل الغالبية العظمى من أهلها : تشرق وجوههم بنور الايمان ، وتعمر قلوبهم بهدى الاسلام ، وتشتاق نفوسهم لرؤية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وترحب وجدانهم بمقدمه اليهم : مهاجرا ، داعيا الى الله باذنه ، وسراجا منيرا (١) .

ان هذه الصحبة الكريمة المباركة التى انقضت ، عوضها الله للمؤمنين بعد ذلك بالأجر والثواب ، والزيادة والخير لمن ثبت وآمن وعمل عملا صالحا واتبع ما أنزل الله تعالى . ووصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء جميعا : المهاجرين والأنصار ومن تبعهم باحسان فقال عز من قائل : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم "(٢) .

---

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى المبحث الثانى : بشائر نصر الله من الفصل الرابع من هذا الباب .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

الفصل الثانى

أبو طالب والدعوة

المبحث الأول

محمد في كفالة عمه أبي طالب

لم يشأ عبد المطلب أن يترك شأن يتيمه هَمَلاً بعد موته ، وهو العزيز الأثير عنده ، فما كاد يحسّ بدنوّ أجله ، حتى أرسل الى ولده : أبي طالب ، فأوصاه بأن يضم اليه محمدا ، ويجعله في كفالته (١) .

ولم يكن أبو طالب يجهل من أمر محمد شيئا ، ولا كان في حاجة الى أن يوصيه به أحد ، فقد كان يشهد من آيات الله فيه ما كان يشهده أبوه عبد المطلب . وكان يحس من شأن مستقبله العظيم ما كان يحسه كل من يطلع على شئونه وأحواله . لذا ما كاد يدعوه أبوه الى كفالته ، حتى استجاب راضي النفس ، قرير العين ، على الرغم مما كان عليه من قلة المال ، وكثرة العيال (٢) .

ولسنا ندري : لم اختار عبد المطلب أبا طالب من دون أبنائه ، ليكون هو الذي يلي أمر يتيمه من بعده ؟ فهو لم يكن أكبر أخوته سنا : فقد كان الحارث أسنهم ، ولم يكن أكثرهم يسارا : فقد كان العباس أكثرهم مالا (٣) . أَلِأَنَّهُ كان شقيق عبد الله : فهو اقرب أخوته رحما الى ابن أخيه وأقواهم به صلة ؟ فهو وعبد الله والزبير لأمّهم : فاطمة بنت عمرو بن عائذ (٤) ، أم لما كان يرى فيه من عواطف الرحمة والحنان ، ودوافع النخوة والمروءة ؟ .

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي ١/ ١٧٩ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١١٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي ١/ ٢٤٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ١١٩ .

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبي ١/ ١٤٦ ، ١٧٨ ، الطبري : تاريخ الامم والملوك ٢/ ٢١٣ .

(٤) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي ١/ ١٠٩ ، ١٥٣ .

الراجح أنه فعل ذلك للأمرين معا ، بل ولغير هذين الأمرين أيضا .

لقد كان لعبد المطلب عدد من الولد : كلهم اخوة لعبد الله - وان لم يكن كلهم أشقاء - وكلهم أعمام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيهم من هو أكثر مالا وأقل عيالا من أبى طالب ، ومن هو أوسع منه رزقا وأرحب مكانا ، ومن هو أقدر على القيام بتبعات الكفالة اذا كان الغنى بالمال هو كل شيء . . ولكن عبد المطلب - فيما يبدو - كان يرمى الى هدف بعيد ، ولعله كان يرمى الى أن تكون اليد التى تحوط محمدا هى أقوى يد وأحناها ، وأن يكون القلب الذى يرعاه هو أشجع قلب وأرحمه . فلم يكن يعنيه فى ذلك الأمر كثرة المال ولا قلته ، فما المال الا عرض يأتى ويزول . انما كان يعنيه أن يجد القوىّ الأمين من أهله ، ليكل اليه أمر ذلك اليتيم الذى ملك عليه قلبه ، والذى كان يتمنى لو امتد به الأجل فظل يرعاه ويصونه ، حتى يبلغ الشأو العظيم الذى ينتظره (١) .

كان أبو طالب هو الركن الأمين الذى آثر عبد المطلب أن يُؤوى اليه يتيمه ، وكان هو من دون اخوته جميعا موضع الطمأنينة والثقة منه . ولقد برهن أبو طالب على أنه كان عند حسن الظن به ، وأنه كان أهلا لهذه الثقة : فما هو الا أن ضم اليه محمدا حتى أقبل عليه بغمره بعطفه ورعايته ، ويخلطه

---

(١) أنظر : ابن الجوزى : الوفا بأحوال المصطفى : ١/ ١٣٠-١٣١ ، أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٦٩ - ٧٠ (طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٣م) .

بنفسه وأهله ، وأنزله بين بنيه منزلة الاكرام والايثار ، وبسط عليه حمايتـــه منذ كان صبيا ، حتى صار شابا ، ثم صار رجلا ، ثم صار زوجا له زوجـــة وبنون (١) على النحو الذى سنفصّله .

ولقد شاءت ارادة الحق ـ جل جلاله ـ ألا يدخل أبو طالب ديـــن الاسلام ، لكنه ظل حاميا لابن أخيه ، قائما دونه ، معلنا استعـــداده للدفاع عنه ، والذود عن حياضه ، يشهد له بذلك مواقف عديدة : قال الله تعالى : " وهم ينهون عنه ، وينأون عنه " . عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى هذه الآية : " نزلت فى أبى طالب ينهى عن أذى رسول الله صلـــى الله عليه وسلم أن يؤذى ، وينأى أن يدخل فى الاسلام " (٢) .

أنظر الى موقفه الحنون ، عندما كان الوحى يتنزل على رسول اللـــه فى المراحل الأولى من المبعث .

قال ابن اسحق : " وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه على بـــن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فاذا أمسيا رجعا . فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثـــم ان أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان فقال لرسول الله صلى الله عليـــه وسلم يا ابن أخى ! ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى عـــم ،

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/١٧٩ - ١٨٣ ، ابن سعد ـ الطبقات الكبرى : ١/١١٨ - ١٢١ .

(٢) ابـــن سعـــد : الطبقات الكبرى : ١/١٢٣ ، وانظر : البيهقى : دلائل النبوة : ٢/٩٨ - ٩٩ . والآية من سورة الأنعام /٢٦ .

هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا ابراهيم - أو كما قال صلى الله عليه وسلم - بعثني الله به رسولا الى العباد ، وأنت أي عم ، أحقّ من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحقّ من أجابني اليه وأعانني عليه ، أو كما قال ، فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله ، لا يُخْلَصُ اليكَ بشيء تكرهَه ما بقيتُ ." (١) .

وذكروا أنه قال لعلي : أي بنيّ ، ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟ فقال : يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته . فزعموا أنه قال له : أما انه لم يَدْعُكَ الا الى خير فالزمه (٢) .

لقد كانت ثقة أبي طالب بابن أخيه صلوات الله وسلامه عليه تجعله يطمئن الى كل عمل يأتيه ، فلم يحاول أن يمنع ابنه عن متابعة محمد صلى الله عليه وسلم - ولم ينهره لذلك ، بل على العكس : نصحه بأن يلزمه . كذلك فان حنان أبي طالب وحدبه على ابن أخيه النبي جعله يقسم بالله ألا يمسّه سوء ما بقي على قيد الحياة .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١/٢٤٦ - ٢٤٧ ،
انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) أنظر : المرجعين السابقين - نفس الأماكن .

المبحث الثاني

موقف أبي طالب من الدعوة باكرا

وعند ما أوحى الله تعالى الى رسوله الكريم أن ينذر عشيرته الاقربين ، وأنزل عليه فى ذلك قوله سبحانه : " وأنذر عشيرتك الاقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ." (١) صنع لهم طعاما ودعاهم اليه فحضروا ، وكانوا نحو الأربعين رجلا ، فلما انتهوا من طعامهم ، تأهب الرسول صلى الله عليه وسلم لعرض دعوته عليهم ، فبادره عمه أبو لهب بكلام قبيح بغيض ، ونظر رسول الله فاذا القوم سكوت ، واذا الجو كله وجوم وكآبة ، فعلم أن الفرصة لم تحن بعد ، وأن الوقت غير ملائم للكلام ، فسكت ولم يتكلم فى ذلك المجلس . وتلبّث رسول الله أياما ، ثم دعاهم الى وليمة أخرى ، فما أن فرغ القوم من طعامهم حتى بادرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أبلغ من ربه ودعاهم الى ما كلف به من الحق . وفى الوقت الذى عاود فيه أبو لهب الكرة بكلامه الكريه المقيت ، نهض عمه أبو طالب فتكلم كلاما لينا ، واعتذر اعتذارا لطيفا ، فقال : " ما أحبّ الينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشدّ تصديقنا لحديثك ! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم الى ما تحب ، فامض لما أمرت به ، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك . . غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب (٢) " وعند ما ثارت ثائرة أبى لهب واشتد هياجه ،

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢١٤ - ٢١٦ .

(٢) ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/١٨٤ - ١٨٥ ، انظر : السيوطى : الخصائص الكبرى : ١/٣٠٦ - ٣٠٩ ، الحلبى : انسان العيون : ١/٢٨٤ - ٢٨٥ .

حاولت أخته صفيه أن تهدىء من ثورته فقالت له : " أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ ألا يسرك أن يخرج من ضئضى (١) عبد المطلب نبى" ؟ فصاح بهـا ثائرا : " هذا والله الباطل والخيال ، وكلام النساء فى الحجال ، فـاذا قامت بطون قريش وقامت العرب معـها ، فما قوتنا بهم ؟ فما نحن الاّ أكلـة رأس (٢) . . " فما كان من أبى طالب ـ أمام هذه الثورة الحمقاء من أخيـه ـ الا أن قال مؤكدا وحاسما للموقف : والله لنمنعنه ما بقينا (٣) .

منعة قوية ، وموقف صلب . . أعطى الدعوة ـ وهى ما زالت فـــــى مهدها ـ أملا فى المساندة ، ورجاء فى الرعاية والصمود .

---

(١) ضئضىء المرء : أصله (انظر : الزرقانى ؛ شرح المواهب) .

(٢) فما نحن الا أكلة رأى : كناية عن قلة عددهم : يعنى أن واحـدة من الغنم تكفى لاشباعهم جميعا .
(انظر : الزرقانى : شرح المواهب) .

(٣) أنظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢/٢١٧ - ٢١٨ .
،البيهقى : دلائل النبوة ١/٤٢٨ - ٤٢٩ .
،ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ٢/٦٢ - ٦٣ .
،ابن كثـــير: التفسير ٣/٣٥١ ، السيرة ١/٤٥٩ .
،الحلبى : انسان العيون ١/٢٨٤ - ٢٨٥ .

المبحث الثالث

أبو طالب وقريش

قال ابن اسحق : " فلما باوى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكدوه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، الا من عصم الله تعالى منهم بالاسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، مظهرا لأمره ، لا يرده عنه شيء . فلما رأت قريش ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم (١) من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم ، وعَيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه ، وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش الى أبي طالب . . . . فقالوا : يا أبا طالب ، ان ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فاما أن تكفّه عنّا ، واما أن تخلّى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه . . . فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه " (٢) .

---

(١) لا يعتبهم من شيء : أي لا يرضيهم . يقال : استعتبني فأعتبته : أي أرضيته وأزلت العتاب عنه . (انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٢٦٤ - حاشية) .

(٢) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٢٦٤ - ٢٦٥ ،
انظر : الطبري : تاريخ الامم والملوك ٢ / ٢١٨ ،
ابن كثير : سيرة النبي ١ / ٤٦٣ - ٤٦٤ .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، فانتشر ذكـــره ، وكثر الجدل حوله ، وتعددت الآراء بشأنه ، حتى كثرت الخلافات ، وعادى بعضهم بعضا ، فمشوا الى أبى طالب مرة أخرى ، وهددوه اذا لم ينتـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وعن آلهتهم فسوف ينازلونه هو وابـــن أخيه ومن معه حتى يهلك أحد الفريقين (١) . فعظم على أبى طالب فـراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا باسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهـــم ولا خذلانه . . . فبعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ياابن أخى ، ان قومك قد جاءونى ، فقالوا لى : كذا وكذا ، للذى كانوا قالـوا له : فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أتـرك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته . ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب ، فقال : أقبـل يا ابن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبدا " (٢) . وقـال فى ذلك شعرا (٣) . يقول ابن كثير : " وفى ذلك دلالة على أن اللـــه تعالى عصمه بعمه مع خلافه اياه فى دينه ، وقد كان يعصمه حيث لا يكون عمه بما شاء ،ولا معقب لحكمه " (٤) .

---

(١) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦ ،
وانظر : الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : ٢/ ٢١٧ - ٢٢٠ ،
ابن كثير :السيرة النبوية : ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٣) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

(٤) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ٤٦٤ .

قال ابن اسحق : ثم ان قريشا حين عرفوا أن أباطالب قد أبـــى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسلامه ، واجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا اليه ، بعمارة بن الوليد بن المغيره ، فقالوا له ـ فيمـا بلغنى ـ يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى فى قريش وأجمله ، فخذه ، فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم الينا ابن أخيك هذا ، الذى قد خالف دينك ودين آبائك ،وفرّق جماعة قومك ،وسفّـــه أحلامهم ، فنقتله ، فانما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني ! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ،وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما لا يكـــون أبدا . قال : فقال المطعم بن عدىّ بن نوفل بن عبد مناف بن قصـــىّ : والله . . يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلّص مما تكرهـه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا . فقال أبو طالب للمطعم : واللـــــه ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك ، أوكما قال . فحقب الأمر ،وحميت الحرب ،وتنابذ القوم ، وبـــادى بعضهم بعضا . (١) .

"وقالوا : لا نعود اليه أبدا ،وما خير من أن يغتال محمد ، فلمـا كان مساء تلك الليلة ، فُقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء أبو طالـب وعمومته الى منزله فلم يجدوه ، فجمع فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثـــم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعنى اذا دخلت المسجد ،

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٢٦٦ - ٢٦٧ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢١٩ - ٢٢٠ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ١/٤٦٣ - ٤٦٤ .

فلينظر كل فتى منكم فليجلس الى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية ، يعني أبا جهل ، فانه لم يغب عن شر ان كان محمد قد قتل ، فقال الفتيان : تفعل ، فجاء زيد بن حارثة ، فوجد أبا طالب على تلك الحال ، فقال : يازيد أحسست ابن أخي ؟ ، قال : نعم كنت معه آنفا ، فقال أبو طالب : لا أدخل بيتي أبدا حتى أراه ، فخرج زيد سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون ، فأخبره الخبر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي أين كنت ؟ في خير ؟ قال : نعم ، قال : أدخل بيتك ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ، ومعه الفتيان الهاشميون والمطّلبيون ، فقال : يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : لا ، فأخبرهم الخبر وقال للفتيان : اكشفوا عما في أيديكم ، فكشفوا ، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة ، فقال : والله لو قتلتموه ما بقيّت منكم أحد حتى نتفاني نحن وأنتم ، فانكسر القوم ، وكان أشدهم انكسارا : أبو جهل (١)" .

جُرْأة متناهية واصرار محمود من أبي طالب على نصرة ابن أخيه صلى الله عليه وسلم والسير معه قُدُماً في طريق الدعوة وتبليغ رسالة الله . ولم تقف نُصرة أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى حد شخصه فحسب ، بل تعداه أيضا الى نصرة كل من يتبعه ويهتدي بهديه ، فان قريشا تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلمو معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، يعذبونهم ،

---

(١) أنظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

ويفتنونهم عن دينهم . ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمّه أبى طالب ، حين رأى قريشا يصنعون في بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم الى ما هو عليه ، من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه ، فاجتمعوا اليه ، وقاموا معه ، وأجابوه الى ما دعاهم اليه ، الا ما كان من أبى لهب ، عدو الله الملعون . فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره في جهدهم معه ، وحدبهم عليه ، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ، ويذكر فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، ومكان منهم ، ليشد لهم رأيهم ، وليحدبوا معه على أمره (١) .

وهكذا وقفت قريش كلها صفا ، ووقف بنو هاشم صفا ، وأخذت العداوة بين الفريقين تعمل عملها ، قريش تدافع عن دينها وسيادتها ، وبنو هاشم يدافعون عن شرفهم وكرامتهم ، وصمد بنو هاشم صمود الأبطال ، ولم تسمح لهم مروءتهم أن يتخلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كانوا قد احتملوا بسببه أذى كثيرا . ولا شك أن ذلك كله كان بفضل الله سبحانه وتعالى ، ثم بفضل أبى طالب ومواقفه الصلبة تجاه التيارات الجاهلية العاتية ، وتأكيد تصرفاته في كل منها على نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية اتباعه وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا الى أرض الحبشة ، اسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى اذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا تحد ثوابه من اسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢٦٨ - ٢٦٩ .

يدخل منهم أحد الا بجوار أو مستخفيا ، واستجار أبو سلمه بن عبد الأسد رضى الله تعالى عنه بأبى طالب ، فمشى اليه رجال من بنى مخزوم ، فقالوا له : يا أبا طالب لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بى ، وهو ابن اختى ، وان أنا لم أمنع ابن أختى ، لم أمنع ابن أخى (١) .

لقد صار أبو طالب فى أمر مرير ، وشدة من قومه ، فشيخ البطحاء ابن عبد المطلب يتحمل كل شىء فى سبيل مروءته وهمته وعزمته الهاشمية .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٣٦٤ - ٣٧١ ،
الحلبى : انسان العيون : ١/٣٢٨ - ٣٢٩ .

المبحث الرابع

أبو طالب والمقاطعة

وبَرِمت قريش بالنبى صلى الله عليه وسلم وبَرِمت ببنى هاشم الذين يحمونه ، ويدافعونهم عن نفسه أن ينالوا منها ، وخصوصا أبا طالب ، الذى وقف ضد كل المحاولات والتهديدات ، وهو شامخ كالطود ، تتسال عنده التهديدات ، ولا تقف عنده ، لا يضعف ولا يهن ، ولا يصيبه خور فى عزمته . ولما وصل بهم الأمر الى هذا الحد ، اعتزموا الشطط ، وأن يركبوا مركبا صعبا ، وهو قتل النبى صلى الله عليه وسلم لا يبالون أبا طالب ، وبنى هاشم معه (١) . علم أبو طالب بما بيتوا وما دبروا ، فنادى بنى عبد مناف ، أن يناصروه فى منع النبى صلى الله عليه وسلم ولم يجبه من بنى عبد مناف الا بنو عبد المطلب ، الذين كانوا مع بنى هاشم جاهلية واسلاما ، وبنو هاشم مع أبى طالب ، الا أبا لهب ، الذى أبى الا أن يكون مع قريش فى غلوائها وفيما أرادت بابن أخيه (٢) .

روى عن الزهرى ، أنه قال : " ان المشركين اشتدوا على المسلمين أشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، واجتمعت قريش فى مكرها أن يتخلصوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية . فلما رأى أبو طالب عمل القوم ، جمع بنى المطلب وهاشم ، وأمرهم أن يدخلوا

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى (تحقيق محيى الدين) : ١ / ٢٧٩ - ٢٨١ ، الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) أنظر : المرجعين السابقين ، نفس الأماكن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم (١) ، وأن يمنعوه ممن أرادوا قتله فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم : فمنهم من فعله حمية ، ومنهم من فعله ايمانا ويقينا . فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمعوا على ذلك ، اجتمع المشركون من قريش ، فأجمعوا ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا فى مكرهم صحيفة ، وعهودا ومواثيق ، ألا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبدا ، ولا يأخذ هم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل . فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين ، واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركوا لهم طعاما يقدم مكه ، ولا بيعا الا بادروهم اليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢)

وكان أبو طالب اذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد مكرا به واغتياله . وكان أحيانا اذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه (٣) .

وهكذا كان العم العظيم يحتاط للفيلة أن يصيبوا بها محمدا صلى الله عليه وسلم فينيمه فى منامته ، متعرضا للفيلة بدله ، وهو الشيخ الفانى

---

(١) الشّعب : كان منزل بنى هاشم غير مساكنهم ، ويعرف بشعب ابن يوسف . كان لهاشم ، فقسّمه عبد المطلب بين بنيه حين ضعف بصره ، وصار للنبى صلى الله عليه وسلم فيه حظ أبيه (الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٧٨) .

(٢) أنظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢ / ٨٠ - ٨١ ، الحلبى : انسان العيون ١ / ٣٣٧ ، الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) انظر البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ٨١ ، الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٧٩ .

، ويغيّر مكان الرسول من وقت لآخر : فيجعل مكانه بعض بنيه أو اخوته أو بنى عمه من بنى المطلب أو غيرهم . لم يكن ذلك أبدا بدافع من العصبية وحدها ، ولكنها الشفقة والمحبة والرأفة التى ألقاها الله تعالى فى قلب أبى طالب الشجاع (١) ، فحفظ بها رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن الجوزى : " ثم نقض حكم الصحيفة المكتوبة : ذلك أن الله تعالى أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم (٢) ، وبقى ما كان من ذكر الله ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب ، فقال ابو طالب : أحق ماتخبرنى به يا ابن أخى ! قال : نعم والله يا عم . فذكر ذلك أبو طالب لأخويه ، وقال : والله ما كذبنى قط ، قالوا : فما ترى ؟ قال : أرى أن تلبسوا أحسن ثيابكم ، وتخرجوا الى قريش ، فنذكر لهم ذلك من قبل أن يبلغهم الخبر . فخرجوا حتى بلغوا المسجد ، فقال أبو طالب : انا قد جئنا فى أمر فأجيبوا فيه ، قالوا : مرحبا بكم وأهلا ، قال : ان ابن أخى قد أخبرنى - ولم يكذب بنى قط - أن الله تعالى سلط على صحيفتكم الأرضة ، فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كلّ ما ذكر به الله تعالى ، فان كان ابن أخى صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وان كان كاذبا

---

(١) أنظر : أبو زهرة : خاتم النبيين : ١/٥٤١ .

(٢) أورد ابن الجوزى قولان فى سبب نقض الصحيفة : هذا هو أحدهم ، والقول الآخر أوردته فى الفصل الثالث : القوى المضادة - من هذا الباب . والأرجح أن السبب فى نقض الصحيفة يجمع بين القولين معا . أنظر : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/١٩٧ - ١٩٨ .

دفعته اليكم فقتلتموه أو استحييتموه ان شئتم . قالوا : قد أنصفتنا . فأرسلوا الى الصحيفة ، فلما فتحوها اذ هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقط فى أيدى القوم ، ثم نكسوا على رؤوسهم . فقال ابو طالب : هل تبيّن لكم أنكم أولى بالظلم والقطيعة ؟ فلم يراجعه أحد منهم . ثم انصرفوا"(١) .

وكأنما شعرت قريش بشىء من الخجل من سوء ما فعلت ببنى هاشم وبنى المطلب ،فاستخذت وخففت من غُلوائها شيئا ، وسكتت عن اضطهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه فترة من الزمن ، فكانت هذه الفترة أهدأ فترة قضاها المسلمون ، منذ أخذت قريش فى اضطهادهم وفتنتهم . وليس معنى هذا أن السلام قد ساد بينهم وبين قريش ، ولكنها كانت هُدنة مؤقته ، جعل كل من الفريقين ـ فيها ـ ينظر ما عدوّه فاعل (٢) .

ومرض أبو طالب خلال هذه الفترة وثقل . فخشيت قريش أن يموت أبو طالب ، والأمر بينها وبين محمد على ما هو عليه من العداوة ، وأرادت أن تأخذ حذرها وحيطتها ، وأن تحسم الأمر قبل أن يتفاقم ، وأن تتقى ما عسى أن يكون اذا قويت شوكة المسلمين واشتد ساعدهم ، فذهبوا الى أبى طالب ،ليفصل بينهم وبين ابن أخيه (٣) .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى ١/ ٣٧٧ ، وانظر : ابن سعد : الطبقات ١/ ٢٠٩ - ٢١٠ ، البيهقى : دلائل النبوة ٢/ ٨١ - ٨٥ ، ابن الجوزى : الوفا بأحوال المصطفى ١/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) أنظر : أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ١٨٦ .

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤١٥ .

ومشى رجال من اشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، انك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك . . فادعه ، فخذ لنا منه ، وخذ له منا ، ليكف عنا ولنكف عنه ، وليدعنا ودیننا ، ولندعه ودينه . فبعث أبو طالب اليه فجاء ، فقال له : يا ابن أخى ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ، ليعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عم ، كلمة واحدة تعطونها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم ـ وأبيك ـ وعشر كلمات ! قال : تقولون لا اله الا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه" (١) فصفقوا بأيديهم وقالوا : يا محمد ، أتريد أن تجعل الآلهة الها واحدا؟ ان أمرك لعجب ! . . . ثم قال بعضهم لبعض : انه ـ والله ـ ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا . . وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . . ثم تفرقوا . فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا ابن أخى ، ما رأيتك سألتهم شططا . فلما قالها أبو طالب ، طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اسلامه ، فجعل يقول له : أى عم ، فأنت فقلها ، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة . فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، قال : يا ابن أخى ، والله لولا مخافة السُّبّة عليك ، وعلى بنى أبيك من بعدى ، وأن تظن قريش أنى انما قلتها جزعا من الموت . . لقلتها ، لا أقولها الا لأسرّك بها . فلما تقارب من أبى طالب الموت ، نظر العباس اليه يحرك شفتيه ، فأصغى اليه بأذنه

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤١٨ ، وانظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٢٢ - ١٢٥ ، ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ٢٠٦ - ٢١٠ .

فقال : يا ابن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولهـــا . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع . قال ابن اسحق : ثم هلك أبو طالب (١) .

مما تقدم من سيرة أبى طالب ، يتضح بكل جلاء أنه لم يكن عـــدوا لدعوة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : فعباراته تومىء الى أنه لا يعاندها ، بل يوافقها ويتعاطف معها ويؤازرها ، وتصرفاته جميعها توحى بأنـــه يساندها ويرعاها ويحميها من أى عدوان ، فهو ينصر ابن أخيه ـ حاملهـا ومبلغها ـ ويذود عنه ، ويتحمل الاذى فى سبيل مرضاته ، ويعمل على أن تقر عينه دائما . وقريش تضايق العم الشيخ ، فيتحمل ضيق قومه علـــى أن يكون منه ما يجعل ابن أخيه فى ضيق ، ويتحمل الملامة على أن توجه ملامـة لابن أخيه وأقر وقد يقر معى كل قارىء لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلـــم بأنه ما وجد أب أحنى على ولده من أبى طالب على ابن أخيه (٢) .

كل ذلك وهو يأبى ـ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ أن ينطق بالشهادتين ، حتى تقر بذلك عين ابن أخيه ، ويجد المبرر ليستحل له بها الشفاعة يوم القيامة (٣) .

ان فى هذا لحكمة بالغة لا يعلمها الا الله تعالى ،غير أننانحسب أن أبا طالب لو كان قد آمن الدعوة المحمدية ـ كما آمن حمزة وعلى وعثمـــان

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤١٧- ٤١٩ ،
ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ١٢٢ - ١٢٥ ،
البيهقـــى : دلائل النبوة : ٢/ ٩٧ - ١٠٤ ،
السهلى : الروض الانف ٤/ ٢٧ - ٣١ (تحليل قيّم عن مسألة شهادة العباس رضى الله عنه بنطق أبى طالب للشهادتين قبل وفاته)،
ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ٢٠٦ - ٢١٠ .

(٢) انظر : ابو زهرة : خاتم النبيين : ١/ ٥٦٠ .

(٣) انظر : ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ٢٠٧-٢٠٩ .

وغيرهم من بنى عبد مناف ـ لما استطاع أن يذود عن محمد وصحبه كما زاد عنهم وهو على ما عليه قومه ، ولا أن يصدّ قريشا كما صدهم ، لأنهم عندئذ سَيُدْ خِلُوَه ضمن من يناوئون دينهم ، وينكرون سيادته عليهم ، وحينئذ يفقد سلطانه على بطحاء مكة ، ولا يستطيع أن يكفكف حدتهم ، ولا أن يكون الدرع الواقية ، كما كان وهو على دينهم ظاهرا ، أما الباطن فعلمه عند الله تعالى .

تأمل عودة الرسول صلى الله عليه وسلم من الطائف ، ووقوف المطعم ابن عدى بالمسجد الحرام معلنا ـ على الملأ ـ اجارته له . لقد قال أبو جهل عندئذ للمطعم : " أمجير أم متابع ،قال : بل مجير . فقال : قد أجرنا من أجرت " (١) .

كأن أبا جهل بهذا السؤال يشير الى أنه ان كان تابعا ، فهو حر ، مع النبى ، يناله ما ينال أتباعه ، وان كان مجيرا فانه تحفظ ذمته لأنه منهم ، ولا يفرضون فيه العداوة أو الخصومة ، وانما التضامن معه والتكاتف لتنفيذ اجارته حتى لو كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم عدو الشرك والوثنية .

من هذا الموقف ، يمكن أن نستنتج شيئا من حكمة الله ـ تعالت قدرته ـ فنقول ونستغفر الله فيما يعلمه منا : ان أبا طلب لم يعلن اسلامه

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢٣١ .

مع حمايته للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه يخشى أن يحاربوه ويؤذوه مع من حاربوهم وآذوهم من اتباع النبى عليه السلام الذين لم يرعوا فيهم إلاً ولا ذمة ، وعندئذ يضعف موقفه فى آله وقومه ، فتقل ـ تبعا لذلك ـ حمايته لابن أخيه رسول رب العالمين ، ويشتد الأذى عليه . .

يقول ابن كثير : " وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ، ومما صنعه لرسوله من الحماية ، اذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركى قريش وجاهة ولا كلمة ، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ، ولاجترءوا عليه ، ولّمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء اليه ، وربك يخلق ما يشاء ويختار" (١) .

---

(١) السيرة النبوية : ١ / ٤٦١ .

الفصل الثالث

القوى المضادة

المبحث الأول

موقف قريش من الدعوة

أ - جحود لا تكذيب :

القوم من قريش ، ينتسبون الى جدهم الأكبر : ابراهيم ، المسلم ، الحنيف عليه السلام . وما جاء محمد صلى الله عليه وسلم الا بالحنيفية السمحة ولكن قريشا جابهت الدعوة مجابهة عنيدة عنيفة .

لماذا كانت تلك المجابهة العنيفة العنيدة ؟؟ .

انه لا يريد منهم مالا ، ولا فيهم سيادة ، ولا عليهم ملكا أو سلطانا وهو بعد رجل جمّ التواضع ، شديد الحب لهم ، والبر بهم ، والحرص على هداهم ، وهو الصادق الأمين ، يودعونه أغلى ما يملكون وهم يحاربونه في دعوته ، وهو النزيه العفيف العادل الذى يطمأن الى حكمه وتحكيمه .

فما دام ذلك أمره بينهم ، وتلك مكانته عندهم ، فما الذى منعهم من متابعته ، والسير على نهج الله الذى جاء به ؟ .

لماذا رفضت دعوة الله ، دعوة الحق والنجاة التى أعلنها ، ودعا الناس اليها ؟ .

أرفضتها عن اعتقاد فى عدم صحتها ؟ أم رفضتها لأسباب أخرى ؟ .(١)

---

(١) راجع فى ذلك :

محمد حسين هيكل . حياة محمد : ص ١٨٨ وما بعدها

رؤوف شلبى . الدعوة الاسلامية : ص ٤٠٤ وما بعدها .

ان قريشا لم ترفض دعوة الاسلام اعتقادا ببطلانها ، أو تكذيبا لمن صدع بها . يقول الله عز وجل : " قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ." (١) وهذه مواقف قادة قريش تؤكد ذلك :

فالوليد بن المغيرة يشهد ويقسم : " والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق ، وان فرعه لجناة " (٢) .

وعتبة بن ربيعة يقول لقومه :" قد سمعت قولا ، والله ، ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى وأجعلوها بى ، وخلّوا بين هذا الرجل ،وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه . فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزّه عزّكم ، وكنتم أسعد الناس به " (٣) .

والنضر بن الحارث ، وهو رأس من رؤوس العداء للدعوة ، وشيطان من شياطين قريش يقول لقومه : " يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشّيب ، فجاءكم بما جاءكم به ،قلتم ساحر !! ،لا والله ،ما هو بساحر." (٤)

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .

(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢٧٠ ،وانظر السيوطى : الخصائص الكبرى ١ / ٢٨٠ -٢٨١ .

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٩٤ ،وانظر السيوطى : الخصائص الكبرى : ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٤) المرجع السابق ١ / ٢٩٩ - ٣٠٠ ،وانظر السيوطى : الخصائص الكبرى : ١ / ٢٨٢ - ٢٨٣ .

وقد أرسلت قريش وفدا منها الى أحبار اليهود ، يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا لهم :" سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فان أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل ، وان لم يفعل ، فالرجل متقوّل ، قروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأوّل ، ما كان أمرهم؟ فانه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طوّاف ، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبوءه ؟ . وسلوه عن الروح ، ما هى ؟ فاذا أخبركم بذلك ، فاتّبعوه ، فانه نبى . وان لم يفعل ، فهو رجل متقوّل ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم (١)" . . . . ورجع الوفد . وسألوا النبى صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن الكريم حسبما شاء الله أن يوحى الى نبيه ، وعرفوا أنه الحق ، ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا !! (٢) .

اذن ، فقد رفضت قريش دعوة الاسلام ، لا عن اعتقاد فى عدم صحتها ، ولكن لأسباب أخرى (٣) ، يمكن تركيزها فى العلل والأسباب التالية :

١ - <u>الاستعلاء والتكبر :</u>

فى أوبة من رحلة بعيده ، دار حديث بين أمية بن أبى الصلت(٤) ، وأبى سفيان بن حرب . قال أمية لأبى سفيان : يا أبا سفيان ، هل لك

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٢) نفس المرجع : ١/ ٣٠٢ - ٣٠٨ .
(٣) انظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٤٠٤ - ٤٢٦ .
مع : محمد حسين هيكل : حياة محمد : ص ١٨٨ - ١٩٥ .
(٤) أمية ابن أبى الصلت : شاعر جاهلى قدم دمشق قبل الاسلام ، وقيل انه كان مستقيما ، وانه كان فى أول أمره على الايمان : ثم زاغ عنه . (أنظر بعض أخباره فى : ابن كثير : السيرة النبوية : ١/ ١٢٢ - ١٤٠) .

أن تتقدم على الرّفقة فنتحدث ؟ قال أبو سفيان : نعم .

وتحدث الرجلان عن شأن النبوة القادمة المنتظرة : قال أمية : انى كنت أجد فى كتبى نبيا يبعث من حرّتنا هذه ، فكنت أظن ، بل كنت لا أشك آنى أنا هو ، فلما دارست أهل العلم ، اذا هو من بنى عبد مناف . فنظرت فى بنى عبد مناف ، فلم أجد أحدا يصلح لهذا الأمر غير عتبة بن أبى ربيعة ، فلما أخبرتنى بسنّه ، عرفت أنه ليس هو ، حين جاوز الأربعين ولم يوح اليه . قال أبو سفيان : فضرب الدهر ضربة ، فأوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجت فى ركب من قريش ، أريد اليمن فى تجارة ، فمررت بأمية ، فقلت له كالمستهزىء به : يا أمية ، قد خرج النبىّ الذى كنت تنعته ـ قال : أما انه حقّ فاتّبعه . قلت : ما يمنعك من اتباعه ؟ قال : ما يمنعنى الا الاستحياء من نساء ثقيف ، انى كنت أحدثهن أنى هو ، ثم يرينى تابعا لغلام من بنى عبد مناف !! (١) .

انه الحسد والكبر اذن ، انه كان يريد أن يكون هو النبى ، وأراد أن يكون النبى من قبيلته . ثم هو يتكبر أن يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم خوفا على كبريائه من فتيات قريش ، يعيّرنه أنه صار تابعا ، بعد أن كان يدّعى أنه النبى المنتظر .

واستمع رجال ثلاثة من قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم فى جوف الليل ، وهو يصلى ويقرأ القرآن ، وعاودوا هذه المرة ثلاثا دون اتفاق منهم على اللقاء ، على الرغم من اتفاقهم على عدم العودة . وهؤلاء الثلاثة هم : أبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل ، والأخنس بن شريق . فلما كانت

---

(١) ابن كثير : السيرة النبوية : ١ / ١٢٩ - ١٣٠ .

المرة الثالثة ، وتعاهدوا على ألا يرجعوا اليها ، ذهب الأخنس بن شريق ، يسأل أبا جهل رأيه فيما سمع ، فقال أبو جهل : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا وأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : "منا نبيّ ، يأتيه الوحى من السماء ، فمتى تدرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه" (١) .

هى عنصرية قبلية اذن ، وحسد قومى ، واستعلاء ، وتكبر أن يخضع بنو مخزوم لبنى عبد مناف .

ولكن الرسالة أسمى من كل ما جال فى خاطر أبى جهل .

ومرة أخرى ، يتنفس أبو جهل الصعداء ، ويقول وهو محموم الصدر ، الى الوليد بن المغيرة : والله ، انى لأعلم أنه صادق فقال له الوليد : مه ، وما دلّك على ذلك ؟

قال : " يا أبا عبد شمس ، كنا نسميه فى صباه : الصادق الأمين ، فلما تمّ عقله ، وكمل رشده ، نسميه الكذاب الخائن ؟ والله انى لأعلم أنه صادق" (٢) . قال الوليد : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟

قال أبو جهل : " تتحدث عنى بنات قريش ، أنى اتبعت يتيم أبى طالب ، من أجل كسره . واللات والعزى ان اتبعته أبدا (٣)" .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١/٣١٦ ،
انظر : السيوطى : الخصائص الكبرى : ١/٢٨٥ - ٢٨٦ .
(٢) المراجع السابقة - نفس الأماكن .
(٣) المراجع السابقة - نفس الأماكن .

ان أبا جهل . . يخشى بنات قريش ، كما كان يخشى أمية بنات ثقيف ، انه ترفع ، تدفع اليه مقاييس عاطفية ، تضع فى حسابها كلام النساء ، فترتعد منهن ، وتتأبى على الله ، ورسوله ، من أجل كلامهن !! فما أبخس المقياس ، وما أتعس حظ الجاهلين ، قال الله تعالى : " وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " (١) .

٢ - جبرية العادات والتقاليد :

قال الله تعالى فى محكم تنزيله :

" قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين " (٢) .

" قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون " (٣) .

كانت الدعوة الاسلامية نقلة جديدة لحياة الانسان فى التصور والسلوك ، فى العقيدة والأخلاق والمعاملات . وقد درج الأولون على أسلوب خاص ، ارتبط فى أذهانهم ومشاعرهم ، بالمواريث الاجتماعية التى يمجدون فيها الآباء والأجداد . فاذا تليت عليهم آيات الله البينات ،

---

(١) سورة فاطر : الآيات ٤٢ - ٤٣ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية : ٥٣ .
(٣) سورة الشعراء : الآية ٧٤ .

قالـوا :

" ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم " (١) .

" واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباؤنا . . . . . " (٢) .

" واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. " (٣)

" بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون " (٤) .

انهم دائما يتعللون ، وقد ظهر ذلك فى سلوكهم وأقوالهم .

كان عتبة بن ربيعة سيدا فى قومه ، قال لهم يوما وهو جالس فى نادى قريش : يا معشر قريش : ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمـــورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبـــا الوليد ، قم اليه فكلمه . فقام اليه عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى اللـه عليه وسلم وعرض عليه ما عرض من حطام الدنيا الزائل ، ومظاهرها الخادعة ، حتى اذا فرغ ، قرأ عليه النبى آيات من سورة فصلت ، أصغى اليها عتبـــة جيدا ، ثم عاد الى قومه وقد هش وجدانه ، وبش قلبه ، وانبسطت أساريـــر جبهته بعد أن تذوق حلاوة الايمان (٥) . . . ولكنه ما أسلم ، ولا آمـــن ، ولا رضى الله عنه ، لأنه أوثق نفسه بقيود العادات ، وأغلال التقاليـــد .

وكذلك شأن الوليد بن المغيرة ، ريحانة قريش ، عندما اجتمع اليـه نفر من قريش ، وقد حضر الموسم ، ليتفقوا على فرية يعلنوها عن محمد علـى الملأ ـ على النحو الذى سبق تفصيله ـ فأجمعوا على اثبات صفة السحر عليه

---

(١) سورة سبأ : من الآية ٤٣ . (٢) سورة الأعراف : من الآية ٢٨ .
(٣) سورة لقمان : من الآية ٢١ . (٤) سورة الزخرف : الآية ٢٢ .
(٥) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٢٩٣ ، السيوطى : الخصائص الكبرى ١ / ٢٨٣ - ٢٨٤ .

صلى الله عليه وسلم نزولا على رأى الوليد ، بعد أن كان قد نفاها من قبل ، وفى نفس الاجتماع (١) . فلماذا انتكس الوليد ؟ لقد انتكس كما انتكس ابن أخيه أبى جهل ، فى حمأة التقاليد ، وجبرية العادات ، فما استطاعوا أن ينقبوها ليخلصوا الى دين الله الحق المبين .

وكان الوليد بن المغيرة يقول : "أينزّل على محمد ، وأترك أنا كبير قريش وسيّدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى ، سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين ؟" (٢) . والى هذا يشير قوله تعالى : " وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات." (٣)

كيف يمكن اذن أن ننتظر من مثل هذه النفوس ، وهى على هذا النحو من الجاهلية العمياء ، أن تؤمن بدين يؤاخذ هم فى كثير مما يرتكبون ؟ دين ينظر الى الناس جميعا سواسية كأسنان المشط ؟ دين ينادى البشر جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها :

" . . . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . . " (٤)

لا فرق فى ذلك بين عربى أو عجمى ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين حضرى وبدوى ، ولا بين سيد وعبد ، ولا بين فقير وغنى : فالكل فى حق الحياة سواء .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٢٧٠ - ٢٧١ ، السيوطى : الخصائص الكبرى : ١/ ٢٨١ .

(٢) الحلبى : انسان العيون : ١/ ٣٥٦ (طبعة ثالثة - المطبعة الأزهرية ١٩٣٢ م) بالقاهرة) .

(٣) سورة الزخرف : الآيات ٣١ - ٣٢ . وراجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٤/ ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

لقد كان مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم يسمو على كل ما عداه ، ويترفع عن كل ما سواه ، من أحقاد العنصرية القبلية ، وبغضاء العصبية الجاهلية .

وذاك ما كان يؤرق قريش ، ويقض مضاجعهم .

٣ - خطأ المعايير :

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذؤابة قريش ، ثم كان من ذؤابة بني هاشم ، وبنو هاشم في العلية من العرب . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سناما في هذه الذؤابة العلية معروفا بسمو الخلق ، في بيئته قبل البعثة . لكنه ما كان زعيم قبيله ، ولا كان رئيس عشيرة . لم يكن واحدا في مشيخة العرب ، وبيئتهم تعتز بمثل هذه القيم ، وذلك خلط وتخبط في القيم والموازين . . فاختيار الأنبياء واصطفاؤهم فضل يؤتيه الله عز وجل لمن شاء من عباده : " . . . الله أعلم حيث يجعل رسالته . . . "[1] وقد شاء الله جل شأنه ، أن لا يجعل لهذه الرسالة الأخيرة ، سندا من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ، فاختار لها رجلا ميزته الكبرى : الخلق ، وهو من طبيعة هذه الدعوة ، وسمته البارزة : التجرد ، وهو من حقيقة هذه الدعوة .

لم يختره وهو زعيما لقبيلة ، ولا رئيسا لعشيرة ، ولا صاحب جاه أو ثراء ، حتى لا تلتبس قيمة من قيم هذه الأرض ، بقيم الدعوة الربانية

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٢٤ .

النازلة من السماء ، ولكى لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض لا تتفق مع حقيقتها فى شىء ، ولكى لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها ، خارج عن ذاتها المجردة ، ولكى لا يدخلها طامع ، ولا يتنزّه عنها متعفف .

ولكن القوم ، كانت قد غلبت عليهم مقاييس الأرض ، وضلّوا فى شعاب هذه المقاييس ، فلم يدركوا طبيعة الدعوة ، فخلطوا فى القيم والموازين : قيم الأرض وموازينها ، وقيم الدعوة وموازينها . وظنّوا أن الوحى ينزل على هواهم ، فاقترحوا أحد رجلين للرسالة : الوليد بن المغيرة ، عم أبى جهل ، أو عروة بن مسعود الثقفى (١) ، فرد الله عليهم موازينهم (٢) . ياعجبا !! انهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يحققون لأنفسهم رزقا . حتى رزق هذه الأرض الزهيد ، نحن الذين أعطيناهم اياه ، وقسمناه بينهم ، وفق حكمتنا وتقديرنا لعمران هذه الأرض ، ونمو الحياة " (٣) . فما بالهم يدسون أنوفهم فى نعمة عليا ، اصطفى الله جل شأنه لها ، من ربّى لها ، وأعدّ لرسالتها ، وكانت له منذ الأزل ، وكان هولها منذ كان فى علم الله العزيز الحميد .

لقد كان القوم يعيشون فى ظل مقاييس جاهلية : ان الرياسة مرتبطة بالجاه والثروة ، وان الشرف مناط بالأغنياء فقط ، فضلوا بذلك عن سواء السبيل ، وتلك واحدة من أسباب اعراض قريش عن دعوة الله .

---

(١) أنظر : الحلبى : انسان العيون : ١/٣٤٧ .
(٢) راجع سورة الزخرف : الآيات ٣١ - ٣٢ .
(٣) أنظر : سيد قطب : فى ظلال القرآن : ٢٠/٧٦ - ٧٧ (بيروت دار احياء التراث العربى ـ الطبعة الثالثة) .

٤ - الحرص على الجاه والسلطان :

" وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (١) ." قال الواحدى : نزلت فى الحارث بن عثمان بن عبد مناف . وذلك أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انا لنعلم أن الذى تقول حق ، ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تتخطفنا من أرضنا لاجماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم ." (٢) . فهى نظرة سطحية أرضية محدودة ، تعليها المقاييس الجاهلية ، وتوحى بها شيطانية الفروض العقلية ، والهوى النفسى .

فهم لا ينكرون أن الذى جاء به محمد هو الهدى ولكنهم يخافون : مجرد خوف . . مجرد ظن . . مجرد شعور كاذب : يخافون أن يتخطفهم الناس . انهم كانوا أيام الجاهلية فى أمان . ورد الله أبرهة الأشرم عن البيت الحرام ، وهم يومئذ فى تشوش من التوحيد ، ومع هذا ، فقد آنسوا فضل الله ورحمته ؟ أنه وحده الحامى ، وهو وحده المدافع . وان قوى الأرض كلها ، لا تملك أن تتخطف ريشة من جناح طائر ، ما لم يأذن بذلك الله ، وهى فى كنف الله ، وفى رحاب البيت العتيق ، فلماذا يخافون أن تتخطفهم الناس ؟ ان قوى الأرض كلها ، لا تملك أن تنصرهم اذا خذلهم الله ، وهى كذلك لا تملك أن تضرهم اذا نصرهم الله ؟ .

---

(١) سورة القصص : الآية ٥٧ .

(٢) أسباب النزول : ص ٣٥٣ ، وانظر : الألوسى : روح المعانى : ٢١ / ٩٤ ، الخازن : لباب التأويل (مطبعة مصطفى الحلبى وأولاده بالقاهرة ٧٥ هـ - ٦٥م طبعة ثانية) : ٥ / ١٧٨ ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣ / ٣٩٥ .

ان العلة : هى أن الايمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطها ؛ لتبدلت نظرتهم لمفهوم القوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون الا فى جوار الله ، وأن الخوف لا يكون الا فى البعد عن هداه ، وأن هدى الله ، موصول بالعزة ، وأن هذه الوصلة حقيقة منشؤها أن الله هو الخالق ، وهو المدبر ، والذى يتبع هداه يستمد منه العون والحول والقوة ، ويأوى بذلك الى ركن شديد فى واقع الحياة(١) .

واذا ظل طواغيت قرش ، ومن تبعهم ، على دين آبائهم ، فليس ذلك ايمانا منهم به ، أو بحق يحتويه ، بل هو حرص على نظام قديم ، أفاء عليهم من بسطة المال والجاه ، ما يحرصون عليه ، ويحاربون الحياة كلها دونه ، ويقفون سدا منيعا أمام كل دعوة تعمل - فى نظرهم - على زوال ما لهم ، أو اضعاف سلطانهم .

٥ - الحسد :

يقول ابن هشام : " فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق . وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوه عنه ، حال الحسد منهم له ، بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله ، وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر . فقال قائلهم : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) (٢) . فانكم ان ناظرتموه أو خاصمتموه يوما غلبكم "(٣) .

---

(١) أنظر : سيد قطب : فى ظلال القرآن : ٢٠ / ٨٠ - ٨١ .
(٢) سورة فصلت : من الآية ٢٦ .
(٣) سيرة النبي : ١ / ٣١٣ .

كان التطلع الى الشرف ، عامل من عوامل الانحراف ،قوّته مقاييس الجاهلية الأولى ، واستقبلته بعض النفوس بالأنانية السوداء المردية . وكان من صورتها ومن ضحاياها : أمية بن أبى الصلت ، الذى ردد فى شعره توحيدا خالصا ، وتمنّى نبوة تخبره بما بعد الموت ، ولكنه يكفر لأنّ النبوة لم تنزل عليه . (١)

قال ابن كثير : " ان أمية قدم المدينة ، بعد بدر ، يريد لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قيل له ان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ـ وهما ابنا خاله ـ قد قتلا فى غزوة بدر ، وهما الآن يرقدان فى القليب : جدع أذنى ناقته ، وقطع ذنبها ، وتهيّج بشعر سفيه ، ثم رجع الى مكة ، وترك الاسلام " (٢) .

فيا له من صدأ يفسد النفس التى نطقت غايرا بالتوحيد . فلما جاءها الحق الذى تعرفه ، حسدت الناس على ما أتاهم الله من فضله .

٦ - <u>الخوف على آبائهم فى الآخرة :</u>

قال الله تعالى :" فاذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ." (٣) .

---

(١) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ١ / ١٣٣ ـ ١٣٤ .
(٢) المرجع السابق : نفس المكان .
(٣) سورة عبس : الآيات ٣٣ ـ ٤٢ .

كانت هذه الآيات ونظائرها ، مما يصور اليوم الآخر ، وما فيه من عذاب شديد للكافرين ، تزعج قلب الرجل المكى ، لأنه مرتبط فى تدينه الوثنى ، بما كان عليه الآباء والأجداد . فكانت تتزلزل قوائم عقله ، اذ تتلى عليه آيات فيها مصير الذين مضوا على الكفر . وهى مغالطة سوّل لهم الشيطان بها أن يجابهوا الدعوة ، ويكذبوها ، حتى يسلم آباؤهم من هذا الوعد الشديد .

لقد كانت المشاعر المنحرفة ، والعقلية الفاسدة ، تريد أن تقاوم الدعوة بهذا الفقه الأعرج الأعمى ، لتقنع نفسها أن آباءهم الذين مضوا ، كانوا على شىء من الدين .

وذاك احساس كاذب ، فان الرسالة الاسلامية قد قررت : " من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " (١) .

ذلك قانون نظمته الدعوة ، حتى تخف هذه الحساسية ، نحو الآباء الذين ماتوا قبل البعثة ، وكانوا فى حياتهم على ضلالة ، لعدم وجود رسول يهديهم الى طريق الله الصحيح . وهى فرصة نفيسة ، تقدمها الدعوة ، ليتعرفوا منها على حقيقتها ، وطبيعتها ، لينقذوا أنفسهم من ظلمات الجاهلية ، التى يتخبطون فيها . ولكنهم زيّنوا لأنفسهم التعلل بما كان عليه الآباء ، وزينوا لأنفسهم - بالمغالطة - مجابهة الدعوة ، لينقذوا آباءهم من يوم القيامة ، وما أعد فيه للكافرين ، فغرقوا فى الضلاله ، ولا عاصم من أمر الله ، الا من رحم .

---

(١) سورة الاسراء : الآية ١٥ .

٧ - الفـزع من البعث والحساب :

كانت قريش ، قوما مكبّين على اللهو ، مسرفين فيه . يتخذون من التجارة ومن الربا اليه الوسيلة . ولا يرى الغنّى منهم فى شىء من الأشياء ، رذيلة يتنزّه عنها . ثم كان لهم من التقرب الى أصنامهم ، ما يزعمون أنه يكفّر عن سيئاتهم وذنوبهم (١) . بحسب الرجل منهم ، أن يضرب القداح عند هُبَل ، قبل أن يقدم على أمر ، ليكون ما تشير به عليه القداح أمر هُبَل . وبحسبه أن ينحر للأصنام لتمحو الأصنام سيئاته وذنوبه ! هو فى حلّ من أن يقتل وينهب ويرتكب الفحشاء ، ولا يعف عن الرذائل ، ما دام قديرا على رشوة هذه الآلهة بالقرابين والنحور ! (٢) . وهذا محمد صلى الله عليه وسلم يعلن اليهم فى آيات مرعبه ، تنخلع من هولها القلوب ، وتضطرب الأفئدة أن ربّهم لهم بالمرصاد . وأنهم مبعوثون فى اليوم الآخر ، خلقاً جديداً ، وأن أعمالهم هى وحدها الشفيع لهم .

قال عز من قائل فى محكم تنزيله :

" يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما . يبصّرونهم يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا انها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى " (٣) .

---

(١) راجع شهادة جعفر بن أبى طالب عن حال العرب قبل الاسلام والتى أدلى بها أمام النجاشى ملك الحبشة فى : ابن هشام : سيرة النبى ١/ ٣٣٤ - ٣٣٨ ، البيهقى : دلائل النبوة ٢/ ٦٤ - ٧٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢/ ٢٠ - ٢٢ ، السيوطى : الخصائص الكبرى ١/ ٣٧١ - ٣٧٤ ، هيكل : حياة محمد : ص ١٨٨ وما بعدها ، شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٤٠٤ وما بعدها .

(٢) أنظر : المراجع السابقة - نفس الصفحات .

(٣) سورة المعارج : الآيات ٨ - ١٨ .

وقال تقدست أسماؤه :

" يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقـــول هاؤم اقرءوا كتابية . انى ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيـام الخالية . وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية . ولـــم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . مـا أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعـون ذراعا فاسلكوه . انه كان لا يؤمن بالله العظيم .. ولا يحض على طعـــام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله الا الخاطئون " (١) .

وقال تعالت صفاته :

" يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيـد " (٢) .

وقال جل شأنه :

" . . كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب . . " (٣)

كلمات عاتية مزلزلة ، ووعيد هائل مروع ، يعصف بكيانك رهبةً وهـولاً وفزعاً . ويَسيرٌ عليك ـ اذن ـ أن تقدر ما كان يتولى قريشا ـ والمترفين منهـا خاصة ـ اذ كانوا يستمعون الى هذا القول . ويسيرٌ بعد ذلك أن تقـدر مبلغ حماستهم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ومناوأته والتأليب عليه .

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٨ - ٣٧ .
(٢) سورة ق : الآية ٣٠ .
(٣) سورة النساء : من الآية ٥٦ .

فهم لم يكونوا يعرفون البعث ، ولم يكونوا يعترفون بما يسمعون عنه . لم يكن أحد هم ليتوهم أنه مجزى عن عمل هذه الحياة ، بعد مفارقته الحياة . انما كان خوفهم من المستقبل فى هذه الحياة . كان خوفهم من المرض ، ومن الاصابة فى الأموال والبنين ، وفى المكانة والجاه . كانت الحياة عندهم غاية الحياة . فكان كل همهم منصرفا لجمع أسباب الاستمتاع فيها ، ودفع كل ما يخشونه منها . واذ كان المستقبل غيبا محجوبا أمامهم . وكانت نفوسهم تحسّ أن من أعمالهم شرا قد يصيبهم الغيب من أجله بأذى . فقد كانوا يتفاءلون ويتطيّرون : كانوا يستقسمون بالقداح ، ويضربون بالحصى ، ويزجرون الطير (١) ، وينحرون للأوثان ، كل ذلك يدّرعون به مما يخافون من هذا المستقبل القريب فى الحياة . أما الجزاء بعد الموت ، أما البعث والنشور يوم ينفخ فى الصور ، أما الجنة التى أعدت للمتقين . . وجهنم التى أعدت للظالمين ، أما ذلك كله ، فلم يكن يدور بخواطرهم . وذلك كله قد سمعوا به فى دين اليهود ، وفى دين النصارى ، ولكنهم لم يسمعوا عنه تصويرا قويا مخوفا ، كالذى يسمعهم الوحى على لسان محمد ، والذى ينذرهم ، ان هم ظلّوا فيما هم فيه ، من لهو الحياة أو الاستكثار من المال ، بظلم الضعيف ، وأكل مال اليتيم ، واهمال المسكين ، والغلو فى الربا ، بعذاب خالد فى درك سقر ، تصطك القلوب فزعا من هوله ، لمجرد سماع صورته . ما بالك به محققا تراه البصيرة جاثما وراء الخطوة الضيّقة التى يتخطى الانسان من جانب الحياه ، الى ناحية الموت ، بعده البعث والنشور ،

---

(١) زجر الطير : أن يرمى الانسان الطائر بحصاة ، أو أن يصيح به ، فان ولاه فى طيرانه ميامنه ، تفاءل به ، وان ولاه مياسره ، تطيّر منه . (انظر : هيكل : حياة محمد : ص ١٩٣) .

والرضا أو الثبور . أما ما وعد الله المتقين من جنة عرضها السماوات والأرض، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما ، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين : فكانت قريش فى ريب منها . وكان يزيدها ريبا تعلّقها بالعاجلة ، وحرصها على أن ترى هذا النعيم محققا لها فى حياة هذا العالم ، وضيقها بالانتظار الى يوم الجزاء ، على حين لم تكن هى تؤمن بيوم الجزاء (١) .

ولقد يأخذ الانسان العجب ، كيف أقفلت قلوب العرب ، دون تصور الحياة الأخرى والجزاء فيها ، فى حين تدور رحى المعركة بين الخير والشر ، فى هذا العالم الانسانى منذ الأزل ، لم تعرف يوما هوادة ، ولا اطمأنت الى سكينة ؟ قد يكون ذلك لأنهم أهل تجارة ، تميل نفوسهم الى الواقع المحسوس ، وتنأى عن تصور ما بعد الحياة . ولأنهم أهل لهو وخمر كانوا أشد الناس انكارا لجزاء الآخرة . فكانوا يحسبون ما يلقاه الانسان فى هذه الحياة من خير أو شر جزاء عمله ، ولا جزاء عنه بعد الحياة (٢) . ولذلك كان أكثر ما نزل من الوحى نذيرا وبشيرا ، قد نزل بمكة فى أول الرسالة ، حرصا على الخلاص لأرواح هؤلاء الذين بعث محمد بينهم. ولقد كان جديرا بأن ينبههم الى ما هم فيه من غىّ وضلاله ، جديرا بأن يرتفع بهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد القهار .

فى سبيل هذا الخلاص الوجدانى ، لأهله وللناس كافة ، احتمل محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن به ، من ألوان الأذى وصور التضحية ،

---

(١) انظر : هيكل : حياة محمد : ص ١٨٨ - ١٩٥ ،
شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٤٠٤ - ٤٢٦ .

(٢) أنظر : المرجعين السابقين ـ نفس الأماكن .

ومن آلام النفس والجسد ، ومن الارتحال عن الوطن ، ومن عداوة الأهل والولد ما ينوء به غيرهم من القادة والأبطال . وكأنما كان محمد يزداد لأهله حبا ، وعلى خلاصهم حرصا ، كلما ازدادوا ايذاء له ومساءة .

ويوم البعث والحساب ، وكان آية الآيات التى يجب أن تتنبه لها قريش لتنقذ هم من شر وثنيتهم ، ومن التورط فى آثامهم .

لذلك ، لم يكن الوحى - فى السنوات الأولى - يفتر عن انذارهم بها ، وفتح أعينهم عليها ، مع أنهم كانوا يحمنون فى انكارها وفى الازورار عنها ، مما دعاهم الى اشعال هذه الحرب الضروس ، التى لم تهدأ بينهم وبين محمد رسول الله ، حتى تم للاسلام النصر ، وأظهر الله دينه على الدين كله (١) .

---

(١) المرجعين السابقين - نفس الأماكن .

ب - حصـــار ظالـــم :

لم يكن المشركون من قريش قد أفاقوا من صدمة اسلام عمر بن الخطاب، حين عَادَوا فداهم (١) الى النجاشي ، يحملان الى مكة صدمة الخيبـــة ، وفشل المسعى .

لقد رفض المصطفى صلى الله عليه وسلم كل ما عرضوه عليه من مقترحات ليكف عن دعوته ، وأبى أن يساوموه على دينه . وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبي طالب ليكف عنهم ابن أخيه أو يخلّي بينهم وبينه . .

والاسلام يفشو في القبائل . . .

وزعامة قريش تهتز وتترنح ، وتوشك أن تفقد سيطرتها على الموقف ، وقد عزّ الاسلام بحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، ومثلهما فـــي الرجال قليل . .

وهذا النجاشي يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين ، ويؤمّن كل من يلجأ اليه منهم ، ويأبى أن يمسهم أذى في جواره (٢) . .

وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة ، ولمح أبو طالب نذر الشـــر فدعا عشيرته الاقربين الى منع محمد صلى الله عليه وسلم والقيام دونـــه فأجابوه ، الا أبا لهب ، عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم (٣) .

---

(١) هما : عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل (ابـــن هشام : سيرة النبي : ١/٣٣٣) .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/٣٢١ وما بعدها ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/٢٠٠ وما بعدها .

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/٣٥٠ ، الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢٢٥ .

لكن قريشا ، وقد عيل صبرها من صبر المسلمين ، كرهت أن تخوض حربا مسلحة مع آل عبد المطلب وبنى هاشم ، وهم من صميمها . واستقر الرأى بعد طول مداولات ، على أن تفرض عليهم حصارا اقتصاديا واجتماعيا لا يرحم : اجتمع زعماء قريش فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم: لا يصهرون اليهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم . وسجلوا حلف التعاقد فى صحيفة علّقوها فى جوف الكعبة ، توثيقا لحرمتها ، وتوكيدا على أنفسهم فى التزامها (١) . . وأقاموا على ذلك الحلف المشئوم زمنا ، سنتين أو ثلاثا ، لقى فيها المسلمون والهاشميون من جهد الحصار مالا يحتمل ، وحيل بينهم - وقد انحازوا الى شعب أبى طالب - وبين الطعام والشراب يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة . وقد يأتى أحد المنحازين الى الشعب . . سوق مكة يلتمس قوتا يشتريه لعياله ، فيقوم أبو لهب ويصيح بالتجار : غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى . فيزيد التجار ثمن السلعة أضعافا مضاعفة ، ويرجع أصحاب محمد الى صبيتهم بالشعب وليس فى أيديهم طعام ، ويرجع التجار الى أبى لهب فيفيهم ثمن ما غالوا فيه على المحاصرين فلم يدركوه (٢) .

وبلغ منهم الجوع وجهد الحصار مبلغا يصوره قول " سعد بن أبى وقاص " بعد محنة الحصار بسنين . لقد جعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو حتى الآن . وكانت الثمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها فيكون أحسنهما حظا من

---

(١) أنظر : المرجعين السابقين ، نفس المكانين .
(٢) أنظر : السهيلى : الروض الأنف ٣/٣٥٤ - ٣٥٥ ، ابن كثير: السيرة النبوية ٢/٤٣ - ٤٤ .

وقعت نواة الثمرة فى قسمه ، يلوكها بقية يومه ! وانما كان طعامهم الخبط وورق السمر ، وما قد يأتيهم به سرا بعض ذوى رحمهم ، بدافع من المروءة والنجدة ، مستخفيا به من طواغيت قريش الساهرين على احكام الحصار وانفاذ وثيقة المقاطعة (١) .

روى أن أبا جهل بن هشام لقى حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد مع زوجها المصطفى فى شعب أبى طالب ، فتعلق أبو جهل بحكيم وقال له : أتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

ولمحهما أبو البخترى بن هاشم الأسدى فجاء يسأل أبا جهل : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام الى بنى هاشم . فما راعه الا أن قال أبو البخترى : وما فى هذا ؟ طعام كان لعمته عنده ، بعثت اليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ، خلّ سبيل الرجل . فرفض أبو جهل أن يستجيب له ، وتشادّا فأخذ أبو البخترى لَحْيَ بعير فضربه به فشجّه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب يرى ذلك من قرب ، ويتأهب للبطش بأبى جهل (٢).

---

(١) أنظر : المرجعين السابقين نفس المكانين .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣٥٣ - ٣٥٤ ،
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢ / ١٢٣ - ١٢٥ ،
ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٥٠ - ٥١ ،
السيوطى : الخصائص الكبرى ١ / ٣٧٤ - ٣٧٧ .

وهم يكرهون مع هذا أن يبلغ خبر ذلك ومثله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالشعب (١) .

ثم كان لليل الحصار آخِرٌ :

اهتزت ضمائر نفر من قريش فأنكروا الحلف المشئوم الذى تورطوا فى التعاقد عليه ، وقد صبروا عليه طويلا مكرهين حتى بلغ ذروته القاسية فى مثل ما كان من أبى جهل بن هشام مع حكيم بن حزام .

وكان أول من تكلم فى الحلف وسعى فى نقضه : هشام بن عمرو بن ربيعه العامرى ، وكانت تربطه بالهاشميين صلة رحم ،فهو ابن أخى نضله ابن هاشم لأمّه . وقد دأب طول مدة الحصار ، على أن يصلهم : فكان يأتى ليلا بالبعير قد أوقده طعاما أو ثيابا ، حتى اذا بلغ به مدخل الشعب خلع خطامه من رأسه وضربه على جنبه ، فيدخل البعير الشعب على من فيه ، بما يحمل (٢) .

فلما طال عليهم جهد الحصار ، مشى هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى ، الى زهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى زاد الركب وأمّه عاتكة بنت عبد المطلب عمة المصطفى . . قال له هشام : يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ؟ أما انى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك

---

(١) أنظر المراجع السابقة ، نفس الأماكن .
(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٤٣ - ٥١ .

اليه منهم ، ما أجابك اليه أبدا - ففكر زهير مليا ، ثم سأل : ويحك يا هشام ، فماذا أصنع ؟ انما أنا رجل واحد . والله لوكان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها . قال هشام : قد وجهت رجلا . فسأله : من هو ؟ أجاب : أنا ! . قال زهير : أبغنا رجلا ثالثا (١) .

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنّهم اليها منكم سراعا . فكان جواب مطعم كجواب زهير (٢) .

وخرج هشام يبغى رجلاً رابعاً ، فاختار أبا البخترى ابن هشام الأسدى لما عرف من مروءته ونخوته ، وما ذاع من خبره مع أبى جهل حين أراد أن يحول بين حكيم بن حزام الأسدى ، والذهاب بالطعام الى عمته (٣) .

حدثه هشام العامرى بمثل ما حدّث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، وسأله أبو البخترى : هل أجد من يعين على هذا ؟ أجاب هشام : نعم ، زهير بن أبى أميه المخزومى زاد الركب ، ومطعم بن عدى بن نوفل ، وأنا ، معك . فنظر أبو البخترى بعيدا الى ما يتوقّع من حمق قريش فى غضبها للحلف المعقود الموثّق ، وطلب الى هشام أن يبغى مؤيدا خامسا ، فذهب الى زمعة بن الأسود بن عبد المطلب الأسدى فكلمه فى بنى هاشم ، وذكر له قرابتهم منه وحقهم عليه . فأجاب زمعة (٤) .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٤٣ - ٥١ .
(٢) أنظر : نفس المرجعين ونفس المكانين . (٣) نفس المراجع والاماكن .
(٤) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ١ / ٤٣ - ٥١ .

وتواعد الرجال الخمسة على اللقاء ليلا بخطم الحجون ، أعلى مكة . وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة الظالمة حتى ينقضوها . واختاروا من بينهم زهير بن أبى أمية المخزومى ليكون أول من يجاهر برفض الصحيفة ونقض الحلف ، فى مجتمع قريش بأم القرى (١) .

فلما أصبحوا وغدت قريش الى أنديتها ، غدا زهير عليه حلّة ، فطاف بالبيت العتيق سبعا ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة (٢) . فصاح أبو جهل بن هشام ، وكان فى ناحية من البيت الحرام : كذبت ، والله لا تشق فرد عليه زمعة الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت . وثنّى أبو البخترى : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقره . وأيدهما مطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ الى الله منها ومما كتب فيها . وتكلم هشام بن عمرو ، فقال نحو ما قالوا (٣) .

وبهت أبو جهل ، والأصوات تأتيه من كل ناحية بالتكذيب والرفض ، فنقّل بصره حائرا بين هؤلاء الرجال الخمسة ، ثم لم يجد فى أخذه المباغته بموقفهم سوى أن يقول : هذا أمر قضى فيه بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان (٤) . لم يلقوا اليه بالا ، وقام المطعم على مرأى من الجميع ،

---

(١) أنظر : نفس المرجعين ونفس المكانين .
(٢) أنظر : نفس المرجعين ونفس المكانين .
(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ، ابن كثير ، السيرة : ٢ / ٤٣ - ٥١ ، الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٢٨٧ - ٢٩٦ .
(٤) أنظر : نفس المراجع ونفس الأماكن .

وأبو طالب هناك قد انتحى ناحية من المسجد ، فانتزع الصحيفة من مكانها في جوف الكعبة ليشقها ، فاذا بالأرضة قد أكلتها وأتلفتها ، لم تدع منها الا كلمة : باسمك اللهم ! (١) .

وجمعت قريش ، ونهض أبو طالب يسعى الى من في شعبه بالبشرى ، وقد ذكر وهو في طريقه من البيت العتيق ، بنية الذين هاجروا الى الحبشة ، فهتف منشدا ، يرجو أن يبلغهم هنالك صدى صوته ، وقال شعرا . . . . وأيقظ صوته كل من في الشعب ، فهللوا للبشرى . وهتف المسلمون منهم : " الله أكبر " . وسعوا الى الكعبة فطافوا بها . ثم آبوا الى بيوتهم في أم القرى ، ينتظرون ماذا يكون من أمر قريش بعد أن تهاوى الحصار (٢) .

---

(١) أنظر : نفس المراجع ونفس الأماكن .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٣٧٥ وما بعدها ، ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٤٣ - ٥١ .

جـ - عام الحزن وتحفز الخصوم :

لكن محنة الحصار لم تبخل الا لتسلم الى ليل طويل لا يبدو لـــه آخـر .

ماتت خديجة أم المؤمنين الأولى ، وزوج نبيهم المصطفى وسكنـــه ووزيره في العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث ، قبل الهجرة بثـــلاث سنين (١) .

ومات في العام نفسه " أبو طالب " عم المصطفى وكافله وما نعـه ، ومن كان له عضداً وحرزاً وناصراً على قومه (٢) .

فأحيا موتهما ما مات من أمل المشركين في النصر بعد تهـــاوى الحصار ، وعادت وطأة الاضطهاد الى أشد مما كانت عليه قبل عام الحزن ، حيث كان الاضطهاد منصبا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكـــان الرسول صلى الله عليه وسلم محمياً ، بعد الله تعالى ، بعمه أبي طالب وبزوجه خديجة رضي الله تعالى عنها ، أما بعد وفاتهما فقد انتقـــل الاضطهاد الى شخصه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

وأحس المصطفى وحشة الغربة في بيته وأرض مبعثه ، واشتدت عليه وطأة الحزن لفقدهما ، حتى خيل لأعدائه أن النصر عليه جدّ قريـــب ، ما دروا أن الظلمة تشتد قبيل الفجر ! .

---

(١) أنظر : ابن هشام : السابق ١/ ٤١٦ ، ابن عبد الـــبر : الاستيعاب ١/ ٣٨ .

(٢) ابن هشام : السابق نفسه ١/ ٤١٦ .

أدرك عليه الصلاة والسلام أن الموقف لابد أن يتخذ متّجها آخر ، وراح يمد بصره الى ما وراء مكة ،يستوعب أبعاد الرؤية لما يحتمل من متّجه الأحداث (١) .

ترى ، ما الحكمة فى أن يتعجل قضاء الله تعالى استلاب أبى طالب من الحياة ، قبل أن تشتد ساعد المسلمين فى مكة ، ويتكون لهم شيء من المنعة ؟ ومعلوم أنه قد كان يحمى الرسول ـ قدر الامكان ـ من كثير من المصائب والشدائد . وما الحكمة فى أن يتعجل القضاء ـأيضاـ أخذ زوجته خديجة رضى الله عنها وقد كان يجد عندها أنسه وسلواه ، وينفض بمساعدتها وحنانها عن كاهله كثيرا من أحاسيس الشدائد والآلام .

وتبرز هنا ظاهرة هامة ، تتعلق بأساس العقيدة الاسلامية :

فلو أن أبا طالب بقى الى جانب ابن أخيه يكلوه ويحميه الى أن تقوم الدولة الاسلامية فى المدينة ، وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان من وراء هذه الدعوة ، وأنه هو الذى كان يدفعها الى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وان لم يظهر الايمان بها والانضواء تحتها ، ولجاء من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول . صلى الله عليه وسلم أثناء قيامه فى الدعوة ، بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذوا وهو محفوظ الجانب ، وتعذبوا وهو مستريح البال (٢) .

---

(١) انظر : بنت الشاطىء : مع المصطفى : ص ١٢٠ - ١٢٩ .

(٢) أنظر : محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة (دار الفكر الحديث ـ الطبعة الخامسة ـ لبنان ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) : ص ١٣٠ - ١٣٣ .

لقد قضت حكمة الله تعالى أن يفقد الرسول عمله أبا طالب وزوجه خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان فى الظاهر حاميا له ومؤنسا ، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولا : أن الحماية والعناية والنصر ، انما يأتى كل ذلك من الله عز وجل . ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين والأعداء ، فسواء كان ثمة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصوم من الناس ، وستبلغ دعوته منتهاها من النصر والتوفيق .

ثانيا : ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم ايذاء أو عذابا أو اضطهادا ، وانما معنى العصمة التى تعهد بها الله عز وجل بقوله : " . . . والله يعصمك من الناس . . . " (١) العصمة من القتل ومن أى صد أو عدوان من شأنه ايقاف الدعوة . فقد قضت حكمة الله تعالى أن يذوق الأنبياء من ذلك قدرا غير يسير ، وذلك لا ينافى العصمة التى وعد بها أنبياءه ورسله .

ولذلك يقول الله عز وجل لنبيه بعد قوله : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . انا كفيناك المستهزئين . " (٢)- يقول به : " ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين . " (٣)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٧ .
(٢) سورة الحجر : الآيات ٩٤ - ٩٥ .
(٣) نفس السورة : الآيات ٩٧ - ٩٩ .

ومن الحكم الجليلة لما قضت به سنة الله عز وجل ، من أن يلاقى الرسول ما لاقى من المحنة فى طريق الدعوة ، أن يستسهلها ويستخف بها عامة المسلمين فى كل عصر ممن أنيطت بهم مسئولية الدعوة الاسلامية .

فلو أن النبى صلى الله عليه وسلم نجح فى دعوته بدون أى مشقة أو جهد ، لطمع أصحابه والمسلمون من بعده بأن يستريحوا كما استراح ، ولا استثقلوا المصائب والمحن التى قد يجدونها فى طريقهم الى الدعوة الاسلامية . أمّا والحالة هذه ، فان مما يخفف وقع المحنة والعذاب على المسلمين شعورهم بأنهم يذوقون مما ذاقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنهم يسيرون فى نفس الطريق التى أوذى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومهما أصابهم من ألم السخرية بهم واهانة الناس لهم ،فان ذلك لا يفت فى عضدهم بعد أن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقى التراب فى السوق على رأسه (١) ، حتى اضطر أن ينقلب الى بيته لتقوم احدى بناته فتغسل عن رأسه التراب ، مع أنه حبيب الله وصفوته من خلقه.(٢)

هذا أمر ، والأمر الآخر هو أنه عليه الصلاة والسلام لم يحزن على فراق عمه وفراق زوجه ذلك الحزن الشديد ، ولم يطلق على تلك السنة : عام الحزن ، لمجرد أنه فقد بعض أقاربه فاستوحش لفقدهم ، بل سبب ذلك : ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة الاسلامية فى وجهه (٣) .

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٤١٦ ،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢٢٩ .

(٢) أنظر : المرجعين السابقين ـ نفس الاماكن .

(٣) أنظر : البوطى : فقه السيرة : ص ١٣٠ - ١٣٣ .

فقد كانت حماية عمه له ، تترك مجالات كثيرة للدعوة ، وسبلا مختلفة للتوجيه والارشاد والتعليم . . وكان يرى فى ذلك بعض النجاح فى العمل الذى أمره به . أما بعد وفاته ، فقد سدت فى وجهه تلك المجالات ، فمهما حاول وجد صدا وعدوانا ، وحيثما ذهب وجد السبل مغلقة فى وجهه فيعود بدعوته كما ذهب بها : لم يسمعها أحد ولم يؤمن بها أحد ، بل الكل ما بين مستهزئ ومعتد ، ومتهكم به . فيحزنه أن يعود وهو لم يأت من الوظيفة التى كلفه الله بها بنتيجة . . فمن أجله سمى ذلك العام : عام الحزن (١) .

بل كان حزنه أشد لعدم ايمان الناس بالحق الذى جاء به ، ومن أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل الآيات مواسية له ومسلية ، ومذكرة اياه بأنه ليس مكلفا بأكثر من التبليغ ، فلا داعى لأن يذهب نفسه عليهم حسرات اذا لم يستجيبوا ولم يؤمنوا . يقول تعالى فى ذلك :

" قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ." (٢) .

---

(١) المرجع السابق ـ نفس المكان .

(٢) سورة الانعام : الآيات ٣٣ ـ ٣٥ .

المبحث الثاني

موقف ثقيف من الدعوة والرد الالهي على الخصوم

أ - محاولة نقل ميدان الدعوة الى الطائف :

حتى عام الحزن ، فى السنة العاشرة من المبعث ، لم يكن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خرج بدعوته من أم القرى ، مهد مولده ومنزل مبعثه ، الا أن يلقى بعض الوافدين على الموسم فيدعوهم الى الاسلام . ففى مكة قبل سواها ، كان ينبغى أن تستقر الدعوة ، بحكم التاريخ الدينى العريق للبلد الحرام ، والبيت العتيق .

لكن عشر سنين من الصراع المرير بين الاسلام والوثنية القرشية فرضت على الأحداث أن تأخذ متجها آخر .

وبدأ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فخرج من مكة يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ، ويرجو أن يقبلوا منه دعوته التى تصدّت لها قريش بالمقاومة والاضطهاد ، بغيا وعنادا (١) .

خرج وحده ماشيا ، فلما انتهى الى الطائف اتجه الى ثلاثة اخوة هم : عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب : أبناء عمرو بن عمير الثقفى ، هم يومئذ سادة ثقيف ، وكان أحدهم زوجا لقرشية (٢) من بنى جمح . فجلس

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٤١٩ - ٤٢٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢٢٩ - ٢٣١ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢/١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) هى صفية بنت معمر القرشى الجمحى . وقد أسلم مسعود وحبيب بعد ذلك وصحبا - (انظر: الزرقانى : شرح المواهب : ١/٢٩٧) .

اليهم صلى الله عليه وسلم حيث وجدهم فى بستان لهم ، ودعاهم الى الاسلام والتمس نصرتهم . فكان رد أولهم ، أنه يمرط (١) ثياب الكعبة ان كان الله قد أرسله . ورد الثانى : أما وجد الله أحد يرسله غيرك ؟ .

وقال ثالثهم : " والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك (٢) " .

فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف . وأقصى ما طمع فيه منهم ، أن يستجيبوا لرجائه فى أن يكتموا أمره معهم كيلا تزداد قريش جرأة عليه ، فلم يفعلوا بها ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه . فجلس عليه الصلاة والسلام هناك ريثما ينصرف عنه الناس ، وابنا ربيعه ينظران اليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف (٣) .

فى هذا الموقف العصيب رفع المصطفى وجهه الى السماء وقال فى ضراعة وابتهال :

---

(١) يمرطه : أى ينزعه ويرمى به أو ينتفها ويقطعها .
والمرط: هو كساء من صوف .
(انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤١٩ ،
الفيروزأبادى : القاموس المحيط: مادة مرط: ٢ / ٣٨٥ ،
الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣٥٤ ،
الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٩٧) .

(٢) ابن هشام : نفس المرجع : ١ / ٤١٩ - ٤٢١ ،
انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٤٤ - ٣٤٥ ،
البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٥٩ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢ / ٩١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢١١ - ٢١٢ ، الحلبى : نفس المرجع والمكان ، الزرقانى : نفس المرجع : ١ / ٢٩٧ - ٢٩٨ . (٣) المراجع السابقة نفس الاماكن .

" اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانـــى على الناس . يا أرحم الراحمين : أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى(١) ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك علىّ غضـــب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيـــا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل علىّ سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك (٢) ."

فكأنما تحركت لضراعته رحم (٣) ابنى ربيعة ، فبعثا اليه بعـــض العنب مع غلام لهما نصرانى يدعى عداس . ودهش عداس ، حين سمـــع المصطفى يقول : " باسم الله " . قال : والله ان هذا الكلام ما يقوله أهـل هذه البلاد . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينـوى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح : يونس بـن

---

(١) تجهمه : استقبله بالغلظة وبوجه كريه .
(انظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢١٩ - ٢٢١ ،
انظر : الحلبى : انسان العيون : ١ / ٣٥٤ - ٣٥٥ ،
الزرقانى : المرجع السابق : ١ / ٣٠٤ - ٣٠٦ .

(٣) الرحم : الصلة والقرابـة .
(أنظر : الرازى : مختار الصحاح : مادة رحم : ص ٢٥٩)

متى ؟ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ والله لقد خرجت منها ـ يعني نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون : ما متّى (١) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك أخي ، كان نبيا وأنا نبي .

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

وبينا هو كذلك لمحه سيداه ، فانتظرا حتى عاد اليهما وسألاه :

مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟

أجاب : يا سيدّي ، ما في الأرض خير من هذا ، لقد أخبرني بما لا يقوله غير نبي .

قالا : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ، فان دينك خير من دينه (٢) .

انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعا الى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل ولا امرأة ، الا ما كان من أمر عداس ، فلما نزل نخلة (٣) قام يصلي من الليل ، فصرف اليه نفر من الجن : سبعة من أهل نصيبين (٤) ، فاستمعوا اليه وهو يقرأ سورة الجن ، ولم يشعر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل قوله تبارك وتعالى :

" واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ياقومنا

---

(١) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٢) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٣) نخلة : موضع على بعد ليلة من مكة (الزرقاني : شرح المواهب ١ / ٣٠٠) .

(٤) نصيبين : مدينة بالشام (نفس المرجع والمكان) .

أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليـــم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أوليـــاء أولئك في ضلال مبين ." (١) ، فهم هؤلاء الذين كانوا صرفوا اليه بنخلة ، وأقام بنخلة أياما ، فقال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم (يعني قريشا) وهم أخرجوك ؟ فقال : " يا زيد ، ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه . ثم انتهى الى حراء . ." (٢) .

ان صرف نفر من الجن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هـذا الموقف العصيب - وايمانهم به ، دليل على عناية الله تبارك وتعالى وبنبيـه الكريم ورد اعتبار كامل له . فكأن الله يقول له ما دام الانس في الطائف ومكة قد أبَوْا دعوة الاسلام ، فها هو ملأ الجن يقبلها ويؤمن برسالتك ويصـــدق ما جئت به .

روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : " هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومـــك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة (٣) ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم علـى وجهي ، فلم استفق الا وأنا بقرن الثعالب (٤) ، فرفعت رأسي فاذا أنـــا

---

(١) سورة الأحقاف : الآيات ٢٩ - ٣٢ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ٢١١ - ٢١٢ ، أنظر : البيهقي : دلائل النبوة : ٢/ ١٥٩ ، ابن الجوزي : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ٢١١ - ٢١٢ ، الزرقاني : شرح المواهب : ١/ ٣٠٦ .

(٣) المراد بها هنا : موضع مخصوص اجتمع فيه مع عبد ياليل ، لا عَقَبة مِنَى التي اجتمع فيها مع الانصار . (الزرقاني : نفس المرجع : ١/ ٢٩٨) .

(٤) قرن الثعالب : ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة منها ، ويقال له أيضا : قرن المنازل (المرجع نفسه : ١/ ٢٩٩) .

بسحابة فقال : لن الله قد سمع قول قومك لك ، ومارّدوا عليك ،وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ ثم قال : يا محمد فقال ذلك فيما شئت ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (١) . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا (٢) .

لقد ذاق محمد صلى الله عليه وسلم ما ذاق من أهل مكة ، من صد عن سبيل الله ، ومقاومة للدعوة ، وايذاء له ولأصحابه . لكن الدعوة الى الاسلام دعوة عامة ، ليست لقريش وحدها ، بل هى للناس أجمعين . وقد علمها أهل مكة ،وقاوموها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . ولله فى ذلك حكمة : اذ لو كانوا أول من يطيعه ، لكان من الممكن أن يقال : انهم يريدون بذلك السلطان على الناس (٣) .

لقد أيقين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا خير فى هؤلاء المعاندين ،ولا أمل فى ايمانهم ، حتى يأتيهم الله بعذاب من عنده أوبأيدى المؤمنين ، فتولى عنهم وانتظر قضاء الله فيهم ، وعزم على أن يتوجه بدعوته الى غيرهم من الناس :" . . . فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين (٤) " ، فكانت هذه المسيرة الى

---

(١) الأخشبين : جبلين بمكة هما : أبا قبيس وقعيقعان .
(أنظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٩٨) .

(٢) البخارى : الجامع الصحيح : باب اذا قال أحدكم آمين والملائكةفى السماء : ٤ / ٨٣ ،
أنظر : مسلم : الصحيح : كتاب الجهاد ـ حديث ١١١ .

(٣) أنظر : أبو زهرة : خاتم النبوة : ١ / ٥٨٠ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ٥٢ .

" ثقيف " بالطائف ، وسيلة هامة لنشر الدعوة ، وتوسيع نطاقها ، علّه يـــرى فيهم نصرة لم يرها فى قريش .

فاذا تأملنا فى هذه الهجرة التى قام بها النبى صلى الله عليه وسلم الى الطائف،وما انطوت عليه من مشاق ، وما لقى عند عودته منها من عنـــت ووصب ، أمكننا أن نستخلص الأمور التالية :

أولا : ان ما لاقاه صلى الله عليه وسلم فيها يعتبر من جملة أعماله التبليغية للناس . . فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون وخالقه ، وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات ، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر ، ويبين لهم كيفية تطبيق الصـــبر والمصابرة اللذين أمر الله بهما (١) فى قوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكـــم تفلحون ." (٢)

وربما يتوهم من اطلع على ظاهر سيرة هجرته عليه الصـــلاة والسلام الى الطائف : أنه صلى الله عليه وسلم قد غلب على أمـــره هناك ، وأن الضجر قد نال منه ، وأنه ربما استعظم كل تلك المحنة والمشاق التى أصابته ، ولذلك توجه الى الله بذلك الدعاء بعد أن اطمأن فى بستان ابنى ربيعة . ولكن الحقيقة أنه عليه الصلاة والسلام قد استقبل تلك المحن راضيا ، وتلقى تلك الشدائد صابرا محتسبا ،

---

(١) أنظر : البوطى : فقه السيرة : ص ١٣٦ - ١٤٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠ .

والاّ فقد كان بوسعه ـ لو شاء ـ أن ينتقم من السفهاء الذين آذوه ، ومن الزعمال الذين أغروا به أولئك السفهاء ، وردوه ذلك الرد المنكر عندما سأله ملك الجبال ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يشأ ذلك : فهو الرؤوف الرحيم ، بل كان منه ذلك الجواب الذى يشع نورا ونقاء وصفاء وطهرا .

اذن ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه ، وأمته من بعدهم ، كيف كان يواجه ما يلاقيه من الصدّ والرفض والأذى بألوان من الصبر على الشدائد والتحمل للمكاره ، فى سبيل الله عز وجل ، لخير البشر أجمعين .

كان بصبره الشديد على المحن ، يعلمنا أن هذه هى وظيفة المسلمين عامة ، والدعاة الى الله خاصة . وكان بطول ضراعته والتجائه الى الله تعالى ، يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها . على أن النفس البشرية ، مهما تسامت ، فهى لا تتجاوز دائرة بشريتها على كل حال ، والبشر مجبولون فى أصل فطرتهم على الاحساس والشعور : الشعور بلذة النعيم ، والشعور بألم العذاب.

ثانيا : اذا تأملت مشاهد سيرته صلى الله عليه وسلم مع قومه ، وجدت أن ماكان يجده صلى الله عليه وسلم من الأذى فى هذه المشاهد قد يكون قاسيا شديدا ، بيد أنك واجد مع ذلك ما يعتبر ردا الهيا على ذلك الايذاء ، وما يهدف اليه أربابه ، كى يكون فى ذلك مواساة وسلوى للرسول عليه الصلاة والسلام وكى لا يجتمع فى النفس من عوامل التألم والضجر ما يدخل اليها اليأس . .

ففى مشهد هجرته الى الطائف ،وما اكتنفها من صور الايذاء . . تجد رداً الهياً واضحاً على سفاهة أولئك الذين آذوه ولحقوابه ، واعتذرا له عن سفاهتهم وغلظتهم . يتمثل ذلك فى مظهر الرجل النصرانى " عداس" حينما جاء يسعى اليه وفى يده طبق فيه عنب ، ثم انكب فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه ، عندما أخبره عليه الصلاة والسلام أنه نبى .

ثالثا : وفيما كان يفعله زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه من وقاية للرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه ، من حجارة السفهاء ، حتى انه شجّ فى رأسه شجا : نموذج لما ينبغى أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة ، من حمايته له بنفسه ، ودفاعه عنه ، وان اقتضى ذلك التضحية بحياته . هكذا كانت حال الصحابة رضى الله عنهم بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولئن كان الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتصور الآن لأنه عليه الصلاة والسلام غير موجود بيننا بجسده .ولكن ذلك يتحقق على نحو آخر: هو أن لا نضن على أنفسنا بالمحن والعذاب فى سبيل الدعوة الاسلامية ، وأن نسبهم بشيء من تحمل الجهد والمشاق التى تحملها النبى عليه الصلاة والسلام .

رابعا : ما موقع كل ما رآه النبى صلى الله عليه و سلم فى سياحته هذه فى الطائف وما هو أثر كل هذا الذى عاناه فى نفسه ؟ .

يتضح الجواب على هذا فيما قاله عليه الصلاة والسلام لزيد ابن حارثة ، حينما سأله زيد متعجبا : " كيف تدخل عليهم ، وهم

أخرجوك ؟ فقد أجابه فى ثقة بربه واطمئنان لدعوته قائلا : يا زيد ان الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وان الله ناصر دينه ومظهر نبيه " (١) .

اذن : فان كل ذاك الذى رآه وعاناه فى الطائف ومكة من القسوة والشدة ، لم يكن له أى تأثير على ثقته بالله تعالى أو على قوة العزيمة الايجابية فى نفسه ، واطمئنانه الى صدق دعوته وسموها .

ولا والله ، ليست هذه عزيمة بشر عادىّ آتته القدرة الالهية مزيدا من التحمل أو فيضا من قوة الارادة ، ولكنه يقين النبوة الراسخ رسوخ الشم الرواسى ،فهو يعلم أنه انما ينفذ أمر ربه ويسير فى الطريق التى أمره الله أن يسير فيها . ومما لا ريب فيه أن الله بالغ أمره ، وقد جعل لكل شىء قدرا .

والفائدة التعليمية لكل داعية الى الله من هذا الأمر هى : أن لا تصدنا المحن والعقبات التى تكون فى طريق الدعوة الاسلامية عن السير ، وأن لا تبث فينا روح الدعة والكسل ، ما دمنا نسير على هدى من الايمان بالله وتوفيقه . فمن استمد القوة من الله ، جدير به أن لا يعرف لليأس والكسل معنى ، اذ ما دام الله هو الآمر ، فلا شك أنه هو الناصر أيضا (٢) .

---

(١) أنظر : ص من هذا البحث .

(٢) أنظر : محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة : ص ١٤٥ .

لقد كانت رحلة الطائف درس فى الدعوة عظيم : فيها سعى ونصب، وفيها صبر واحتساب ، وفيها تحمل للأذى والعذاب حتى ان قدميه لتدميان ، وفيها الصدق والاخلاص لله : " ان لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالـــى" ، وفيها الخشية من التقصير فى الدعوة على الرغم من الجهد والعمل الدؤوب ، مع التواضع الدائم لله عز وجل : " أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت بـــه الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل علـى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة الا بك (١) .

---

(١) أنظر : ص ٣٩٠ من هذا البحث .

ب - معجزة الاسراء والمعراج ودلالاتها :

وظيفة الدعوة الأولى ، هى أن تنشىء نظاما يتبع المنهاج الاسلامى الذى اختاره الله . وهذا النظام يحتاج انشائه الى أمة تمثله وتقوم عليه . وغاية المنهاج الاسلامى هى عبودية الناس لربهم وحده . وهذا يستلزم القضاء على الجاهلية . والجاهلية ، فى أى عصر ، هى عبودية الناس للنـــاس . وأساس العبودية فى كلتا الحالتين هو : الخضوع . . والتشريع . وعبوديـة الناس جميعا ، لله وحده ، تكون بتلقيهم منه وحده . . العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ، وموازين التعاشر الاجتماعى (١) : " ثم جعلناك على شريعة من من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين (٢)" .

والاسلام ، بهذا المفهوم ، هو تكريم للانسان ، وتحرير له مـــن سلطة الانسان المتجبر . والدعوة الاسلامية ، فى مكة ، قد حوصرت ، وسد فى وجهها الطريق ، فكان لابد من بحث عن قاعدة جديدة ، تنتقل اليهـا الجماعة ، التى حققت العبودية لله . وكان لابد من التأكد من سلامة كـل أفراد الجماعة ، وصلاحيتهم لهذه النقلة ، التى ستنشىء منهاجا جديدا ، فى مواجهة أعداء الله ، حتى تنفذ مراحل الدعوة مستقبلا فى جو مأمون من الاضطراب ، بعيد عن التهم ، منزه عن المطاعن . فكان لابد من اختيـار المسلمين عامة ، فى مكة ، من أجل انتخاب القيادة الراشدة ، التى ستنقل

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) سورة الجاثية : الآيات ١٨ - ١٩ .

مع النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة . وكانت مادة الامتحـــان من نوع غريب ، يقصد الى ابراز مدى ايمان الفرد المسلم ، ومقدار تمسكـــه بدينه . لقد كانت غاية هذا الامتحان هى : التعرف على مدى استســـلام الوجه لله ، من كل فرد ، واختبار عقله ووجدانه . . الى أى مدى ،يستجيب للنص المعصوم . . . فكان حادث الاسراء والمعراج هو مادة الامتحان (١) . والى ذلك أشار الامام القشيرى رضى الله عنه فى رسالته ، بجملة قصـــيرة ، قال : " فجعل ذلك بالليل ، امتحانا للخلق (٢) "

ومن الثمار التى جنتها الأمة الاسلامية ، والتى كانت من مقاصـــد اذاعة النبأ : انفصال ضعاف النفوس ،والشاكين ، والمترددين . . انفصال كل هؤلاء ، عن الأمة الاسلامية الناشئة .

لقد كفر ـ عند سماع النبأ ـ من كفر بعد اسلامه ،وارتد من ارتـــد بعد ايمانه ، وما كان هؤلاء ـ لو بقوا ـ الا عاملا من عوامل الضعف ، أكـثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة . ان هؤلاء المكيين ، الذين آمنـــوا ، وصبروا . . على الحوادث القاسية : على التعذيب ، وعلى الآلام، وعلـى الفتنة فى جميع مظاهرها . ان هؤلاء المكيين ، الذين صبروا ، وصابـروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ،فأصبحـت خالصة لله وحده . . ان هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تقوم عليهم الدولة نشأتها ، والذين من أجل ذلك : يجب أن

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

(٢) كتاب المعراج : تحقيق على حسن عبد القادر (مطبعة السعادة القاهرة ـ طبعة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م) : ص ٧٢ .

يكونوا مهيئين لأن يصعدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات . . نقول : ان هؤلاء المكيين ، يجب أن يصفوا تصفية كاملة . ومن وسائل هذه التصفية : اعلان نبأ الاسراء والمعراج . . لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى . . عن بصيرة وبيّنة ، وعن ايمان لا يتزعزع . . مهما كانت الحوادث. ايمان يصدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى كل ما يأتى به . يصدقه بمجرد انبائه . والمثل الاعلى فى كل ذلك ، انما هو : أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور(١) : لئن كان قاله . . فلقد صدق . فما يعجبكم من ذلك ؟ فو الله . . انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه (٢) . ثم أقبل حتى انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله . . أحدّثت هؤلاء القوم ، أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : بانبى الله . . فصفه لى ، فانى قد جئته . قال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئا ، قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . حتى اذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : " وأنت يا أبا بكر الصدّيق ، فيومئذ سمّاه الصدّيق " (٣) . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن اسلامه

---

(١) أنظر : البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٤/٣ ،
عبد الحليم محمود : الاسراء والمعراج : ص ١٣٣ - ١٣٤ ،
له أيضا : الرسول صلى الله عليه وسلم ـ لمحات من حياته ونفحات من هديه : ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٣٩٩ ،
ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/٢٠٦ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبى : ١/٣٩٩ ، وانظر : ابن الاثير : أسد الغابة : ٣/٢٠٦ .

لذلك : " . . . . وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن وتخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا "(١) .

لقد كان حادث الاسراء والمعراج محور تمحيص للصادقين ، فى ايمانهم ،والسطحيين فى تصورهم لحقيقة الايمان . فان من صدّق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد آمن باتصاله بالوحى . والقرآن يأتى من عند الله ،يحمله الوحى . والنبى صلى الله عليه وسلم يتلوه على الناس ،ويخبرهم بأن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى . والذين آمنوا يصدقون ذلك ، مع أنهم لا يرون وحيا ينزل ويصعد ، ولكنهم يرون آثاره على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ، ويسمعون بعد ذلك قرآنا تتجذب اليه نفوسهم ، وتقشعر له جلودهم ،وتلين له قلوبهم . ومقتضى هذا اذن ، الايمان بالنبوة ، وبالوحى . وهذا يستلزم الاعتقاد بأن هناك صلة عليا خارقة للعادة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين ربه جل وعلا . واذن . . فلا ضير أبدا أن تنقلب صورة اللقاء بالوحى وتتبدل الحركة من عل الى أسفل . . فيصير من أسفل الى عل :

الحركة الأولى : يحمل فيها جبريل قرآنا الى النبى .

والحركة الثانية : جاء ليحمل فيها محمدا صلى الله عليه وسلم الى سدرة المنتهى .

فان كلا من الحركتين ، فى التصور الايمانى السليم متعادلتان . وحركة الوحى مطلقا . . نزولا أو صعودا من ضمنيات الايمان بالوحى الذى يأتى الى الرسول صلى الله عليه وسلم مرارا وتكرارا . وهى من غير شك ،

---

(١) سورة الاسراء : من الآية ٦٠ .

حركة فوق تصور العقل . . حتى ولو تقدمت الأبحاث الحديثة ـ لأنه لا يمكن للبشر أن يحدد مبدأ حركة الوحي من عل ، ومبدأ صعوده مرة أخرى . ان تحديد نقطة تحرك الوحي ، ذهابا وايابا ، فوق جميع المستويات العلمية والعقلية ، فهي سمعية لا تحتاج الى دليل . والمؤمن الصحيح ، يتصور كم من بلايين المسافات والأجواء والأجرام ،قد قطعها جبريل عليه السلام في أقل من لمحة البصر ، وهو يسعى الى النبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه وحيا من عند الله . فاذا ما قيل لهذا المؤمن الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد في مثل هذه اللحظة الى السماوات العلا ، لم يجد في ذلك غرابة (١) . وقد قرّب أبو بكر هذه الحقيقة الى الناس : انه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه (٢) . فهو أمر لا يخرج عن حقيقة ما وعاه القلب الصادق من معنى الايمان ، ومداه . ومن هنا ، كانت نقطة الاختبار والامتحان ، لمن كان له ايمان ثابت ، ويقين مستقر ، واذعان مستسلم ، فأمن وصدق ورضي . وكانت نقطة الاختبار والامتحان كذلك ، لمن فكر وقدر وعبس وبسر ، وزين له سوء عمله ، فرآه حسنا ،فاستبعد واستكبر (٣) .

لقد كان في مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر عنه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من الله عز وجل في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولي الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق . وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ،

---

(١) أنظر : شلبي : الدعوة الاسلامية : ص ٥٧٨ - ٥٨٠ .
(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/٣٩٩ ، ابن الاثير: الكامل في التاريخ : ٢/٥٦ .
(٣) أنظر : شلبي : المرجع السابق : ص ٥٨١ .

فأسرى به سبحانه وتعالى كيف شاء ،ليريه من آياته ما أراد ،حتى عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد (١) . . . . . فارتد كثير ممن كان أسلم (٢) .

قال تعالى فى محكم تنزيله :

" . . . وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس . ." (٣) .

لقد كان حادث الاسراء والمعراج امتحانا وابتلاء لغربلة الجماعة الاسلامية ، وتهذيبا لها من ضعاف البصيرة واليقين ، استعدادا للهجرة ، ومنهجا جديدا يستعد فيه الحق للموقف الفاصل (٤) .

قال عز من قائل :

" فأوحى الى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على مايرى ." (٥)

لقد حقق محمد صلى الله عليه وسلم مدلول العبودية لله . وقابل كل موجات الاعتداء ، بالصبر الجميل ، والثبات المكين ، فهو الربانى الكامل ، والعبد الكامل ، فى ربانيته وعبوديته لله رب العالمين . فما جزاء المحقق للعبودية ، وقد غاب عنه حبيباه : عمه وزوجته ، وتكأ كأت عليه الأعادى . لقد كانت آخر موجة الغضب الجاهلى ، صبية من بنى ثقيف من الطائف ، ترميه بالحجارة ، حتى دمت قدماه الشريفتان (٦) ، وسامحهم ،

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧ .
(٢) أنظر : نفس المرجع : ١/ ٣٩٨ . (٣) سورة الاسراء : من الآية ٦٠ .
(٤) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٨١ .
(٥) سورة النجم : الآيات ١٠ - ١٢ .
(٦) أنظر : الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٢٩٧ ومابعدها .

ودعا لهم بالهدى . أفلا يستحق هذا العبد الذى وصف وحده بهذا النعت (عبده) : عبده فى الاسراء ، وعبده عند سدرة المنتهى ، فلم يخرج محمد صلى الله عليه وسلم عن العبودية لله وحده ، أفلا يستحق دون سائر البشر جميعا ، أن تحمله الملائكة على البراق ، ليصلى اماما بكل الأنبياء (١) ؟ .

ولم يخرج محمد صلى الله عليه وسلم من العبودية لله وحده ، أفلا يستحق أن تقف له الأنبياء والملائكة وأهل السماوات جميعا ينتظرون مقدمه (٢) عند سدرة المنتهى ؟ يقول الامام القشيرى رضى الله تعالى عنه :

" ان الملك العظيم اذا أراد تخصيص أحد من عباده ، وولى من أوليائه ، أشهده من أملاكه وخزائنه ، أخفاه عن غيره ، ليدل بذلك على تخصيصه . كذلك الحق سبحانه وتعالى لما أراد اكرام المصطفى صلى الله عليه وسلم أطلعه على كثير من المخلوقات ما لم يشهده غيره تخصيصا له وتشريفا . ومن ذلك : أنه لما طوى الأرض فأراه مشارقها ومغاربها ، كذلك أراه : الملكوت والسماوات والجنة والنار ، وما أراه تلك الليلة ، ليزداد به اعتبارا على اعتبار ، واستبصارا على استبصار " (٣) .

ولا يعد الاسراء والمعراج كحدثين مضيا فى التاريخ القديم ، ولكنهما كانا كمنهج حياة فى العقيدة والأخلاق من جانب ، ثم يكونان دائما من دلائل النبوة الخاتمة للنبى محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخبر عن أحداث ستقع فى مستقبل هذه الأمة ، رآها بعينه فى الجنة ، وفى النار ،

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٩٧ .
(٢) أنظر : المرجع السابق : ١ / ٤٠٣ - ٤٠٤ .
(٣) كتاب المعراج : ص ٦٩ .

فأخبر عنها ليتقيها الورعون ، وليصلحها المصلحون ، ولينتهى عنها الآثمون ، وليفقهها الداعون ، لينذروا قومهم ، لعلهم يحذرون (١) .

أما النعمة العظمى ، والتجلى الالهى الأكبر ، فى ليلة الاسراء والمعراج ، فانه الصلاة . ان الصلاة هى الشرف الأسمى للانسان ، فهى تصله بالله سبحانه . وهى الوسيلة الى رضوانه ، وباب الفتوح ، والقبول . وهى المعراج الروحى ، الذى تتصل فيه أرواح العباد الأطهار بخالقهم جل وعلا . انها لحظة المناجاة ، التى لا تحتاج الى وسيط ، ولا شفيع . انها القربى الى الله جل شأنه . يأنس فيها القلب بربه ، وتصل فيها الروح ببارئها ، وتستريح من وعثاء السفر فى الحياة ، وتهدأ من صخب الشهوات ، وتنجو من وسواس الشيطان .

وقد شاء الله تعالى أن يشرّع تنظيم الصلاة ، خمس مرات فى اليوم والليلة ، من عند سدرة المنتهى (٢) ، لأنها فقط ، العبادة التى تصعد الى الله مع الملائكة ، الذين يتعاقبون فى الليل والنهار ، وهى وحدها ، الصلاة التى تحقق العبودية لله : تسجد الجباه والأيدى والركب والأقدام ويسجد القلب والعقل والفؤاد ، اجلالا وتعظيما وتمجيدا لله رب العالمين .

ومنزلة الصلاة رفيعة ، تهبط شرعيتها من منزلة تساويها : من عند سدرة المنتهى . ان الصلاة حبل واصل بين الطائعين فى الأرض ، وخالقهم الأعلى ، والحبل الذى يصل بين الله وعباده ، هو الذى يرتضيه لهم .

---

(١) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٨٥ .

(٢) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٢٤٣ ، الحلبى : انسان العيون : ١/٢٩٨ - ٣٠٢ .

ونوع الصلاة التى يتعبد بها المسلم ، لا يملك أن يقترحها ، انما تلقى اليه كما يشاء الله ، ولهذا انتدب الله عز وجل رسوله ومصطفاه ، محمدا صلى الله عليه وسلم فى ليلة الاسراء والمعراج ليوحى اليه تنظيم الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة (١) ، اعلانا بما للصلاة من منزلة عند الله ، وما لها من منزلة عند الطائعين ، وما لها من حقوق يجب أن تراعى ، وهى الفرض الوحيد الذى لا يسقط عن الصحيح والمريض والمسافر والمجاهد ، ولهذا كانت عماد الدين : من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين . وهى الفاصل بين المسلم والكافر . وهى النور الذى يملأ القلب ، والمسجد ، والبيت . وهى بركة العمر ، والرزق ، والعافية ، والعلم (٢) .

وبقدر ما كان حدث الاسراء والمعراج محور تمحيص وابتلاء لجماعة المسلمين ، كان يحمل أيضا - بين وقائعه - معنى ربانيا ساميا سامقا . لقد كان تسلية ومواساة واختفاء برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا العام العصيب الذى فقد فيه زوجه خديجة ، وعمه أبا طالب ، حيث اشتد أذى المشركين والكافرين من قريش وثقيف له .

ولقد سمع الله تبارك وتعالى ضراعة رسوله ، وأراد أن يبيّن له أن جفاء الأرض لا يعنى أن السماء تخلت عنه . فكأن الله تعالى يوحى اليه من فوق سماوات سبع بأنه سيعوضه عن جفاء الأرض بحفاوة السماء ، وعن جفاء

---

(١) أنظر : الزرقانى : شرح المواهب اللدنية للقسطلانى : ١ / ٣٠٧ .

(٢) أنظر : شلبى : الدعوة الاسلامية : ص ٥٨٥ - ٥٨٦ .

عالم البشر بعالم الملأ الأعلى فكان حدث الاسراء والمعراج حيث أراه الله تعالى من آياته وقدراته وأسراره فى كونه ما يعطيه طاقة وشحنة تدفعه الى طريق الدعوة دون يأس أو ملل . فان الله الذى أراه كل هذه الآيات والذى يملك كل هذا الكون لقادر على أن ينصره ، ولن يتخلى عن نبيه أبدا ، ولكن تركه للاسباب أولا يجتهد فيها ، ويكافح من أجلها ، حتى يكون أسوة حسنة لأمته فى الأخذ بالأسباب ، وبذل ما فى وسع البشر (١) .

ومما يؤيد ذلك ، قول الله تبارك وتعالى فى أول سورة الاسراء :

" سبحان الله أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من
آياتنا انه هو السميع البصير ."

فبعد أن ذكر الله تعالى الهدف من الاسراء - وهو رؤية الآيات - ذكر العلة الحقيقية الدافعة لذلك وهى : " انه هو السميع البصير . فقد سمع الله تعالى ما تعرض له رسوله الكريم من الجفاء والسخرية والاستهزاء ، ورأى ما تعرض له صلى الله عليه وسلم من الأذى والاضطهاد ، فعوضه عن كل ذلك بتلك الرحلة الربانية العلوية ، تكريما له ، واحتفاء به ، وتسرية عنه (٢) .

---

(١) أنظر : محمد متولى الشعراوى : الاسراء والمعراج (دار الشروق بالقاهرة - طبعة ١٩٧٣م) : ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) أنظر : المرجع السابق : ص ٣٧ - ٤٠ .

الفصل الرابع

طلائع النصر

المبحث الاول

عرض الدعوة على القبائل

دائما .. يشق النور حجب الظلام ، حتى ولو كانت ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض : فطبيعة النور مشرقة متحركة ، وطبيعة الظلام كئيبة راكدة . ولقد كانت الدعوة الاسلامية نورا مشرقا يبدد حجب الظلمات الجاهلية التى كانت تصنعها قريش ، وتسلك فى سبيلها كل طريق وتتخذ فى تنوعها واختلافها كل وسيلة .

عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة محزونا يائسا من خير ثقيف ، وموسم الحج قد أهل ، وأقبلت قبائل العرب على البيت الحرام من كل فج عميق ، تؤدى مناسك الحج ، وتشهد منافع لهم ، وتقدم للأصنام ماعليها من نذور وقرابين . (١)

وكان من عادة العرب كلما حضروا الى مكة فى موسم الحج ، أن ينتهزوا فرصة الأشهر الحرم فى ذلك الموسم ، فيعرضوا بضائعهم فى أسواق مكة . وكان أشهر هذه الأسواق ثلاثة : عكاظ ، ومَجِنَّة ، وذو المجاز .

فكان العرب يبدأون بعكاظ ، فيحضرون اليها مع هلال ذى القعدة فيقيمون بها عشرين يوما ، ثم ينصرفون الى مجنة فيقيمون بها عشرة أيام فاذا رأو هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز فأقاموا بها ثمانى ليال ثم يتروون من مائها فى اليوم الثامن ، ويخرجون الى عرفة ليؤدوا مناسك الحج.(٢)

---

(١) أنظر: الازرقى : أخبار مكة ، جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام.

(٢) انظر: الازرقى : اخبار مكة : ١/١٢١ - ١٢٢ ، جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤/١٣٠ - ١٤٣ .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عقد العزم على أن يغشى هذه الأسواق ، ليعرض نفسه على القبائل التى حضرت الموسم ، يدعوهم الى الله عز وجل ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبلغ عن الله مابعثه به . (١)

وكانت قريش قد أعدت عدتها ، منذ عرفت ماعزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض دعوته على القبائل ، وأجمعت رأيها على أن تشوه هذه الدعوة عند قبائل العرب ، وأن تحذرها من (سحر) محمد ، وما ينجم عنه من الفرقة والخلاف بين الأهل والعشيرة ، مثلما أصابها هى من فرقة وشقاق بسبب دعوته . (٢)

روى ابن اسحق : أن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يامعشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسمُ ، وان وفود العرب ستقدَم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : تقول كاهن قال : لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا : فنقول : مجنون . قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقة ، ولا تخالجه ، ولا وسوسته . قال : فتقول شاعر . قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو

---

(١) انظر ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٢ ، الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣٠٩ .

(٢) انظر : المرجعين السابقين نفس المكانين .

بالشعر. قالوا : فنقول : ساحر . قال : ماهو بساحر ،لقد رأينا السحار وسحرهم ،فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ياأبا عبد شمس ؟ . قال : والله ان لقوله لحلاوة ،وان أصله لعذق ،وان فرعه لجناة ،وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف أن باطل وان أقرب القول فيه : لأن تقولوا ساحر ،جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ،وبين المرء وزوجته ،وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ،لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه ،وذكروا لهم أمره . (٢)

وجعلت قريش تتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم أينما ذهب فكلما ذهب الى قبيلة من القبائل يعرض عليهم دعوته ،وقف عليه رجل من قريش يحذرها من سحره ومكره ،ويتهمه عندها بالجنون تارة وبالكذب تارة ، وبالسحر تارة أخرى . وكان لقريش مكانتها فى نفوس العرب : فكان لقولهم أثره فى اعراضهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم استجابتهم لما يدعو اليه من الحق الواضح والنور المبين .

روى ابن اسحق عن ربيعه بن عباد الدؤلى أنه قال : انى لغلام شاب مع أبى بِمَنىً ،ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ،فيقول : يابنى فلان ،انى رسول الله اليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ،وأن تخلعوا ماتعبدون من دونه من هذه

---

(١) هو استعارة من النخلة التى ثبت أصلها وقوى ،وطاب فرعها اذا جنى . والنخلة هى العذق (انظر: السهيلى : الروض الانف : ٣ / ٧٩)

(٢) انظر : ابن هشام :سيرة النبى : ١ / ٢٧٠-٢٧١ .
انظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣٠٩-٣١٨ .

الانداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به . (قال) : وخلفه رجل أحول وضئ ، له غديرتان (١) ، عليه حلة عدنية . فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله ومادعا اليه قال ذلك الرجل : يابنى فلان ، ان هذا انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيس، الى ماجاء به من البدعة والضلاله ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه . (قال) فقلت لأبى : ياأبت ، من هذا الذى يتبعه ويرد عليه مايقول ؟ : هذا عمه عبد العزى ابن عبد المطلب ، أبو لهب . (٢)

وروى البيهقى عن رجل من كنانه قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذى المجاز وهو يقول : ياأيها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا . واذا رجل خلفه يسفى اليه التراب - فاذا هو أبو جهل - وهو يقول : أيها الناس ، لايغرنكم هذا عن دينكم ، فانما يرد أن تتركوا عبادة اللات والعزى ." (٣)

ولكن ذلك لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى القبائل فى منازلها ، يعرض عليها دعوته ، ويسألها نصره وحمايته حتى يبلغ رسالة ربه ، غير مبال بما يلقاه من مناوأة قريش لدعوته ، وسعيها لدى

---

(١) الغديرة : الذؤابة من الشعر .
(انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٣ هامش)

(٢) ابن هشام : نفس المرجع والمكان ،
انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٤٨-٣٤٩ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٥٥ - ١٥٦ ،
الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٢٥٠ .

(٣) البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٦١ .

القبائل فى تشويهها وتمويه الحق بالباطل فى أمرها ، موقنا أن الغلبة للحق وان طال الزمن ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا .

وقد تأثرت القبائل بسعى قريش أيما تأثرا : فما من قبيلة الا وأعرضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وردت عليه دعوته فى ذلك الموسم وان كانت طريقة الرد تختلف باختلاف القبائل :-

فمن القبائل من كان يغلظ له الرد ، ومنها من كان يساوم فى الثمن ومنها من كان يسخر منه ويستهزئ بدعوته ، ومنها من كان يستأنى بالرد حتى يفكر فى الأمر ، وينظر فى العواقب . (١)

فلما انصرفت القبائل من " منى " الى منازلها فى مكة - بعد الموسم - أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كندة فى منازلهم ، وفيهم سيد لهم يقال له : مليح ، فدعاهم الى الله - عز وجل - وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه . وأتى بنى كلب فى منازلهم فلم يقبلوا دعوته وأبوا عليه . ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فلم يكن أحد من العرب . أقبح ردا عليه منهم (٢) . وانتقل بدعوته صلى الله عليه وسلم الى بنى عامر بن صعصعه ، فتداولوا أمره فيما بينهم ، وان أحدهم وهو فراس بن عبد الله بن سلمه

---

(١) انظر : الزرقانى : شرح المواهب :
١ / ٣٠٩ - ٣١٨
أمين دويدار : صور من حياة الرسول :
ص : ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) انظر المرجعين السابقين - نفس الاماكن .

العامرى ليقول : " والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت بـــه العربَ ، ثم قام الى المصطفى فقال يساومه : " أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعـــدك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " الأمر الى الله يضعه حيث يشاء " . ورد ـــ المساوم عن بنى عامر : " أفتهدف نحونا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا الا حاجة لنا بأمرك " . . وأبوا عليه . (١)

روى البيهقى (٢) ـ بسنده ـ حديثاً مطولاً عن على بن أبى طالب أنه قال : " لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، خـــرج وأنا معه وأبو بكر الى مِنىَ ، حتى دفعنا الى مجلس من مجالس العـــرب . فتقدم أبو بكر فسلم ـ وكان أبو بكر مقدّما فى كل خير ، وكان رجلا نسّـــابة ـ فقال : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة ـ وذكر علىٌّ ماكان بين أبى بكـــر وبين القوم من حوار ـ طويل ـ ثم قال : ثم انتهينا الى مجلس عليه السكينة والوقار ، واذا مشايخ لهم أقدار وهيئات . فتقدم أبو بكر فسلم ثم قـــال : ممن القوم ؟ فقالوا : من بنى شيبان بن ثعلبة . فالتفت الى رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، هؤلاء غرر فـــى قومهم . وكان فى القوم مفروق بن عمرو ، وهانئ بن قبيصه ، والمثنى بـــن حارثه ، والنعمان بن شريك . وكان مفروق بن عمر قد غلبهم جمالا ولسانا ، وكانت له غديرتان من شعر تسقطان على صدره ، وكان أدنى القوم مجلسا

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٢-٤٢٥ ، وانظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣٠٩ .

(٢) دلائل النبوة : ٢ / ١٦٤ - ١٦٩ ،
انظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣٠٩ .
دحلان : السيرة النبوية : ١ / ٢٨٤ - ٢٨٦

من أبى بكر - رضى الله عنه - فقال له أبو بكر : كيف العدد فيكم؟ قال مفروق : انا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة . فقال له أبوبكر: فكيف المنعة فيكم ؟ قال مفروق : علينا الجهد ، ولكل قوم جد . فقال له أبو بكر - رضى الله عنه : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق : انا لأشد مانكون غضبا حين نلقى ، وأشد مانكون لقاء حين نغضب ، وانا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يدبلنا مره ، ويديل علينا مره ، لعلك أخو قريش؟ فقال أبوبكر: ان كان بلغكم أنه رسول الله فهاهو هذا . فقال مفروق : قد بلغنا أن يذكر ذلك . ثم التفت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ، وقام أبو بكر يظله بثوبه. قال مفروق : فالام تدعو ياأخا قريش ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدعوكم الى شهادة أن لااله الاالله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق . والله هو الغنى الحميد . قال له : والام تدعو أيضا ياأخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل

فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ." (١) فقال مفروق : والام تدعوأيضا ياأخا قريش ؟ فوالله ماهذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه . فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ." (٢) فقال له مفروق : دعوت والله ياأخا قريش الى مكارم الأخلاق ومحاسن الاعمال !!! ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك . وكأنه أحب أن يشاركه فى الكلام هانئ بن قبيصة ، فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا . فقال هانئ : قد سمعت مقالتك ياأخا قريش ، وصدقت قولك ، وانى أرى أن تركنا ديننا ، واتباعنا اياك على دينك ، لمجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر ، لزلة فى الرأى ، وقلة فظر فى العواقب ، وانما تكون الزلة مع العجلة . وان من ورائنا قوما نكره أن تعقد عليهم عقدا . ولكن ترجع ونرجع ، وتنظر وننظر . وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة ، فقال : وهذا المثنى بن حارثة ، شيخنا وصاحب حربنا . فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك ياأخا قريش ، وأعجبنى ماتكلمت به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة وان أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى سائر العرب دون أنهار كسرى فعلنا ، فاننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثا ولا نؤوى محدثا . (٣) وانى أرى أن هذا

---

(١) سورة الأنعام : الآيات : ١٥١ - ١٥٣ .
(٢) سورة النحل : اية ٩٠ .
(٣) المحدث هو الذى يحاول تغيير الوضع القائم. والمعنى أنهم لا يريدون أن يخرجوا على طاعة كسرى - ملك الفرس - ولا أن يعاونوا من يخرج على طاعته لما بينهم وبينه من حلف (انظر : أمين دويدار : صورعن حياة الرسول : ص ٢١٤) .

الأمر الذى تدعونا اليه هو ماتكرهه الملوك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماأسأتم اذ أفصحتم بالصدق . انه لا يقوم بدين الله الا من حاطه من جميع جوانبه . (١)

كان أهم مايعنى رسول الله أن يجد المنعة والقوة عند القوم الذين يدعوهم الى دينه ، وأن يجد لديهم الرغبة الخالصة فى أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه . فقد كان يعلم أن العرب جميعا يحسبون حساب قريش ، وأنه لاينهض بهذه الدعوة الا من آمن بها أصدق الايمان ، وباع نفسه لله فى سبيلها عن رضا وطواعية . فكان كلما أقبل على قوم سألهم عن نسبهم ، وعن عددهم ، وعن منعتهم ، ثم عرض عليهم نفسه ودعاهم الى الله ، ورغّبهم فيما جاءهم به من الخير ، وخيّرهم بعد ذلك فيما يريدون لأنفسهم . حتى اذا ماوجد منهم تعللا أو اعتذارا ، أو رأى فيهم طمعا أو مساومة ، تركهم وانصرف عنهم الى غيرهم (٢)

والحق أن أكثر القبائل كانت تجامل قريشا ، وتتقى أن تقف منها موقف العداء ، لما كان لقريش من المكانة فى نفوس العرب ، فكان اعراض القبائل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا فى الأغلب الى هذا السبب ، أكثر مما هو راجع الى عدم تصديق الرسول فيما يدعوهم اليه . ولقد بذلت قريش غاية جهدها فى محاربة الرسول وتشويه دعوته ، حتى أيقنت

---

(١) انظر : البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٦٤ - ١٦٩ ، الزرقانى شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٢ ومابعدها ،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٤٨ ومابعدها
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٥٥ ومابعدها .
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٠٩ ومابعدها

العرب أن صاحب هذه الدعوة هو أعدى عدوها ، وأن كل من يتابعه أو يؤازره أو يمنعه ، وانما يناصره على قريش ويبارزها جهرا بالعداوة (١)

على أن قريشا رغم مابذلت من الجهد فى تشويه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى تحذير الناس منه ، لم تستطع أن تحول بين الدعوة وبين الظهور والانتشار . فقد صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها . وكانت مبالغة قريش فى التحذير منه ، سببا فى لفت الأنظار اليه ، والى مايدعو اليه من هذا الدين الذى تحذر منه قريش . (٢)

وان فى قصة الطفيل بن عمر الدوسى دليلا واضحا على شدة ماكان لقريش من التأثير على عقول الناس ، كما أن فيها دليلا على أن هذا التأثير على شدته ، لم يمنع أحرار العقول من صدق النظر فى أمر هذه الدعوة ، دون أن يأبهوا لما قيل ومايقال عنها :

كان الطفيل بن عمرو سيدا مطاعا فى قبيلة دوس ، وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا . وكان قد قدم مكه حاجا ، فمشى اليه رجال من قريش ، فقالوا له : ياطفيل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل (٣) بنا ، وقد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وانما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وانا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا . قال الطفيل : فوالله مازالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع

---

(١) انظر: أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢١٥ .
(٢) انظر : نفس المرجع والمكان .
(٣) أعضل : اشتد أمره (انظر : ابن منظور : لسان العرب) .

منه شيئا ولا أكلمه ، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا (١) فرقا من أن يبلغنى شئ من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت الى المسجد ، فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى عند الكعبة . فقمت منه قريبا ، فأبى الله الا أن يسمعنى بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أمى ، والله انى لرجل لبيب شاعر مايخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل مايقول ؟ فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته . قال : فمكثت حتى أنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته فاتبعته ، حتى اذا دخل بيته دخلت عليه . فقلت : يامحمد ، ان قومك قد قالوا لى كذا وكذا للذى قالوا ، فوالله مابرحوا يخوفوننى حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعنى قولك ، فسمعته قولا حسنا ، فاعرض على أمرك . قال: فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الاسلام ، وتلا علىّ القرآن ، فلا والله ماسمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق . وقلت : يانبى الله ، انى أمرؤ مطاع فى قومى ، وأ راجع اليهم وداعيهم الى الاسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونا عليهم فيما أدعوهم اليه . فقال : اللهم اجعل له آية " . قال الطفيل : فخرجت الى قومى ، حتى اذا كنت بثنية (٢) تطلعنى على الحاضر (٣) ، وقع نور بين عينى مثل المصباح . فقلت : اللهم فى غير

---

(١) الكرسف : القطن (انظر نفس المرجع)
(٢) الثنية : الفرجة بين الجبلين (انظر : ابن منظور : لسان العرب
(٣) الحاضر : القوم النازلون على الماء (انظر : نفس المرجع)

وجهى ، انى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراق دينهم .
قال : فتحول فوقع فى رأس سوطى . قال : فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أهبط اليهم من الثنية . قال حتى جئتهم فأصبحت فيهم . (١)

قال الطفيل : فلما نزلت أتانى أبى ، وكان شيخا كبيرا ، فقلت : اليك عنى ياأبت ، فلست منك ولست منى . قال : ولم يابنى ؟ قلت : أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أى بنى ، فدينى دينك . فقلت : فاذهب ، فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعالى حتى أعلمك ماعلمت . فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، ثم جاء فعرضت عليه الاسلام ، فأسلم . (٢)

قال الطفيل : ثم أتتنى صاحبتى . فقلت اليك عنى ، فلست منك ولست منى . قالت : لم ؟ بأبى أنت وأمى . قلت : قد فرق بينى وبينك الاسلام ، وتابعت دين محمد صلى الله عليه وسلم قالت : فدينى دينك قلت : فاذهبى الى حمى ذى الشرى فتطهرى منه . (وكان ذو الشرى صنما لدوس ، وكان الحمى حمى خموه له ، به وشل (٣) من ماء يهبط من جبل) قالت : بأبى أنت وأمى ، أتخشى على الصبية من ذى الشرى شيئا ؟ قلت: لا ، أنا ضامن ذلك . فذهبت فاغتسلت ثم جاءت ، فعرضت عليها الاسلام ، فأسلمت .

قال الطفيل : " ثم دعوت دوسا الى الاسلام ، فأبطؤوا على ، ثم جئت

---

(١) انظرابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٨٢ - ٣٨٥ ،
دحلان : السيرة النبوية : ١ / ٢٧٦ .

(٢) انظر : المرجعين السابقين - نفس الأماكن .

(٣) الوشل : الماء القليل (انظر: ابن منظور : لسان العرب)

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكه . فقلت له : يانبى الله ،انه قد غلبنى على دوس الزنا (١) ،فادع الله عليهم. فقال : اللهم اهد دوسا ،ارجع الى قومك فادعهم وارفق بهم . قال الطفيل : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم الى الاسلام، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ،ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ،حتى نزلت المدينه بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس . (٢)

ومهما يكن من شيئ ،فان كيد قريش لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن شرا كله على الدعوة ،بل كان شرا يحمل الخير فى ثناياه. فقد ذاعت بسببه انباؤها فى جميع بلاد العرب . كما كان هذا الكيد سببا فى ايمان الأحرار من أمثال الطفيل الدوسى ،كان سببا فى ايمان الأنصار من الأوس والخزرج ،وكان سببا فى انتقال الدعوة الى المدينة ، ثم فى انتشارها فى بلاد العرب كلها ،ثم فيما شاء الله بعد ذلك من أقطار الأرض .

وصدق الله القائل :

" . . . . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ." (٣)

---

(١) الزنا : لهو مع شغل قلب و (انظر : المرجع السابق) .

(٢) انظر بن هشام : سيرة النبى : ١ / ٣٨٢ - ٣٨٥ ، دحلان : السيرة النبوية : ١ / ٢٧٦ .

(٣) سورة يوسف : من الآية ٢١ .

المبحث الثاني

بشائر نصر الله

١ - مقدمات النصر :

ازدادت مساءات قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم للمسلمين حتى ضاقوا بها ذرعا . ولم يبق لمحمد رجاء في نصرة القبائل اياه بعد اذ ردته ثقيف من الطائف بشر جواب ، وبعد اذ ردته كنده وكلب وبنو عامر وبنو حنيفة لما عرض نفسه عليهم في موسم الحج . وشعر صلى الله عليه وسلم بد ذلك كله بأنه لم يبق له مطمع في أن يهتدي الى الحق من قريش أحد . ورأت غير قريش من القبائل التي تجاور مكة والتي تجيء من مختلف أنحاء بلاد العرب حاجة اليها ، ماصار اليه من عزله ، وماأحاطته به قريش من عداوة تجعل كل نصير له ، عدوا لها وعونا عليه ، فازدادت اراضا عنه . ومع اعتزاز محمد صلى الله عليه وسلم بحمزة وعمر ، ومع طمأنينته الى أن قريشا لن تنال منه أكثر مما نالت لعصمة الله له من الناس ، ثم لنعته بقومه من بني هاشم وبني عبد المطلب ، فقد رأى رسالة ربه تقف في دائرة من اتبعه الى يومئذ ، وأن هؤلاء الأتباع معرّضون ليل نهار لأن يُفتنوا عن دينهم اذا لم يأتهم نصر الله والفتح . (١) وتطاولت الأيام بمحمد صلى الله عليه وسلم وقريش تزداد عليه حقدا . فهل ضعضعت هذه العزلة من نفسه ، أو أوهنت له عزما ؟ كلا ! بل زادته الايمان بالحق الذي جاءه من ربه سموا على هذه

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٢٨٧ - ٢٨٨ ،
هيكل : حياة محمد : ص ٢١٢ ،
دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

الاعتبارات التى تفت فى عضد ذوى النفوس العادية ، ولا تزيد أصحاب النفوس الممتازة الا سموا ، وايمانا - وظل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من حوله ، أشد مايكون ثقة بنصر الله له ، واعلاء دينه على الدين كله . لم تزعزع منه أعصير الحقد ، بل جعل يقيم بمكة طوال عامه لا يعنيه أن ذهب مال خديجة وماله ، ولا يضعضع من نفسه ضيق ذات يده ، ولا يتطلع الى شئ غير هذا النصر الذى لا ريب عنده فى أن الله مؤتيه اياه . فاذا جاء موسم الحج ، واجتمع الناس من أنحاء شبه الجزيرة بمكة ، بادأ القبائل فدعاها الى الحق الذى جاء به ، غير آبه أن تبدى هذه القبائل الرغبة عن دعوته والاعراض عنه ، أو ترده ردا غير جميل . ويتحرش به بعض سفهاء قريش حين ابلاغهم الناس رسالة ربه ، وينالونه بالسوء ، فلا تفيد مساءاتهم رضا نفسه وطمأنينتها الى غده . ان الله ذا الجلال قد بعثه بالحق ، فهو لا ريب ناصر هذا الحق ومؤيده . وهو قد أوحى اليه أن يجادل الناس بالتى هى أحسن : " . . . . فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم "(١) وأن يقول لهم قولا لينا ، لعلهم يذكرون أو يخشون . فليصبر على أذاهم ، ان الله مع الصابرين . (٢)

ولم يطل بمحمد الانتظار أكثر من بضع سنين ، حتى بدت له فى الأفق تباشير الفوز آتية طلائعها من ناحية يثرب . ولمحمد صلى الله عليه وسلم بيثرب علاقة غير علاقة التجارة : له بها علاقة قربى ، وله فيها قبر كانت أمه ؟ تزوره قبل موتها فى كل عام مرة . أما ذوو قرباه فأولئك :

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٣٤ .
(٢) انظر : هيكل : حياة محمد : ص ٢١٠ - ٢١١ .

بنو النجار أخوالى جده عبد المطلب . وأما ذلك القبر ، فقبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب . الى هذا القبر كانت تزوره ؟ آمنة الزوج الوفية ، وكان يحج عبد المطلب الأب الذى فقد ابنه وهو فى شرخ شبابه وريعان قوته . وقد صحب محمد صلى الله عليه وسلم أمه الى يثرب فى السادسة من عمره ، فزار معها قبر أبيه ثم قفلا عائدين فمرضت آمنه فى الطريق وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكه . (١)

فلا عجب أن تبدأ تباشير الفوز لمحمد صلى الله عليه وسلم من ناحية بلد له به هذه الصلة ، والى ناحيته كان يتجه حين يصلى جاعلا قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس ، مقام سلفيه موسى وعيسى عليه وعليهم صلوات الله وسلامه ولا عجب أن تهيئ المقادير ليثرب هذا الخط ، ليتم لمحمد صلى الله عليه وسلم بها النصر ، وللاسلام بها الفوز والانتشار . (٢)

كان أهل المدينة عنصرين متمايزين :

* عنصر يهودى يتكون من ثلاث قبائل : بنى النضير ، وبنى قريظة ، وبنى قينقاع .
* عنصر عربى يتألف من قبيلتين هما : الأوس ، والخزرج .

يقول الرواه : ان الأوس والخزرج ، كانا أخوين شقيقين ، وكان مسكنهما بلاد اليمن . وعلى تطاول الزمن تفرع الأخوان الى فروع ، وتفرعت فروعهما الى فروع ، وتكونت من هؤلاء وهؤلاء بطون كثيرة ، ثم نزح الجميع الى يثرب بعد سيل العرم وهو السيل الذى أصاب بلاد اليمن فى قديم الزمان ،

---

(١) انظر المبحث الاول : مطلع النور - من الفصل الأول - من الباب الأول من الرسالة .

(٢) انظر هيكل : حياة محمد : ص ٢١١ - ٢١٢ .

فهدم سدودها ، وخرب ديارها ، وطمس أراضيها ، وفرق أهلها شيعا فى نواحى الأرض.(١)

وكان اليهود هم أهل المدينة فى ذلك الحين ، فلما وفد الأوس والخزرج على المدينة عاشوا تحت سلطان اليهود : يفلحون لهم الأرض ، ويأبرون النخل ، ويعملون لهم عمل الأجراء . وظلوا على ذلك حينا من الدهر ، حتى هجم المسيحيون من أهل الشام - ممن كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقية - على المدينة ، ينتقمون من اليهود لما فعلوا بالمسيح ، لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوه ونكلوا به ، فلما لم يظفروا بهم ، استعانوا بالأوس والخزرج على استدراجهم ، ثم قتلوا عددا منهم غير قليل ، ومكنوا للأوس والخزرج بالمدينة ، فاشتدت بذلك شوكة العرب ، ونازعوا اليهود سلطانهم وسيادتهم ، فبدأ بذلك عهد طويل من النزاع بين اليهود وبين الأوس والخزرج . (٢)

---

(١) انظر : السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى : ١ / ٢١٥ ومابعدها ، دويدار : صور من حياة الرسول : ص٢١٩

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٢٨٧-٢٨٨ ، السمهودى وفاء الوفاء : ١ / ٢١١ ، هيكل : حياة محمد : ص٢١٢ ، أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

ب ـ أثر جوار اليهود فى اسلام الأوس والخرج :

كان لجوار يهود يثرب للأوس والخزرج أثر كبير فى التعجيل بدخول هاتين القبيلتين العربيتين فى الاسلام، فقد كان اليهود أهل كتاب وعلم، ودعاة للوحدانية، وكان الأوس والخزرج أميين : لا يقرءون ولا يكتبون. وكانوا كذلك أهل شرك وأوثان : يعبدون الأصنام كما يعبدها سائر العرب، وكان اليهود يعيرونهم بذلك ويحقرونهم، ويعيبون عليهم جهلهم وغباوتهم، واتخاذهم الأوثان زلفى الى الله، ويتطاولون عليهم بعلمهم وكتابهم. كلما رأوا منهم تمردا عليهم، قالوا لهم : ان نبينا سيبعث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم. يهددونهم بذلك ويتوعدونهم. (١)

ولم تصل هذه الدعوة .. الى تهويد العرب لسببين :

أحدهما : أن ماكان بين النصرانية واليهودية من حرب جعل يهود يثرب لا يطمعون فى أكثر من السلامة التى تهيئ لهم سعة التجارة. والآخر: أن اليهود يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، ولا يرضون أن تكون لشعب غيرهم هذه المكانة، وهم لذلك لا يدعون لدينهم ولا يرضونه يخرج من بنى اسرائيل (٢).

ومع قيام هذين السببين، هيأ اتصال الجوار والتجارة، بين اليهود والعرب، أوس يثرب وخزرجها، ليكونوا أكثر استماعا للحديث فى سائر شئون الدين، من غيرهم من العرب.

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٤٠٨-٤٢٩.
، هيكل : حياة محمد : ص٢١٢-٢١٤ أمين دويدار: صور من حياة الرسول : ص ٢٢٢.

(٢) انظر : المراجع السابقة، نفس الأماكن.

من أجل ذلك : كان الأوس والخزرج يترقبون ظهور هذا النبى - الذى يهدد ونهم ويتوعدونهم به - ويتمنون لو سبقوا اليهود اليه ، يتبعوه ويؤمنون به ، ويستنصرون به عليهم . يدلك على ذلك أن العرب لم تستجب لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم الايمانية ، مثلما استجاب أهل يثرب .

كذلك كان تعيير اليهود للعرب بأصنامهم قد جعل كثيرا من عقلائهم يتبرمون بهذا الدين الذى يدينون به ، وبهذه الحجارة التى يعبدونها ، ويتمنون لو كان لهم دين كدين اليهود ، وكتاب ككتابهم ، أو كان لهم رسول يرشدهم الى الحق ، ويهديهم الى صراط مستقيم . (١)

وهكذا كانت نفوس العرب فى يثرب قد تهيأت لقبول دعوة الاسلام ، واستشرفت لرؤية رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . وفى قصة سويد بن الصامت دليل واضح على ذلك (٢) .

لقد كان بين الأوس والخزرج من العداوة التى بث اليهود ماعلمت . وكان كل منهم يلتمس الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر . وكان من ذلك أن قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فجلس اليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا : وماذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى الى العباد ، أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا

---

(١) انظر : المراجع السابقة ، نفس الأماكن .

(٢) هو : أخو بنى عمرو بن عوف ، من الأوس - وانظر قصته فى المبحث الثالث : المناظرة - من الفصل الثالث - من الباب الثانى - من هذه الرسالة .

به شيئا ، وأنزل عليّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . فقال اياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم لـه . فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنه من تراب البطحاء ، فضرب بها وجـه اياس بن معاذ . وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . فصمت اياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ، وانصرفوا الى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج . ثم لم يلبث اياس بن معاذ أن هَلَك. " وأخبر من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل اللـه تعالى ، ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات . فماكانوا يشكون أنـه قد مات مسلما . لقد كان استشعر الاسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله ماسمع ." (١)

---

(١) البيهقى : دلائل النبوة : ٢/١٦٣ ،
انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٤٢٧ - ٤٢٨ ،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/٢٣٣ - ٢٣٤ ،
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢/٩٥ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/١٧٥ ،
الحلبى : انسان العيون : ٢/٧ .

جـ - بـدء اسـلام الأنصـار :

قال ابن اسحاق : " فلما أراد الله عز وجل اظهار دينه ، واعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم وانجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذى لقيه فيه النفر من الانصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم . فبينما هو عند العقبة ، لقى رهطا(١) من الخزرج أراد الله بهم خيرا . . قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا والله أنه للنبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا تسبقنكم اليه" . فأجابوه فيما دعاهم اليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ماعرض عليهم من الاسلام . وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك . ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا ، وواعدوه الموسم من العام القادم." (٢)

---

(١) الرهط : رجال دون عشرة (الزرقانى شرح المواهب : ١ / ٣١٠)

(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وانظر الزرقانى : شرح المواهب اللدنية للقسطلانى : ١ / ٣٠٩ ومابعدها .

" فلما قدموا المدينة الى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله صلـــى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار مـــن دور الانصار الا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم." (١)

---

(١) ابن هشام : نفس المرجع : ١ / ٤٣٠ .
انظر : الزرقاني : نفس المرجع : ١ / ٣١٥ ومابعدها .

د ـ بيعة العقبة الأولى :

شغلت يثرب بأمر الاسلام ، منذ عاد اليها الخزرجيون الذين بايعوا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، فالعرب من أوس وخزرج ، يلقون أسماعهم الى حديث هؤلاء الأنصار ، ولا يكاد يفرغ لهم عجب لما يشهدون من حماستهم للدعوة ، وصدق حبهم للرسول ، وايمانهم برسالته . ويهود : في شغل شاغل بهذه البادرة الخطيرة . (١)

كان الخزرجيون أصحاب البيعة الأولى : ستة نفر (٢) أوثمانية (٣) لم يكن عددهم هو الذى شغل يهود ، بقدر ماشغلهم أن الدين الاسلامى وصل الى يثرب ، وكان الظن أن يبقى محصورا فى مكة بين أحياء قريش يمزقها بددا .

وقد راحوا يترصدون خطوات الدعاة الأولين من الانصار ، متعلقين بالرجاء فى أن عرب يثرب لن يلبثوا أن يختلفوا على الاسلام ، وأن الأوس لن ترضى عن دعوة ، حملها رهط من الخزرج . ومثل هذا الخلاف المتوقع مرجو لأن يلهب نار العداوة والبغضاء بينهم ، ويمدها بوقود يزيدها حدة وحزاما . (٤)

لكن عاماً مضى ، والانصار الخزرجيون ماضون فى دعوتهم لا يصدهم عنها ـ من قومهم ـ صاد . فلما استدار العام ، وعادت الأشهر الحرم ، وعاد موعد الحج لمكة ، وافى الموسم من الانصار اثنا عشر رجلا (تسعة من

---

(١) انظر : السمهودى : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٢٩ .
(٣) انظر : الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣١٠ .
(٤) انظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٦٤ .

الخزرج وثلاث من الأوس) (١) فلقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء (٢) ، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب ، من بينهم الستة من الخزرج الذين أسلموا من قبل (٣) .

عن عبادة بن الصامت أنه قال : " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف . قال : فان وفيتم فلكم الجنة ، وان غشيتم من ذلك شيئا ، فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وان سترتم عليه الى يوم القيامة ، فأمركم الى الله عز وجل : ان شاء عذب ، وان شاء غفر" . (٤)

جن غيظ يهود ، عندما ذاع خبر من مكة أن رهطا يثربيا ممن وافوا موسم الحج ، لقوا نبى الاسلام عند العقبة وبايعوه . ورأت فى هذه البوادر ايذانا بقول خطير فى حركة الدعوة الاسلامية ، التى عاشت فى مكة أكثر من عشر سنين ، صامدة لكل ماقاومتها به الوثنية القرشية من اضطهاد وحصار وفتنة ، رافضة كل ماعرضت عليها من مساومات .

---

(١) انظر ابن سعيد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٢٠ .

(٢) أراد ببيعة النساء : أنهم لم يبايعوه على القتال - وكانت مبايعة صلى الله عليه وسلم للنساء ، أن يأخذ عليهن العهد والميثاق فاذا أقررن بألسنتهم قال : قد بايعتكن . وما مست يده يد أمرأة فى مبايعة (انظر : السهيلى : الروض الأنف : ٤ / ٧٠)

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٣١ - ٤٣٤ ؛
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : ٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .
دحلان : السيرة النبوية : ١ / ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٤) ابن هشام : المرجع السابق - نفس المكان ، انظر المرجعين السابقين نفس الأماكن .

وانتظرت يثرب حتى يعود هؤلاء الرهط من الأنصار ، وهى تظن أنهم خزرجيون كسابقيهم أصحاب البيعة الأولى ، فكانت المفاجأة : أن فيهم ثلاثة من زعماء الأوس مع تسعة من أحياء الخزرج (١) ، جمعهم الاسلام ووحد بينهم ، وألف بين قلوبهم ، وقد كانوا من قبل متباغضين : بعضهم لبعض عدو ٠ (٢)

---

(١) انظر : الزرقانى : شرح المواهب اللدنية للقسطلانى : ١ / ٣١٧

(٢) انظر : بنت الشاطئ مع المصطفى : ص ١٦٤ - ١٦٥ ٠

هـ - أثر مصعب بن عمير في يثرب :

استقبلت يثرب مع طلائع الأنصار العائدين من بيعة العقبة ، صحابيا جليلا من صميم قريش، هو : مصعب بن عمير بن هاشم موفدا من قبل المصطفى عليه الصلاة والسلام ، مع الذين بايعوه من اليثربيين ليقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين . (١)

ونزل مصعب على أنصارى من سادة الخزرج : أسعد بن بزارة كبير بني النجار ، أخوال عبد الله بن عبد المطلب، والد المصطفى صلى الله عليه وسلم . وكانت يثرب قد تساومت قبل ذلك بما شاع وذاع من أمر مصعب بن عمير . كان قبل اسلامه فتى مكه شبابا وجمالا وزهوا ، تلتمس له أُمُّهُ لفرط شغفها به ، أفخر الثياب وأندر العطور ، حتى ليذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : "مارأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير" . (٢)

اختاره المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من بين أصحابه ليكون امام الأنصار في يثرب ، فأقام عاما هناك ، تنقل بين دورها ، يؤم المسلمين في الصلاة ، ويعلمهم الدين ، ويتلو القرآن ، فتخشع له القلوب والضمائر متفتحة لنور الهدى (٣)

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٣٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٣/ ١١٧ .

(٢) ابن سعد : الطبقات : ٣/ ١١٦ ، وانظر ابن عبد البر : الاستيعاب : ٣/ ١٤٧٤ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٤/ ٣٧٠

(٣) انظر ابن هشام : سيرة النبي : ١/ ٤٣٤-٤٣٥ ، ابن سعد الطبقات الكبرى : ٣/ ١١٨ ، ابن عبد البر : الاستيعاب : ٤/ ١٤٧٣ .

كانت آيات الله تملك فى بنيتها المعجزة سحر الاقناع ، وكان مصعب رضى الله تعالى عنه يزيدها سحرا فى تلاوته اياها وسط حشود من الناس ، التى كانت تجتمع مبهورة الأنفاس من حوالى مصعب، فى أزقة المدينة وطرقاتها (١) .

خرج مصعب يوما مع أسعد بن زراره سيد الخزرج ، وكان منزله عليه . وكان أسعد من النفر الذين أسلموا من الخزرج يوم عرض عليهم رسول الله دعوته ، ومن الذين حضروا بيعة العقبة الاولى والثانية . وجعل أسعد ومصعب يتعاونان على الدعوة الى الله ، ويجتهدان اجتهادا شديدا فى الترغيب فى الاسلام ، وكان لهما فى ذلك أسلوبا رقيقا ، ومداخل محببه الى القلوب : خرجا يوما يريدان داربنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر . فدخلا حائطا من (٢) حوائط بنى ظفر ، واجتمع اليهما رجال من الانصار فسمع بمقدمهما سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير وهما يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما على الشرك : دين العشيرة والآباء . (٣)

وتحرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زراره وهو ابن خالته . فحرض أسيد بن خضير على أن يقوم فيردده وصاحبه عن الحى قال :

---

(١) انظر بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٦٥ - ١٧٠ .

(٢) الحائط: البستان ذو الأشجار المثمرة . وكان من عادة العرب أن يحيطوا بساتينهم بحائط من البنيان فسمى البستان بالحائط (انظر ابن منظور : لسان العرب : مادة حاط)

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٣٤-٤٣٨ ، ابن سعد الصفات الكبرى : ١ / ٢٢٠ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٧٧-١٨٠ ، ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٨٠-١٨٤ ، الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣١٥ - ٣١٧ .

لا أبا لك إ انطلق الى هذين الرجلين أسعد ومصعب اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ،فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا ،فانه لولا أن أسعد بن زراره مني حيث علمت،كفتيك ذلك : هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما . فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل اليهما . فلما رآه أسعد بن زراره قال لمصعب بن عمير هذا سيد قومه قد جاءك ،فاصدق الله فيه . قال مصعب : ان يجلس أكلمه . فوقف أسيد عليهما متشتما ، فقال متوعدا : ماجاء بكما الينا ،تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا ان كانت لكما بأنفسكما حاجة . قال له مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ،فان رضيت أمرا قبلته ،وان كرهته كف عنك ماتكره . قال أنصفت . ثم ركز حربته ،وجلس متكئا عليها ،يسمع حديث مصعب عن الاسلام وتلاوته القرآن ،وقد زايله تقبضه وتجهمه ،ثم قال متهلل الأسارير: ماأحسن هذا الكلام وأجمله إ كيف تصنعون اذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ،ثم تشهد شهادة الحق ،ثم تصلي . ففعل ذلك وأسلم. ثم قال لهما : ان ورائي رجلا ،ان اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ،وسأرسله اليكما الآن : سعد بن معاذ . (١)

وانطلق عائدا الى حيث ترك سعد بن معاذ ينتظره في الجمع من قومه . فما لحه سعد حتى قال لمن حوله :(٢)

ثم سأله عما فعل بأسعد بن زراره وضيفه مصعب،فرد أسيد محاذرا :كلمت الرجلين ،فوالله مارأيت بهما بأسا وقد نهيتهما ،واني لأخشى

---

(١) انظر : المراجع السابقة ،نفس الأماكن .
(٢) انظر : المراجع السابقة ،نفس الاماكن .

على ابن خالتك من بعض القوم . فقام سعد مغضبا ،فما أبعد حتى رأى أسعد ومصعبا يتجهان الى مطمئنين . فعرف أن أسيد بن حضير انما أراد له أن يسمع فيهما . وتجاهل مصعبا ،وقال لأسعد ابن خالته: ياأبا أمامه ،أما والله لولا مابيني وبينك من القرابة ،مارمت هذا منى .أتغشانا في ديارنا بمانكره ؟ . فهمس أسعد لصاحبه : أى مصعب : جاءك والله سيد ممن وراءه من قومه ،ان يتبعك ،لا يتخلف عنك أثنان . وأقبل مصعب على سعد بن معاذ ،فقال له مثل الذى قال لأسيد بن حضير :أو تقعد فتسمع ،فان رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته ،وان كرهته ،عزلنا عنك مانكره؟ قال ابن معاذ : أنصفت . وتكلم مصعب ،وقرأ القرآن . وقبل أن يتلفظ سعد بكلمة ،عرف القوم الاسلام في وجهه ،لاشراقه وتهلله . وأسلم سعد . ومضى من فوره الى قومه فسألهم : كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأيا ،وأيمننا نقيبة . فدعاهم الى الاسلام ،فأجابوا جميعا . فما أمسى في حى بنى عبد الأشهل ،رجل ولا أمرأة ،الا مسلما ومسلمة .(١)

ولم يزل مصعب بن عمير وأسعد بن زراره يدعوان الى الاسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار ،الا وفيها رجال مسلمون ،ونساء مسلمات، الا ماكان من داربني أمية بن زيد ،وخطمة ،ووائل ،وواقف ،وتلك أوس الله ،وهم من الأوس بن حارثة . وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت،

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤٣٤-٤٣٨ ، ابن سعد: الطبقات الكبرى : ١/ ٢٢٠ مع ٣/ ٤٢-٤٢١ ، الطبرى : تاريخ : ٢/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢/ ١٧٧-١٨٠، ابن كثير : السيرة النبوية :٢/ ١٨٠-١٨٤ ،الزرقانى : شرح المواهب : ١/ ٣١٥-٣١٧ ،بنت الشاطئ : مع المصطفى / ١٦٥-١٧٠ دويدار : صور من حياة الرسول :ص٢٢٣-٢٢٥ .

وهو صيفي ،كان شاعرا لهم ،قائدا يستمعون منه ويطيعونه. فوقف بهم عن الاسلام. فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول اللهصلى الله عليه وسلم الى المدينة . (١)

ولقد بلغ من انتشار الاسلام بيثرب ،ومن بأس المسلمين فيها بعد هذه البيعة مالم يطمع فيه مسلموا مكه ،وماطوع لبعض الشبان من المسلمين ،أن يعبثوا بأصنام المشركين من أهلهم : وقصتهم مع عمرو بن الجموع وصنمه ،دليل واضح على ذلك ،كانت نتيجتها الحتمية اسلام عمرو. (٢)

---

(١) انظر:المراجع السابقة ،نفس الأماكن .

(٢) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١/٤٥٢-٤٥٣ ، هيكل : حياة محمد : ص ٢٢٩ .

و - البيعة الكبرى :

بعد اسلام سعد بن معاذ وقومه من بني عبد الاشهل ، فشا الاسلام في يثرب : فما من دار للعرب هناك الا وفيها الدين الجديد ذكر .

وتوقعت يهود ، بل توقعت يثرب كلها والحجاز أن يكون لهذا الأمر مابعده واستبشر الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بلغته أخبار مصعب بن عمير ، وجعلته يفكر في الأمر طويلا : هاهم أولاء أتباعه بيثرب يزدادون كل يوم عددا وسلطانا ، ولا يجدون من أذى اليهود ، ولا من أذى المشركين ، مايجد زملاؤهم بمكة من أذى قريش . وهاهي ذي يثرب بها من الرخاء أكثر مما بمكه : بها زرع ونخيل وأعناب . أوليس من الخير أن يهاجر المسلمون المكيون الى اخوانهم هناك ، ليجدوا عندهم أمنا ، وليسلموا من فتنة قريش اياهم عن دينهم . . وذكر محمد صلى الله عليه وسلم أثناء تفكير أولئك النفر من يثرب الذين كانوا أول من أسلم ، والذين ذكروا مابين الأوس والخزرج من عداوة ، أنهم : اذا جمعهم الله به ، فلا رجل أعز منه . أوليس من الخير ، وقد جمعهم الله به ، أن يهاجر هو أيضا انه لايحب أن يرد على قريش مساءاتها ، وهو يعلم أنه أضعف منها ، وأن بني هاشم وبني المطلب ، ان منعوه من الاعتداء عليه ، فلن ينصروه اذا اعتدى على غيره ولن يمنعوا الذين اتبعوه من اعتداء قريش

عليهم ، ومن اصابتها اياهم بأنواع المساءة . (١)

واذا كان الايمان أقوى سند يجعلنا نستهين بكل شئ ، ونضحى عن طيب خاطر فى سبيله ، بالمال والراحة والحرية والحياة ، واذا كان الأذى من طبعه أن يزيد الايمان استعارا ، فان فى استمرار الأذى والتضحية مايشغل المؤمن عن دقة التأمل ، التى تزيد فى أفق المؤمن سعة ، وفى ادراكه للحق قوة وعمقا .

وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذين اتبعوه من قبل - أن يهاجروا الى الحبشة المسيحية ، أن كانت بلاد صدق ، وكان بها ملك لايظلم عنده أحد . فأولى بالمسلمين أن يهاجروا الى يثرب ، وأن يتقووا باخوانهم المسلمين فيها ، وأن يتآزروا بذلك على دفع مايمكن أن يصيبهم من شر ، ليكون لهم بذلك من الحرية فى تأمل دينهم ، والجهر به ، مايكفل اعلاء كلمته ، كما يكفل نجاح الدعوة اليه : دعوة لاتعرف الاكراه ، بل أساسها الرفق والاقناع والمجادلة بالتى هى أحسن .

وأَهَلَّ موسمُ الحج ، لثلاث عشرة سنة بعد المبعث . وخرج امام

---

(١) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٣٨-٤٦٧ ، الطبرى تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٢١-٢٢٣ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ١٨١ - ١٩٥ ، ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١ / ٢٢٤ - ٢٢٨ ، الزرقانى : شرح المواهب : ١ / ٣١٦-٣١٨ . هيكل : حياة محمد : ٢١٥-٢٢٠ ، بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٧٠-١٨٢ ، أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ٢٢٥ - ٢٣١ .

يثرب : مصعب بن عمير ساعياً الى أم القرى ، يصحب رهطاً من الانصار (خمسة وسبعون مسلما) فيهم من لم يكن لقى المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد وفى الركب اليثربى : حجاج آخرون غير مسلمين (١) ودنا الركب من مشارف مكة ، فتهللت وجوه الأنصار ، ورنت قلوبهم الى لقاء نبيهم عليه الصلاة والسلام (٢) . فلما عرف محمد مقدمهم ، فكر فى بيعة ثانية لا تقف عند الدعوة الى الاسلام على نحو ماظل هو يدعوا اليه ثلاث عشرة سنة متتابعة ، فى رفق وهوادة ، مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعا ، بل تمتد الى ماوراء ذلك ، وتكون حلفا يدفع به هؤلاء المسلمون عن أنفسهم الأذى والعدوان بالقوة المسلحة . (٣)

لقد ظلت الدعوة حبيسة فى مكة ثلاث عشر عاما ، فلم يؤمن بها الا هذا العدد القليل من المستضعفين ، ووقفت العقبات فى طريقها من كل ناحية ، حتى توقفت أو كادت. وأصبح المؤمنون بها ، بين مفتون فى دينه ، أو معذب فى أهله ، أو مشرد فى ديار ، أو مقيم على أحر من الجمر ، من شدة مايلاقى من الهوان والاذلال . فقد غدا الأمر اذن ، يقتضى التفكير فى أمر هؤلاء المعذبين ، وفى انقاذهم مما يعانون من هذا البلاء . كما أصبح يقتضى الانتقال بهذه الدعوة الحبيسة ، الى

---

(١) أنظر : المراجع السابقة ، نفس الأماكن .
(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الأماكن .
(٣) انظر : المراجع السابقة : نفس الاماكن .

أرض غير هذه الأرض ، وناس غير هؤلاء الناس . وكان الله جل شأنه قد بشر رسوله بالنصر ، وأراه في منامه دار هجرته : أرضا ذات نخيل، فاستبشر صلى الله عليه وسلم بذلك ، وبشر به أصحابه وقال لهم : " أُريت دار هجرتكم أريت سبخة (١) ذات نخيل بين لابتين (٢) ، ولو كانت السراة أرضا ذات نخل وسباخ ، لقلت : هي هي ! " (٣)

وها هي ذي المدينة يثرب تستقبل دعوته بقلوب متفتحة للايمان ونفوس راغبة في التضحية ، وها هم أولاء أهلها من الأوس والخزرج مستعدون لايوائه ونصره ، فقد آن الاوان اذن ، للخروج بدينه وصحبه ، من هذه القرية الظالم أهلها ، الى هذه البلدة الطيبة يثرب، حيث المنعة والنصر والحرية ، وحيث النفوس المستعدة لتقبل دين الله ، والتضحية في سبيله ، والعمل على اعلاء شأنه .

وأخذ صلى الله عليه وسلم يعد العدة لهذه النقلة الجديدة، بعقد بيعة جديدة ، مع أولئك الانصار . ولقد كان حريصا على أن تتم هذه

---

(١) السبخة : أرض ذات نز وملح . (انظر : أمين دويدار : صور من حياة الرسول : هامش ص ٢٢٥) .

(٢) اللابتان : هما الحرتان اللتان تحدان المدينة شرقا وغربا ، وهما هضبتان صخريتان تتألفان من حجارة نخرة سوداء .
(انظر : المرجع السابق - نفس المكان) .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٢٦ ،
انظر ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٦٨ ،
ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٢١٥ ،
الزرقاني : المواهب اللدنية : ١ / ٣١٨ .

البيعة فى السر ، وألا تتسرب أنباؤها الى قريش(١)

وأتصل محمد صلى الله عليه وسلم سرا بزعمائهم ، وعرف حسن استعدادهم ، فواعدهم أن يلتقوا معه عند العقبة ، جوف الليل فى أوسط أيام التشريق . وطلب اليهم أن يكتموا هذا الأمر على من معهم من المشركين ، وأن يأتوا اليه متفرقين اذا مضى ثلث الليل الأول ، لا ينتظرون غائبا ولا يوقظون نائما (٢).

وفى الليلة الموعودة : أسر رسول الله الى أبى بكر أن يقف على فم شعب العقبة من ناحية ، والى على بن أبى طالب أن يقف على فمه من الناحية الأخرى . وكتم سلمو يثرب من معهم من المشركين أمرهم فيما عدا عبد الله بن عمرو الذى آنس فيه الانصار خيرا ، فأسروا اليه بموعدهم نبيهم المصطفى صلى الله عليه وسلم وقالوا له :

" ياأبا جابر ، انك سيد من سادتنا ، وشريف من أشرافنا ، وانا نرغب بك عما أنت فيه " . وعرضوا عليه الاسلام ، فأسلم(٣) .

فى تلك الليلة الموعودة : أوى الأنصار الى مضاجعهم حيث نزلوا مع سائر قومهم فى رحالهم . فلما مضى ثلث الليل ، خرجوا لميعاد النبى صلى الله عليه وسلم يتسللون تسلل القطا ، مستخفين حذر أن ينكشف

---

(١) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .
(٢) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .
(٣) انظر : المراجع السابقة ، نفس الاماكن .

سرهم . فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعا . وأقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة . كانوا ثلاثة وسبعين رجلا (١) : فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو، وأمرأتان : أم عمارة ، نسيبة بنت كعب المازنيه . وأم منيع، أسماء بنت عمرو بن عدى ، من بنى سلمة . وأقبل محمد صلى الله الله عليه وسلم ومعه عمه العباس، ليأخذ البيعة له ولأصحابه على هؤلاء الانصار المتحمسين الصادقين .

وفى حديث طويل ، يحدثنا كعب بن مالك رضى الله تعالى عنه فيما رواه ابن اسحق (٢) - كيف تمت هذه البيعة فيقول :

"فاجتمعنا فى الشعب ، ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه ، الا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويستوثق له . فلما جلس كان أوّلمتكلم : العباس بن عبد المطلب، فقال : يامعشر الخزرج - وكانت العرب انما يسمون هذا الحى من الانصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها - ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ومَنَعه فى بلده ، وانه قد أبى الا الانجاز اليكم واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومايغوى ممن خالفه ، فأنتم وماتحملتم من

(١) راجع أسماء هؤلاء الانصار فى : ابن هشام : سيرة النبى: ١ / ٤٥٤-٤٦٧ .
(٢) ابن هشام : سيرة النبى: ١ / ٤٣٩-٤٤٤ ،
انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٢٣٧-٢٣٩ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣١٦-٣١٨ .

ذلك ، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم، فمن الآن فدعوه ، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده . فقال البراء بن معرور: انا والله ، لوكان فى أنفسنا غير ماتنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهجنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فنحن نبايعك .

" فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ، ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ، ثم قال : تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا فى الله ، لاتخافوا فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى ، فتمنعونى اذا قدمت عليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة .

" فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا (١) . فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (٢)، ورثناها كابرا عن كابر. فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله - أبو الهيثم ابن التيهان فقال : يارسول الله، ان بيننا وبين وبين الرجال حبالا (٣) ، وانا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت ان

---

(١) أزرنا : أى نساءنا . والمرأة قد يكنى عنها بالازار ، كما يكنى بالازار أيضا عن النفس .
(انظر : ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٤٢ هامش)

(٢) الحلقة : السلاح (انظر : المرجع السابق نفس المكان)

(٣) الحبال : العهود (هيكل : حياة محمد : هامش ص ٢١٧) .

نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : " بل الدم الدم ، والهدم الهدم(١) ، أنا منكم ، وأنتم مني : أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . . . " .

وهم القوم بالبيعة ، فاعترضهم العباس بن عبادة (٢) قائلا : يا معشر الخزرج ، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه فهو والله - ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وان كنتم ترون أنكم وأفون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال (٣) ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا : فانا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فمالنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا" ؟

ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئن النفس قائلا : الجنة"

---

(١) الهدم : اهدار دم القتيل . يريد ان طلب دمكم فقد طلب دمي ، وان أهدر دمكم فقد أهدر دمي لاستحكام الالفة بيننا . وهو قول معروف للعرب عند المعاهدة والنصرة .
(المرجع السابق : هامش ص ٢١٨)

(٢) هو : العباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان ، أقام بعد البيعة بمكة حتى هاجر معه صلى الله عليه وسلم فكان أنصاريا مهاجريا ، واستشهد بأحد .
(انظر : الزرقاني : شرح المواهب : ١ / ٣١٣)

(٣) نهكه الاموال : أي نقصها (انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٤٦ هامش) .

قالوا : " أبسط يدك " فبسط يده ، فبايعوه .

فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام :

" أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيبا ، يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء ." فاختار القوم تسعة من الخزرج (١) وثلاثة من الأوس (٢) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء : " أنتم على قومكم بما فيهم ، كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي (يعني المسلمين) " . (٣)

قالوا : نعم . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . " ارفضوا (٤) إلى رحالكم ." (٥)

وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : " بايعنا على السمع والطاعة ، في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ."

---

(١) هم : سعد بن عبادة ، أسعد بن زراره ، سعد بن الربيع ، المنذر بن عمرو ، عبد الله بن رواحه ، البراء بن معرور ، عبد الله بن عمرو بن حزام ، عبادة بن الصامت ، رافع بن مالك بن العجلان . (انظر : المرجع السابق : ١ / ٤٤٣ / ٤٤٤) .

(٢) هم : أسيد بن حضير ، سعد بن خيثمة ، أبو الهيثم بن التيهان . (انظر : نفس المراجع والمكان) .
ولجميع أفراد البيعة ، أنظر : نفس المرجع : ١ / ٤٥٤-٤٦٧ .

(٣) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٤٦ ، وانظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٣٦٠-٣٦٥ .

(٤) ارفضوا : تفرقوا (أنظر : ابن هشام : نفس المرجع : ١ / ٤٤٧ الهامش)

(٥) ابن هشام : المرجع نفسه : ١ / ٤٤٧ ، وانظر : الطبري : نفس المرجع والمكان .

تم ذلك كله جوف الليل ،في شعب العقبة ،في عزلة من الناس .

والرسول وصحبه على ثقة من أنه لا يطلع عليهم الا الله . وعندما أحس القوم أن هناك من يتسمع عليهم ويوشك أن يفضح سرهم قال ،العباس بن عبادة : "يارسول الله ،والله الذى بعثك بالحق ،ان شئت،لتميلن على أهل منى، من المشركين ،غدا بأسيافنا . فرد عليه الصلاة والسلام: لم نؤمر بذلك، لكن ارجعوا الى رحالكم" . (١)

ورجعوا الى رحالهم،فتسللوا الى مضاجعهم،فناموا مطمئنين والدنيا حولهم ساهرة لاتنام.

لم يكن النبأ الخطير لبيعة العقبة الكبرى ،بحيث يخفى على المشركين من قريش، وأصحاب العقبة هذه المرة : خمسة وسبعون من الخزرج والأوس ،بايعوا نبى الاسلام على أن ينصروه ويمنعوه . ومتى ؟ وا ين ؟ فى ليلة من ليالى التشريق بموسم الحج .

وفى مكة : معقل قريش، والعاصمة الدينية للوثنية العربية ،وقبل أن يسفر الصبح ،تسرب النبأ الى مكة ،فهاج غضب المشركين . واذ ظنوا أن المبايعين من الخزرج دون الأوس، بادر اليهم نفر من طواغيت قريش، فقالوا بين وعد ووعيد :

---

(١) ابن هشام : نفس المرجع : ١ / ٤٤٨ ،
وانظر : الطبرى : نفس المرجع والمكان .

يامعشر الخزرج ،انه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا . وانه والله ، مامن حى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم (١) فهب مشركو الخزرج يحلفون لهم أنه ماكان من ذلك شئ ، وماعلموه . ولم يطمئن القرشيون ، بل ذهبوا الى عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى ، وكان يمنى نفسه بملك يثرب ، تؤازره يهود . فسألوه ، فأنكر الأمر كله انكارا باتا ، وقال لقريش: ان هذا الأمر لجسيم ، ماكان قومى ليتفوتوا على بمثله ، وما علمته كان . (٢)

وانصرفوا ، ومايزال فى نفوسهم ريب مما بلغهم من الأمر الجسيم ، فمازالوا يتثبتون ، حتى علموا يقينا أنه قد كان لقاء فى العقبة على موعد بين محمد وأنصاره ، وأن بضعة وسبعين يثربيا من الأوس والخزرج قد بايعوه ، وأن أحد نقبائهم قال له فيما قال : نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنك ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا

---

(١) انظر : ابن هشام: سيرة النبى : ١/ ٤٣٨-٤٦٧ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٣٧-٢٤٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/ ٢٢١-٢٢٣ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢/ ١٨١-١٩٥ ، ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ١/ ٢٢٤-٢٢٨ ، الزرقانى شرح المواهب : ١/ ٣١٦-٣١٨ ، هيكل : حياة محمد : ص ٢١٥-٢٢٠ بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٧٠-١٨٢ ، أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢٢٥ - ٢٣١ .

(٢) انظر : المراجع السابقة : نفس الاماكن .

عن كابـــر . (١)

وكرت قريش راجعة الى منزل الحجاج من يثرب ، فاذا بهم قـــد شدوا رحالهم ، وأبعدوا فى طريقهم الى شمال الحجاز . والاسلام معهـم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى ، مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم فى اتجاه الأحداث : فى قلب الحجاز ، معقل الوثنية القرشية والعربية . (٢)

وفى الشمال ، بيثرب وما حولها ، وكانت حتى ذلك الحين معقلا لليهود .

كانت هذه البيعة الكبرى : أخطر بيعة فى تاريخ الدعـــوة الاسلامية ، فقد تغير بها خط الدعوة ، وتطورت بعدها الحوادث تطـــورا سريعا بين المسلمين وقريش. فأما المسلمون فقد انفتحت أمامهم أبـــواب من الآمال واسعة ، وأحسوا بعدها بما يحس به المكروب وجد الفرج بعـــد الضيق ، والأمل بعد اليأس ، والأمن بعد الخوف ، فأخذ يتنفس بملء رئتيـــه نفس الراحة والطمأنينه . فقد قضوا فى مكة ثلاثة عشر عاما وهم قليل مستضعفون فى الأرض ، يذوقون ألوان العذاب والاضطهاد ، ويمتحنون فى ايمانهـــم أشد الامتحان ، فقتل منهم من قتل ، وفتن منهم من فتن ، وصبر من صـــبر ، وفر بدينه من فر ، حتى أصبحوا واليأس يكاد يغلبهم على أمرهم ، لولا أن عصم الله قلوبهم بالايمان ، وأيدهم بروح منه . فلما تمت هذه البيعة ، بـــين

---

(١) انظر : المراجع السابقة : نفس الاماكن .
(٢) انظر : المراجع السابقة : نفس الاماكن .

رسول الله والأنصار ، ملأ الأمل قلوبهم ، وأيقنوا أن نصر الله قريب فجعلوا يتسابقون فى الهجرة الى يثرب ، فارين بدينهم الى الله ، مضحين بكل مايحرص عليه الناس من عرض الحياة الدنيا . (١)

أما قريش : فقد أخذت أخذا بهذه البيعة وفوجئت بما لم يكن لها فى حسبان . فقد ظنت قريش أنها قد سيطرت على الموقف من جميع نواحيه ، وأنها استطاعت أن تحبس الدعوة بين جبال مكة ، وأن تؤثر على قلوب العرب ، فتحول بينهم وبينها الى الأبد . كما ظنت أنها بماكان لها من المهابة بين العرب ، قد أمنت أن يعتدى على حرمتها أحد ، أو يقف منها أحد موقف التحدى والعداوة بمناصرة هذه الدعوة . (٢)

وعلى أساس هذا الظن : أمنوا وأطمأنوا ، وأيقنوا أن العرب جميعا لن يؤمنوا بهذه الدعوة ، ولن يؤيدوا صاحبها بالمنعة والمؤازرة . فلما علموا بأن الأوس والخزرج من أهل المدينة قد تابعوا محمدا ، وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه ممن خالفه ، صدموا بهذا النبأ صدمة عنيفة ، وزلزلوا زلزالا شديدا ، وطاشت أحلامهم ، فأنقلبوا يلاحقون الانصار فى كل طريق ، ويطلبونهم فى كل وجه ، يريدون أن ينتزعوا من أعناقهم هذه البيعة الخطيرة.

---

(١) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٢) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

ولكن هيهات هيهات(١) . قال تعالى : " فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ." (٢)

قال كعب بن مالك : " ونفر الناس من منى ، فتنطّس القوم الخبر، فوجدوه قد كان ، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عباده والمنذر بن عمرو. فأما المنذر : فقد أعجز القوم ففرمنهم ، وأما سعد بن عبادة فأخذوه فربطوا يديه الى عنقه بنِسْع رَحْلَه (٣) ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكه يضربونه ويجذبونه بجُمَّتِه (٤) ، وكان ذا شعر كثير .

قال سعد بن عباده : فوالله اني لفي أيديهم يسحبونني ، اذ أوى لي رجل ممن معهم ، فقال : ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم تجاره ، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي ، وللحارث بن حرب بن أمية . فقال : فاهتف باسم الرجلين ، واذكر مابينك وبينهما . ففعلت" . وخرج ذلك الرجل اليهما ، فوجدهما في المسجد عند الكعبة . فقال لهما : ان رجلا من الخزرج الآن يضرب بالابطح (٥) ليهتف باسمكما . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عباده . قالا : صدق والله ، ان كان ليجير لنا تجارنا ،

(١) أنظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن . (٢) سورة الاعراف : الآيات ١١٨ ـ ١١٩.
(٣) النسع : سير عريض تشد به الرحال (انظر : أمين دويدار : صورمن حياة الرسول : هامش ص٢٣٠) .
(٤) الجمة : مجتمع شعر الرأس (نفس المرجع والصفحة) .
(٥) الابطح : واد بظاهر مكه واسع كثير الحصى (نفس المرجع هامش ص٢٣١) .

ويمنعهم أن يظلموا ببلده. فجاءا اليه فخلصاه من أيديهم. (١)

قال ابن سعد : " وائتمرت الأنصار حين فقدوا سعد ابن عباده أن يكروا اليه، فاذا سعد قد طلع عليهم، فدخل القوم جميعا الى المدينة. (٢)

لقد كانت هذه البيعة حدا فاصلا بين عهدين من عهود الدعوة : كان أولهما عهد ابتلاء واختيار، وهو العهد الذى قضاه المسلمون بمكه، فقد عاشوا فيه قلة مستضعفون، بين عدو قاهر جبار، يسومهم سوء العذاب، ويذيقهم من صنوف الأذى مالا يمكن أن يطاق، ولا أن يحتمله بشر من الناس الا أن يكون له مدد قوى من الايمان الصادق واليقين الثابت. وكأنما كان ذلك امتحانا من الله لهم، أراد به تمحيصهم، واعدادهم ليكونوا نماذج للعقيدة الصالحة، التى أراد لهم أن ينشروها فى الارض، فلما تأكد نجاحهم فى الامتحان، وتبين صدق ايمانهم وقوة عزمهم، أدركهم عهد المكافأة والجزاء على الصبر، فاستنقذهم الله من هذا العذاب، وهيأ لهم هذه المدينة الآمنة فهاجروا اليها، وقيض لهم هؤلاء الاخوة المخلصين من أهلها فآووهم ونصروهم، وقاسموهم أموالهم وديارهم، وآثروهم على أنفسهم بكثير من الطيبات، وفتح الله لهم أبواب رحمته : فبدل خوفهم آمنا وذلهم عزا، وهوانهم كرامة. (٣)

---

(١) انظر : المراجع السابقة - نفس الأماكن.
(٢) الطبقات الكبرى : ١/٢٢١ - ٢٢٣.
(٣) انظر: أمين دويدار: صور من حياة الرسول : ص ٢٣١.

ولقد مَنّ الله عليهم بهذه النعمة اذ يقول تعالى فى محكم كتابه : واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ." (١)

ببيعة العقبة الكبرى ،أوشكت الجولة الاولى من جولات الصراع بين الاسلام والوثنية ،أن تنتهى فى مكه لتبدأ جولة أخرى ،بعد أن استنفذت تلك المواجهة الأولى ،كل مالدى قريش من وسائل وذرائع لمقاومة الدعوة دون أن تنتقل من موقفها على حافة الحرب الى صدام مسلح.(٢)

وكان لابد من حرب جديدة يصلاها عرب يثرب ،تصفية ليوم بعاث. والأمر فى مثلها ،لايعدو انطلاق شرارة من هنا أو من هناك ،تؤجج خرام الجذوة التى لبثت متقدة قرونا ،تلتمس بين حين وآخر من ينفخ فيها ، لتستعر بوقود من رجال الأوس والخزرج . وقد كان الخزرجيون أصحاب الثأر لبعاث، ومن هنا كان سعى الأوس الى مكة التماسا لحلف قريش على الخزرج . (٣) .

ومن حيث توقعت يثرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحلف وألقت عاصفة الشمال سمعها الى مكة فى انتظار عواقب المفاوضة بين وفد الأوس ، وزعماء قريش، جاءت المعجزة من هناك ،فأطفأت الجذوة ، وبددت

---

(١) سورة الانفال : الآية ٢٦ .
(٢) انظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٧٤ .
(٣) انظر : المرجع السابق : ص ١٧٨ .

رمادها هباءً منثـــورا . (١)

وكان عجبا من العجب ،أن تأتى يثرب بشرى الاسلام من مكـة ، فى الوقت الذى بلغت فيه معركتها بين الاسلام والوثنية ذروة احتدامها . وحين هم التاريخ بأن يضيف حربا جديدة الى الحروب التى مزقت الأوس والخزرج ، وقف بعد بيعة العقبة الكبرى ،فطوى الصفحات الداميـــات ، التى حضبت حياة يثرب قرونا سته ، ليبدأ صفحة جديدة ، بآية الاســـــلام التى مَنّ الله بهاعلى المؤمنين الأنصار ،فأصبحوا بنعمته اخوانا . (٢)

وكانت عبرة ،أن تجمع العقيدة ماتفرق وانتشر من شتات القوم ، وأن تزيل ماتراكم فى قلوبهم من ثأرات وأحقاد ، وتنسخ جاهلتهم المخضبة بالدماء . وفى ظل هذه العقيدة الجامعة المؤلفة للقلوب ، وتحت لوائها المبارك الميمون ،التقى الأوس والخزرج اخوانا فى الدين ، وعادوا بعـــــد بيعة العقبة الكبرى ،أنصارا للاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام،فكانوا هـــم الدعاة الأولين ،الذين حملوا نوره الى عاصمة الشمال فى الحجاز، وهيأوها لاستقبال المهاجر العظيم عليه الصلاة والسلام. (٣)

ومازال اليهود ، حتى عصرنا هذا يقفون عند بيعة العقبـــة مأخوذين بما كان من جسيم خطرها وبعد أثرها . وان فيهم من يعدها

---

(١) أنظر : نفس المرجـــع والمكان .
(٢) انظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٧٨ .
(٣) انظر : نفس المرجـع : ص ١٧٩ .

بدء التاريخ الاسلامى ، ويراها أولى بذاك من عام الهجرة التى هى فى رأيهم أثر للبيعة الكبرى . قال المؤرخ اليهودى اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) :

" ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة ، فانها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة فى التاريخ الاسلامى . وانى أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة ، لأن قيمتها لم تكن أقل شأنا من قيمة هجرة الرسول الى يثرب." (١)

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ص ١٠٩ .

الفصل الخامس

الهجرة الكبرى، وأهميتها في مسيرة الدعوة

المبحث الاول

مقدمات الهجرة

تلاحقت الأحداث بعد بيعة العقبة الكبرى :

فقدت قريش مابقى من رشدها ، فصبت على المسلمين حممها من الأذى والاضطهاد والتقطت يهود أنفاسها ،أملا فى أن تشتعل نار الحرب فتأكل الجمعين من أهل مكة ،لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمى مكة بتوجيه من المصطفى عليه الصلاة والسلام نحو يثرب ،حيث نزلوا على الانصار اخوانهم فى الدين ،بمأمن من قريش . وأمست دور المهاجرين فى مكة ، موحشة خلاء . (١)

وكانت قريش تعرف ماعليه الأوس والخزرج من قوة البأس،فجعلت تحسب حساب هذه القوة اذا وقفت فى طريقها الى الشام ،فهدمت تجارتها فى الذهاب وفى الاياب، ولاسيما اذا هاجر المؤمنون من أهل مكة فانضموا اليهم، وأصبح الجميع يدا واحدة على قريش . وفيما كانت قريش تفكر وتقدر كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دبر الأمر لأصحابه ،فاذن لهم فى الخروج الى اخوانهم الانصار (٢) ،فجعلوا يتسللون الى المدينة ، ويهاجرون اليها

---

(١) انظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص١٨٠ ، وأمين دويدار صور من حياة الرسول : ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) انظر : المرجعين السابقين - نفس الأماكن .

واحدا بعد واحد ، وجماعة اثر جماعة ، تاركين وراءهم كل مايثقلهم من مال ومتاع ، وأهل وعشيرة . قال ابن اسحق (١) : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة ، لم يؤذن له في الحرب ، . . . انما يؤمر بالوفاء الى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل . وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من بلادهم . فمنهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فرارا منهم . منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه . فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ماأرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم وهذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم . فكانت أول آية أنزلت في اذنه له في الحرب ، واحلاله له الدماء والقتال لم بغى عليهم ، قول الله تبارك وتعالى : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٦٧ - ٤٦٨ ، انظر : الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢ / ٢٤٠-٢٤٢ ، الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣١٨ ومابعدها .

الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور " (١) ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : "وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله . . ." (٢) أى حتى لايفتن مؤمن عن دينه ، وحتى يعبد الله لايعبد معه غيره .

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى من الأنصار ، على الاسلام والنصرة له ولمن اتبعه ، وأوى اليهم من المسلمين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكه من المسلمين ، بالخروج الى المدينة والهجرة اليها ، واللحوق باخوانهم من الانصار ، وقال : " ان الله عز وجل قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها . فخرجوا أرسالا (٣) وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة الى المدينة ." (٤)

---

(١) سورة الحج : الآيات : ٣٩ - ٤١ .
(٢) سورة البقرة : من الآية : ١٩٣ .
(٣) أرسالا : جماعة فى اثر جماعة (انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٦٨ هامش) .
(٤) ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٦٧-٤٦٨ ، انظر المرجعين السابقين - نفى الأماكن .

المبحث الثاني

هجرة الطلائع

وكان أول من هاجر الى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين نفر من قريش ونفر من بني مخزوم فيهم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر، بن مخزوم عبد الله ، هاجر الى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش، وبلغه اسلام من أسلم من الانصار ، خرج الى المدينة مهاجرا . (١)

روى ابن اسحق بسنده عن أمّ سَلَمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت(٢) : " لما أجمع أبوسلمة الخروج الى المدينة رحَّل لي بَعيرَه ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قاموا اليه وقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه . وغضب عند ذلك بنوعبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا . (قالت) : فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده !! ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني

---

(١) ابن هشام: سيرة النبي : ١ / ٤٦٨ ، انظر: الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٢ /٢٤٢ ، انظر الزرقاني : شرح المواهب: ١ /٣٠٨ وما بعدها .

(٢) ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٦٩ ، وانظر: الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣١٨ - ٣١٩ .

بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبوسَلَمة الى المدينة، ففرق بيني وبين زوجي وبين أبني . فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالابطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريبا منها، حتى مَرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى مابي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! فقالوا لي: ألحقي بزوجك ان شئت. ورد بنو عبد الأسد الى عند ذلك أبني. فاتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله. قلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى اذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: الى أين يابنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قلت: لا والله، الا الله وبني هذا. قال: والله مالك من مَتْرَك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي. فوالله ماصحبت رجلا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه؛ كان اذا بلغ بي المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى اذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة ثم تنحى عني الى شجرة فاضطجع تحتها، فاذا دنى الرواح، قام الى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فاذا ركبت وأستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع بي حتى أقدمني المدينة!! فلما نظر الى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبوسَلَمة بها نازلا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا الى مكة." فكانت تقول: "والله ماأعلم أهل بيت في الاسلام أصابهم ماأصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة." (١)

---

(١) ابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٤٦٩-٤٧٠، انظر: الزرقاني: شرح المواهب اللدنية: ١/ ٣١٨-٣١٩.

صورة رائعة من صور التضحية والفداء في سبيل الدين والدعوة الى الله. فهذا أبا سَلَمه وقد وقفت دونه قريش تحول بينه وبين ولده وزوجته ،فآثر أن يتركهما ويفر بدينه الى الله، موقناً أنهما في رعايته جل شأنه ،مؤمناً بنصر من عنده قريب ، يجمع شملهم، ويلم شتاتهم. وبعد عام كامل ،ذاقت فيه أم سَلَمة ماذاقت من الحزن والغم والأسى ، على كل من زوجها وولدها ، هيأ الله لها من أمرها رشدا ، فانطلقت فارة بدينها الى الله ،وحيدة فريدة ليس معها أحد من خلق الله ،سوى طفلها الصغير. ولكن الايمان يعمر قلبها ،والثقة في الله تبعث في نفسها الطمأنينة والآمان ، لاتخشى الطريق الموحشه ،ولا تهاب الصحراء المترامية ،فأمرها موكول الى صاحب الأمر ،الذى هيأ لها رجلا مُشركاً رَقّ لها قلبه وأبت شهامته ونخوته الا أن يرافقها -بكل أمانة وكرم- من مكة الى المدينة!!! لم يكن الايمان قد دخل قلب عثمان بن طلحة بعد الا أن هذا التصرف لايمكن أن يصدر إلاّ من نفسٍ بدأت تشعر وتحس وتتذوق حلاوة الاسلام. ان الشهامة والكرم من صفات العرب الأصيلة -الا أن قلوبهم كانت تقف أمام الصابئة -في زعمهم- كالحجارة أو أشد قسوة. ورجل مثل عثمان بن طلحة لابد وأن عقله سيقوده يوما الى الاسلام، فلقد شرح الله صدره بالاسلام في هُدنة الحديبية ، قبل فتح مكة ،وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ،وكان له في تاريخ الاسلام شأن ، وقتل رضى الله تعالى عنه - بأجنادين في أول خلافة

عمـــــر ٠ (١)

وكان أول من قدم المدينة من المهاجرين بعد أبى سلمة : عامر بن ربيعة ، حليف بنى عدى بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة (٢) ، ثم عبد الله بن جحش ،خليف بنى أمية بن عبد شمس ،احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش(٣) ، فغلقت دار بنى جحش هجرة . فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة ، وهم مصعدون الى أعلى مكة ، فنظر اليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها سبابا (٤) ، ليس فيهـــا ساكن ،فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال : أصبحت دار بنى جحـش خلاء من أهلها . فقال أبو جهل : هذا عمل ابن أخى هذا ،فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وقطع بيننا (٥) .

لمعا مضيئة يزخر بها تاريخ الهجرة الى يثرب ، تؤكد شـــدة

---

(١) انظر : السهيلى : الروض الأنف : ٤/١٦١-١٦٢ ، ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/٣٧٢ .

(٢) انظر : ابن هشام: سيرة النبى : ١/٤٧٠-٤٧١ ، الزرقانـــى : شرح المواهب اللدنية : ١/٣١٨-٣١٩ .

(٣) هو أبو أحمد ، وكان رجلا ضرير البصر، وكان يطوف مكه ،أعلاهـــا وأسفلها ،بغير قائد ، وكان شاعرا ، وكانت عنده الفرعه بنت أبـــى سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم. (انظر: المرجعين السابقين ـ نفس الأماكن)

(٤) اليباب : الفقر (انظر: ابن هشام: المرجع السابق : ١/٤٧١ هامش)

(٥) انظر: المرجعين السابقين ـ نفس الاماكن . راجع اسماء المهاجرين ومنازلهم بالمدينة فى : ابن هشام: نفـــس المرجع : ١/٤٧١-٤٧٤ ثم ٤٧٦-٤٨٠ .

ماكان يلاقيه أفراد الرعيل الأول من المسلمين من الأذى والفتنة والاضطهاد وعظم ماكانوا يقومون به من تضحيات في سبيل هجرتهم والفرار بدينهم الى الله : وروى أن صهيب بن سنان الرومى لما أراد الهجرة الى المدينة ، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا ،فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ،ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لايكون ذلك أبدا ! فقال لهم صهيب: أرأيتم ان جعلت لكم مالى ،أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم قال : فانى جعلت لكم مالى فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : ربح صهيب، ربح صهيب . وأنزل الله فى ذلك قوله سبحانه : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ."(١) ، فتلقاه أصحابه بها يبشرونه عند قدومه الى المدينة (٢) .

كما روى أن عياش بن أبى ربيعه لما هاجر الى المدينة فى صحبة عمر بن الخطاب ،خرج اليه أبو جهل بن هشام وأخوه الحارث بن هشام- وكان عياش أخاهما لأمهما وابن عمهما ، وكان أصغر ولد أمه -فأخبراه أن أمه نذرت ألا تغسل رأسها ولا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل من شمس، حتى تراه . شعرها

ثم قالا له : وأنت أحب ولد أمك اليها ، وأنت فى دين منه البر للوالدين ، فارجع الى أمك ، وأعبد ربك فى مكة ،كما تعبد فى المدينة . فرقّت نفسه

---

(١) سورة البقرة : الآية : ٢٠٧ .
(٢) انظر : ابن الأثير : أسد الغابة : ٣/ ٣١-٣٣ .

وصدقهما . فقال له عمر بن الخطاب : مايريدان والله الا فتنتك عن دينك ، فاحذرهما ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو اشتد عليها حر الشمس لاستظلت . فقال عياش : أبر أمي ، ولي مال هناك آخذه . فقال له عمر : خذ نصف مالي ولاتذهب معهما . فأبى الا أن يخرج معهما . فقال له عمر : أما اذ قد فعلت مافعلت ، فخذ ناقتي هذه ، فانها ناقة نجيبة ذلول ، فالزم ظهرها ، فان رابك من القوم ريب ، فانج عليها . فخرج عليها معهما ، حتى اذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : ياأخي ، والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال : بلى . فأناخ ، وأناخا ، ليتحول عليها . فلما استووا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه بالحبال وربطاه ، وجلداه نحوا من مائة جلده ثم دخلا به مكه موثقا في ضوء النهار . وقالا : ياأهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفهائنا . (١)

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في المدينة :" من لي بعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاصي " (٢) فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يارسول الله بهما . فخرج الى مكه ، فقدمها مستخفياً

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٧٤-٤٧٥ ،
الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣١٩ ومابعدها .

(٢) ابن هشام : المرجع السابق - نفس المكان .
وكان هشام بن العاص قد حبس بمكه عن صحبة عمر بن الخطاب عند هجرته . (انظر : نفس المرجع والمكان) .

فلقى أمرأة تحمل طعاما . فقال لها : أين تريدين ياأمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين - تعينهما - فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لاسقف له . فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مروة (١) فوضعها تحت قيد يهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما . فكان يقال لسيفه : ذو المروة لذلك . ثم حملهما على بعيره ، وساق بهما ، فعثر فدميت اصبعه ثم قدم بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . (٢) .

ومازال المسلمون يتلاحقون بالمدينة حتى لم يبق بمكه الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعلى والا من اعتقل مكرها من مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج (٣) وهم المستضعفون الذين قال الله فيهم : " الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . " (٤)

ونزل المهاجرون من أهل مكة على اخوانهم من أهل المدينة ، فآووهم وآسوهم ، وقاسموهم أموالهم وديارهم ، وأنزلوهم من نفوسهم منزله الاهل والعشيرة . وتوزع الانصار فيما بينهم اخوانهم المهاجرين ، فنزل

---

(١) المروة : الحجر (انظر: ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٧٦ هامش)
(٢) أنظر : المرجع السابق : ١ / ٤٧٦ .
(٣) أنظر : المرجع السابق : ١ / ٤٨٠ .
(٤) سورة النساء : الآيات : ٩٨ - ٩٩ .

أصحاب الاسر منهم على أصحاب الاسر، ونزل الاغراب على سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزبا . (١)

وأمست دور المهاجرين بمكة موحشة خلاء (٢) .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أقام بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، وكان أبو بكر كثيرا مايستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فيقول له : لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . فيطمع أن يكونه . وكأن أبا بكر قد أدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم على نية الهجرة، ولكنه ينتظر الاذن له فيها، فاشترى راحلتين، فاحتبسهما فى داره، وجعل يعلفهما ، ويعدهما لهذه الهجرة الميمونه . (٣)

---

(١) انظر: ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤٧٦ - ٤٨٠،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٢/ ٢٤٢ ومابعدها ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١/ ٢١٩ ومابعدها .

(٢) انظر: المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٣) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤٨٤،
المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

المبحث الثالث

هجرة رسول الله وصاحبه

لم تبالغ قريش فى فزعها ، ولا فى تتبعها الذين بايعوا محمدا على قتالها . فقد عرفته ثلاث عشرة سنة متتابعة منذ بدء نبوته ووقفت من الجهود للحرب السلبية التى أعلنت عليه ماجهدها وجهده ، ونال منها ونالت منه . عرفت ذلك القوى بالله المستمسك برسالة الحق ، لا يلين فيها ولا يُداجى ، ولا يخاف فيها أذى ولا ساءة ولا قتلا . وقد خيل الى قريش بعد أن أرهقته ومن معه بألوان الاذى ، وبعد أن حاصرته فى الشعب وبعد أن أدخلت على أنفس ـــ أهل مكة جميعا من الرَّوع ماصدَّهم عن اتباعه ، انها توشك أن تظفر به ، وأن تحصر نشاطه فى الدائرة الضيقة من الاتباع الذين ظلوا على دينة ، وأنه ومن معه لا يلبثون الا قليلا حتى تُضنيهم العُزْلة فيعودوا الى حكمها طائعين . أما اليوم ، وازاء هذا الحلف الجديد ، فقد انفتح أمام محمد عليه الصلاة والسلام والذين معه باب الرجاء فى الغلب ، أو على الأقل باب الرجاء فى حرية الدعوة الى عقيدتهم ، والطعن على الأصنام وعبادها . ومن يدرى مايكون امر القوم من بعد ذلك فى شبه جزيرة العرب كلها ، وقد نصرتهم يثرب بأوسها وخزرجها وقد جعلتهم بمأمن من العدوان ، وفسحت لهم حرية القيام بفرائض دينهم

ودعوة غيرهم الى الانضمام اليهم، فاذا لم تقض قريش على هذه الحركة في مهدها فالخوف من المستقبل لن يزال يساورها، وفوز محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لن يزال يقض مضجعها. (١)

لذلك أمعنت تفكر فيما تفعل لتحبط ماقام به محمد صلى الله عليه وسلم ولتقضي على هذه الحركة الجديدة. ولم يكن هو من ناحيته أقل من قريش تنكرا. ان هذا الباب الذى فتح الله أمامه هو باب العزة لدين الله، والسمو لكلمة الحق. فالمعركة الناشبة اليوم بينه وبين قريش هى أشد ماوقع منذ بعثه. وهى معركة حياة أو موت بالنسبة له ولها، والغلب لاريب للصادقين. فليجمع أمره، وليستعن بالله، وليكن لما تكيد قريش أشد ازدراء مماكان فى كل ماسلف، وليقدم ولكن فى حكمه وأناة ودقة، فالموقف، موقف حنكة السياسى والقائد الدقيق المداوره. (٢)

على أن قريشا كانت تحسب لهجرة النبى صلى الله عليه وسلم الى يثرب ألف حساب لقد كثر المسلمون فيها كثرة جعلتهم يكادون يكونون أصحاب اليد العليا. وهاهم أولاء المهاجرون من مكة ينضمون اليهم فيزيد ونهم قوة. فاذا يحق محمد صلى الله عليه وسلم بهم، وهو على مايعرفون من ثبات وحسن رأى وبعد نظر، خشوا على أنفسهم أن يدهم اليثربيون

---

(١) انظر: محمد حسين هيكل: حياة محمد: ص ٢١٩ - ٢٢٠.
(٢) انظر: المرجع السابق - نفس المكان.

مكه أو يقطعوا عليها طريق تجارتهم الى الشام، وأن يجيعوها كما حاولوا هم أن يجيعوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم، وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب واذا بقى محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وحاولوا منعه الخروج منها، فهم معرضون لمثل هذا الأذى من جانب اليثربيين دفاعا عن نبيهم ورسولهم . فلم يبق الا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب(١) . لكنهم ان قتلوه طلب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه، وأوشكت الحرب الأهلية أن تفشو فى مكة فتكون شرا عليها مما يخشونه من ناحية يثرب (٢) .

لابد اذن من ضربة باترة تحسم الأمر كله . وقد حاولتها قريش فى جنون غيظها وقهرها . (٣)

قال أبن اسحق : " ولما رأت قريش أن رسول الله عليه وسلم قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأو خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ،عرفزا أنهم قد نزلوا دارا ، وأصابوا منهم منعة ،فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم وعرفوا أنهم قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له فى دار الندوة وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى

---

(١) الواصب : الدائم الثابت أو الموجع (انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة وصب)

(٢) انظر : محمد حسين هيكل : حياة محمد : ص ٢٢١ .

(٣) انظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٨٠ .

أمرا الا فيها - يتشاورون فيها مايصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه ." (١)

فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأى فيما بينهم، أيحبسونه فى الحديد ويغلقون عليه بابا ، ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء ولكن هذا الرأى لم يلحق سميعا ، فقد خافوا أن يأتى اليه أصحابه من المهاجرين والأنصار فيخلصوه وينتزعوه من بين أيديهم. أيخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء ؟ . ولكن هذا الرأى كذلك لم يلق سميعا ، فقد خافوا حلاوة منطقه وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب ، أن تجعل له أنصارا فى كل مكان يذهب اليه ، فينتشر أمره ويشتد ساعده ، ثم يكون هو من يناحره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم. أيقتلونه ؟ ولكن كيف يقتلونه وقد حاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه ؟ ومن أى قبيلة يمكن أن يكون هذا القاتل ؟ وأى قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بنى عبد مناف؟ ومازالوا يقدرون ويدبرون ، ويتبادلون وجوه الرأى فيما بينهم. الى أن قال أبو جهل بن هشام: والله ان لى فيه لرأيا ماأراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو ياأباالحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه. فانهم اذا فعلوا

---

(١) ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٨٠ ، وانظر: الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢١ .

ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ،فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ،فعقلناه لهم . وارتضى الجميع هذا الـــرأى فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له . (١)

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـــال : لا تبت هذه الليله على فراشك الذى كنت تبيت عليه . فلما كانت عتمة مـــن الليل ،اجتمعوا على بابه ،يرصدونه متى ينام،فيثبون عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ،قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشى، وتسجى(٢) ببردى هذا الحضرمى الأخضر ،فنم فيه،فانه لن يخلص اليك شـــئ تكرهه منهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام فى برده ذلك اذا نـام. فلما اجتمعوا له ،ومنهم أبو جهل بن هشام،فقال وهو على بابه : ان محمدا يزعم انكم ان تابعتموه على امره ،كنتم ملوك العرب والعجم ،ثـــم بعثتم من بعد موتكم،فجعلت لكم جنان كجنان الأردن ،وان لم تفعلـــوا كان له فيكم ذبح ،ثم بعثتم من بعد موتكم،ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها(٣) .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب

---

(١) انظر: ابن هشام:سيرة النبى : ١ / ٤٨٠-٤٨٢ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢١ ومابعدها .
وراجع أسماء المجتمعين بدار الندوة فى ابن هشام نفس المرجع والمكان

(٢) تسجى بالثوب: غطى به جسده ووجهه
(انظر: ابن هشام: المرجع السابق : ١ / ٤٨٢ هامش) .

(٣) المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

فى يده ، ثم قال : أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه. فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : " يس . والقرآن الحكيم. انك لمن المرسلين. على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم. " الى قوله تعالى . . . ." فأغشيناهم فهم لا يبصرون ." (١) حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل الا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثن انصرف حيث أراد أن يذهب. فأتاهم آت ممن لم يكن معهم . فقال : ماتنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمدا . قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ماترك منكم رجلا الا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون مابكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فاذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله ان هذا لمحمد نائما ، عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا . (٢) وكان مما أنزل عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له : "واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" . (٣) وقول الله عز وجل : أم يقولون

---

(١) الآت : ١ - ٩ .
(٢) انظر: ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٨٢ - ٤٨٤ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢١ ومابعدها .
(٣) سورة الانفال : الآية : ٣٠ .

شاعر تتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فانى معكم من المتربصين" . (١)

قال ابن اسحق : " واذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عند ذلك فى الهجرة " (٢)

ثم لما حانت ساعة الرحيل ، وقف صلى الله عليه وسلم على مرتفع هناك ببيت صاحبه ، فنظر نا الى البيت العتيق طويلا ، ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة وقال مودعا : " والله انك لأحب أرض الله الى الله ، وانك لأحب أرض الله الىّ . ولولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت." (٣)

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر دار أبى بكر . فأخذا طريقهما الى غار يعرفانه فى جبل ثور بأسفل مكه ، فأقاما فيه ينتظران مايكون من أصداء الرحيل . وجاء اليوم التالى يحمل اليهما فى الغار ، الانباء عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وفى الخبر أنهم بلغوا غار ثور ، فتلبثوا عنده ، وهموا بأن يدخلوه ، لولا أن صدهم عنه نسيج عنكبوت على مدخله ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه . (٤)

قال الصدّيق رضى الله تعالى عنه للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه : لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا . فكان جوابه صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة

(٢) ابن هشام : نفس المرجع والمكان ، وانظر : الزرقانى : نفس المرجع والمكان

(٣) الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢٨ .

(٤) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٢٨-٢٢٩ ، البيهقى : دلائل النبوة : ٢ / ٢١٤ .

" . . . لاتحزن ان الله معنا . . ." (١)

وفى هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما فى الغار، جاء الدليل : عبدالله بن أريقط - وكان دليلا ثقة ، خبيرا بمجاهل الطريق ، دفع اليه أبوبكر بالراحلتين اللتين كان قد اشتراهما ، ليرعاهما للميعاد الموقوت - جاء يسوق الراحلتين حذرا ، فأناخ قريبا من فتحته . وخرج المصطفى وصاحبه . وجاءت أسماء بنت أبى بكر بطعام لهما . فلما أعوزها عصام تشد به الزاد الى الرحل ، حلت نطاقها فشقته نصفين ، علقت الزاد بأحدهما وانتطقت بالشق الآخر . (٢)

وسرى الركب فى تلك الليلة التاريخية ، آخذا طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق . وودعتهما أسماء ذات النطاقين (٣) ، ثم تلبثت تتبعهما بصرها وقلبها حتى أبعدا ، فعادت الى بيت أبيها مستخفية حذره ، وهى توجس خفية من المطاردين . ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة تلح على باب الدار ، واذا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام ، يسألونها فى غلظة : أين أبوك يابنت أبى بكر . أجابت لا أدرى والله أين أبى . وما كذبت : فقد كان آخر عهدها بأبيها مع المصطفى

---

(١) سورة التوبة: من الآية : ٤٠ .

(٢) انظر : ابن هشام سيرة النبى : ١ / ٤٨٦-٤٨٧ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢٣ ومابعدها .

(٣) انظر : البخارى : الجامع الصحيح : كتاب مناقب الابصار : باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة : ٤ / ٢٥٦ (طبعة استانبول) المرجعين السابقين - نفس الأماكن .

عليه الصلاة والسلام منطلقين من الغار الى حيث لاتدرى أين بلغ بهما المسرى فى مجاهل الفلاة . وفجأة ، بغتتها لطمة فاحشة على خدها ، من يد أبى جهل ، طرحت قرطها . وانصرف بمن معه ، يتهددون ويتوعدون.(١)

ومع ماكان فى هذه الرحلة العصيبة من مخاوف ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ظل ثابت الجأش مطمئن الخاطر ، تغمره السكينة والطمأنينة ، ويملأه اليقين بأن الله يرعاه ويحوطه ، وأن قريشا لن تنال منه منالا ، مهما دبرت له من كيد ، ومهما استعانت بمالها من الخبرة والقوة والمكانة . (٢)

ولما فصلت العير ، جعل الدليل يتحرى مواضع الأمان ، ويبتعد عن مسالك الخوف جهده ، فلم يسلك الطريق المألوف مصعدا الى الشمال ، بل سار منحدرا الى الجنوب أسفل مكه ، موليا وجهه نحو اليمن ، ثم توجه مشرقا الى تهامة ، حتى اذا اقترب من شاطئ البحر وبَعُد عن الطريق المألوف اتجه شمالا فى محازاة الشاطئ ، وهو حريص أشد الحرص على أن يبتعد عن العيون والرَّصَد ما استطاع (٣) .

يقول ابن سعد (٤) : ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٨٦-٤٨٧ ، الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٢٣ ومابعدها .

(٢) انظر : المرجعين السابقين ـ نفس الأماكن .

(٣) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٢٣٩ ، الحلبى : انسان العيون : ٢ / ٤٠ ، الزرقانى : نفس المرجع : ١ / ٢٣٢ ومابعدها .

(٤) الطبقات الكبرى : ١ / ٢٢٩ ، انظر : المراجع السابقة ـ نفس الاماكن .

وأبو بكر فى الغار ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر (١) واستأجر أبو بكر رجلا من بنى الديل هاديا يقال له : عبد الله بن أريقط، وهو على دين الكفر، ولكنهما أمناه ،فارتحلا ومعهما عامر بن فهيرة (مولى أبى بكر) فأخذ بهم ابن أريقط يرتجر،فما شعرت قريش أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم."

ولعل هذا الارتجاز كان نوعا من التضليل ،أريد به ألا يفطن اليهم أحد من القو . فان الذى يرتجز ويعلن عن نفسه فى السير لا يمكن أن يكون هاربا (٢) . . وقد استمروا يسيرون طوال ليلتهم وشطرا من النهار حتى تعبوا (٣) .

روى البخارى (٤) بسنده عن أبى بكر رضى الله عنه قال : " أخذ علينا بالرصّد (٥) ،فخرجنا ليلا ،فأحثثنا (٦) ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة . ثم رفعت (٧) لنا صخرة فأتيناها ولها شئ من الظل . ففرشت لرسول الله فروة معى ،ثم اضطجع عليها صلى الله عليه وسلم فاتطلعت

---

(١) كان عبد الله يتسمع الاخبار بمكه نهارا ويعود بها اليهما مساء (انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١ / ٤٨٦ .)

(٢) انظر : أمين دويدار: صور من حياة الرسول :ص٢٤٧ .

(٣) انظر : المراجع السابقة ـ نفس الأماكن .

(٤) الجامع الصحيح :كتاب مناقب الانصار: باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة (طبعة استانبول) : ٤ / ٢٦٢ .

(٥) أخذ علينا بالرصد : أى أحاط بنا الرقباء والعيون . (انظر : ابن منظور : لسان العرب)

(٦) أحثثنا : أى أسرعنا (انظر : المرجع السابق) .

(٧) رفعت لنا صخرة : أى ظهرت (انظر : المرجع السابق) .

أنفض(١) ماحولها ، فاذا أنا براعٍ قد أقبل فى غُنَيْمَة (٢) ، يريد من الصخرة مثل الذى أردنا . فسألته : لمن أنت ياغلام ؟ فقال : أنا لفلان . فقلت له : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قلت له : هل أنت حالب ؟ قال : نعم . فأخذ شاه من غنمه ، فقلت له : أنفض الضرع . فحلب كُثْبَةً (٣) من لبن . ومعى إدَاوَةٌ (٤) من ماء عليها خرقه ، قد رَوَّأْتُها (٥) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصببت على اللبن حتى بَرَدَ أسفَلُهُ ، ثم أتيت به النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : اشرب يارسول الله . فشرب صلى الله عليه وسلم حتى رضيت ، ثم ارتحلنا ، والطَّلَبُ فى أثَرِنا ."

ومضت أيام وليال لم يكن لمكة فيها شاغل ، غير تلك المطاردة العنيفة ، تعدو فيها قريش ، وراء مهاجر أعزل : الا من ايمانه (٦) . وكانت قريش حين فاتها رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعلت مائة ناقة لمن يأتيها به أسيراً أو قتيلاً . وأرسلت بذلك فى أهل السواحل ، فأغرى ذلك

---

(١) أنفض : أبحث واتقصى (انظر : المرجع السابق)

(٢) غنيمة : غنم قليلة (انظر : امين دويدار : صورمن حياة الرسول : هامس ص ٢٤٧)

(٣) كثبة من لبن : قليلا منه (انظر : لسان العرب)

(٤) اداوة : سقاء للماء (انظر : المرجع السابق)

(٥) روأتها : شددتها بها وربطتها عليها .
(انظر : أمين دويدان ـ نفس المرجع والمكان)

(٦) أنظر : ابن هشام : نفس المرجع والمكان ،
ابن كثير : نفس المرجع والمكان ، الحلبى : نفس المرجع والمكان ،
الزرقانى : نفس المرجع والمكان ،
بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٨٩ .

ذوى المطامع من أهل البادية ، بتتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من هؤلاء سراقة بن مالك بن جعشم - رجل من بنى مدلج ، النازلين بقديد ، بالقرب من شواطئ رابغ - وكان قد علم أن نفرا ثلاثة قد مروا على رواحلهم بقرب الشاطئ ، فاعتقد أنهم محمد وأصحابه ، فتتبع أثرهم يريد أن يأتى بهم قرشيا طمعا فى الجائزة (١) .

وقد روى البخارى بسنده عن ابن شهاب ماحدث سراقه عن نفسه ، فيما كان من أمره ذاك ، فقال : " جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون فى رسول الله وأبى بكر دية كل واحد منهما ، لمن قتله أو أسره . فبينا أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى بنى مدلج ، اذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال : ياسراقه ، انى رأيت آنفا أسودة (٢) بالساحل، أراها محمدا وأصحابه . قال سراقة : فعرفت أنهم هم . فقلت له انهم ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقوا بأعيننا (٣) . ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى - وهى من وراء أكمة - فتحبسيها

---

(١) انظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/٤٨٩ - ٤٩٠ ،
ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١/٢٢٢ ومابعدها ،
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ٢/١٠٧ ،
الحلبى : انسان العيون : ٢/٤٨ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١/٣٤٦ ومابعدها .

(٢) أسودة : أشباحا سوداء .
(انظر : أمين دويدار : صور من حياة الرسول : هامش ص٢٤٨)

(٣) انطلقوا بأعيننا : أى على مشهد منا .
(انظر : المرجع السابق : نفس المكان) .

على . وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت ،فخططت بزجه (١) فى الأرض وخفضت عاليه ،حتى أتيت فرسى فركبتها ،فدفعتها ففرت بى حتى دنوت منهم ،فعثرت بى فرسى فخررت عنها ،فقمت ،فأهويت يدى الى كنانتى (٢) فاستخرجت منها الازلام ،فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكده ،فركبت فرسى وعصيت الأزلام فجعل فرسى يقرب بى ،حتى اذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ،ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنهما فأهويت ،ثم زجرتها فنهضت ،فلم تكد تخرج يديها . فلما أستوت قائمة ، اذا لأثر يديها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ،فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكده ،فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم. ووقع فى نفسى حين لقيت مالقيت من الحبس عنهم ،أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : ان قومك قد جعلوا فيك الديه ،وأخبرتهم أخبار مايريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرداني ولم يسألانى الا أن قالا : أخف عنا . فسألته أن يكتب كتاب أمن ،فامر عامر بن فهيره، فكتب لى فى رقعة من أديم. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم." (٣)

---

(١) الزج : الحديده فى أسفل الرمح . (انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة زج)

(٢) الكنانة : جعبة السهام. (انظر : المرجع السابق) .

(٣) صحيح البخارى : كتاب مناقب الانصار : باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينه : ٤ /٢٥٦-٢٥٧ ، وانظر : ابن هشام : سيرة النبى : ١/ ٤٨٩-٤٩٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٢٢٢/١ ومابعدها ، ابن الأثير الكامل فى التاريخ : ٢ /١٠٧ ، الحلبى : انسان العيون : ٢ /٤٨ ومابعدها ، الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٤٦ ومابعدها .

وانطلق الركب يسيرالى غايته ، والمطايا تخب بهم وتضع(١) ، وهم ممعنون فى غِمار الصحراء المترامية ، صابرون على حرِّها المحرق ، وقيظها الملتهب ، مستسلمون لكل مايجرى به القضاء ، مؤمنون بأن القضاء لايجرى الا بخير . وكلما أرهقهم السير ، نزلوا منزلاً فاستراحوا ، وتلمسوا من الحى المقيمين عند منزلهم ، ماعسى أن يكون لديهم من طعام أو شراب ، حتى مروا فى طريقهم بأم معبد الخزاعية : وهى أمرأة أعرابية كريمة ، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال ، فتطعم وتسقى من يمر بها من السيارة . فلما نزلوا عندها سألوها تمرا أو لحما يشترون منه ، فلم يصيبوا عندها شيئا . وقالت وهى تبدى أسفها لهم : والله لوكان عندنا شئ ماأعوزكم القرى ، وماكنتم بحاجة الى أن تسألوا شيئا أو تدفعوا ثمنا . وكانت السنة مجدبة ، والبادية فى قحط شديد . (٢)

قال ابن سعد ، رواية عن أبى معبد الخزاعى :

فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاه فى كسر الخيمة . (٣) فقال : ماهذه الشاه ياأم معبد ؟ : هذه شاه خلفها الجهد (٤) عن الغنم . فقال :

---

(١) تخب وتضع : أى تسرع وتبطئ (انظر : أمين دويدار : صور من حياة الرسول : هامش ص ٢٤٩)

(٢) انظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٢٦٣ ، الحلبى : انسان العيون : ٢ / ٥٣ ، الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٤٠-٣٤٣ ، أمين دويدار : نفس المرجع - ص ٢٤٩ .

(٣) كسر الخيمة : جانبها (انظر : الزرقانى : شرح المواهب : / ١ / ٣٤٤) .

(٤) الجهد : العنف والاعياء .
(انظر : ابن منظور : لسان العرب : مادة جهد)

هل بها من لبن؟ قالت : هي أجهد من ذلك . قال : أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت : نعم ،بأبي أنت وأمي ،ان رأيت بها حلبا .فدعا صلى الله عليه وسلم بالشاه ،فمسح ضرعها ،وذكر اسم الله ،وقال : اللهم بارك لها في شاتها . فتفاجّت (١) ودرت واجترت. فدعا بإناء يُربض الرهط(٢)، فحلب فيه ثجاً (٣) حتى غلبه الثمال (٤) ،فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ،وشرب صلى الله عليه وسلم آخرهم، وقال : ساقي القوم آخرهم. ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء ،فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها . فقلما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عِجافاً ،فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين لكم هذا ؟ والشاة عازبة (٥) ولاحلوبة في البيت ؟ قالت: لا والله ،الا أنه مر بنا رجل مبارك ،كان من حديثه كيت وكيت. قال : والله اني لأراه صاحب قريش الذي يطلب ،صِفيه لي ياأم معبد. فجعلت أم معبد تصف له مابهرها منه صلى الله عليه وسلم من كمال الطلعة وجمال الهيبئة ، ووقارالسمت، وعظمة الخُلُق ، وسلامة المنطق ، وعذوبة الحديث، وسماحة النفس، وطلاقة الوجه ، وشدة الهيبة ، وجلالة المظهر . قال : هذا والله صاحب

---

(١) تفاجّت: فتحت مابين أرجلها ودرت باللبن .
(انظر الزرقاني : نفس المرجع والمكان)
(٢) يربض الرهط : يشبع الجماعة (انظر : المرجع والمكان السابق) .
(٣) الثج : اللبن الغزير (انظر : المرجع والمكان السابق) .
(٤) الثمال : الرغوة (انظر:المرجع والمكان السابق) .
(٥) عازبة : بعيدة عن المرعى (انظر : المرجع والمكان السابق) .

قريش الذى ذكر لنا من أمره ماذكر، ولو كنت وافقته ياأم معبد ، لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا (١) .

ثم ان فتيان قريش مروا بأم معبد ، فسألوها عن رسول الله فأشفقت عليه منهم . فتعاجمت (٢) عليهم وقالت لهم : انكم تسألون عن شئ ماسمعت به قبل عامى هذا (٣) .

" وفى مكة تضاربت الأنباء فى الطريق التى أخذها ، حتى جاء الخبر من يثرب أن النبى عليه الصلاة والسلام بلغ دار هجرته آمنا (٤) .

وفى فترة رحلتهما هذه المضنية ، كانت الأخبار قد ترامت الى يثرب بهجرة النبى وصاحبه ، ليلحقا أصحابهما فيها . وكانت قد عرفت مالقيا من عنت قريش، ومن تتبعها اياها . لذلك ظل المسلمون جميعا بها وهم ينتظرون مقدم صاحب الرسالة ، بنفوس ممتلئة شوقا لرؤيته والاستماع له . وكان الكثيرون منهم لما يروه ، وان كانوا قد سمعوا من أمره ومن سحر بيانه ومن عزمه ، ماجعلهم للقياه أشد اشتياقا ، والى رؤيته أشد تطلعا ، فكانوا

---

(١) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٣٠-٢٣٢ ، السهيلى : الروض الأنف : ٤ / ٢٢٢ ، السيوطى : الخصائص الكبرى : ١ /٤٦٧-٤٦٨ ، الزرقانى : شرح المواهب : ١ /٣٤٠-٣٤٦ .

(٢) تعاجمت : تظاهرت بجهل مايسألونها عنه .
(انظر: السهيلى : نفس المرجع : ٤ / ٢٢٥) .

(٣) انظر : المرجع السابق - نفس المكان ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ٢٦٣ ومابعدها ، الحلبى : انسان العيون : ٢ /٥٣ ومابعدها .

(٤) بنت الشاطئ : مع المصطفى ص ١٨٩ .
وانظر : المراجع السابقة - نفس الأماكن .

يخرجون كل يوم بعد صلاتهم الصبح الى ظاهر المدينة ، يتلمسونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، ويؤذيهم الحر ، فيعودا الى منازلهم (١) .

روى ابن اسحق ، عن عبدالرحمن بن عويمر بن ساعدة أنه قال : " حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وتوكفنا قدومه(٢) كنا نخرج اذا صلينا الصبح ، الى ظاهر حرَّتنا (٣) ، ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله مانبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فاذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك في أيام حارة . حتى اذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى اذا لم يبق ظل ، دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : يابني قيلة(٤) هذا جدكم (٥) قد جاء . فخرجنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ، ومعه أبوبكر رضي الله عنه في مثل نه ، وأكثرنا لم يكن رأى

---

(١) انظر الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٥٠ ، هيكل : حياة محمد : ص ٢٢٨ .

(٢) توكفنا قدومه : أي استشعرناه وانتظرناه . انظر : ابن هشام : سيرة النبي : ١ / ٤٩٢ هامش) .

(٣) الحَرَّة : أرض ذات حجارة سوداء . (انظر : الزرقاني : نفس المرجع والمكان) .

(٤) بنو قيلة : هم الانصار ، وكانت هذه كنية العرب في المدينه . وقيلة هي الجدة الكبرى لهم ، والدة الأوس والخزرج ، وهي بنت كاهل بن عذره . (انظر : الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١ / ٣٥٠) .

(٥) جدكم : حظكم وطالعكم ومطلوبكم . (انظر : المرجع السابق : نفس المكان) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك . وَرَكِبَه الناس(١) ، ومايعرفونه من أبى بكر، حتى اذا زال الظل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبوبكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك ." (٢)

وأكثر الرواة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ المدينة يوم الأثنين ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول ، للسنة الرابعة عشرة من البعثة (الموافق ٢٨ يونية سنة ٦٢٢ من الميلاد) وأنه صلى الله عليه وسلم توجه الى قباء ، فنزل على كلثوم بن الهدم، شيخ بنى عمرو بن عوف ، وأنه أقام فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الاربعاء ويوم الخميس ، ثم خرج فى ضحى يوم الجمعة الى المدينة المنورة . وكان أول عمل قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قباء أن أسس مسجدا هناك ، فكان أول مسجد بنى فى الاسلام . وقد عمل فيه صلى الله عليه وسلم بيده ، وشارك أصحابه فى حمل الحجارة والصخور، حتى كان يبدو عليه الجهد . وقد رغب اليه أصحابه أن يكفوه ذلك بأنفسهم ، فأبى الا أن يكون واحدا منهم(٣).

---

(١) ركبه الناس: أى ازدحموا عليه .
(انظر: ابن هشام: سيرة النبى : ١ / ٤٩٢ هامش) .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٤٩٢ ، انظر: البخارى : الجامع الصحيح: كتاب مناقب الأنصار: باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة (طبعة استانبول) : ٤ / ٢٥٧-٢٥٨ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى : ١ / ٢٣٣ .

(٣) أنظر : ابن هشام : سيرة النبى ١ / ٤٩٤ ، المسعودى : مروج الذهب ٢ / ٢٧٩ ، الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٣٥٣ ، أمين دويدار : صور من حياة الرسول : ص ٢٥١ .

ويقول كثير من المفسرين : أن فى هذا المسجد نزل قول الله تعالى : " .... لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ." (١)

---

(١) سورة التوبة : من الآية ١٠٨ .
وانظر : ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة .

المبحث الرابع

صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم فى المدينة

وكان يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة حافلا ،لم تر المدينة يوما أشد فرحا وابتهاجا منه ، فقد ازدانت المدينة وأشرقت جوانبها بالبهجة والسرور ، وليس الناس أحسن ملابسهم كأنهم فى يوم عيد ،ووقف ربّاتُ الخدور من النساء على سطوح المنازل ، يستشرفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلّل الصبيان يصيحون فى فرح وابتهاج :"جاء رسول الله . . جاء رسول الله " . وجعل الاماء والجوارى ينشدن ويغّنين ويضربن بالدفوف ، والحبشة تلعب بحرابها ، فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم (١) .

ووعت أذن الزمان ، مالا نزال نردده فى كل عيد للهجرة ، من هتاف المدينة ترحيبا بالمهاجر العظيم ، وما وجد فى دار هجرته من مأمن ونصر (٢) .

روى البيهقى (٣) بسنده عن أنس بن مالك أنه قال :

" انى لأسعى فى الغلمان يقولون : جاء محمد . فأسعى ولا أرى شيئا . ثم يقولون : جاء محمد فأسعى ولا أرى شيئا . حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه

---

(١) أنظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢/٢٣٢ - ٢٣٥ ، ابن الجوزى :الوفا بأحوال المصطفى ١/٢٤٩ ، ٢٥٢ ، أمين دويدار : صدر من حياة الرسول ص ٢٥٢ .

(٢) أنظر : بنت الشاطئ : مع المصطفى : ص ١٨٩ .

(٣) دلائل النبوة : ٢/٢٣٣ .

أبو بكر ، فكلمنّا فى بعض خراب المدينة ، ثم بعثا رجلا من أهل البادية ، يؤذن بهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار حتى انتهوا اليهما ،فقالت الأنصار : انطلقنا آمنين مطاعين . فأقبل رسول الله وصاحبه بين أظهرهم ،فخرج أهل المدينة ، حتى ان العواتق (الصبايا) لفوق البيوت يتراءينه ،ويقلن : " أيّهم هو؟". فما رأينا منظرا شبيها به ."

وجعل النسوة والصبية والبنات ينشدون فى سرور وبهجة وفرح :

طلع البدر علينا * من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا * جئت بالأمر المطاع (١)

ولما ارتفع النهار ، ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته القصواء ، فى موكب حافل ، والمسلمون يحيطون به ، مشاة وركبانا ، وقد تقلدوا سيوفهم ، وتحلّوا بأحسن ملابسهم ، وعلا وجوههم الزهو والبشر ، والابتهاج بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد بلغ من حرصهم

---

(١) أنظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢/٢٣٣ ، ابن الجوزى :الوفاء بأحوال المصطفى : ١/٢٥٢ ، الحلبى : انسان العيون : ٢/٥٨ ،الزرقانى : شرح المواهب اللدنية :١/٣٥٩ .
والثنيات : جمع ثنية ، وهى ما ارتفع عن الأرض وقيل :الطريق فى الجبل . وسميت بالوداع لأن المسافر من المدينة كان يشيع اليها ويودع عندها قديما . (انظر :الزرقانى :نفس المرجع والمكان) .

على كرامة رسول الله وتعظيمه ، أن كانوا يتزاحمون على زمام ناقته ، حتى ينازع أحدهم صاحبه فى الوصول اليه ، والتبرك به . وتوجّه صلى الله عليه وسلم نحو المدينة ، فجعل لا يمر بدار من دور الأنصار الا اعترضوا طريقه وقالوا : هلمّ يا رسول الله الى القوة والمنعة والثروة . فيبتسم صلى الله عليه وسلم شاكرا ، ويدعو لهم بخير ، ثم يقول وهو يشير الى ناقته : خلوا سبيلها فانها مأموره (١) .

وقد كان فى المدينة دور كثيرة تبلغ تسعا ، كلّ دار محلة مستقلة بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها ، وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا فى محلتهم ، فهى كالقرى المتلاصقة (٢) .

فلما وصل صلى الله عليه وسلم الى دار بنى سالم بن عوف ، أدركته صلاة الجمعة ، فصلاها هنالك فى واديهم بمن كان معه من المسلمين ، فكانت أول جمعة أقامها صلى الله عليه وسلم فى الاسلام . وكانت أول خطبة خطبها ، أن قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

" أما بعد ، أيها الناس ، فقدّموا لأنفسكم ، تَعْلَمُنّ والله لَيُصْعَقَنّ أحدُكم ثم لَيَدَعَنّ غَنَمه ليس لها راع . . ليقولَن له ربه ، ليس له تَرْجُمان ، ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدّمت لنفسك ؟ فلينظُرنّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قُدّامه فلا يرى

---

(١) أنظر : الزرقانى : شرح المواهب ١ / ٣٥٦ .

(٢) أنظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ٢ / ١٦٥ وما بعدها .

غير جهنم . . فمن استطاع أن يقيَ وجهَه من النار ولو بشقِّ من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فان بها تُجزَى الحسنةُ عشرَ أمثالها الى سبعمائة ضعف . والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته ."(١) .

قال ابن اسحق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال :

" ان الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . إنّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى ،قد أفلح من زينه الله فى قلبه ،وأدخله فى الاسلام بعد الكفر،واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، انه أحسنُ الحديث وأبلغُه ، أحبّوا ما أحب الله ، أحبّوا الله من كل قلوبكم ،ولا تملّوا كلام الله وذكره ، ولا تقسى عنه قلوبُكم ، فانه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ،قد سمّاه الله خيرته من الاعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى :١/ ٥٠٠ - ٥٠١ ،
وأنظر : البيهقى : دلائل النبوة ٢/ ٢٤٧ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية :١/ ٣٥٤ - ٣٥٥ .

، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ،
واصدُقوا اللهَ صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابّـــــوا
بروح الله بينكم ، ان الله يغضب أن يُنْكث عهـــــدُه ،
والسلام عليكم "(١) .

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة الى الله تعالـــى فور أن تهيأت له أول فرصة لذلك فقام يدعو الى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ببلاغته المعهوده وأسلوبه الفريد . وصدقه المؤثر .

---

(١) ابن هشام : سيرة النبى : ١/١٠٥ .

المبحث الخامس

دلالات الهجرة الكبرى

فى واقع التاريخ أن الهجرة لم تنه الجولة الفاصلة بين الاسلام، والذين تصّدوا له بالعداوة والكيد والحرب . وانما كانت بداية لهذه الجولة الفاصلة ، بقدر ما كانت أثرا لما سبقها من أحداث . وتحركا الى موقع جديد بعد جولة مريرة وطويلة فى البلد العتيق (١) .

والتحول التاريخى لموقع المعركة ،لا يمكن فهمه على الوجه الشائع الذى يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الأحداث ،بل تظل مكة فى صميم الصراع الدائر ، مهما ينتقل موقعه الى شمال الحجاز . ويظل البيت العتيق مهوى أفئدة المهاجرين والأنصار ، فى دار الهجرة ، كما كان مثابة حج العرب من قديم العصور والآباد (٢) .

وفى مكة كان مهد المصطفى صلى الله عليه وسلم ومبعثه . وفيها مستقر الوثنية العربية ، من قديم موغل فى القدم ، ولم تكن الأرستقراطية القرشية التى ورثت وظائف الشرف الدينية ، فى أم القرى ، وحققت بها نفوذها وسلطانها ، مستعدة لأن تتخلى عن نضالها للابقاء على الأوضاع الموروثة والأعراف الراسخة ، والدفاع عن دين الأسلاف . وما تجنبت الصدام المسلح مع الاسلام فى مكة ، الاّ رعاية لما للبلد العتيق من حرمة ، جعلته معبد

---

(١) أنظر : بنت الشاطىء : مع المصطفى : ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) أنظر : نفس المرجع والمكان .

القبائل العربية ، ومركز مواسمها التجارية (١) .

ان الهجرة التاريخية الى يثرب ، لم تكن بذلاً واحتمالا فحسب ، بل كانت كذلك تحركا الى موقع خطير على حافة الحرب : فقد أذن الله فى القتال للمسلمين ، الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق ، الاّ أن يقولوا : ربّنا الله . وكان الاذن بالقتال ، من حيث لم تتوقع قريش أو تحتسب . وقد مضى على المبعث أكثر من عشر سنين ، ونبى الاسلام يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحى ربه ، كانت على المدى الطويل سلاحه الذى يشهره فى وجه الوثنية . وقد أمنت قريش جانب المسلمين ، فيما تحرص عليه من تجنب الحرب فى البلد الحرام . فلم يخطر لها على بال ، أن نبى الاسلام يمكن أن يخوض ، بالقلة العزلاء من صحابته ، معركة حربية مع الوثنية ، المعتزة بما لها من سلطان ، ودونها قوة باطشة من العدد والسلاح (٢) .

لقد شرع الله عز وجل مبدأ التضحية بالمال ، والأرض ، فى سبيل العقيدة والدين عندما يقتضى الأمر ، وبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم المال ، والوطن ، والحياة ، وان بدا لأول وهلة أنهم تعرّوا عن كل ذلك وفقدوه . وحسبنا دليلا على هذه الحقيقة : هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة . لقد كانت بحسب الظاهر تركا للوطن ، وتضييعا له ، ولكنه كان فى واقع الأمر حفاظا عليه وضمانا له ، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشىء ، يبدو فى صورة الترك له والاعراض عنه . فقد عاد بعد بضع

---

(١) أنظر : بنت الشاطىء : مع المصطفى : ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) أنظر : بنت الشاطىء : مع المصطفى : ص ١٩٣ - ١٩٤ .

سنوات من هجرته هذه ـ بفضل الدين الذى أقام صرحه ودولته ـ الى وطنه الذى أخرج منه : عزيز الجانب ، منيع القوة ، دون أن يستطيع أحد من أولئك الذين تربصوا به ، ولاحقوه بقصد القتل أن يدنوا اليه بأى سوء (١) .

ان فى قصة هجرته صلى الله عليه وسلم من التوجيهات والدروس مما يجب أن يتسلح بهديه الداعية فيكون له بمثابة الضوء الذى ينير له طريقا من طرق الدعوة الخالدة .

فبالرغم من ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم من نصر الله سبحانه وتعالى له ، ونجاته من أيدى المشركين ، الا أنه لم يغفل أبدا ـ فى كل مراحل هجرته ـ الاخذ بالأسباب مع التوكل على الحىّ القيوم .

لقد استعمل الرسول صلى الله وسلم كل الوسائل المادية التى يمكن أن يهتدى اليها العقل البشرى فى مثل هذا العمل ، حتى لم يترك وسيلة من هذه الوسائل ، الا اعتد بها واستعملها ، فترك علىّ بن أبى طالب ينام فى فراشه ويتسجّى ببرده ، تمويهاً على المشركين ، وتضليلاً لهم ، واستعان بأحد المشركين ـ بعد أن أمنه واطمأن اليه ـ ليدله على الطرق الفرعية التى قد لا تخطر فى بال الأعداء ، واتخاذه ـ عند البداية ـ اتجاها معاكسا لوجهته الأصلية ، بعد أن أقام فى الغار ثلاثة أيام متخفيا ، حتى تهدأ ثورة المشركين ، ويخبو غضبهم . واستعان بعبد الله بن أبى بكر ، ليتسمّع له أخبار قريش وطواغيتهم ، ثم يعود بها اليه فى المساء ، حتى يرتب الخطة ، ويدبر الأمر ، على ضوء ما قد يبيّتون له من خطط . . . الى آخر ما عبّأه من الاحتياطات المادية التى قد يفكر بها العقل البشرى ،

---

(١) أنظر : محمد سعيد رمضان البوطى : فقه السيرة : ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

ليوضح بذلك الى الأجيال القادمة من المسلمين والدعاة : أن الايمان بالله عز وجل ، لا ينافى أبدا استعمال الأسباب ،والاجتهاد فيها .

وليس قيامه صلى الله عليه وسلم بذلك بسبب خوف فى نفسه ، أو شك فى امكان وقوعه فى قبضة المشركين قبل وصوله المدينة . والدليل على ذلك ، أنه عليه الصلاة والسلام بعد ما استنفد الأسباب المادية كلها وتحلّق المشركون بالغار الذى يختبئ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه - بحيث لو نظر أحدهم عند قومه لأبصرهما ، استبد الخوف بقلب أبى بكر رضى الله عنه ، على حين كان يطمئنه عليه الصلاة والسلام قائلا :

" يا أبا بكر : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ " (١)

لقد كان كل ما فعله من تلك الاحتياطات اذن : وظيفة تشريعية قام بها ، فلما انتهى من أدائها ، عاد قلبه مرتبطا بالله عز وجل معتمدا على حمايته وتوفيقه ، ليعلم المسلمون أن الاعتماد فى كل أمر لا ينبغى أن يكون الا على الله عز وجل . ولكن لا ينافى ذلك احترام الأسباب التى جعلها الله فى هذا الكون لحكمته تعالى فى الأخذ بها (٢) .

ومن أبرز الأدلة على هذا الذى نقوله أيضا : حالته صلى الله عليه وسلم عندما لحق به سراقة على فرسه ، يريد قتله ، حتى أصبح على مقربة منه . لقد كان من مقتضى كل تلك الاحتياطات الهائلة التى قام بها ،

---

(١) ابن الجوزى : الوفاء بأحوال المصطفى : ٢/٢٣٧ ،
أنظر : ابن كثير : السيرة النبوية : ٢/٢٣٩ - ٢٤٠ ،
الحلبى : انسان العيون : ٢/٣٨ - ٤٠ ،
الزرقانى : شرح المواهب اللدنية : ١/٣٣٠ - ٣٣٢ .

(٢) أنظر : البوطى : فقه السيرة : ص ١٩٢ - ١٩٣ .

أن يشعر بشيء من الخوف من هذا الذى يجدّ فى اللحاق به ، بل كان مستغرقا فى قراءته ومناجاته مع ربه لأنه يعلم أن الله الذى أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ، ويعصمه من شرهم (١) كما بيّن فى قوله تعالى :

" . . . والله يعصمك من الناس . . . " (٢)

كذلك ، فان الرسول عليه الصلاة والسلام كان على يقين من أن الله تعالى سوف يعمى أبصار المشركين عنه ، عند خروجه عليهم من منزله ، الاّ أنه لم ينسى أبدا الأخذ بالأسباب فى هذا الموقف : فرتل عليه الصلاة والسلام الآيات الأولى من سورة يس ، الى أن وصل الى قول عز من قائل :

" وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون" .

وتكشف لنا الصورة التى استقبلت بها المدينة المنورة ، رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالا ونساء وأطفالا . لقد كانوا يخرجون كل يوم الى ظاهر المدينة ، ينتظرون تحت لفح الشمس ، وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم ، حتى اذا هبّ النهار ليدبر ، عادوا أدراجهم ، ليعودوا الى الانتظار صباح اليوم التالى . فلما طلع الرسول عليهم ، جاشت العواطف فى صدورهم ، وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحا لمرآه ، وابتهاجا بمقدمه عليهم . ولقد بادلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفس المحبة ، حتى انه جعل ينظر الى ولائد بنى النجار من حوله ،

---

(١) أنظر : البوطى : فقه السيرة : ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٦٧ .

وهن ينشدن ويتغنّين بمقدمه ، قائلا : أتحببنني ؟ والله ان قلبي ليحبكن (١) .

يدلنا كل ذلك أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست في مجرد الاتباع له ، بل المحبة له هي أساس الاتباع وباعثه . فلولا المحبة العاطفية في القلب ، لما وجد وازع يحمل على الاتباع في العمل . فكيف يمكن أن يتبع الناس داعية مكروها ؟ (٢) . ولقد ضلّ قوم حسبوا أن محبة رسول الله ، ليس لها معنى الا الاتباع والاقتداء ، وفاتهم أن الاقتداء لا يأتي الا بوازع ودافع . ولن تجد من وازع يحمل على الاتباع الا المحبة القلبية التي تهز المشاعر وتستبد بالعواطف . ولذلك جعل رسول الله مقياس الايمان بالله ، امتلاء القلب بمحبته صلى الله عليه وسلم ، بحيث تصبح متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين . وهذا يدل على أن محبة الرسول ، من جنس محبة الوالد والولد ، أي مصدر كل منهما : العاطفة والقلب ، والا : لم تصح المقارنة والتفصيل بينهما (٣) .

وأخيرا ، فان هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة ، تعلمنا كيف يرتبط تاريخ الدعوة بالحركة : حركة الانسان الفرد ، وحركة الجماعة (٤) .

---

(١) أنظر : البيهقي : دلائل النبوة : ٢/٢٣٢ - ٢٣٥ ، الزرقاني : شرح المواهب اللدنية : ١/٣٦٠ .

(٢) أنظر : البوطي : فقه السيرة : ص ١٩٥ .

(٣) أنظر المرجع السابق ـ نفس المكان .

(٤) أنظر : عماد الدين خليل : دراسة في السيرة : ص ١٤٢ .

ويمضى ركب الدعوة الاسلامية الظافر ، ليقود الحياة :

الى عبودية مطلقة ، لله وحده ، لا شريك لـه . . . .

والى قدوة واحدة : رسوله ومصطفاه ، لا بديل عنه . . . .

وليحشد للحق جنوده المخلصين المنصوريـــن . . . .

وليعتد للموقف الفاصـل ، واليوم الحاســـم . . . .

حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وتخفـــق راية الاسلام والسلام ، على وجه الأرض كلها :

" لا اله الاّ الله ، محمد رسول اللـــه "

.....

خاتمة

نتائج الدراسة

١ - لقد تميزت الفترة التى سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن العالم كله كان فى ضلال مبين ،انتشر فيه الشرك والظلم، والرذيلة والجهل ، وكثرت المنكرات ، وعم الفساد فى البر والبحر. وقد جرت سنة الله فى خلقه ، واقتضت حكمته ورحمته بعباده ، أن يأتى بالنور بعد الظلام ، ويبعث سبحانه وتعالى رسولا ينقذ البشرية مما تردت فيه . فكانت البعثة المحمدية الخالدة هى هذا النور الذى جاء بعد الظلام فبدده ، وكانت دعوة الاسلام الخاتمة الى العالم أجمع هى المنقذ للبشرية من الردى والهلاك .

٢ - نشأ محمد صلى الله عليه وسلم ، الداعية الأول الى الاسلام، فى بيئته العربية الأصيلة ، فى صحرائها المتسعة الفسيحة ، فأعطاه ذلك فرصة للتفكير والتأمل فى ملكوت الله ، منعزلا عن جو الجاهلية الفاسد . ثم زادت فرصته فى ذلك بزواجه المبارك من أم المؤمنين خديجة رضوان الله تعالى عنها ، أكرم بها من زوج ، فكان هذا الزواج الميمون سببا لسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاملا من العوامل التى ساعدته عليه الصلاة والسلام للنظر والتأمل فى الكون .

٣ - ثم كان خبر السماء المقدس ، بمقدماته وارهاصاته ومعاناته ،فانتقل محمد صلى الله عليه وسلم بذلك من الانسانية العادية الى النبوة الخاتمة ، وانتقل العالم كله معه ، من الجاهلية والظلام ، الى

الحضارة والنور ، بفضل دعوة الاسلام ، التى قام الرسول صلى الله عليه وسلم بأعبائها منذ اللحظات الأولى ، بعد أمر الله تعالى له بذلك .

٤ - ومرّ الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته بأربعة مراحل ،كانت هى التسلسل الطبيعى الذكى للدعوة . فبدأت سرية ، حرصا على الرعيل الأوّل من السابقين الأولين ، ثم قام بالتبليغ الى أقاربه امتثالا لقوله تعالى : " وأنذر عشيرتك الاقْربين" ، ثم الى العرب لقوله عز من قائل : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" ، وقوله جل جلاله : " لتنذر أم القرى ومن حولها " ، ثم للناس كافة حيث أشرتُ الى بحث قام به أحد العلماء المسلمون ، أثبت من خلاله أن مكة المكرمة ، منبع الدعوة ومشرق النور ، تقع فى مركز مسطح الكرة الأرضية ، فهى مركز اشعاع دينى مقدس لما حولها من بقاع العالم أجمع .

٥ - ودعوة الحق ، انما هى دعوة الى الله تعالى ، واجبة على أمة الاسلام الى البشرية كلها فى جميع بقاع الأرض ، ذلك لأنها اختصت بخصائص هامة تميزت عن باقى الرسالات السماوية الأخرى : فهى الدعوة التى احتوت كل ما فى الرسالات السابقة من مبادىء الحق والخير ، والهدى والفضيلة ، وأضافت اليها بعد ذلك ، كل ما يصلح من أمر البشر فى كل زمان ومكان ، ويتلاءم مع الفطرة التى خلق الله الناس عليها ،ويتفق مع تطور الحياة ومواكبة الحضارة ، لذلك فهى موجهة الى كل أجناس العالم وألوانه ، وصلت الينا كما أنزلها

الله أصيلة نقية طاهرة ، دون تبديل أو تحريف أو نقص . وليس هناك أعلم بما يصلح العباد أكثر من خالقهم وموجدهم من العدم ، العالم بدخائل نفوسهم وسرائرهم .

٦ - وكان له صلى الله عليه وسلم - في العهد المكي - منهجا فريدا مستوحىً من القرآن الكريم خلال هذه الفترة ، يرتكز على أسس العقيدة الصحيحة من حيث الايمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ، وبملائكته وكتبه ورسله ، والايمان بالبعث والجزاء في اليوم الآخر ، وبالقَدَرِ خيره وشره ، ومن حيث ان الأعمال الصالحة ، ومكارم الأخلاق ، هي الطريق الموصل الى جنة الخلد .

أما الأسلوب الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاعلام الناس بهذا المنهج الرباني ، فكان لا يخرج عما رسمه الله تعالى له في هذا المجال ، بقوله جل شأنه : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " ، وعاونه القرآن الكريم بأسلوبه الرباني المميز ، في تحقيق هذه المبادىء ، فاستعمل في هذا أساليب القسم ، والتدرج ، والتلميح دون التصريح ، والتأدب مع المخاطب ، والترغيب والترهيب ، وضرب الأمثال ، وسوق القصص ، واعطاء البراهين بالأساليب النفسية ، والأدلة التاريخية والحسية والوصفية ، وغيرها ، التي كان لها أثرها في الاقناع ، ودحض الباطل ، واظهار الحق .

وللوصول الى تحقيق هذا المنهج الرباني ، بهذا الأسلوب الالهي ، اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائل متنوعة ،

تختلف باختلاف الظروف وأحوال المخاطبين ، فاستخدم: المناقشة ، والندوة ، والمناظرة ، والمقابلة ، والمؤتمرات الدورية وأهمهـــا : موسم الحج وأسواق العرب . ثم اتسع مجال الدعوة فكانت الهجرات سبيله الى ذلك ، وبعث بالرسل والرسائل الى من يتوسم فيهم أملا فى الدخول الى رحاب الايمان .

٧ - ولقد تحلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصفات سامية ،وخلق عظيم ، واتخذ طريقا ربانيا فى دعوته ، مما كان له أعظم الأثر فـى التعريف بالدعوة ، والاعلام بمبادئها وانتشار خبرها ، على الرغـم من انكار المنكرين ، ومقاومة المعاندين : فكان صلوات الله وسلامه عليه ، مؤمنا بربه ايمانا بلا حدود ، واثقا من سمو دعوته وعلـــو شأنها ، مطبقا كل ما يدعو اليه من مبادئ ومثل ، فكان بذلـــك قدوة حسنة لقادة الدعوة الذين أعدهم لتحمل أعبائها من بعـده ، صابرا فى سبيل ذلك على كل أذى ومشقة ، محتسبا أجره عند اللـه تعالـى .

٨ - وفى كل ما تقدم ، كان يعاون الرسول الداعية صلى الله عليه وسلم ، ويؤازره ، ويسانده : " رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " ،رباهم عليه الصلاة والسلام أحسن تربية ، وغرس فى نفوسهم روح الصـــدق والتضحية ، والبذل والفداء ، فارتخصوا فى سبيل الدعوة كل غـال ونفيس ، وحملوا لواءها من بعده ، بأمانة واخلاص ، فاتسعت رقعة الاسلام ،وارتفعت راية الايمان خفاقة عالية ، تشهد بأدوارهـــم الفعالة خلال العهد المكى وما بعده . من بين هؤلاء: أبو بكر ،

وعثمان ، وعلى ،وحمزه ، وسعد بن أبى وقاص ،والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر ابن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ومصعب بن عمير ، وسعد بن معاذ ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم يوم الدين .

٩ - وتبين من هذه الدراسة أن الله سبحانه وتعالى ، كما أعز دينه بصحابة رسوله صلى الله عليه وسلم المؤمنين به ، أعز دينه أيضا بمصدر كفرى هو أبو طالب بن عبد المطلب ، عم الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد كان له موقف من الدعوة ، يحار المرء فى تحليله وتفسير أحداثه ، فلقد ساند أبو طالب دعوة الحق ، وهى مازالت وليدة فى مهدها ، واستمر على مؤازرتها وحمايتها الى أن توفاه الله واختاره الى جواره ، وقد عانى ، فى سبيل ذلك ، الكثير ، وقاوم قريشا بصلفها ، وغرورها ، وبطشها ، ومع كل هذا ، لم يظهر اسلامه ، ولم يعلن ايمانه برسالة ابن أخيه ، والله أعلم بما تخفى الصدور .

١٠ - وفى مقابل أعوان الدعوة ، كانت هناك قوى مضادة ، تعمل فى خبث ، وحقد ، وحسد ، للوقوف أمام حركتها ، محاولة صدّ تيارها المتدفق ، واتخذت بذلك وسائل شتى ، منها : التعذيب ، والمقاطعة ، والايذاء وغيرها ثم كانت وفاة عمه أبى طالب ، وزوجه خديجة ، فزادت قريش فى ايذائها واضطهادها ، مما حدا بالرسول صلى الله عليه وسلم الى التفكير فى نقل ميدان الدعوة الى الطائف ،

فقام برحلته الشاقة اليها ، فلم تجبه ثقيف الى دعوته ، ولكن الله تعالى ،عوضه عن صدود قريش وثقيف ، بايمان نفر من الجن ، استمعوا له صلوات الله وسلامه عليه وهو يقرأ القرآن ،فأجابوه الى دعوته ، وصدقوه ،وآمنوا برسالته ، وفى ذلك توبيخ ضمنى للمعاندين والخصوم من البشر .

١١ - وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة ، يواصل دعوته الى الله تعالى ، فكانت بشرية الله تعالى له ، برحلة اسرائه ومعراجه ، ترويحا لنفسه عما لاقاه من عذاب وعنت وكأن الله تعالى يقول له : اذا كان أهل الأرض قد قلوك ونأوا عنك ، فها هى السماء بجلالها وعظمتها ترحب وتحتفى بك ، وكان لهذا الحدث المعجز أثره فى نفوس المسلمين ، فخلّص الاسلام من فئة قليلة ، دخلت فيه بقلوب ضعيفة ، ونفوس واهية ،وطهّر الدعوة من عبء كبير كان من الممكن أن يقع عليها فى هذه الفترة الحرجة من عهدها .

١٢ - أما النفوس المؤمنة ، والقلوب المصدقة ، فقد انتصرت على كل ألوان الحصار ، الذى نسجه حولها أعوان الشرك ، وذيول الوثنية ، وأنصار الجاهلية ، من خصوم قريش ومعانديها . وكان لذلك كله أثره البالغ فى نشاط التحرك بين مختلف وسائل الدعوة ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه ويعرف بدعوته ، الى قبائل العرب فى مواسمهم المختلفة على مدار السنة ، وكان نتيجة ذلك : بيعة العقبة الأولى ، ثم العقبة الكبرى ،التى مهدت الطريق أمام أصحاب الرسول رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، للفرار بدينهم

من براثن الشرك ، ومعقل الوثنية ، تاركين وراءهم الأهـــــل والأصحاب والأوطان ، رخيصة هينة أمام وعد الله تعالى ورسولـــه لهم بالنصر ، ثم الفوز فى الآخرة بجنات الخلد ، ونعيمها المقيم. فضربوا - بذلك - للبشرية كلها مثلا يحتذى ، من البذل والتضحية والفداء ، فى سبيل العقيدة والدعوة .

ولحق بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبـــــه الصديق رضى الله تعالى عنه ، آخر الأمر ، بعد أن أذن اللـــه تعالى لهما بالهجرة .

وبدخول المسلمين ، وفى مقدمتهم أشرف خلق الله وخاتـــم رسله وامام انبيائه ، المدينة المنورة ، بدأت مرحلة جديدة مـــن مراحل الدعوة الى الله تعالى ، كانت لها سماتها الخاصـــة ، وملامحها المميزة ، التى أدعو الله تعالى أن يعيننى على التعمق فى أبعادها ، وسَبْر أغوارها ، فى رسالة " الدكتوراه " ، وبذلك أكون قد تناولت دعوة الحق فى مرحلتيها : المكية والمدنية .

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آلـــه وصحابتـــه أجمعـــين .

×+×+×+×+×

ثبت المراجع والمصادر

مصـــادر البحـــث

أولا : القرآن المجيـد وعلومـه :

١ - القـــرآن الكريـــم .

الألوسى : شـهاب الدين ، محمود (ت. ١٢٧٠هـ) :

٢ - روح المعـانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانـــــى .
ادارة الطباعة المنيرية .

الزركشى : محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ) :

٣ - البرهان فى علوم القرآن . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بالقاهرة ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م

الزمخشرى : أبو القاسم ،جارالله ، محمود بن عمرالخوارزمى (ت ٥٣٨هـ) :

٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التأويل
مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بالقاهرة ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م

السيوطى : الحافظ، جلال الدين ،عبدالرحمن (ت٩١١هـ) :

٥ - الاتقان فى علوم القرآن . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى بالقاهرة ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

الطبرى : أبو جعفر ، محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ) :

٦ - جامع البيان فى تفسير القرآن .

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

قطب : سيد قطب :

٧ - فى ظلال القرآن .

دار الشروق ، القاهرة وبيروت طبعة رابعة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

ابن كثير : أبوالفداء ، الحافظ ، اسماعيل ، القرشى ، الدمشقى (ت٧٧٤هـ) :

٨ - تفسير القرآن العظيم .

دار الفكر ، القاهرة وبيروت طبعة رابعة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

الواحدى : على بن أحمد النيسابورى (ت٤٦٨هـ) :

٩ - أسباب نزول القرآن . تحقيق : أحمد السيد صقر .

طبعة أولى (خالية من الناشر والمكان) ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

ثانيا : الحديث الشريف وعلومه :

البخارى : أبو عبد الله ، محمد بن اسماعيل بن ابرهيم بن المغيرة ابن بردزبة ، الجعفى (ت٢٥٦هـ) :

١٠ - صحيح البخارى .

المكتبة الاسلامية (محمد أوزدمير) استانبول ، تركيا ١٩٨١م.

مسلم: ابوالحسن ، مسلم بن الحجاج ، القشيري النيسابـــوري (ت ٢٦١ هـ):

١١ - صحيح مسلم بشرح النووي . شرح : يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦ هـ) .

دار الفكر ، بيروت، طبعة ثانية ١٣٩٢هـ- ١٩٧٣م .

ابن المبارك : أبو العباس ، زين الدين ، أحمد الزبيـــدي (٧٣٥ هـ) :

١٢ - التجديد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح .

دار الارشاد ، بيروت ، طبعة ثانية ١٣٨٦هـ .

ثالثا : السيرة النبويـــة :

البوطي : دكتور محمد سعيد رمضان :

١٣ - فقه السيرة .

دار الفكر الحديث ، بيروت ، لبنان طبعة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

البيهقي : أبو بكر، أحمد بن الحسين بن على بن عبد الله ابن موسى (ت ٤٥٨هـ) :

١٤ - دلائل النبوه ومعرفة أحوال صاحب الشريعة . تحقيق : عبد الرحمن عثمان المكتبة السلفية بالمدينة المنورة . طبعة دار النصر للطباعـــة بالقاهرة ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م .

جاد المولى : محمد أحمد :

١٥ - محمد صلى الله عليه وسلم ، المثل الكامل .

المكتبة الأموية بيروت ، طبعة ١٩٧٢م .

ابن الجوزى : أبو الفرج ، عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ) :

١٦ - الوفاء بأحوال المصطفى . تحقيق : مصطفى عبد الواحد .

دار الكتب الحديثة بالقاهرة ،طبعة ١٩٦٦م .

ابن حزم : على بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) :

١٧ - جوامع السيرة .

تحقيق : احسان عباس ،ناصر الدين الأسد . مراجعة: أحمد شاكر.

دار المعارف بالقاهرة (بدون تاريخ) .

الحلبى :على بن برهان الدين ، الشافعى (ت١٠٤٤هـ) :

١٨ - انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون .

المكتبة الاسلامية ، بيروت ، (بدون تاريخ)

وبهامشه : أحمد بن زينى دحلان (ت١٣٠٤هـ) :

السيرة النبوية والآثار المحمدية .

حوى : سعيد :

١٩ - الرسول صلى الله عليه وسلم .

المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م .

خليل : دكتور عماد الدين :

٢٠ - دراسة فى السيرة .

دار النفائس، مؤسسة الرسالة ، طبعة١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

دروزة : محمد عزة :

٢١ - سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

دويدار : أمين :

٢٢ - صور من حياة الرسول .

دار المعارف بمصر ، (بدون تاريخ) .

الزرقانى : محمد بن عبد الباقى ،المالكى (ت ١٠٩٩هـ) :

٢٣ - شرح العلامة الزرقانىعلى المواهب اللدنية للقسطلانى .

دار المعرفة ،بيروت طبعة ثانية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

ابن سعد :أبو عبدالله ، محمد بن سعد بن منيع،البصرى الزهرى (ت ٢٣٠ هـ) :

٢٤ - الطبقات الكبرى .

دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م.

السهيلى : عبد الرحمن (ت٥٨١هـ) :

٢٥ - الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق : عبد الرحمن الوكيل .
دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، (بدون تاريخ) .

ابن سيد الناس: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد
ابن يحيى الشافعى (ت٧٣٤هـ) :

٢٦ - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير .
دار الآفاق الجديدة ، بيروت، طبعة أولى ١٩٧٧م .

السيوطى : الحافظ، جلال الدين ،عبد الرحمن ، ابو بكر :

٢٧ - الخصائص الكبرى . تحقيق : محمد خليل هراس .
دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

بنت الشاطىء : دكتوره عائشة عبد الرحمن :

٢٨ - مع المصطفى عليه الصلاة والسلام .
دار الكتاب العربى ، بيروت طبعة أولى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

ابن عبد البر : يوسف بن عبد البر ، النمرى ، القرطبى (ت٤٦٣هـ) :

٢٩ - الدرر فى اختصار المغازى والسير. تحقيق : شوقى ضيف .
المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

القسطلانى : أحمد بن محمد بن أبى بكر ،الخطيب(ت٩٢٣هـ) :

٣٠ - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية .

متن شرح العلامة الزرقانى ،السابق ذكره .

ابن القيم: أبو عبد الله ، شمس الدين بن قيم الجوزية (ت ـ هـ ٧٥١)

٣١ - زاد المعاد فى هدى خير العباد .

هامش شرح العلامة الزرقانى السابق ذكره .

ابن كثير: أبو الفداء ،اسماعيل ،القرشى ، الدمشقى :

٣٢ - السيرة النبوية . تحقيق : مصطفى عبد الواحد .

دار المعرفة ، بيروت، طبعة ثانية١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

المقريزى : تقى الدين ، أحمد بن على (ت٨٤٥هـ) :

٣٣ - امتاح الاسماع . شرح وتصحيح : محمود محمد شاكر .

لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ، طبعة١٩٤١م .

الندوى : أبو الحسن على الحسنى :

٣٤ - السيرة النبوية .

دار الشروق بجدة ـ طبعة أولى١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

ابن هشام : أبو محمد ،عبد الملك (ت٢١٨هـ) :

٣٥ - سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . تحقيق : مصطفى السقا ،ابراهيم عبد الحفيظ شلبى .

شركة الحلبى ، القاهرة طبعة ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥م .

وطبعة أخرى ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد .

توزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض . طبعة حديثة (بدون تاريخ) .

(وعند استعمالها ذكرت بجانبها عبارة : تحقيق محيى الدين)

هيكل : دكتور محمد حسين (ت١٣٧٦هـ) :

٣٦ - حيـاة محمـد .

دار المعارف بمصر ،الطبعة الثالثة عشرة ١٩٧٥م .

رابعا : التراجم والتاريـخ :

ابن الاثير : عز الدين ، أبى الحسن ،على بن أبى الكـرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم ابن عبد الواحد ،الشيبانى ، الجزرى (ت: ٦٣٠هـ) :

٣٨ - الكامل فى التاريخ .

دار صادر ودار بيروت ، بيروت طبعة ١٩٦٥م .

٣٩ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة .

المكتبة الاسلامية بالقاهرة طبعة مصورة من طبعة١٢٨٦هـ .

الأزرقى : أبو الوليد ، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت. ٢٥٠هـ) :

٤٠ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . تحقيق : رشدى الصالح ملحس.

مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة ،طبعة ثالثة١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ) :

٤١ - أنساب الأشراف . تحقيق : محمد حميد الله .

دار المعارف بمصر ،طبعة ١٩٥٩م .

السمهودى : على بن عبد الله بن أحمد ،الشافعى (ت٩١١هـ) :

٤٢ - وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى .

مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة ، طبعة ١٣٢٦هـ .

الطبرى : أبو جعفر ، محمد بن جرير :

٤٣ - تاريخ الرسل والملوك . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

دار المعارف بمصر ، طبعة ١٩٦١م .

ابن عبد البر : يوسف ،النمرى ، القرطبى :

٤٤ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . تحقيق : على محمد البجاوى .

دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة ، (بدون تاريخ) .

العسقلانى : الحافظ،أحمد بن علىبن حجر(ت٨٥٢هـ) :

٤٥ - الاصابة فى تمييز الصحابة . تحقيق : على محمد البجاوى .

دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة ،(بدون تاريخ) .

الكاندهلوى : محمد يوسف (ت ١٣٦٣هـ) :

٤٦ - حيـاة الصحابـة .

دار الفكر ،بيروت ، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م .

المحب الطبرى : أبو جعفر ،أحمد بن عبدالله محمد (ت ٦٩٤هـ) :

٤٧ - الرياض النضرة فى مناقب العشرة .

محمد أمين الخانجى وشركاه بالقاهرةز طبعةأولى١٣٥٧هـ.

٤٨ - السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين .

مكتبة التراث الاسلامى ،حلب ، (بدون تاريخ) .

المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بنعلى (ت٣٤٦هـ) :

٤٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق : أسعد داغر .

دار الأندلس ،بيروت ، طبعة ١٩٦٥م .

٥٠ - التنبيـــــه والاشراف .

دار التراث ، بيروت ، طبعة ١٩٦٨م .

المقدسى : المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥هـ) :

٥١ - البدء والتاريخ ،المنسوب لأبى زيد بن سهل البلخى .

تحقيق : كلمان هوار .

طبعة باريس ١٨٩٩م .

اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب (ت ٢٩٢ هـ) :

٥٢ - تاريخ اليعقوبى . تحقيق محمد صادق بحر العلوم .

المكتبة الحيدريه ، النجف ، طبعة ١٩٦٤م .

خامسا : الدعوة والعقائد :

خلف الله : دكتور محمد أحمد :

٥٣ - محمد والقوى المضادة .

مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ،طبعة أولى ١٩٧٢م .

الراوى : الشيخ محمد :

٥٤ - الدعوة الاسلامية دعوة عالمية .

دار العربيةببيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م .

شلبى : دكتور متولى يوسف و شهرته رؤوف :

٥٥ - الدعوة الاسلامية فى عهدها المكى : مناهجها وغاياتها .

مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ،طبعةأولى ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

الشهرستانى : أبوالفتح ، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت - هـ ٥٤٨) :

٥٦ - الملل والنحل . تحقيق : محمد بن فتح الله بدران .

طبعة القاهرة ١٩٥٦م .

صقر : الشيخ عطية :

٥٧ - الدعوة الاسلامية دعوة عالمية .

مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع بالقاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

عاشور : دكتور عبد الفتاح :

٥٨ - منهج القرآن فى تربية المجتمع .

مكتبة الخانجى بالقاهرة، طبعة أولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

غلوش : دكتور أحمد أحمد :

٥٩ - الدعوة الاسلامية : أصولها ووسائلها .

دار الكتاب المصرى بالقاهرة ، طبعة ١٩٧٩م .

محمود : دكتور على عبد الحليم :

٦٠ - عالمية الدعوة الاسلامية .

دار عكاظ بالرياض ، طبعة ثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

نوفل : دكتور أبو المجد السيد :

٦١ - الدعوة الى الله تعالى : خصائصها ، مقوماتها ، مناهجها .

مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م .

الهاشمي : دكتور عبد الحميد :

٦٢ - الرسول العربي المربي .

دار الثقافة للجميع بدمشق ، طبعة أولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

سادسا : الأدب ومعاجم اللغة :

عبد الباقي : محمد فؤاد :

٦٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

طبعة دار الشعب بالقاهرة ، (بدون تاريخ) .

فنسنك : أ . ى :

٦٤ - مفتاح كنوز السنة . تعريب : محمد فؤاد عبد الباقي .

سهيل أكيديمي ، لاهور ، طبعة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

الفيروز آبادي : محمد بن يعقود ، الشيرازي (ت٨١٧هـ) :

٦٥ - القاموس المحيط .

طبعة دار الفكر ببيروت ، (بدون تاريخ) .

ابن منظور : جمال الدين ، محمد بن مكرم ،الافريقى (٦٣٠ هـ ت) :

٦٦ - لســـان العـــرب .

دار بيروت للطباعة والنشر ،طبعة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ملحوظـــة :

استفاد البحث من مراجع وطبعات أخرى ، غير أن ذلـــك كان محدودا . لذا فقد اكتفيت بالاشارة اليها فى الحاشية .

****